أدب الحوار في الإسلام

لفضيلة الإمام الأكبر
الدكتور / محمد سيد طنطاوى
شيخ الأزهر





اسم الكتـاب: أدب الحوار فى الإسلام

تـأليـف: دكتور / محمد سيد طنطاوى - شيخ الأزهر.

تاريخ النشر: يونيه ١٩٩٧.

رقم الإيداع: ٥٤٨٦/ ١٩٩٧.

الترقيم الدولى: I. S. B. N 977 - 14 - 0605 - 1

النـاشـر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر

ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١

فاكس: ٣٣٠٢٩٦ / ٠١١.

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة.

ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ / ٠٢

فاكس: ٥٩٠٣٣٩٥ / ٠٢ ص.ب: ٩٦ الفجالة

ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - القاهرة

ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ / ٠٢ فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦ / ٠٢

ص.ب: ٢٠ إمبابة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه . .

وبعد . . فمن أبرز الأساليب الحكيمة والبليغة التى استعملها القرآن الكريم ؛ فى إقامة الأدلة على وحدانية الله – تعالى – ، وعلى صدق الرسل الكرام فيما يبلغون عن خالقهم : أسلوب الحوار والجدال والمناقشة من أجل الوصول إلى الحق ، عن اقتناع عقلى ، وارتياح نفسى ، واطمئنان وجدانى ، يجعل صاحبه يعيش حياته وهو ثابت على ما آمن به ثباتًا لا يُنازعه ريب ، ولا يخالطه شك ، ولا يحوم حوله وَهْم . . .

ولعل من الأدلة على ذلك : أن مادة «القول» وما اشتق منها كقال ، ويقول ، وقل ، وقالوا ، ويقولون ، وقولوا . . . إلخ .

هذه المادة التى تدل على التحاور والجدال والمناقشة والمراجعة بين الناس فى أمور معينة ، قد تكررت فى القرآن الكريم ، أكثر من ألف وسبعمائة مرة .(١)

فمثلاً لفظ «قال» قد تكرر أكثر من خمسمائة مرة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(٢)

ولفظ «قالوا» قد تكرر فى القرآن الكريم أكثر من ثلاثمائة مرة . ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(٣)

---

(١) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم من ص ٥٥٤ إلى ص ٥٧٨ للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى – رحمه الله .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٨ . (٣) سورة البقرة : الآية ٨٠ .

ولفظ «يقول» تكرر فى القرآن الكريم ثمانى وستين مرة ، ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾(١)

ولفظ «قل» تكرر فى القرآن الكريم أكثر من ثلاثمائة مرة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾(٢)

ويمتاز أسلوب الحوار والجدال فى القرآن الكريم باتساع دائرته ، ووضوح قضاياه ، وشموله لما لا يحصى من المسائل . . .

فهناك محاورات بين الخالق - عز وجل - وبين مخلوقاته من الرسل الكرام ، ومن الملائكة المقربين ، ومن الشيطان الرجيم . . .

وهناك حوار يدور حول وحدانية الله - تعالى - أو حول القرآن الكريم أو حول اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب .

وهناك حوار بين الرسل وأقوامهم ، أو بين الأخيار والأشرار ، أو بين الأخيار فيما بينهم أو بين الأشرار فيما بينهم .

وهناك حوار مع أهل الكتاب أو مع المنافقين ، أو مع المقلدين لسابقيهم أو لزعمائهم فى الباطل ، أو مع السائلين للرسول ﷺ .

وهناك حوار يتعلق بشخصية النبى ﷺ أو برسالته ، أو بما أحل الله - تعالى - أو حرمه من الأطعمة أو الأشربة أو غيرهما ، . . . .

وقد تدور على ألسنة بعض الناس ألفاظ : المناظرة ، والمجادلة ، والمكابرة .

وقد جرى عرف بعض أهل العلم أن يكون المقصود من المناظرة ؛ الوصول إلى الحق والصواب فى الموضوع الذى اختلفت أنظار المناقشين فيه .

وأن يكون المقصود من الجدل أو المجادلة أو المحاورة : إلزام الخصم ، والتغلب عليه ، عن طريق إقامة الحجة ، والإتيان بالدليل الواضح ، والبرهان الساطع .

---

(١) سورة المائدة : الآية ١٠٩ .   (٢) سورة الأنعام : الآية ١٩ .

وأن يكون المقصود من المكابرة : مطلق اللجاجة ، أو الشهرة ، أو الانقياد للهوى ، أو مجرد إثبات الوجود ، أو سوى ذلك من التصرفات التى لا تغنى من الحق شيئًا .

وسنرى فى هذا البحث - بإذن الله وتوفيقه - أن القرآن الكريم قد استعمل فى إثباته للحق الذى أمر الخالق - عز وجل - عباده باتباعه ، أحكم الأساليب ، وأنصع الأدلة ، وأقوى البراهين ، التى تقنع العقول السليمة ، والعواطف الشريفة ، والقلوب الطاهرة ، والتى تقذف بحقها على باطل خصومها فإذا هو زاهق ، والتى تجعل المؤمنين يزدادون إيمانًا على إيمانهم ، وثباتًا على ثباتهم .

كما سنرى - أيضًا فى هذا البحث - بإذن الله وتوفيقه - أن الرسول ﷺ قد تأسى بالقرآن الكريم فى مناقشاته ومحاوراته مع أتباعه أو مع أعدائه ، وأن أصحابه وأتباعه الأخيار قد نهجوا نهجه ، واتبعوا طريقه ، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾(١)

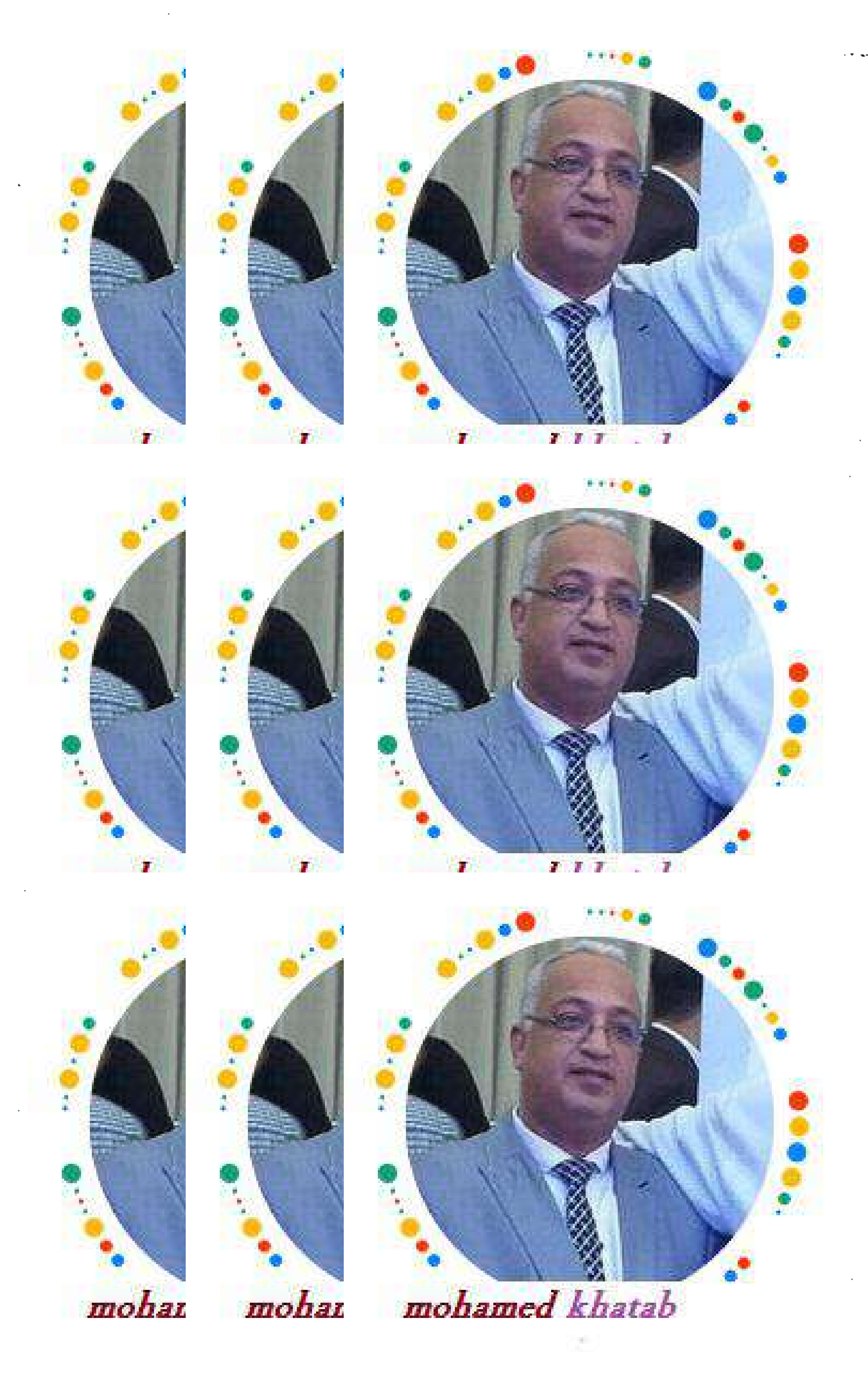
نسأل الله - تعالى - أن يوفقنا جميعًا لما يحبه ويرضاه ، وأن يرزقنا السداد والإخلاص فى القول والعمل ، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول . . لآ

شيخ الأزهر

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة صباح الأحد
١٦ من صفر ١٤١٧ هـ
٢ من يوليو ١٩٩٦ م

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢١ .


mohamed khatab

الفصل الأول

من أسباب الاختلاف بين الناس

١ - الاختلاف بين الناس في شئون دينهم وفي شئون دنياهم ، أمر قديم ، وسيبقى هذا الاختلاف بينهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وهذه الحقيقة قد أكدها القرآن الكريم في كثير من آياته ، ومن ذلك قوله - تعالى- : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ... ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]

أي : ولو شاء ربك - أيها الرسول الكريم - الحريص على إيمان قومه ، أن يجعل الناس جميعًا أمة واحدة مجتمعة على الدين الحق لجعلهم ، فإن مشيئته لا يمنعها مانع ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، ليتميز الخبيث من الطيب ، ولا يزال الناس ما بقيت الدنيا مختلفين في أفكارهم ، واتجاهاتهم ، ومقاصدهم ، وآمالهم . . . إلا الذين أصابتهم رحمة ربك ، فاهتدوا إلى طريق الحق ، فإنهم لم يختلفوا في أصل من أصول الدين الحنيف ، بل عرفوا طريق الخير فاتبعوه . . .

واعلم أن الحكمة الإلهية قد اقتضت أن يكون الناس مختلفين ، وأن رحمة ربك التي وسعت كل شيء ستشملهم ، ما دام اختلافهم من أجل الوصول إلى الحق والصواب . وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٥]

أي : ولو شاء الله - تعالى - جمع الناس كلهم على الدين الحق لجمعهم ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ليجازي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازي الذين أحسنوا بالحسنى ، فلا تكونن من الجاهلين بسنن الله في خلقه . بل إن القرآن الكريم ليشير إلى أن اختلاف الناس من أجل نصرة الحق ، وشيوع العدل ، أمر تستلزمه مصالح الناس ، وتقتضيه أحوالهم ومنافعهم . . .

قال - تعالى - : ﴿ ... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]

أي : ولولا أن الله - تعالى - يدفع أهل الباطل بأهل الحق ، لفسدت الأرض ، ولعمها الخراب ، لأن أهل الباطل إذا تركوا من غير مقاومة استطارت شرورهم ، ولكن الله - تعالى - صاحب الفضل العظيم على الناس أجمعين ، اقتضت رحمته أن يوفق المصلحين لمقاومة المفسدين ، وأن يمنحهم الحجة والقوة ، التي عن طريقها تكون الغلبة لأهل الحق على أهل الباطل . . .

فالجملة الكريمة تأمر الأخيار في كل زمان ومكان أن يقفوا فى وجوه الأشرار ، وأن يقاوموهم بكل وسيلة من شأنها أن تحول بينهم وبين الفساد والطغيان .

ومن الآيات الكريمة فى معنى هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠]

أى : ولولا أن الله - تعالى - قد أذن لأهل الحق أن يقاوموا أهل الباطل ، لعاث أهل الباطل فى الأرض فسادًا ، ولهدّموا فى زمن موسى وعيسى أماكن العبادة الخاصة بأتباعهما ، ولهدّموا فى زمن الرسول ﷺ المساجد التى تقام فيها الصلاة للمسلمين .

٢ - والاختلاف بين الناس فى القضايا الدينية أو الدنيوية ، له أسباب متعددة ، وبواعث متنوعة ، منها : الظاهر الجلى ، ومنها الباطن الخفى . ومنها ؛ ما يكون الدافع إليه : معرفة الحقيقة على الوجه الأكمل والأوفق ، وإقامة الأدلة والبراهين على ذلك ، وهذا ما يسمى فى عُرف علماء البحث : بالمناظرة أو الجدل . ومنها ؛ ما يكون الدافع إليه سوء النية ، واللجاج ، والغرور ، والتباهى ، وهذا ما يسمى : بالمكابرة والمعاندة .

ومن أسباب الاختلاف بين الناس : عدم وضوح الرؤية للموضوع من كل جوانبه . فهذا فهمه من زاوية معينة ، وآخر فهمه من زاوية أخرى ، وثالث فهمه من جهة تختلف عن جهتىّ الأول والثانى ...

وقد قال الحكماء قديمًا : إن الحق لم يصبه الناس من كل وجوهه ، ولم يخطئوه من كل وجوهه ، بل أصاب بعضهم جهة منه ، وأصاب آخرون جهة أخرى .

وقد مثلوا لذلك بجماعة من العميان ، انطلقوا نحو فيل ضخم ، فوضع كل واحد منهم يده على قطعة من جسد هذا الفيل ، ووصفه بالصورة التى تصورها . فقال الذى وضع يده على رجل الفيل : إن هذا الحيوان هيئته كالنخلة الطويلة المستديرة . وقال الذى وضع يده على ظهر هذا الفيل : إن هيئته أشبه ما تكون بالهضبة العالية ، والأرض المرتفعة ...

وهكذا كل واحد منهم وصف الفيل بالوصف الذى مسته يده ، وهو من هذه الناحية صادق ، ولكنه من ناحية تكذيبه لغيره مخطئ .

ورحم الله أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة ، فقد قال بعد أن ساق هذا المثل : «فانظر إلى الصدق كيف جمعهم ، وانظر إلى الكذب والخطأ كيف دخل عليهم حتى فرقهم» .[1]

وهذا اللون من الاختلاف ربما يعد أيسر ألوانه ، لأنه من المتوقع أن يضمحل أو يزول ، بعد معرفة الحقيقة كاملة ، وبعد معرفة المسألة من كل وجوهها ، وبعد أن يحرر موضع النزاع ، ولذا قالوا : إذا عرف موضع النزاع بطل كل خلاف .

٣ - كذلك من أسباب الاختلاف بين الناس : **العكوف على تقليد الغير دون دليل أو برهان** . وأنت تقرأ القرآن الكريم ، فتجد كثيرًا من آياته ، تنعى على الغافلين والجاهلين والضالين عكوفهم على تقليد سواهم من الآباء أو من الرؤساء . . .

ومن الآيات التى وردت فى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠]

أى : وإذا قيل لأولئك الذين آثروا الضلالة على الهدى ، والغى على الرشد : اتبعوا ما أنزل الله - تعالى - على رسوله ﷺ من قرآن يهدى إلى الحق ، أعرضوا عن سماع النصيحة ، وقالوا بسفاهة وعناد : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام ، ومن خضوع للرؤساء .

ويرد القرآن عليهم بأسلوبه الساخر من التقليد والمقلدين فيقول : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾

أى : أيتبع هؤلاء الجاهلون آباءهم ، ويقلدونهم فى الكفر والفسوق والعصيان ، حتى ولو كان هؤلاء الآباء لا يعقلون شيئًا من أمور الدين الصحيح ، ولا يهتدون إلى طريق الحق والصواب !! ثم يسوق القرآن مثلاً لهم ، زيادة في تقبيح حالهم فيقول : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١]

وقوله - تعالى - : «ينعق» من النعيق ، وهو الصياح . يقال نعق الراعى بالغنم إذا صاح بها وزجرها .

أى : ومثل الذى يدعو الكافرين إلى الصراط المستقيم وهم معرضون عنه ، كمثل

(١) من كتاب : « تاريخ الجدل » ص ٨ . طبعة دار الفكر العربى سنة ١٩٨٠

الراعي الذى يصيح بغنمه زاجرا لها ، فهى تسمع صوته ولكنها لا تفقه ما يقوله ، فهؤلاء الغافلون : صم عن سماع دعوة الحق ، بكم عن إجابة الداعى ، عمى عن معرفة الطريق المستقيم ، فهم لا يعقلون ما يوجه إليهم من نصح وإرشاد .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ - أى : على دين وطريقة - وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣]

والخلاصة ، أن التقليد للآباء والرؤساء وغيرهم ، من أشد أسباب الاختلاف بين الناس ، لا سيما إذا كان عن عناد ، وجحود للحق ، وانقياد للهوى والشهوات . . .

٤ - كذلك من أسباب الاختلاف بين الناس : **التعصب للرأى ، والحسد للغير على ما آتاه الله من فضله ، والحرص على المنافع الخاصة ، دون التفات إلى سواها ، والانقياد للهوى ، وللأنانية** ، ولتطلعات النفس الأمارة بالسوء . . .

وكل من يدقق النظر فى الخلافات التى دبت بين البشر قديمًا وحديثًا ، يرى معظمها مرده إلى هذه الأسباب المرذولة . .

ولقد حكى لنا القرآن فى كثير من آياته ، أن بعض المشركين ، كانوا يعرفون أن الرسول ﷺ صادق فيما يبلغه عن ربه ، إلا أن العصبية والأحقاد والغرور والعناد ، كل ذلك حال بينهم وبين اتباعه ، وحملهم على أن يخالفوه بغيًا وظلمًا .

ومن الآيات التى قررت هذه الحقيقة قوله - تعالى - : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : «يقول - تعالى - مسليًا لنبيه محمد ﷺ ، فى تكذيب قومه له ، ومخالفتهم إياه : قد أحطنا علمًا بتكذيب قومك لك ، وهم لا يتهمونك بالكذب ، ولكنهم يعاندون الحق . . . كما قال أبو جهل للنبى ﷺ إنا لا نكذبك يا محمد ، ولكننا نكذب ما جئت به .

وقال - أيضًا - عندما سئل عن النبى ﷺ : والله إنى لأعلم أنه نبى ، ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعًا ؟!!

وذكروا أن الأخنس بن شريق دخل على أبى جهل بيته فقال له : يا أبا الحكم ، وما رأيك فى محمد ﷺ ؟ فقال : تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا كنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى

من السماء !! فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه !! ولماذا لا يكون النبى من بنى مخزوم ؟ - أى من بنى عشيرة أبى جهل - !!

وفى رواية أن الأخنس اختلى بأبى جهل فقال له : يا أبا الحكم ، أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ها هنا من قريش غيرى وغيرك يسمع كلامنا . فقال أبو جهل : ويحك !! والله إن محمدًا لصادق ، وما كذب محمد قط !! ولكن إذا ذهب بنو هاشم باللواء والسقاية ، والنبوة ، فماذا يبقى لسائر قريش» ؟!!(١)

ومن هذه النقول التى ساقها الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، يتبين لنا بوضوح ، أن بعض المشركين - وعلى رأسهم أبو جهل - لم يكن خلافهم للرسول ﷺ مبعثه سوء ظنهم به ، أو تكذيبهم له ، وإنما كان خلافهم له الدافع إليه العصبية والأحقاد والعناد . . .

ويحكى لنا التاريخ أنه خلال الحروب التى دارت بين مسيلمة الكذاب وبين المسلمين فى عهد أبى بكر الصديق ، التفت بعض أتباع مسيلمة إليه وقال له : والله إن وجهك ليشهد أنه وجه كذاب ، ولكن لا بأس من اتباعك ، فإن كذاب ربيعة خير عندى من صادق مضر !! يقصد أن مسيلمة مع كذبه ، خير عنده من رسول الله ﷺ لأن مسيلمة من قبيلته والرسول ﷺ ليس من قبيلته ، وإنما هو من قبيلة مضر وليس من قبيلة ربيعة . و - أيضًا - من الآيات القرآنية التى قررت أن كثيرًا من الناس ، ليس خلافهم مع غيرهم سببه عدم معرفتهم للحق ، وإنما سببه جحودهم للحق ، وتعصبهم للباطل ، وتغلغل الحقد والحسد فى نفوسهم ، وتدبر معى قوله - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]

أى : الذين آتيناهم الكتب السماوية التى أنزلناها على الأنبياء يعرفون من واقع كتبهم أنك على الحق يا محمد ، كما يعرف الواحد منهم ابنه ، ولكن الكثيرين منهم يجحدون الحق الذى جئت به ، عن علم ومعرفة بأنه حق .

ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية أمام عبد الله بن سلام ، ثم قال له : أتعرف محمدًا ﷺ كما تعرف ولدك ؟ فقال عبد الله رضي الله عنه : نعم وأكثر . نزل الأمين من السماء ، على الأمين فى الأرض بصفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أم ولدى . فقبَّل عمر رضي الله عنه رأسه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٢٤٥ طبعة دار الشعب .

ومن الآيات الكريمة التى وضحت أن الكثير من الناس يختلفون مع غيرهم لا بقصد الوصول إلى الحق ، وإنما بقصد البغى والظلم والعدوان . . .

من هذه الآيات قوله – تعالى – : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ . . . ﴾ [البقرة : ٢١٣]

وقوله – سبحانه – : ﴿ وَآتَيْنَاهُم – أى : بنى إسرائيل – بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ . . . ﴾ [الجاثية : ١٧]

وقوله – عز وجل – : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ . . . ﴾ [آل عمران : ١٩]

فهذه الآيات الكريمة صريحة فى بيان أن اختلاف كثير من الناس مع غيرهم ، لم يكن سببه الجهل أو عدم معرفة الحق ، وإنما كان سببه العلم الذى استعملوه فى البغى والظلم والعدوان ، إذ العلم بالحق لا يكفى فى الإيمان به والدفاع عنه ، وإنما العلم النافع هو الذى ينبع من القلوب المخلصة الشجاعة التى تكون دائمًا على استعداد لخوض معركة من أجل نصرة الحق ، وخذل الباطل . . .

إن العلم كالمطر ، لاتستفيد منه إلا الأرض الطيبة النقية ، وكذلك لا يستفيد من العلم إلا أصحاب النفوس الصافية ، والقلوب الواعية ، والأفئدة المستقيمة .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول فى حديثه الصحيح : «العلم علمان علم فى القلب فذلك هو العلم النافع ، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم» .

والحق أن كثيرًا من الخلافات التى تدور بين الناس ، مردها إلى عدم فهم الموضوع من كل جوانبه ، أو إلى التقليد العقيم ، أو إلى التعصب الذميم ، أو إلى الانقياد للهوى والمنافع الخاصة ، أو إلى الحسد والبغى والعدوان ، أو إلى حب الشهرة والتفاخر ، أو إلى إثبات الوجود عن طريق الكلام ، أو إلى اختلاف العقول والأفهام ، أو إلى حب الرياسة والسلطان ، أو إلى سيطرة الأوهام ، أو غير ذلك من الأسباب التى منها المقبول ومنها المرذول .

والخلاصة أن اختلاف الناس فيما بينهم سنة من سنن الله التى لا تتخلف ، وأن أسباب هذا الاختلاف كثيرة ومتنوعة وقد أشرنا إلى جانب منها .



الفصل الثانى

أسس الحوار فى الإسلام

قلنا فيما سبق : إن الاختلاف بين الناس فى شئون دينهم أو دنياهم أمر قديم ، وسيبقى قائمًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأن لهذا الاختلاف أسبابًا كثيرة ذكرنا جانبًا منها .

ونريد هنا أن نقول : إن شريعة الإسلام ، قد ساقت من المبادئ السامية ، والآداب العالية والهدايات الرفيعة ، ما ينظم هذه الخلافات ، والمحاورات ، والمناظرات ، التى تحدث بين الناس ، وما يجعلها تدور فى إطار من المنطق السليم ، والفكر القويم والجدال بالتى هى أحسن ، ومايجعل هدفها الوصول إلى الحق والخير ومنفعة الناس فى حدود ما أحله الله - تعالى - لهم .

ومن هذه المبادئ والآداب التى جاءت بها شريعة الإسلام ، لضبط المجادلات والمناقشات التى تدور بين الناس :

١ - أن يكون الحوار بينهم قائمًا على الصدق وتحرى الحقيقة ، بعيدًا عن الكذب والسفسطة والأوهام . . .

ولقد ساق القرآن الكريم ألوانًا من المحاورات التى دارت بين الرسل وأقوامهم ، وبين المصلحين والمفسدين ، وعندما تتدبرها ترى الأخيار فيها لا ينطقون إلا بالصدق الذى يدمغ الأكاذيب ، وبالحق الذى يزهق الباطل . . .

استمع - على سبيل المثال - إلى تلك المحاورة التى دارت بين سيدنا موسى عليه السلام وبين فرعون . لقد أمر الله - تعالى - موسى وأخاه هارون -عليهما السلام - أن يذهبا إلى فرعون ، ليبلغاه دعوة الحق ، وأرشدهما - سبحانه - إلى الأسلوب الحكيم الذى ينبغى أن يتبعاه مع فرعون ، وحكى لنا القرآن الكريم - فى سورة طه[1]- جانبًا من تلك التوجيهات السامية التى زود الله - تعالى - بها موسى وأخاه هارون فقال -تعالى - : ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ أى : اذهب يا موسى أنت وأخوك هارون إلى حيث آمركما ، وأنتما متسلحان بمعجزاتى الدالة على صدقكما ، وبالإكثار من تسبيحى وتقديسى وطاعتى ، واحذرا من التقصير فى ذلك .

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا . ﴾ أى : قولا رفيقًا سهلاً -

---

(١) الآيات من ٤٢ إلى ٥٤ .

﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ . ﴿قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أى : قال موسى وهارون يا ربنا إننا نخاف أن يعاجلنا فرعون بالعقوبة ، أو أن يزداد طغيانًا على طغيانه . .

وقد أجابهما خالقهما - سبحانه - بما يثبت فؤاديهما ، ويزيل خوفهما فقال : ﴿ .. لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ - أى : قد جئناك بمعجزة من ربك تثبت صدقنا - وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) ﴾

ووصل موسى وهارون - عليهما السلام - إلى فرعون ، وبدأ الحوار بينهما وبينه ، ولنستمع إلى ما قاله فرعون لهما ، وإلى رد موسى عليه السلام عليه لنتعلم منه كيف يكون الرد الصادق ، الذى لحمته وسداه المنطق السليم ، والشجاعة الأدبية الفائقة ، والحجة الناصعة ، والتنزه عن الكذب . . . ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ أى : بدأ فرعون محاورته لموسى وهارون بقوله : من ربكما يا موسى الذى أرسلكما إلىّ ؟ وكأنه لطغيان لايريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه وخالقه - أيضًا - !!

وهنا أجابه موسى عليه السلام بالرد الذى يخرسه ويكبته فقال له : ﴿ .. رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أى قال له : يا فرعون ، ربنا وربك هو الله الذى أعطى كل مخلوق من مخلوقاته ، الصورة التى تلائمه ، والهيئة التى تتحقق معها منفعته ومصلحته ، ثم هداه إلى وظيفته التى خلقه من أجلها ، وأمده بالملكات والوسائل التى تحقق هذه الوظيفة .

وكان هذا الرد من موسى كافيًا لإقناع فرعون بأن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - ولكنه تمادى فى جداله ومكابرته فقال لموسى : ﴿ .. فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ ﴾ أى قال فرعون بعد أن رد عليه موسى هذا الرد الحكيم : يا موسى ، فما حال القرون الأولى ، كقوم نوح وعاد وثمود ، الذين كذبوا أنبياءهم ، وعبدوا غير الله - تعالى - الذى تدعونى لعبادته ؟

وسؤاله هذا يدل على مكره ، لأنه سمع من موسى الجواب المفحم له على سؤاله

السابق ﴿ .. فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾ أراد أن يصرف الحديث إلى منحى آخر يتعلق بأمور لا صلة لها برسالة موسى إليه ، وهى دعوته لعبادة الله - تعالى - وحده . . .

ولذا رد عليه موسى عليه السلام برد مفصل يخرس لسانه ، ويبطل كيده ، فقال - كما حكى القرآن عنه- : ﴿ .. عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) ﴾ أى : قال موسى يا فرعون : علم هذه القرون الأولى ، محفوظ عند ربى فى اللوح المحفوظ ، وربى لا يخطئ فى علمه ، ولا ينسى شيئًا ، وهو - سبحانه- الذى جعل لكم الأرض ممهدة ليتسنى لكم الانتفاع بها ، وجعل لكم فى داخلها طرقًا تتنقلون فيها من مكان إلى آخر ، وأنزل بقدرته من جهة السماء ماء نافعًا ، فأخرجنا بسبب هذا الماء من الأرض أصنافًا شتى من النبات . . .

وهذه الأرض وما اشتملت عليه هى لمنفعتكم ومصلحتكم ، فكلوا من هذه الثمار ، وارعوا أنعامكم ، واشكروا الله - تعالى - وأخلصوا له العبادة ، إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من منن ، لآيات وعبر ، لأصحاب العقول السليمة ، والنفوس الكريمة .

والآن تأمل معى هذه المحاورات ، هل ترى فيها من جانب موسى عليه السلام سوى الصدق فى القول ، والأدب فى الخطاب ، والحجة الناصعة التى تزهق باطل المبطلين ؟!!

وفى سورة الشعراء[1] نرى محاورة أخرى تدور بين موسى عليه السلام وبين فرعون ، ولكن بأسلوب آخر ، فيه ما فيه من صدق موسى عليه السلام ومن شجاعته ومن فطنته .

وتبدأ هذه المحاورة بأمر من الله - تعالى - لموسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون ليأمره بإخلاص العبادة لله وحده ، ويترك الطغيان والظلم ، ويبشر الله - تعالى - نبيه موسى بأنه معه بعونه ورعايته . . .

استمع إلى الآيات الكريمة وهى تسوق هذه المعانى بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣)

(١) الآيات من : ١٠ - ٤٨ .

وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾ .

ولبى موسى عليه السلام أمر ربه بعد أن استمع إلى ما وجهه إليه من نصح وإرشاد ، وبعد أن بشره بعونه وتأييده ، ووصل إلى فرعون ، ودارت بينهما تلك المحاورة التى حكاها القرآن الكريم فى قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) ﴾ [الشعراء : ١٨، ١٩] .

أى : قال فرعون لموسى بعد لقائهما وجهًا لوجه ، يا موسى : ألم يسبق لك أنك عشت فى منزلنا ، ورعيناك وأنت طفل صغير عندما قالت امرأتى : ﴿ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ وبقيت فى كنفنا وتحت سقفنا عددًا من السنين ، وقتلت رجلاً من شيعتى ، وأنت من الجاحدين لنعمتى التى أنعمتها عليك فى حال طفولتك . وفى حال صباك . . . فهل هذا جزاء إحسانى إليك ؟ وتوهم فرعون أنه بهذه الأسئلة قد قطع طريق الإجابة على موسى . .

لكن موسى عليه السلام وقد استجاب الله - تعالى - دعاءه وأزال عقدة لسانه ، رد عليه ردًا صادقًا حكيمًا حكاه القرآن فى قوله : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ [الشعراء : ٢٠ - ٢٢]

أى : قال موسى فى جوابه على فرعون : أنا لا أفكر أنى قد تربيت فى بيتك ، ولكن هذه التربية كانت لأسباب خارجة عن قدرتك ، ولا أنكر أنى قد فعلت هذه الفعلة التى تذكرنى بها وهى قتلى لرجل من شيعتك ، ولكن قتلى له كان قبل أن يشرفنى الله - تعالى - بالرسالة ، وفضلاً عن ذلك فأنا أجهل أن هذه الوكزة ستؤدى إلى قتله ، وأنا ما قصدت قتله إنما قصدت تأديبه ومنعه من الظلم لغيره . . .

وبعد هذه الفعلة التى فعلتها وأنا لا أقصد من ورائها إلا دفع الظلم عن المظلوم ، توقعت منكم الشر ، ففررت من وجوهكم حين خشيت منكم على نفسى ، فكانت النتيجة أن وهبنى ربى علمًا نافعًا ، وجعلنى من الذين اختارهم - سبحانه - لحمل رسالته .

ثم أضاف موسى عليه السلام إلى هذا الرد الملزم لفرعون ، ردًا آخر أشد إلزامًا وتوبيخًا وتهكمًا ، فقال له : وهل استعبادك لقومى ، وقتلك لرجالهم ، واستبقاؤك لنسائهم ، تعده نعمة أنعمت بها علىّ ؟ لا . إن ما فعلته معى ومع قومى إنما هو نقمة وليس نعمة ، فأنا واحد من قومى ، يؤلمنى ظلمهم كما يؤلم كل عاقل رشيد .

وبهذا الجواب التوبيخى أفحم موسى عليه السلام فرعون ، وجعله يحول الحديث عن هذه المسألة إلى الحديث عن شيء آخر حكاه القرآن فى قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٣]

أى : قال فرعون لموسى بكل غرور وصلف ، وما رب العالمين الذى جئت يا موسى لتطالبنى بعبادته ؟ وهنا يرد عليه موسى بكل شجاعة وصراحة وصدق بقوله : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٤] .

أى : قال موسى يا فرعون : ربنا وربك هو خالق السموات والأرض ، وخالق ما بينهما من أجرام وهواء ، ويجب عليكم الإيمان بذلك إيمانًا يقينًا لا يحوم حوله شك أو ريب .

وهنا يلتفت فرعون إلى من حوله من حاشيته ليشاركوه التعجب مما قاله موسى ، وليصرفهم عن التأثر بما سمعوه منه فيقول لهم : ﴿ ...أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴾ أى : ألا تستمعون إلى هذا القول الغريب الذى يقوله موسى ، والذى لا عهد لنا به ، ولا قبول عندنا له ، ولا صبر لنا عليه . .

ولكن موسى عليه السلام لم يمهلهم حتى يردوا على فرعون ، بل أكد لهم وحدانية الله - تعالى - وقدرته على كل شيء فقال : ﴿ ... رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ .

أى قال موسى لفرعون وحاشيته : ربنا وربكم هو رب السموات والأرض وما بينهما ، وهو ربكم ورب آبائكم الأولين ، فكيف تتركون عبادته ، وتعبدون فرعون وهو مخلوق مثلكم ؟!!

وهنا لم يملك فرعون إلا الرد الدال على إفلاسه وعجزه ، فقال ملتفتًا إلى من حوله : ﴿ .. إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : ٢٧] .

أى : قال فرعون على سبيل السخرية من موسى عليه السلام مخاطبًا كبراء قومه : إن موسى هذا الذى تكلم بالكلام الذى سمعتموه مجنون . فاحذروا أن تصدقوه ، لأنه يقول كلامًا لم نسمعه من قبل !!

ولكن موسى عليه السلام لم يضطرب من قول فرعون ، بل رد عليه بكل صدق وشجاعة وثبات فقال : ﴿ .. رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٨] .

أى : قال موسى لفرعون وحاشيته : ربنا وربكم هو رب السموات والأرض وما بينهما ، وهو رب آبائكم الأولين ، وهو رب المشرق الذى هو جهة طلوع الشمس وطلوع النهار ، ورب المغرب الذى هو جهة غروب الشمس وغروب النهار .

وخص المشرق والمغرب بالذكر ، لأنهما من أوضح الأدلة على وحدانية الله – تعالى – وقدرته ، ولأن فرعون أو غيره من الطغاه لا يجرؤ ولا يملك ادعاء تصريفهما أو التحكم فيهما على تلك الصورة البديعة المطردة ، والتى لا اختلال فيها ولا اضطراب . . .

وهكذا انتقل بهم موسى عليه السلام من دليل إلى دليل على وحدانية الله – تعالى – وقدرته ، ومن حجة إلى حجة ، ومن أسلوب إلى أسلوب ، لكى لا يترك مجالاً فى عقولهم للتردد فى قبول دعوته .

ولكن فرعون – قد شعر بأن حجة موسى قد ألقمته حجرًا – انتقل من أسلوب المحاور فى شأن رسالة موسى إلى التهديد والوعيد – شأن الطغاه عندما يعجزون عن دفع الحجة بالحجة – فقال لموسى عليه السلام : ﴿ .. لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩] .

أى : قال فرعون لموسى بثورة وغضب : لئن اتخذت إلهًا غيرى يا موسى ، ليكون معبودًا لك من دونى ، لأجعلنك واحدًا من جملة المسجونين فى سجنى ، فهذا شأنى مع كل متمرد على عبادتى ، ومع كل من يخالف أمرى !! ولكن موسى عليه السلام لم يُخفه هذا التهديد ، وكيف يخاف من هو على الحق ، لقد رد عليه ردًا حكيمًا قويًا فقال له : ﴿ .. أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ٣٠] .

أى : أتجعلنى من المسجونين فى سجنك ، حتى ولو جئتك بمعجزة باهرة خارقة للعادة تشهد بصدقى ، وبأنى رسول من رب العالمين .

ولعل مقصد موسى ﷺ بهذا الكلام ، أن يجر فرعون مرة أخرى إلى الكلام فى شأن الرسالة التى جاءه من أجلها وهى دعوته إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - بعد أن رآه يريد أن يحول مجرى الحديث إلى التهديد والوعيد ، ولذا نجد فرعون لا يملك أمام موسى إلا أن يقول له : ﴿ .. فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ٣١] .

أى : فأت بهذا الشىء المبين أى : بالمعجزة التى عندك ، إن كنت من الصادقين فى دعواك أنك رسول من عند الله !!

وهنا كشف موسى عما أيده الله - تعالى - به من معجزات حسية خارقة عبر عنها القرآن فى قوله : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) ﴾ [الشعراء: ٣٢، ٣٣] .

أى : فألقى موسى ﷺ عصاه على الأرض فإذا هى حية عظيمة ، ونزع يده من جيبه فإذا هى بيضاء بياضًا يخالف لون جسمه ﷺ ، فهى تتلألأ كأنها قطعة من القمر ، ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ، وليس بها ما يشير إلى أن بها سوءاً أو مرضًا .

وهنا أحس فرعون بالرعب يسرى فى أوصاله ، وبأن ألوهيته المزعومة قد أوشكت على الانكشاف ، وبأن معجزة موسى ﷺ توشك أن تجعل الناس يؤمنون به ، فالتفت إليهم فرعون ، وكأنه يحاول جذبهم إليه ، واستطلاع رأيهم فيما شاهدوه ، وأخذ فى تحريضهم على مقاومة موسى معه ، ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول : ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) ﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥] .

أى : قال فرعون لكبار المحيطين به بعد أن زلزلته معجزة موسى ﷺ إن هذا الذى أمامكم لساحر بارع فى السحر ، وهو يريد أن يخرجكم من أرضكم التى نشأتم عليها ، فبأى شىء تشيرون على لكى نتغلب عليه . . .

وأشاروا عليه بأن يجمع مهرة السحرة لمبارزة موسى ﷺ واجتمع السحرة ، ومنّاهم فرعون بأنه سيعطيهم العطايا الثمينة السخية إن تغلبوا على موسى ، وجاء يوم المبارزة وكان يوم عيد لهم ، ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أى :

تبتلع بسرعة ما فعلوه من السحر - ، ورأى السحرة بأعينهم ومعهم فرعون والحشود من خلفهم ، رأوا ما فعله موسى عليه السلام فأيقنوا أن هذا الذى فعله ليس سحرًا ، بل هو شىء فوق طاقة البشر ، عندئذ لم يتمالك السحرة أنفسهم ، بل فعلوا ما حكاه القرآن عنهم فى قوله - تعالى - : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) ﴾ .

وهكذا انتهت المحاورة بين موسى وفرعون ، بانتصار الحق على الباطل ، والصدق على الكذب ، والخير على الشر ، والعدل على الظلم ، والصراحة والوضوح على الالتواء والخداع ، والشجاعة الحكيمة على الجبن الغبى . . .

والذى يهمنا إبرازه فى هذه المحاورة ؛ أنك تقرأ ما رد به موسى عليه السلام على فرعون فلا ترى فيه إلا الصدق الذى لا يحوم حوله كذب ، وهذا الصدق إنما هو وليد نفس طاهرة ، نقية من الغل والحسد ، وصادر من قلب سليم لا يعرف الغش أو الخداع ، ونابع من عقل راجح استطاع بعون الله - تعالى - وتأييده أن يكشف بفطنة وذكاء وحكمة ، عن باطل فرعون وغروره وصلفه ومزاعمه الكاذبة .

إن الحوار البناء الذى يقصد به الوصول إلى الحق والعدل ومكارم الأخلاق ، هو الذى يكون لحمته وسداه الصدق فى القول ، والعفاف فى السلوك . . .

أما الكذّابون والجهلاء والسفهاء وأصحاب الهوى والمصالح الخاصة ، والذين امتلأت قلوبهم بالحقد والجبن والغرور . . . فهم الذين يجادلون غيرهم بالباطل ، ويكابرون بدون حجة أو دليل ، ولا يقيمون دعاواهم إلا على الكذب والغرور ، والبهتان والزور . . ونعوذ بالله - تعالى - من ذلك .

* * *

٢ - كذلك من الآداب التى جاءت بها شريعة الإسلام ، لتنظيم الخلافات والمحاورات بين الناس ، حتى تتضح الحقيقة ، ويتوصل المتحاورون إلى النتيجة المرضية : التزام الموضوعية ؛ ونعنى بها عدم الخروج عن الموضوع الذى هو محل النزاع أو الخلاف ، فإن آفة كثير من الناس أنهم إذا ناقشوا غيرهم فى موضوع معين ، تعمدوا أن يسلكوا ما يسمى فى هذه الأيام بخلط الأوراق ، بحيث لا يدرى العقلاء فى أى شىء هم مختلفون مع غيرهم ، وتتوه الحقيقة فى خضم هذه الفروع التى لا تكاد

تعرف لها أصلاً . إنك تقرأ القرآن الكريم ، فترى كثيراً من المجادلات والمحاورات والخلافات التى دارت بين الرسل - عليهم السلام - وبين أقوامهم ، وترى أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - كان جوابهم على مخالفيهم منتزعًا من أقوال هؤلاء المخالفين ، دون أى خروج عن موضوع النزاع ...

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى لنا ما قاله قوم نوح عليه السلام له ، وما رد به عليهم فيقول : ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ - أى : من قوم نوح - إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ فيرد عليهم بقوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢) ﴾ (١)

وقوم هود عليه السلام يقولون له : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) ﴾ فيرد عليهم بقولة : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) ﴾(٢)

وأعداء الحق جادلوا النبى ﷺ فى كثير من القضايا ، وساق القرآن شبهاتهم بأمانة ، ثم لقن النبى ﷺ الجواب الذى يقطع دابر هذه الشبهات ، وكان هذا الجواب منتزعًا من واقع كلامهم ، ودون أى خروج عن موضوع الخلاف بينه وبينهم ...

واستمع إلى القرآن وهو يحكى جانبًا من هذه الشبهات ، وكيف رد عليها بما يزهقها . . قال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ(٢٩) ﴾(٣)

وقال - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا

(١) سورة الأعراف : الآيات من ٦٠ - ٦٢

(٢) سورة الأعراف : الآيات من ٦٦ - ٦٨

(٣) سورة الأعراف : الآيات من ٢٨ ، ٢٩

فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) ﴾(١)

وقال – سبحانه – : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) ﴾(٢)

وقال – عز وجل – : ﴿ ... وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾(٣)

وقال – تعالى – : ﴿ ... وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ... ﴾(٤)

تأمل معى – أخى القارئ – هذه الآيات على سبيل المثال ، هل تجد فى الإجابة على شبهات الضالين ، أى خروج عن موضوع النزاع ؟ كلا ، إنك لا تجد فيها إلا الرد الحاسم ، والقول الفصل ، والجواب الذى يهدم دعاوى المبطلين من أساسها ، دون خلط للأوراق ، ودون خروج عن موضوع الخلاف .

وليت الذين يختلفون مع غيرهم ، يسلكون هذا الطريق الحكيم ، ألا وهو الالتزام بالموضوعية عند خلافهم مع غيرهم فى مسألة من المسائل الدينية أو الدنيوية .

* * *

٣ – كذلك من المبادئ والآداب التى جاءت بها شريعة الإسلام لقطع الخلاف : إبراز الدليل الناصع ، والبرهان الساطع ، والمنطق السليم ، الذى يلقم المكابر أو المعاند حجرًا ، ويجعله لا يستطيع أن يمضى فى جداله .. استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى لنا ما دار بين

---

(١) سورة البقرة : ٨٠ – ٨٢ .
(٢) سورة سبأ : الآية ٣ .
(٣) سورة التوبة : الآية ٨١ .
(٤) سورة النساء : ٧٧ – ٧٨ .

إبراهيم عليه السلام وبين الملك الكافر الظالم ، الذى كان يعيش فى عصره ، فيقول - سبحانه - : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾(١)

والمعنى : ألم تر - أيها العاقل - قصة ذلك الكافر المغرور الذى جادل إبراهيم - عليه السلام - فى شأن وحدانية الله - تعالى - وشمول قدرته ، بسبب أن الله - تعالى - قد أعطى هذا الكافر الملك ، فلم يستعمله فى الحق والخير ، بل استعمله في الباطل والجحود والشر . . .

لقد قال له إبراهيم عليه السلام وهو يحاوره ويدعوه إلى إخلاص العبادة لله -تعالى- وحده : ربى وربك هو الله الذى ينشئ الحياة ويوجدها ، ويميت الأرواح ويفقدها حياتها ولا يوجد أحد سواه يستطيع أن يفعل ذلك .

فما كان من ذلك الملك الجبار - وهو نمرود بن كنعان - إلا أن قال لإبراهيم على سبيل البطر والغرور : ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ ، أى : قال له : أنا أملك أن أعفو عمن يستحق القتل ، وأقتل من أشاء أن أقتله !!ولقد كان فى استطاعة إبراهيم عليه السلام أن يبطل قوله ، بأن يقول له : إن ما يدعيه ليس من باب الإحياء والإماتة فى شىء ، ولكنه من باب الظلم والعدوان ، ولكن إبراهيم عليه السلام لم يفعل ذلك ، بل آثر ترك المجادلة فى هذا الشأن ، وأتاه بالحجة التى تلقمه حجرا ، ولا مجال معها للمكابرة ، فقال له : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ فماذا كانت نتيجة هذه الحجة الدامغة التى قذف بها ابراهيم - عليه السلام - فى وجه خصمه الغبى المغرور ؟

كانت نتيجتها - كما حكى القرآن الكريم - : ﴿ فبهت الذى كفر ﴾ أى : غُلب وقُهِرَ وتحير وانقطع عن حجاجه ، واضطرب ولم يستطع أن يتكلم ، لأنه فوجئ بما لا يملك دفعه . . .

ومن سنن الله - تعالى - فى خلقه ، أنه لا يهدى الظالمين إلى طريق الحق والرشاد ، بسبب إصرارهم على الظلم والطغيان ، وإيثارهم طريق الشيطان على طريق الرحمن .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٨

والعقلاء دائمًا عندما تتضح لهم الحجة ، ويظهر لهم البرهان ، ويرون الدليل الساطع على صحة المسألة ، يقتنعون بذلك ، ويعترفون بالحق ، أما السفهاء والجهلاء والمغرورون ، فإنهم يصرون على باطلهم ، ويجحدون الحق عن علم به ، لسوء نواياهم ، وضعف عقولهم ، وانطماس بصائرهم . . .

وقارن – أيها القارئ الكريم – بين هذا الموقف الشائن الذى وقفه النمرود من إبراهيم عليه السلام وهو يدعوه إلى إخلاص العبادة لله – تعالى – وبين موقف سحرة فرعون . . .

إنهم فى أول الأمر قبلوا التحدى من موسى عليه السلام ، وقالوا له – كما حكى القرآن عنهم – : ﴿ . . يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ –أى : موسى– بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ – أى ساوره الخوف من براعة سحرهم – (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) ﴾ [طه : ٦٥ – ٦٩] .

وألقى موسى عليه السلام عصاه ، فابتلعت سحرهم ، وأيقن السحرة أن ما فعله موسى إنما هو معجزة وليس سحرًا ، وأنه رسول من رب العالمين ، وأن حجته هى الأعلى ، فما كان منهم بعد أن اقتنعوا بالحق إلا أن قالوا بكل شجاعة وإخلاص : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾

وردوا على فرعون الذى هددهم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف بقولهم : ﴿ . . لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) ﴾ [طه : ٧٢ ، ٧٣]

وهكذا ضرب سحرة فرعون أروع الأمثال فى الإخلاص وفى الشجاعة ، وفى الخضوع للحق بعد أن قامت الأدلة الساطعة على أن موسى عليه السلام على الحق .

* * *

٤ - وأيضًا من المبادئ والآداب التى جاءت بها شريعة الإسلام لضبط الخلاف بين الناس : **أن يقصد كل طرف من أطراف الخلاف إظهار الحق والصواب فى الموضوع الذى هو موضع الاختلاف ، حتى ولو كان هذا الإظهار على يد الطرف المخالف .**

وهذا ما نراه واضحًا فى اختلاف الصحابة ، وفى محاوراتهم فى كثير من القضايا . ومن أمثلة ذلك تلك المحاورة التى دارت بين أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فى مسألة جمع القرآن بعد وفاة النبى ﷺ ، فقد توقف أبو بكر فى أول الأمر ، فلما أقنعه عمر برأيه ، ما كان من الصديق رضي الله عنه إلا الموافقة على - رأى عمر رضي الله عنه .

واختلفا فى شأن قتال المرتدين الذين امتنعوا عن دفع الزكاة ، وتحاورا فى ذلك ، فلما اقتنع عمر برأى أبى بكر فى وجوب قتالهم ، ما كان منه إلا أن رجع عن رأيه إلى رأى أبى بكر .

ولقد ساق الإمام الغزالى فى كتابه «إحياء علوم الدين» جـ ١ ص ٤٤ جملة من الآداب التى يجب أن يتحلى بها المتناظران أو المتحاوران فى مسألة معينة ، فقال : «السادس : أن يكون - أى : المتحاوران - فى طلب الحق كناشد الضالة ، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ، ويرى رفيقه معينًا لا خصمًا ، ويشكره إذا عرّفه الخطأ ، وأظهر له الحق . . . فهكذا كانت مشاورات الصحابة ومحاوراتهم ، حتى أن امرأة ردت على عمر رضي الله عنه ونبهته إلى الحق وهو فى خطبته على ملأ من الناس فقال : «أصابت امرأة وأخطأ عمر» .

وسأل رجل عليا رضي الله عنه في مسألة فأجابه . فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ، فقال على : أصبت أنت ، وأخطأت أنا وفوق كل ذى علم عليم . . . .

وقال الإمام الشافعى - رضي الله عنه - : «ما ناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطئ . وماكلمت أحدا قط وأنا أبالى أن يظهر الله الحق على لسانى أو على لسانه . وما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها منى إلا هبتُه واعتقدت محبته ، ولا كابرنى أحد على الحق إلا سقط من عينى ورفضته . ووددت لو انتفع الناس بعلمى دون أن ينسب إلىّ منه شىء » .

ثم قال الإمام الغزالى - رحمه الله - : وهكذا يكون إنصاف طالب الحق !! ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه لأنكره واستبعده . . فانظر إلى مناظرى زمانك اليوم كيف

يسود وجه أحدهم ، إذا اتضح الحق على لسان خصمه ، وكيف يخجل به ، وكيف يجتهد فى مجاحدته بأقصى قدرته ، وكيف يذم من أفحمه طول عمره ، ثم لا يستحى من تشبيه نفسه بالعلماء فى تعاونهم على النظر فى الحق » .

وهكذا يقول الإمام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ فى بعض المتناظرين أو المتحاورين فى مسائل معينة من أهل زمانه !! ترى ماذا يقول لو أدرك زماننا هذا ، الذى أصبح كثير من أهله لا يعرفون شيئًا عن أدب الحوار ، وإنما همهم التباهى والتفاخر والتغلب على من يحاورهم بكل أسلوب مهما بلغ قبحه وبطلانه ، أما مسألة البحث عن الحقيقة ، فهى آخر شىء يفكرون فيه !!

* * *

٥ - كذلك من الآداب التى جاءت بها شريعة الإسلام لتنظيم المحاورات والمجادلات التى تدور بين الناس : **التواضع ، وتجنب الغرور ، والتزام الأسلوب المهذب الخالى من كل ما لا يليق . . .**

انظر إلى سيدنا سليمان عليه السلام الذى أعطاه الله ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده ، إنه يتفقد جنوده ، فلا يرى الهدهد من بينهم ، فيتوعده ، ويأتى الهدهد بعد ذلك ، فيقول لسليمان عليه السلام بكل شجاعة أحطت بما لم تحط به ، ويقبل سليمان عليه السلام بكل تواضع حجة الهدهد ، ويكلفه بحمل رسالة إلى تلك الملكة التى أوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم ، فيوصل الرسالة إليها ، وتنتهى قصة هذه الملكة بأن تقول : ﴿ إنى ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى جانبًا من هذه القصة البديعة فيقول : ﴿ وَتَفَقَّدَ - أى سليمان - الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) . . . ﴾[1]

وهكذا نرى أن الجندى الصغير فى الأمة التى يظلها العدل والأمان ، لا يمنعه

---

(١) راجع الآيات من ٢٠ إلى ٤٤ من سورة النمل .

صغره من أن يرد على الحاكم الكبير ، وأن يدافع عن نفسه بكل حرية وشجاعة . ونرى أن الحاكم الكبير يقابل رده بكل تواضع ، ويفسح له المجال فى أن يدلى بكل حججه ، وأن يضعها موضع التحقيق والاختبار . . .

وهكذا الأمم العاقلة الرشيدة لا يهان فيها الصغير ، ولا يُظلَم فيها الكبير ، وأن التحاور بين العقلاء يقوم على التواضع وإعطاء كل ذى حق حقه دون تكبر أو غرور . .

وانظر إلى تلك المحاورات التى دارت بين شعيب عليه السلام وبين قومه ، تراها تمتاز من جانب شعيب عليه السلام بالتواضع والأدب والحكمة والشجاعة ، إنه يقول لهم بكل لطف ورقة : ﴿ .. يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾(١)

وتأمل تلك التوجيهات السديدة التى يلقنها القرآن الكريم للنبى ﷺ آمرًا إياه أن يقولها لقومه بكل تواضع وشجاعة وحكمه : فيقول : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) ﴾(٢)

ويقول – عز وجل – : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾(٣) .

إن الحوار أو النقاش أو الجدال الذى يدور بين الناس ، إذا كان يقوم على التواضع والاحترام المتبادل بين الأطراف ، وعلى الأسلوب المهذب الخالى من كل ما لا يليق كانت نتائجه طيبة وآثاره حميدة ، لأنه ـ فى الأعم الأغلب – يوصل إلى الحقيقة المرجوة ، وإلى الاتفاق ولو على معظم المسائل التى دار من أجلها الحوار . . .

أما الحوار أو النقاش أو الجدال الذى يكون مبعثه الغرور ، والتعالى ، والتفاخر والتباهى بالأقوال ، فمن المستبعد أن يأتى بنتيجة توصل إلى حق أو حقيقة أو اتفاق

---

(١) سورة هود : الآية ٨٨ .

(٢) سورة سبأ : الآيات من ٢٤ – ٢٧ .

(٣) سورة الشورى : الآية ١٥ .

على ما ينفع أو يفيد ، وإنما المتوقع من هذا الحوار الذي لحمته وسداه الغرور والجهل ، أن تتولد عنه الآثام والشرور ، والنتائج السيئة ، والعواقب الوخيمة . . .

والعقلاء عندما يرون السفهاء والجهلاء والمتكبرين ، يناقشونهم بالسيف لا بالكلمة ، ويحاورونهم بالتهديد والوعيد لا بالمنطق الرشيد ، ويجادلونهم بالباطل المدجج بالسلاح ليدحضوا به الحق . . .

العقلاء عندما يرون المحاورة مع المغرورين بهذا الأسلوب السيىء ، كثير منهم يحجم عن المحاورة أو المناقشة ، ويفوض أمره إلى الله – تعالى – ولسان حاله يقول :

جلوا صارمًا ، وأتوا باطلاً ، وقالوا أصبنا ، فقلنا نعم !!

* * *

٦ – كذلك من التوجيهات الحكيمة التى قررتها شريعة الإسلام لتنظيم المناقشات التى تنتشر بين الناس :

إفساح المجال أمام المناقش أو المعارض لغيره ، لكى يعبر عن وجهة نظره ، دون مصادرة لقوله ، أو إساءة إلى شخصه . . .

وفى الوقت ذاته إعطاء الحرية للجانب الآخر ، لكى يرد على المخالف له ، بأسلوب مهذب ، وبمنطق سليم ، وبأدب جم ، وبحرص تام على تبادل الاحترام فيما بينهما ، إذ الخلاف فى الرأى بين العقلاء ، لا يفسد للود قضية . . .

ومن أقوال بعض الفقهاء الحكماء : «رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب ، ونتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه» .

ولقد ساق لنا القرآن الكريم ، صورًا متعددة ، لمحاورات ومجادلات ومعارضات ، تجلى فيها إفساح المجال فى هذا المقام ، حتى لمن جاهر بالمعصية لله – تعالى – ألا وهو إبليس ، الذى فسق عن أمر ربه ، وحسد آدم على ما آتاه الله من فضله ، وتفوه بما يدل على جحوده وعناده وغروره . . .

ولقد تكرر الحديث فى القرآن الكريم عن الحوار والجدال فى سور متعددة ، منها قوله – تعالى – فى سورة الحجر :[1] ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أى : إنى خالق بشرًا من طين يابس مُصوَّر .

---

(١) الآيات من ٢٨ إلى ٤٢ .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ أى : فإذا سويت خلق هذا البشر ، وأفضت عليه ما به حياته ، فاسجدوا له سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة فإنها لا تكون إلا للخالق وحده . ثم بين - سبحانه - ما كان من الملائكة بعد ذلك فقال : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ لم يتخلف منهم أحد . ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ أى : إلا إبليس فإنه عصى أمر خالقه - عز وجل - وامتنع عن السجود لآدم ، غرورًا أو حسدًا وعنادًا واستخفافًا بأمر الله - تعالى- !!

وهنا يحكى لنا القرآن الكريم ما دار بين الخالق عز وجل - وبين إبليس من محاورات وأقوال فيقول : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ أى : قال الله - تعالى وهو العليم بكل شىء - لإبليس : أىُّ سبب حملك على مخالفة أمرى ، وجعلك تمتنع عن السجود لمن أمرتك بالسجود له ؟!!

فماذا كان رد إبليس على خالقه - عز وجل - ؟ كان رده أن قال : ﴿ .. لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أى : قال إبليس لله - تعالى - لا يليق بشأنى ومنزلتى أن أسجد لهذا البشر الذى خلقته من تلك المادة . وفى آية أخرى : أنه قال : ﴿ أنا خير منه ﴾ أى : أنا خير من آدم . ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ .

وهنا أصدر - الخالق - عز وجل - حكمه العادل على إبليس : ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ أى قال الله - تعالى - لإبليس بعد أن جاهر بالمعصية وبالإصرار عليها : اخرج من جنتى أو من سمائى فإنك مطرود ، وإن عليك اللعنة والإبعاد من رحمتى إلى يوم الحساب والجزاء ، فإذا ما جاء هذا اليوم استمرت عليك هذه اللعنة ، وحل بك العذاب الذى تستحقه بسبب حسدك وعصيانك . .

ولكن هل تَقَبَّل إبليس هذا الحكم بالسكوت والرضا ؟ وهل منعه الله - تعالى - من الكلام بعد أن أصدر - سبحانه - عقوبته العادلة عليه ؟

إن المتدبر فى القرآن الكريم فى آيات متعددة يرى أن إبليس لم يسكت ، وأن الله - تعالى - قد أفسح له المجال لكى يتكلم ، وفى ذلك إشارة إلى واسع حلمه - تعالى - وإلى أن من شأن العقلاء أن يفسحوا صدورهم لخصومهم لإبداء وجهة نظرهم ، ثم بعد ذلك يكون الرد عليهم .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ما طلبه إبليس من ربه ، وما رد الله عليه فيقول : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص : ٧٩]

أى : قال إبليس على سبيل التذلل - لخالقه : يا رب ما دمت قد أخرجتنى من جنتك ومن سمائك ، وجعلتنى مرجومًا ملعونًا إلى يوم الدين ، فأخر موتى إلى يوم أن يبعث آدم وذريته للحساب .

وأجابه الله - تعالى - إلى طلبه ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) ﴾ [الحجر : ٣٧، ٣٨] .

أى : قال الله - تعالى - لإبليس : إنك من الذين أخرت موتهم إلى يوم القيامة الذى استأثرت بعلم وقته .

ومرة أخرى نقول : هل اكتفى إبليس بكل ما قاله سابقًا مما حكاه القرآن عنه ؟ وهل قفل الخالق - عز وجل - الباب فى وجهه ومنعه من أن ينطق بأية كلمة بعد ذلك ؟

الجواب - كما حكى القرآن الكريم - أن إبليس لم يسكت بل ظل فى لجاجه ومكابرته ، ومع ذلك لم يمنعه الله - تعالى - من الكلام ، فقد قال إبليس مهددًا ومتوعدًا آدم وذريته ﴿ .. رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾ [الحجر : ٣٩، ٤٠]

وفى سورة «ص» نجد قوله : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص : ٨٢، ٨٣]

وفى سورة «الإسراء» نجد قوله - تعالى - حكاية عنه : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) ﴾ [الإسراء : ٦٢]

وفى سورة «النساء» نجد قوله : ﴿ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ [النساء : ١١٩]

وفى سورة «الأعراف» نجد قوله -كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ⦗١٦⦘ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ⦗١٧⦘ ﴾ [الأعراف : ١٦، ١٧]

ومعنى الآيات الكريمة بإيجاز : أن إبليس أقسم بعزة الله - تعالى - أنه سيستمر فى عداوته لآدم وذريته ، وأنه لن يكف عن إضلالهم وإغوائهم وتزيين القبيح لهم من الأقوال والأفعال ، وأنه لن يترك وسيلة من وسائل صرفهم عن الخير إلا وسلكها ، ما عدا الأخيار الأطهار منهم ، فإنه لن يستطيع إغواءهم أو إضلالهم .

فبماذا رد الله - تعالى - عليه ؟ لقد رد - سبحانه - عليه بهذا الرد الحاسم والعادل فقال : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ⦗٤١⦘ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ⦗٤٢⦘ ﴾ [الحجر : ٤١، ٤٢]

أى : قال الله - تعالى - لإبليس : يا إبليس ، إن عدم قدرتك على إغواء عبادى المخلصين سنة من سننى التى لا تتغير ولا تتبدل ، ومنهج من مناهجى التى اقتضتها حكمتى وعدالتى ورحمتى ، فعبادى المخلصين لا قدرة لك على إغوائهم ، لأنهم حتى إذا مسهم طائف منك ،أسرعوا بالتوبة الصادقة فقبلتها منهم ، وغفرت لهم زلتهم ، ولكنك تستطيع إضلال أتباعك الذين استحوذت عليهم فانقادوا لك .

وفى هاتين الآيتين ما فيهما من التنويه بشأن عباد الله المخلصين ، ومن المديح لهم بقوة الإيمان ، وعلو المنزلة ، وصدق العزيمة ، وضبط النفس . . .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾ هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة التى وردت فى سورة «الحجر» أو فى سورة «ص» أو فى سورة «الأعراف» أو فى سورة «الإسراء» أو فى سورة «النساء» أو فى غير ذلك من السور ، بشأن أمر الله - تعالى - للملائكة ولإبليس بالسجود لآدم ، يجد فيها الكثير من العظات والعبر والدروس النافعة ، التى من أهمها : إفساح المجال للخصم لكى يفصح عن وجهة نظره ، وإرخاء العنان له لكى يقول ما عنده دون

مصادرة لرأيه ، أو تطاول عليه ، ثم بعد ذلك من حق الجانب الآخر أن يرد عليه بالرد الذى يحق الحق ويبطل الباطل ، ويأتى على بنيان المكابر والمعاند والكاذب والمغرور والحاسد من القواعد ، استجابة لقول الله - تعالى - : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ .

وإليك مثالاً آخر من صور الحوار التى يتجلى فيها إرخاء العنان للخصم لكى يقول ما يريد أن يقوله ، ثم يأتى الرد الملزم له ، والهادم لحججه ، والمبطل لشبهاته . . .

لقد حكى لنا القرآن الكريم فى عشرات الآيات ، ما تقوّله المشركون على الخالق - عز وجل - وعلى رسوله محمد ﷺ على الحق الذى جاء به من عند ربه عز وجل .

ومن ذلك قوله - تعالى - فى مطلع سورة «ص» ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧) أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) ﴾

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : أن زعماء المشركين اجتمعوا فى بيت أبى طالب وطلبوا منه أن يمنع الرسول ﷺ من أداء رسالته ، فلما لم يجدوا استجابة لكلامهم قالوا للنبى ﷺ : وحق اللات والعزى لنسبنك وإلهك الذى أرسلك بهذا .

ومعنى الآيات الكريمة إجمالاً : وعجب المشركون إن جاءهم منذر ينذرهم بسوء عاقبة الشرك ، وقالوا فى شأنه . . هذا ساحر كذاب لأنه يأتينا بخوارق لم نألفها ، وتخالف واقع حياتنا . . .

ونحن نحاربه بكل وسيلة لأنه يريد منا أن نترك آلهتنا ونعبد إلها واحدًا ، وهذا الشىء بالغ العجب ، وانطلق زعماؤهم ليقولوا لسفائهم : سيروا على طريقة آبائكم فى عبادة الأصنام ، واصبروا على عبادتها ، وصمموا على ذلك ، فإن محمدًا ﷺ يريد من جهته أن تتركوا دين آبائكم ، فإياكم أن تطيعوه ، فإننا ما سمعنا ما يقوله فى ملة العرب التى أدركنا عليها آباءنا ، وإن ما يقوله محمد ﷺ ما هو إلا الكذب المحض ، والافتراء الصريح ، ولو أن الله - تعالى - أراد أن يرسل رسولاً لاختار غيره من زعماء مكة أو الطائف . . .

هكذا نرى القرآن يقص علينا أقوال خصوم الحق بكل أمانة ، ويفسح لهم المجال

لينطقوا بها كما سولت لهم أنفسهم ، ولم يحجر عليهم ، ولم يُخْفِ شيئًا مما لاكته ألسنتهم ، ولكنه فى الوقت ذاته لم يترك هذه الأكاذيب دون إجابة عليها ، بل رد عليها بما يدحضها فقال بعد ذلك : ﴿ ... بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ (١١) ﴾ [ص : ٨ - ١١] .

أى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - بسبب ما قاله هؤلاء السفهاء فى شأنك أو فى شأن خالقك - سبحانه - ، فهم فى شك من أمرهم ، بدليل أنهم يصفونك تارة بأنك ساحر ، وتارة بأنك شاعر ، وتارة بأنك كاهن ، وهم لم يذوقوا عذابى بعد ، وعندما يذوقونه سيزول حسدهم وشكهم ، وهم لم يملكوا خزائن رحمة ربك حتى يوزعوا الأموال على من يشاءون ، ويعطوا النبوة لمن يشاءون ، وهم لم يملكوا شيئًا من هذا الكون ، فإن زعموا أنهم يملكون شيئًا فليظهروه ، وليصعدوا فى الطرق التى توصلهم إلى ما نملكه حتى يستولوا عليه ، وأبشر - أيها الرسول الكريم - بالنصر عليهم فهم جند مهزومون ومغلوبون ، وستكون لك الكلمة العليا عليهم فى الوقت الذى يشاؤه خالقك - عز وجل - .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ (١) .

* * *

والآن لنا أن نسألك أيها القارئ الكريم :

هل رأيت إفساحا للمجال أمام المعارض أو المناقش أو المحاور لغيره كهذا اللون من إرخاء العنان ، ومن تركه يعبر عن رأيه ، ويدلى بوجهة نظره ؟

لقد حكى لنا القرآن الكريم أن الله - تعالى - ترك إبليس اللعين يقول ما يقول فى حق آدم وذريته ، ولكنه - سبحانه - فى الوقت ذاته رد عليه بما يخرسه ، وحكم عليه بحكمه العادل ، وحذر آدم وذريته من كيده وعدوانه ، وهذا درس من أدب الحوار جدير بأن يسير عليه العقلاء ، فإنه فى النهاية لا يصح إلا الصحيح . ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (٢) .

(١) الصافات الآيات ١٧١ : ١٧٣ .

(٢) سورة الرعد الآية ١٧ .

٧ - من أسمى وأشرف ألوان أدب الحوار فى الإسلام : احترام رأى العقلاء ، الذين ينطقون بالكلمة الطيبة ، وبالحجة المقنعة ، ويسلكون السلوك الحميد فى أعمالهم ، ويَعفُّون عن كل ما يتنافى مع مكارم الأخلاق ، مما يشهد باستنارة بصيرتهم ، ونقاء نفوسهم ، وطهارة قلوبهم ، وعلو همتهم ، وصفاء معدنهم ، وفى الحديث الشريف : «الناس معادن . خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » .

وهذا الاحترام لرأى العقلاء المخلصين ، ينبغى أن يتحلى به كل إنسان سليم الوجدان ، حتى ولو خالفوه فى رأيه ، لأن هذه المخالفة من العقلاء لغيرهم ، لم تصدر منهم عن سوء نية ، أو عن خبث طوية ، أو عن منفعة شخصية ، وإنما صدرت منهم هذه المخالفة فى الرأى لغيرهم ، من أجل الوصول إلى الحقيقة ، وإنما صدرت منهم هذه المخالفة فى الرأى التى يعود خيرها إلى الأفراد والجماعات .

* * *

ولقد ساق لنا القرآن الكريم صورا متعددة ، لهؤلاء الأصفياء الأنقياء ، الذين يحترمون رأى غيرهم من العقلاء ، حتى ولو كان هذا الرأى يخالف رأيهم . . . ومن هذه الصور المشرقة ، ما قصه القرآن الكريم علينا ، فى قوله - تعالى - : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[1] وسليمان هو ابن داود - عليهما السلام - ، وكلاهما من أنبياء الله - تعالى - ، وينتهى نسبهما إلى يعقوب - عليه السلام - ، وكانت وفاتهما قبل ميلاد المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - بألف سنة تقريبا . وقد جمع الله - تعالى - لداود وسليمان بين الملك والنبوة .

والحرث : الزرع . ونفشت : من النَّفش ، وهو الرعى بالليل خاصة . يقال : نفشت الإبل والغنم فى الزرع أو النبات ، إذا أكلته ليلا دون أن يكون معها من يرعاها أو يحرسها .

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهاتين الآيتين ، روايات ملخصها : أن رجلين دخلا على داود - عليه السلام- ، أحدهما صاحب زرع ، والآخر صاحب غنم . فقال

---

(١) سورة الأنبياء : الآيتان ٧٨ ، ٧٩

صاحب الزرع لداود - عليه السلام - : يانبى الله ، إن غنم هذا قد نفشت فى زرعى فأكلته عن آخره ، وإنى أريد حكمك وقضاءك ، فأصدر داود حكمه فى هذه القضية ، بأن يأخذ صاحب الزرع غنم خصمه ، فى مقابل إتلافها لزرعه .

وعند خروجهما التقيا بسليمان - عليه السلام- فأخبراه بحكم أبيه . فقال لهما : لو كان الأمر بيدى لحكمت بغير ذلك . ثم دخل بهما على أبيه فقال له : يانبى الله ، هل قضيت لهذين بكذا وكذا ، فقال له : نعم . فقال سليمان : لو كان الأمر بيدى لقضيت بغير هذا ! فقال له أبوه داود - عليهما السلام : بماذا تقضى فى هذه المسألة ياسليمان؟ فقال : أقضى بأن أعطى الغنم لصاحب الزرع لينتفع بها ، وآمر صاحب الغنم أن يعيد زراعة ما أفسدته غنمه ، فإذا ما عاد الزرع كما كان ، سلّمتَه لصاحبه ، وسلّمتُ الغنم لصاحبها .

فقال داود : «القضاء هو ما قضيت به يا سليمان»

فأنت ترى أن على رأس الدروس النافعة التى تؤخذ من هذه القصة : أن الإنسان صاحب النفس الزكية والفؤاد المستنير ، يحترم رأى غيره من العقلاء ، بل ويتنازل عن رأيه ليأخذ برأى هؤلاء العقلاء ، متى ظهر له أن الحق إلى جانبهم ، وأن الحكم الصواب هو الأقرب إلى اتجاههم .

وهذا ما فعله داود مع ابنه سليمان ، فقد رجع عن حكمه الى حكم ابنه ، بعد أن اطمأن إلى سلامة حكم ابنه ، وإلى أنه الأقرب إلى الصواب .

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة فى قوله - تعالى - : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ . أى : ففهمنا سليمان الحكم الأنسب والأوفق فى هذه القضية ، وذلك لأن داود - عليه السلام - ، قد اتجه فى حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث ، وهذا عدل فحسب . أما حكم سليمان فقد تضمن مع العدل البناء والتعمير ، وجعل العدل دافعا إلى البناء والتعمير ، وهذا هو العدل الحى الإيجابى ، فى صورته البانية الدافعة ، وهو فتح من الله وإلهام يهبه لمن يشاء من عباده .

ولكى لا يظن أحد أن داود قد أخطأ فى حكمة ، قال - سبحانه - : ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ أى : وكلا من داود وسليمان ، قد أعطيناه من عندنا نبوة وإصابة فى القول والعمل ، وفقها فى الدين ، وفهما سليما للأمور ؛ فالجملة الكريمة تمثل أسمى ألوان الاحتراس ، والثناء على هذين النبيين الكريمين .

كـذلك من الصـور المشـرقـة التى تدل على أن الإنسـان الفـاضل ، هو الـذي يحتـرم رأى العقلاء ، حتى ولو كانوا أقل منه فى المنزلة ، وأنه قد يأخذ برأيهم حتى ولو خالفوا رأيه . . .

من هذه الصور : ما حدث بين النبي ﷺ وبين بعض أصحابه ، من محاورات ومناقشات ومشاورات ، قبيل غزوة «أُحُد» بعد أن بلغهم بأن المشركين بقيادة أبى سفيان ، قد وصلوا إلى المدينة المنورة ، ليأخذوا بثأرهم من المسلمين ، بعد أن دمرهم المسلمون فى غزوة «بدر» . . .

ولنترك الإمام ابن هشام صاحب : «السيرة النبوية» يقص علينا ماحدث بين الرسول ﷺ وبين بعض أصحابه فى هذا الشأن فيقول ما ملخصه : « فلما سمع رسول الله ﷺ وأصحابه ، أن المشركين قد نزلوا على حافة الوادى ، مقابل المدينة ، قال ﷺ للمسلمين : « إنى قدر رأيت والله خيرا ، رأيت بقرا ، ورأيت فى ذُباب - أى : فى طرف - سيفى ثَلْمًا - أى : قطعا - ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة ، فأولتها المدينة» .

ثم قال ابن هشام : «وحدثنى بعض أهل العلم ، أن رسول الله ﷺ قال : رأيت بقرا لى تذبح؟ قال : فأما البقر فناس من أصحابى يقتلون . وأما الثَّلم الذى رأيت فى ذباب سيفى ، فهو رجل من أهل بيتى يقتل . ثم قال ﷺ : فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة ، وتتركوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا ، بقوا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا المدينة قاتلناهم فيها . . .»

فهو ﷺ كان يرى البقاء فى المدينة ، وكان يكره الخروج إلى هؤلاء المشركين . . . ولكن رجالا من أصحابه قالوا له : يارسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، حتى لا يُظن أننا جَبُنَّا عنهم وضعفنا ، ولم يزل الناس برسول الله ﷺ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم حتى دخل رسول الله ﷺ - بيته ، فلبس سلاحه ، وذلك فى يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة . . . ثم خرج إليهم - بعد أن لبس سلاحه - وقد ندم الناس وقالوا : استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك . فلما رأوه قالوا : يارسول الله ، استكرهناك على الخروج ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد - صلى الله عليك - !!

فقال : « ما ينبغى لنبى إذا لبس سلاحه أن يخلعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه» . ثم خرج للقاء المشركين فى ألف من أصحابه . . .»[1] .

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام جـ٣ ص٦٦

ثم كان ما كان بعد ذلك من أحداث غزوة أحد التى سجل القرآن الكريم الكثير منها . . . والشاهد الذى سقنا من أجله هذه القصة ، والدرس النافع الذى يجب أن نتعلمه منها : أن الرسول ﷺ وهو المعصوم من ربه - تعالى - ، وأفضلهم عنده - عز وجل - ، لم يستنكف أن ينزل على رأى بعض أصحابه فى غزوة أحد ، مع أنه كان يميل إلى رأى يخالف رأيهم ، إلا أنه بعد أن استشارهم وحاورهم وقص عليهم ما رآه فى منامه ، ورأى من كثير منهم الشوق إلى القتال ، ما كان منه ﷺ إلا أن نزل على رأيهم ، وعندما شعروا بالندم ، وقالوا له بعد أن خرج إليهم وقد لبس سلاحه : استكرهناك يارسول الله على الخروج ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد ، ونحن فى طاعتك . . . هنا قال لهم بكل حزم وقطع للأمور : كان ذلك قبل أن ألبس سلاحى .

وهكذا يعلمنا ﷺ أسمى ألوان أدب الحوار ، وفى الوقت ذاته ، أسمى ألوان الحزم عندما تقتضى الظروف ذلك .

* * *

فإذا ما اتجهنا إلى سيرة أصحابه ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، والذين تأسوا برسولهم ﷺ فى مكارم الأخلاق ، وفى أدب الحوار والجدال ، وفى كل شأن من شئونه ﷺ رأينا منهم ما يشهد بأن الواحد منهم ، كان يحترم رأى غيره ، وينزل عليه متى اطمأن إلى صوابه ، مهما بلغت المناقشات والمحاورات حول الشىء الذى هو محل النقاش والحوار . . .

وتأمل معى تلك القصة التى تتعلق بجمع القرآن الكريم فى عهد أبى بكر الصديق ، والتى ذكرها الإمام البخارى فى صحيحه ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : «أرسل إلىّ أبو بكر عقب مقتل أهل اليمامة - أى : عقب استشهاد القراء السبعين فى واقعة اليمامة - فإذا عمر بن الخطاب عنده . فقال أبو بكر : يازيد ، إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر - أى : اشتد - يوم اليمامة فى قراء القرآن - أى : فى حفاظ القرآن- ، وإنى أخشى أن يستحر القتل فى القراء فى مواطن أخرى فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن !!

قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

فقال عمر : هذا والله خير . ولم يزل عمر يراجعنى وأراجعه - فى هذه المسألة - حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رآه عمر .

ثم قال أبو بكر : يا زيد ، إنك رجل شاب عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه . . . فقلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

قال أبو بكر : هو والله خير ، ولم يزل يراجعنى أبو بكر ، حتى شرح الله صدرى ، للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر - رضى الله عنهم - . . .»

فهذا الحديث الصحيح يدل على أن محاورات ومراجعات دارت بين أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - حول مسألة جمع القرآن فى صحف أو مصحف فى أعقاب استشهاد عدد كبير من حفاظ القرآن فى معركة اليمامة التى كانت في خلافة أبى بكر بين المسلمين ، وبين مسيلمة الكذاب وأتباعه ، وأن أبا بكر فى أول الأمر عارض عمر فى هذه المسألة ، ولكنه بعد محاورات ومفاوضات بينهما ، اقتنع أبو بكر بصواب رأى عمر ، وأيقن أن هذا الجمع للقرآن الذى أشار به عمر ، ما هو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة لحفظ القرآن الكريم ، وأنه من القواعد التى وضعها الرسول ﷺ لزيادة حفظ القرآن عن طريق إباحة كتابته ، واتخاذ كُتّاب الوحى لذلك ، ثم بعد أن اقتنع بما رآه عمر ، كلف زيد بن ثابت بتنفيذها . . .

ومن هذه القصة نتعلم - من بين ما نتعلم - كيف يكون أدب الحوار ، وكيف يكون احترام الرأى الآخر ، وكيف أن أصحاب العقول السليمة ، والنفوس الزكية ، والعواطف الشريفة ، - مهما سمت منزلتهم - ، لا يستنكفون من الرجوع عن رأيهم إلى رأى مخالفيهم متى اقتنعوا بذلك . واذا كان الصّديق قد نزل على رأى عمر ، فى هذه المسألة ، فإن عمر قد نزل على رأى أبى بكر - بعد محاورات ومناقشات - فى مسائل كثيرة منها : قتال أبى بكر للمرتدين الذين فرقوا بين الصلاة وبين الزكاة ، فقد كان عمر فى أول الأمر يرى عدم قتالهم ، فلما أقنعه أبو بكر بوجوب قتالهم ، رجع إلى رأى أبى بكر ، - فرضى الله عنهما - .

* * *

وتسألنى فى النهاية : إذا أنا أخذت بأدب الحوار علمنا علما دين الإسلام ، فاحترمت فكر غيرى من العقلاء ، وأنا أحاورهم وأناقشهم فى مسألة ما ، ونزلت على رأيهم حتى ولو خالف رأيى ، فماذا أفعل فى حوارى مع غيرهم ممن يصرون على رأيهم ولو كان فاسدا ، وممن استحوذ عليهم الغرور والتطاول والجهل فأنساهم كل ألوان أدب الحوار ؟

والجواب : إن خير طريق مع هؤلاء المصرِّين على باطلهم ، الناكصين على أعقابهم عن سماع النصيحة مع تكرارها أن تعرض عنهم ، وأن تفوض أمرك وأمرهم إلى الله – تعالى – .

وهذا ما أرشد الله – تعالى – رسوله محمدا ﷺ إليه فى آيات كثيرة ، منها قوله – سبحانه – : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾[النساء : ٨١] وقوله – تعالى – : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[الزخرف : ٨٩] وقوله – عز وجل – : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) ﴾ [سبأ : ٢٤ – ٢٦]

وقوله – عز وجل – : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ [الشورى : ١٥].

* * *

٨ – كذلك من أدب الحوار فى الإسلام : عدم التعميم فى الأحكام ، والاحتراس فى الأقوال ، وتحديد المسائل والقضايا تحديدًا دقيقا ، توضع فيه الألفاظ فى مواضعها السليمة ، وتقرر فيه الأمور تقرير لحمته وسداه ، الصدق والعدل ، وتوزن فيه الأفعال بميزان القسط ، الذى لا يَظلِم أهل التقوى والعفاف والاستقامة ، ولا يجامل الذين أطاعوا أهواءهم ، وعموا وصموا عن الطريق القويم . .

ولقد علمتنا تجارب الحياة ، أنه مامن أمة يكثر فيها عدد العقلاء الأمناء ، الذين يبنون حياتهم على التنظيم السليم ، والتحديد الدقيق ، لأقوالهم ، وأفعالهم ، وأحكامهم ، إلا وظفرت بما تبتغيه من رقى ونجاح ، واستقرار وصلاح ، لأن سنة الله – تعالى – التى لا تتبدل ، قد اقتضت أنه – سبحانه – «لايضيع أجر من أحسن عملا» .

ومامن أمة يفشو فيها التعميم فى الأحكام بلا بينة ، ويكثر فيها عدد السفهاء الذين إذا ناقشوا أو حاوروا غيرهم فى مسألة من المسائل ، أو فى قضية من القضايا ، سلكوا فى محاوراتهم طريق الكذب ، وإلقاء القول على عواهنه دون دليل أمر برهان . . .

أقول : مامن أمة يكثر فيها هذا النوع من الناس ، إلا وكان أمرها فرطا ، لأن سنة الله – تعالى – أيضا – قد اقتضت أنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

* * *

والذى يتدبر القرآن الكريم بقلب منيب ، وعقل سليم ، يرى بوضوح وإشراق ، كيف أن القرآن الكريم ، قد وضع كل لفظ فى المعنى الذى يناسبه ، وحدد أحكامه تحديدا دقيقا ، لا مجال معه للالتباس أو الخفاء أو الاضطراب «ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة » .

يراه قد قرر ما قرر من أمر أو نهى بأسلوب من أسمى مميزاته : الاحتراس فى التعبير ، بحيث لا تعمم فيه الأحكام إلا إذا اقتضى المقام ذلك .

ومن الأدلة على ما نقول : أن لفظ «إلا» الذى يدل على الاستثناء والتحديد والتقييد ، قد تكرر فى الآيات القرآنية عشرات المرات .

وهذا الاستثناء أو التحديد أو التقييد للأحكام ، نراه تارة فى العقائد ، وتارة فى المعاملات وتارة فى غير ذلك من التشريعات المتنوعة التى زخرت بها آيات القرآن الكريم .

* * *

ففى مجال العقائد نراه يأمر بوجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وينفى الإيمان عن كل من نطق بكلمة الكفر ، ولكنه يستثنى من ذلك من نطق بها مكرها ، فيقول : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(١) .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية ، أن عمار بن ياسر - رضى الله عنهما - عذبه المشركون عذابا شديدا ، وأنذروه بأنهم لن يكفوا عن تعذيبه حتى ينطق الكفر فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه ، ثم ذهب إلى النبى ﷺ وأخبره بما حدث له ، فقال له ﷺ : «كيف تجد قلبك » ؟ فقال : «مطمئن بالإيمان» . فقال له ﷺ : «إن عادوا فعد» .

والمعنى : من كفر بالله - تعالى - من بعد إيمانه بواحدانيته وبصدق رسوله ﷺ ، فإنه بسبب هذا الكفر يكون قد ضل ضلالا مبينا ، إلا من أكره على النطق بكلمة الكفر ، والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان ، ثابت عليه ، فإنه فى هذه الحالة لا يكون من الكافرين ، الذين لهم سوء المصير .

---

(١) سورة النحل : الآية ١٠٦ .

وفى مجال المعاملات ، نجد القرآن الكريم يرشد أتباعه إلى كتابة الديون التى تكون بينهم ، لأن فى كتابتها حفظا لها ، وأقرب إلى العدل وإلى زوال الشك والمنازعات ، واستثنى من ذلك المعاملات التى يجرى فيها التقابض فى المجلس عند البيع أو الشراء ، قال - تعالى - فى أطول آية من كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا . . ﴾[1] ثم يقول - سبحانه - : ﴿ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أمرنا بكتابة الديون وبالإشهاد عليها ، إلا أنه - سبحانه - رحمة بنا ، وتيسيرا علينا ، أباح لنا عدم كتابتها وعدم الإشهاد عليها ، فى حالة التعامل الذى يتم التقابض فيه فى المجلس ، لأنه - سبحانه - لو كلفنا بكتابة كل معاملة لشق ذلك علينا ، وهو - سبحانه - القائل : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ولأن أمثال هذه التجارات التى يحصل فيها التقابض ويكثر تكرارها فى اليوم الواحد ، لا يتوقع فيها التنازع أو النسيان .

وفى موطن الحكم على الجنس البشرى نجد ، القرآن الكريم قد حكم على الجنس الإنسانى كله بالخسران واستثنى من ذلك المؤمنين الصادقين فقال : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾[2] .

فهذه السورة الكريمة التى كان الصحابة يقرؤونها عند مفارقة بعضهم لبعض ، بَيَّنَ الله - تعالى - فيها بعد أن أقسم بالدهر الذى يحمل ما يحمل من أحداث - أن جنس الإنسان لا يخلو من خسران ونقصان ، وفقدان للربح فى مساعيه وأعماله طوال عمره . . .

ثم استثنى - سبحانه - من ذلك ، المؤمنين الصادقين ، على سبيل البشارة لهم ، والثناء عليهم ، فكأنه - عز وجل - يقول : إن جميع الناس فى خسران ونقصان ، إلا الذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا ، وعملوا الأعمال الصالحات ، وأوصى بعضهم

---

(١) البقرة : الآية ٢٨٢ .　　(٢) العصر : ١ : ٣ .

بعضا بالتمسك بالحق ، وبالثبات على الصبر . فهؤلاء المؤمنون الصادقون ، الذين أوصى بعضهم بعضا بهذه الفضائل ، ليسوا من بين الناس الذين هم فى خسران ونقصان ، لأن إيمانهم الكامل وعملهم الصالح ، قد حماهم وصانهم من الخسران .

* * *

وخلال حديث القرآن عن عباد الرحمن وما أعده الله - تعالى - لهم من جزيل الثواب ، وعن المرتكبين للمنكرات وماتوعدهم به - سبحانه - من شديد العقاب ، نجد أنه - عز وجل - قد استثنى من هؤلاء العصاة : أولئك الذين تابوا توبة صادقة نصوحا فيقول : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ أى : ومن يفعل شيئا من تلك الفواحش التى منها الإشراك بالله والقتل والزنا ، يلق عذابا شديدا ، بأن يضاعف له العذاب يوم القيامة ، ويخلد فيه خلودًا مصحوبا بالذلة والهوان . ثم استثنى - سبحانه - التائبين من هذا العذاب المهين فقال : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ [الفرقان : ٧٠]

أى : يضاعف العذاب لمن يرتكب شيئا من تلك الكبائر ، إلا من تاب منها توبة صادقة نصوحا ، فإن الله - تعالى - ببركة هذه التوبة الصادقة ، وبفضله وكرمه ، يحول سيئاتهم إلى حسنات ، لأنه - سبحانه- واسع المغفرة والرحمة ، لمن تاب إليه وأناب .

وقريب من هذه الآيات ، فى بيان سعة رحمة الله - تعالى - وفى بيان ما يتميز به أسلوب القرآن الكريم من تحديد دقيق للأقوال وللأفعال وللأحكام ، قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤) ﴾ [المائدة : ٣٣ ، ٣٤] .

* * *

وهذا التحديد الدقيق فى الأحكام ، والاحتراس فى الأقوال والأفعال ، لم يأت فى

القرآن الكريم بلفظ «إلا» فقط ، الذى يدل على الاستثناء والتقييد ، وإنما جاء بألفاظ أخرى ، وبأساليب أخرى ، منها : لفظ «بعض» ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ... ﴾ [الحجرات : ١٢] .

فالقرآن الكريم لم يأمر المؤمنين بالابتعاد عن جميع ألوان الظنون ، وإنما أمرهم باجتناب الظن السيىء بأهل الخير والفلاح دون دليل أو برهان ، فأنت ترى أن القرآن قد حدد الظن المنهى عنه تحديدا دقيقا ، ولم يعمم الحكم بأن يقول - مثلا - اجتنبوا جميع الظنون ، وذلك لأن الظن منه ما يكون واجبا ، كالظن الذى يقصد من ورائه الوصول إلى الحقيقة ، ومنه ما يكون مباحا كأن تتوقع شرا فتحذره ، أما الظن الذى عبر عنه القرآن بقوله : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ فهو الظن السيىء بالناس دون بينة أو دليل ، وهو الذى عناه الحديث النبوى الصحيح : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث »

ومنها : لفظ «غير» كما فى قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) ﴾ [البقرة : ١٧٢ ، ١٧٣] .

ففى هاتين الآيتين نداء للمؤمنين أمرهم - سبحانه - بالأكل من الطيبات ، ونهاهم عن تناول الخبائث ، كالميتة ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير ، وما قصد بذبحه التقرب لغير الله - تعالى - . . .

وقوله - سبحانه - ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ استثناء قصد به بيان حالات الضرورة التى يباح للإنسان فيها أن يأكل من تلك المحرمات ، واحتراس فى إصدار الأحكام بصورة دقيقة ومحددة . أى : كلوا من الطيبات ، واجتنبوا المحرمات ، غير أن من ألجأته الضرورة إلى أكل شىء من هذه المحرمات ، حالة كونه غير طالب للمحرم وهو يجد سواه ، أو غير متجاوز ما يسد به الجوع ويحفظ الحياة ، فلا إثم عليه فى أكله من هذه المحرمات ، لأن الله - تعالى - «ما جعل عليكم فى الدين من حرج » .

* * *

كذلك من الألفاظ التى استعملها القرآن الكريم لمنع التعميم فى الأحكام ، ووجوب الاحتراس فى الأقوال والأعمال : لفظ «القلة» ولفظ «الكثرة» وما اشتق منهما ، وقد تكرر ذلك فى القرآن الكريم فى عشرات الآيات القرآنية .

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ وقوله - سبحانه - : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ . وقوله - عز وجل - : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ وقوله - سبحانه - : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ .

فأنت ترى أن الله - تعالى - لم ينف الشكر والإيمان والجهاد والصلاح عن جميع الناس ، وإنما أسنده إلى عدد قليل منهم ، وهم المؤمنون الصادقون ، والشاكرون والجاهدون المخلصون .

وأما لفظ «الكثرة» وما اشتق منه ، فقد ورد فى القرآن فى أكثر من مائة آية ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ وقوله - سبحانه - : ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ . وقوله عز وجل - : ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ . وقوله - سبحانه - : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وقوله - تعالى- : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . ففى هذه الآيات الكريمة وما يشبهها ، تحديد دقيق للأحكام ، ووضع للألفاظ فى معانيها الصحيحة .

* * *

وهكذا نرى بوضح ، كيف أن القرآن الكريم قد ابتعد فى توجيهاته عن التعميم فى الأحكام ، وإنما وضع كل لفظ فى المعنى الذى يليق به ، وأعطى كل مسألة الحكم الذى يناسبها بكل دقة وموضوعية ، ولعل في ذلك درسا حكيما للذين يلقون القول على عواهنه ، ويطلقون الأحكام فى محاوراتهم ومجادلاتهم مع غيرهم ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

* * *

٩ - ومن أوجب الواجبات ، لكى يكون الحوار بين الناس مفيدا ونافعا ، وترجى من ورائه النتائج الطيبة ، والعواقب الحميدة : **أن يقوم على الحقائق الثابتة ، لا على الإشاعات الكاذبة ، وأن يبنى على المعلومات الصحيحة ، لا على الأخبار المضطربة . . .**

وذلك لأن الأحكام التى مصدرها الأراجيف التى لا أساس لها من الصحة ، تكون أحكاما فاسدة ، لأنها لا سند لها من العقل الصحيح ، أو النقل السليم ، ومن المعروف عند العقلاء ، أن ما بنى على الفاسد فهو فاسد ، ومابنى على الصحيح فهو صحيح . ولقد مدح القرآن الكريم ، أولئك الأصفياء الأنقياء ، الذين ينطقون بالكلام الطيب ، وبالقول الصادق ، فقال : ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ [الحج : ٢٤]

ومن التوجيهات الحكيمة ، والآداب السديدة ، التى ربى عليها النبى ﷺ أتباعه ، أنه نهاهم عن إشاعة الكلام السيىء فيما بينهم ، وأمرهم بنشر القول الحسن ، فقال : «لاتبلغونى عن أصحابى شيئا أكرهه ، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» .

* * *

ومن الآيات القرآنية التى أمرت المؤمنين بأن يتثبتوا من صحة ما يقولونه وما يسمعونه ، قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ⑥ ﴾ [الحجرات : ٦] .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما جاء عن ابن عباس -رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة ، إلى بنى المصطلق ، ليأخذ منهم الزكاة ، فلما بلغهم ذلك فرحوا ، وخرجوا من ديارهم ليستقبلوا الوليد ابن عقبة ، رسول رسول الله ﷺ .

فما رآهم الوليد على تلك الحال ، ظن أنهم يريدون قتله ، فرجع مسرعا إلى رسول الله ﷺ وقال : يارسول الله ، إن بنى المصطلق قد منعوا الزكاة ، فغضب رسول الله ﷺ من ذلك ، وبينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم ، إذ وفدوا عليه وقالوا يا رسول الله ، لقد بلغنا أن رسولك رجع من نصف الطريق ، وإنا خشينا أن ما رده كتاب جاء منك ، لغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه ومن غضبك ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .

والمعنى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، إن جاءكم إنسان مشكوك فى صدقه ، بخبر من الأخبار ولا سيما الأخبار الهامة ، فلا تقبلوه دون تبين أو تثبت ، بل تأكدوا وتيقنوا من صحته قبل قبوله منه ، لئلا تصيبوا قوما بما يؤذيهم ، والحال أنكم تجهلون حقيقة أمرهم ، فتصيروا مع مافعلتم مع هؤلاء القوم ، نادمين ندما شديدا ، بسبب تصديقكم لخبر الفاسق ، دون تبين أو تثبت .

فالآية الكريمة ، ترشد المؤمنين فى كل زمان ومكان ، إلى كفية استقبال الأخبار استقبالا سليما ، وإلى كيفية التصرف معها تصرفًا حكيما . فتأمرهم بضرورة التثبت من صحة مصدرها ، حتى لا يصاب قوم بما يؤذيهم بسبب تصديق الفاسق فى خبره ، دون تحقق أو تثبت من صحة ما قاله . وبهذا التحقق من صحة الأخبار ، يعيش المجتمع الإسلامى فى أمان واطمئنان ، وفى بعد عن الندم والتحسر على ماصدر منه من أحكام .

* * *

ثم أرشد - سبحانه - المؤمنين بعد ذلك إلى جانب من نعمه عليهم ، ومن رحمته بهم ، فقال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) ﴾ [الحجرات : ٧، ٨] .

أى : واعلموا - أيها المؤمنون - أن فيكم رسول الله ﷺ الذى أرسله خالقكم إليكم ، لكى يهديكم إلى الحق وإلى الطريق القويم ، وهو ﷺ لو يطيعكم فى كثير من الأخبار التى يسمعها منكم ، لأصابكم العنت والمشقة ، ولنزل بكم ما يضركم ويؤذيكم ، ولكنه ﷺ لا يطيعكم فى كل ما يعن لكم ، وإنما يتبين الأمور والأخبار ، ويتثبت من صحتها ثم يحكم ، وقد حبب الله - تعالى - إلى كثير منكم الإيمان المصحوب بالعمل الصالح والقول الطيب ، وزينه وحببه فى قلوبكم ، وكره وبغض إليكم الكفر والفسوق والعصيان لكل ما أمر به أو نهى عنه ، وأولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة ، هم الثابتون على دينهم ، المهتدون إلى طريق الرشد والصواب ، وقد فعل - سبحانه - ما فعل ، من تحبيب الإيمان إليكم ، فضلا منه - عز وجل - وكرما .

وبذلك تكون الآيات الكريمة ، قد رسمت للمؤمنين أحكم الطرق فى تلقى الأخبار ، وأرشدتهم إلى مظاهر فضله عليهم ، لكى يستمروا على شكرهم له - سبحانه - ، وعلى طاعتهم لرسوله ﷺ .

* * *

ولقد كان من عادة الرسول ﷺ أن يتثبت من صحة الأخبار التى ترد على مسامعه ، وأن يتأنى فى الحكم عليها ، وربى أصحابه على ذلك .

فقد حدث فى غزوة بنى المصطلق - وكانت فى السنة الخامسة من الهجرة - أن غلاما لعمر بن الخطاب ، تزاحم على ماء مع رجل من الأنصار ، فقال الأنصارى : يامعشر الأنصار ، وقال الغلام : يا معشر المهاجرين . فلما سمع بذلك زعيم المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ، قال - وعنده رهط من الأنصار - : قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا . والله ما مثلنا وجلابيب قريش - يعنى المهاجرين - إلا كما قال القائل : «سمن كلبك يأكلك» . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

وسمع ذلك زيد بن أرقم وكان فى المجلس ، فغضب غضبا شديدا ، وذهب إلى النبى ﷺ فأخبره بما سمع ، ولكنه ﷺ تريث فى الأمر ، وأمر أصحابه بالرحيل حتى لا يشغلوا بما كان من رأس المنافقين عبد الله بن أبىّ بن سلول .

ونزلت سورة «المنافقون» وفيها قول الله - تعالى - : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [المنافقون : ٨] .

وروى أن الرسول ﷺ بعد أن نزلت هذه السورة ، استدعى زيد بن الأرقم رضي الله عنه فقرأها عليه ، ثم قال : «هذا الذى أوفى الله بأذنه» . وفى رواية أنه ﷺ قال له : «إن الله قد صدقك» .

وقد ترتب على هذا التريث فى الأمر ، والحكمة فى التصرف ، أن أحد أبناء عبد الله بن أبى وكان من خيار الصحابة - وكان اسمه عبد الله - أيضا ، عندما بلغه ما حدث من أبيه ، وقف على باب المدينة ، واستل سيفه ، فلما جاء أبوه وأراد أن يدخل المدينة منعه من دخولها ، وقال له : والله لن تدخلها حتى يأذن رسول الله

ﷺ لك ، فإنه العزيز وأنت الذليل . وعندما بلغ النبى ﷺ ذلك أذن لزعيم المنافقين فى الدخول . وهكذا التريث فى الأحكام ، والتصرف الحكيم إزاء الأحداث ، يؤدى إلى علو كلمة الحق ، وزهوق كلمة الباطل .

* * *

إن الذين يتسلحون بسلاح كلمة الحق فى حوارهم مع غيرهم ، لابد وأن يظفروا من كل عاقل بالاحترام والتقدير ، أما الذين يتسلحون بالحجة الداحضة ، وبالإشاعات الكاذبة ، وبالأراجيف الباطلة ، فى مناقشاتهم ومحاوراتهم مع غيرهم ، فلن يصلوا إلا إلى السخرية منهم ، والإعراض عنهم ، لأن الحق أبلج ، والباطل لجلج . . .

ومن الأدلة على ذلك ما حكاه لنا التاريخ ، من أن المسلمين عندما أذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى الحبشة ووصلوا إلى هناك غاظ ذلك المشركين ، وأغرتهم كراهيتهم للإسلام أن يبعثوا إلى النجاشى - ملك الحبشة - وفدا منهم محملا بالهدايا والتحف . كى يطرد المسلمين - وكانوا أكثر من مائة رجل وامرأة - من بلاده .

وكان على رأس وفد المشركين عمرو بن العاص - قبل أن يدخل فى الإسلام - ، واستعان وفد المشركين على النجاشى برجال حاشيته ، بعد أن ساقوا إليهم الهدايا ، وقالوا لهم : إن ناسا من سفهائنا فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دين الملك النجاشى ، وجاءوا بدين مبتدع لانعرفه نحن ولا أنتم . واتفقوا معهم أن يشيروا على النجاشى بطردهم .

فلما فوتح النجاشى فى الأمر ، وكان رجلا عاقلا سليم التفكير ، شجاع القلب ، رأى أن لابد من تمحيص القضية ، وسماع أطرافها جميعا . فأرسل إلى المسلمين فحضروا إليه ، فقال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من الناس ؟

فقال جعفر بن أبى طالب - وكان هو المتحدث بلسان المسلمين - : «أيها الملك ، كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش . . . فبعث الله إلينا رسولا نعرف حسبه ونسبه ، وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا لوحدانية الله - تعالى - ، وأن لا نشرك به شيئا فى العبادة ، وأمرنا بصدق الحديث ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم . . . فآمنا به ، وصدقناه ، فتعدى علينا قومنا ، فعذبونا ، فلما قهرونا وظلمونا ، جئنا إلى بلادك ، ونرجو أن لا نُظلَم عندك . . .

وبعد أن استمع النجاشى إلى كلام جعفر ، وإلى كلام عمرو بن العاص ، ما كان منه إلا أن قال للمسلمين : «اذهبوا فأنتم آمنون ، ما أحب أن لى جبلا من ذهب وأننى آذيت رجلا منكم . ثم رد هدية قريش إلى عمرو ومن معه وقال لهم : ما أخذ الله الرشوة منى حتى آخذها منكم » .

واستطاع المسلمون - بقيادة جعفر بن أبى طالب - أن يقنعوا النجاشى بسلامة موقفهم ، وأن يجعلوه ينحاز إلى الحق الذى تسلحوا به ، وأما المشركون - بقيادة عمرو ابن العاص - فقد باءوا بالفشل ، وعادوا إلى مكة يجرون أذيال الخيبة ، لأنهم أقاموا حوارهم مع النجاشى على الباطل ، وعلى الإشاعات الكاذبة ، التى يمجها العقلاء .

* * *

لقد حاربت شريعة الإسلام الإشاعات الكاذبة التى ينشرها المتحاورون مع غيرهم عن سوء نية ، بوسائل متعددة ، وبأساليب متعددة . . .

حاربتها بتغليب حسن الظن على سوء الظن ، ومن الآيات القرآنية التى أكدت ذلك ، قوله - تعالى - : ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور: ١٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦] .

حاربتها عن طريق رد الأمور إلى مصادرها الأصلية ، وسؤال أهل الذكر عما يخفى فهمه ، امتثالا لقوله - تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ٨٣]

وفى الحديث الشريف : «هلا سألوا إذا لم يعلموا ، إنما سؤال العى- أى الجهل - السؤال» .

حاربتها بالمنطق السليم ، وبالحجة القاطعة ، وبالدليل العملى الناصع ، فعندما أشاع المنافقون فى غزوة أحد ، أن الذين قتلوا فى هذه الغزوة لو أنهم بقوا فى بيوتهم لما قتلوا ، رد القرآن الكريم عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال - تعالى - : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ... ﴾ حاربتها بتهديد ناشريها بالعذاب الأليم ، ومن الآيات التى أكدت ذلك قوله - سبحانه - : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) ﴾

[الأحزاب : ٦٠ ، ٦١] .

* * *

إن الحوار الذى يقوم على الحقائق الثابتة ، والمعلومات الصادقة ، والأخبار الصحيحة ، يباركه الله - تعالى - ، ويثيب أصحابه ببركة تعاونهم على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . أما الحوار الذى يبنى على الإشاعات الكاذبة ، والأراجيف الباطلة ، وسوء الظن المتعمد ، فإن نتيجته الخيبة والخسران ، لأن سنة الله فى خلقه قد اقتضت أنه لايصح فى النهاية إلا الصحيح ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

* * *

١٠ - كذلك من أدب الحوار فى الإسلام : **تحديد المفاهيم ، وضبط الأحكام ،** لأنه من المتفق عليه بين العقلاء ، أن فهم الأمور فهما سليما ، يؤدى الى الحكم الصحيح عليها إذ معظم الأحكام الخاطئة ، مرجعها إلى الفهم السقيم ، أو الى الخلط بين الألفاظ والمعانى ، خلطا يلتبس فيه الحق بالباطل ، والصحيح بغيره . .

وقد قالوا : إن تحرير محل النزاع ، يؤدى إلى حسن الاقتناع ، فالألفاظ متى تحددت معانيها والقضايا متى وضحت معالمها ، سهل الوصول إلى الاتفاق بين المختلفين ، وظهر الرأى الذى تؤيده الحجة القوية ، وتطمئن إلى صحته العقول السليمة . .

ويعجبني في هذا المقام ، قول الدكتور محمد البهي - رحمه الله - في كتابه :«تحديد المفاهيم أولا ص٥» : «لم يكن اختلاف الناس في الرأي ، واختلافهم في تطبيقه ، إلا وليد الاختلاف في تحديد مفاهيم الأشياء ، ومدلول الكلمات والمصطلحات ، ولم يكن قيام المذاهب الفلسفية والدينية والسياسية ، ولم تكن التبعية لها ، والجحود عليها ، إلا نتيجة الاختلاف في الرأي وفي تطبيقه » .

* * *

ومنذ فترة ليست بالطويلة ، أثير موضوع حقوق الأقليات في بعض الأمم ، والذي لا يختلف فيه اثنان أن بعض الأوطان معظم سكانها من المسلمين ، وهناك أوطان أخرى معظم سكانها من غير المسلمين ، وقد يكون المسلم وغير المسلم يحملان جنسية واحدة لدولة واحدة ، وقد يكون الأمر خلاف ذلك . .

والسؤال الذي تهمني الإجابة عليه ، والذي كثر الجدال في شأنه : هل شريعة الإسلام فرقت في معاملاتها بين المسلمين وبين مواطنيهم من غير المسلمين - مهما قل عددهم - ، من حيث الحقوق والواجبات ، ومن حيث الكرامة الإنسانية ، والعدالة الاجتماعية ؟

أستطيع أن أقول من واقع فهمي لشريعة الإسلام ، أنها ساوت بين الجميع في الحقوق والواجبات ، وفي الكرامة الإنسانية ، وفي العدالة الاجتماعية ، وفي صيانة أرواح الجميع وأعراضهم وأموالهم من كل عدوان ، وفي إقامة العلاقات بينهم على أساس التسامح والتراحم وتبادل المنافع التي أحلها الله - تعالى - .

ومن الأدلة على ذلك أنها أمرت المسلمين بأن يقيموا علاقاتهم مع غيرهم على البر والقسط ، ماداموا لم يسيئوا إليهم . استمع إلى قوله - تعالى - : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾

[الممتحنة : ٨ ، ٩] .

أي : لاينهاكم الله - أيها المسلمون - عن مودة وصلة غيركم ممن يخالفونكم في العقيدة والدين ، ما دام هؤلاء المخالفون لكم في دينكم ، لم يسيئوا إليكم ، بل عليكم

أن تقيموا علاقتكم معهم على العدل والبر ، لأن الله - تعالى - يحب العادلين فى أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم . . .

إنما ينهاكم الله - تعالى - عن بر وصلة من أظهر لكم العداوة ، أو عاون غيره على ذلك ، ومن يتعاون منكم - أيها المسلمون - مع من أساء وحارب دين الإسلام يكن من الظالمين المستحقين للعقاب الشديد .

فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد رسمتا للمسلمين - بكل صراحة ووضوح - كيف يبنون علاقاتهم مع من يخالفونهم فى عقيدتهم ، إذ الآية الأولى تدعو إلى بر وصلة غير المسلمين الذين لم يسيئوا إلينا ، بينما الآية الثانية تنهى عن ذلك بالنسبة لمن أظهر الشر لنا أو أعان غيره على مافيه مضرة بنا ، وهذه قاعدة عامة بالنسبة لمعاملة غير المسلمين جميعا .

أما بالنسبة لغير المسلمين من أهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى - ، فيضاف إلى هذه القاعدة العامة ، أن شريعة الإسلام نهت عن مجادلتهم إلا بالتى هى أحسن ، حتى تستمر العلاقة الطيبة بيننا وبينهم . قال - تعالى - :﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت : ٤٦]

ولم تكتف شريعة الإسلام بذلك ، بل أباحت مؤاكلة أهل الكتاب ، والأكل من ذبائحهم والزواج من نسائهم دون نساء المشركين ، واستمع إلى قوله - تعالى- :﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥) ﴾ [المائدة : ٥]

وجاءت أحاديث النبى ﷺ ففصلت ما أجمله القرآن الكريم ، وأمرت بمعاملة أهل الكتاب معاملة كريمة ، تقوم على الحق الذى لا يلتبس به باطل ، وعلى العدل الذى لا يحوم حوله ظلم ، وعلى المصارحة التى لا تعرف الملق أو النفاق ، ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ : «من آذى ذميا فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة» . وقوله ﷺ فى حديث آخر : «من آذى ذميا فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله» .

فإذا ما أصبح المسلمون وغير المسلمين يعيشون فى دولة واحدة، ويحملون جنسية واحدة، ويضمهم وطن واحد، وتظلهم سماء واحدة، وتقلهم أرض واحدة، وتجمعهم مصالح مشتركة، كما هو الحال بالنسبة لنا فى مصر...

أقول : إذا ما أصبح الحال كذلك، صار غير المسلمين - مهما قل عددهم - لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما على المسلمين من واجبات ، وفى الوقت ذاته لكل فريق منهم عقيدته التى اختارها لذاته ، ودينُه الذى ارتضاه لنفسه ، لأن العقائد والأديان لا إكراه عليها ولا إجبار ، كما قال - سبحانه - : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

وفى معنى هذه الآية جاءت آيات قرآنية كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠] .

ومادام غير المسلم يحترم عقيدة المسلم ولا يسيء إليها ، وما دام يحترم حق المواطنة فى الدولة التى دينها الرسمى الإسلام ، فشريعة الإسلام توجب على أتباعها تبادل هذا الاحترام ، وتنهاهم عن الإساءة الى عقائد غيرهم ، واستمع إلى قوله - تعالى - : ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) ﴾ [الأنعام: ١٠٨] .

ويطول المقال لو أردنا أن نسوق الأدلة المتعددة على أن شريعة الإسلام لاتفرق فى الحقوق والواجبات ، وفى تحقيق العدالة بين الناس سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين ، لأن فضيلة العدل عليها قامت السموات والأرض - كما جاء فى الحديث الشريف - ، وقد أمرنا - سبحانه - أن نكون عادلين فى أقوالنا ، وأحكامنا ، وشهادتنا ، مع أصدقائنا ومع أعدائنا ، قال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨] .

وحسبنا أن نذكر قصة ، أشار إليها القرآن الكريم فى تسع آيات من سورة النساء من (١٠٥ - ١١٣) ، وتتلخص أحداث هذه القصة فى أن رجلا من يظهرون الإسلام اسمه طعمة بن أبيرق ، سرق درعا من جار له اسمه قتاده بن النعمان ، ثم خبأها سرا عند رجل يهودى يدعى زيد بن السمين ، وعندما ضبطت الدرع عند اليهودى ، ذكر أن طعمة بن أبيرق هو الذى وضعها عنده ، ولكن طعمة أنكر ذلك وزعم أن اليهودى هو السارق ، وجاء أقارب طعمة ليدافعوا بالباطل ، فما المنهج العادل الذى نزل القرآن لتحقيقة ؟ كان هذا المنهج القويم يتمثل فى قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) ﴾ [النساء : ١٠٥ - ١٠٧] .

أى : إنا أنزلنا إليك يامحمد هذا القرآن ، إنزالا ملتبسا بالحق وبالعدل ، لكى تحكم بين الناس فى قضاياهم بما علمك الله - تعالى - ، واحذر أن ينحاز فكرك إلى أولئك الخائنين الذين يظهرون خلاف مايبطنون . واستغفر الله عما قد يجول فى قلبك من ميل نحو من لم تثبت براءته ، إن الله كان غفورا رحيما . ولا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم عن تعمد ، لأن الله - تعالى - لا يحب من كانت هذه صفاته ، ومن كان من طباعه أن يستحى من الناس ، ولا يستحى من الله - تعالى - ، مع أنه - سبحانه- يعلم ما يخفون ومايعلنون .

ثم وبخ - سبحانه - أقارب طعمة بن أبيرق الذين دافعوا عنه بالباطل ، وشهدوا شهادة ليست عادلة ، فقال - تعالى - : ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ ثم فتح - سبحانه - بعد هذا التوبيخ الشديد للخائنين باب التوبة الصادقة فقال : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

ثم بين - سبحانه - أن الأفعال السيئة يعود ضررها على صاحبها وحده فقال : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

ثم أنذر - سبحانه - الذين يرتكبون الأفعال القبيحة ثم يلصقونها بغيرهم من الأبرياء، أنذرهم بسوء المصير فقال : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ ثم ختمت الآيات الكريمة ببيان بعض مظاهر فضله - سبحانه - على نبيه محمد ﷺ فقال : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ . أى : أن يضلوك عن القضاء بالحق بين الناس - ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) ﴾ .

وهكذا نرى هذه الآيات الكريمة تهدى الناس إلى الحق الذى لا يميل مع الهوى ، ولا مع العصبية ، ولا يتأرجح مع الحب أو البغض أو مع الكثرة أو القلة ، حتى ولوكان الذى عليه الحق من يظهرون الإسلام ، ويعاملون معاملة المسلمين ، وكان الذى له الحق من غير المسلمين ، فهل رأيت - أيها القارئ الكريم - عدالة تقترب من هذه العدالة فى سموها ونقائها واستقامة منهجها ؟ !!

* * *

إن القاعدة الأولى فى معاملة غير المسلمين - مهما قل عددهم - ، والذين يعيشون مع إخوانهم المسلمين فى دولة واحدة ، ويحمل الجميع جنسية واحدة وتظلهم راية واحدة ، القاعدة الأولى : أن لهم ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما على المسلمين من واجبات ، والكل تصون شريعة الإسلام عرضه وماله وكرامته ، ومن يحسن منهم فى قوله أو فعله يثاب ويكافؤ على إحسانه ، ومن يسئ فهم فى قوله أو فعله يحاسب على إساءته دون محاباة أو ظلم ، وفى الوقت ذاته لكل إنسان عقيدته التى اختارها ، ودينه الذى ارتضاه لنفسه ، وأصحاب العقائد السليمة ، والعقول القويمة - ولاسميا الذين يحملون جنسية واحدة - لايتصارعون ، ولا يتحاسدون ، ولا يتطاولون ، ولا يبغى بعضهم على بعض ، وإنما يتعاونون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان «وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

* * *

١١- كذلك من أدب الحوار فى الإسلام : المصارحة والمكاشفة بإخلاص وموضوعية وإبراز الحقائق مع أدلتها المقنعة ومع الفهم السليم والعميق للقضايا والأحكام الشرعية .

وأريد هنا أن أسوق قضيتين ، كثر الحديث عنهما ، والتبس فيهما الحق بالباطل ، واختلف الناس فى عرضهما ، وفي الحكم فيهما ، وأسوق هاتين القضيتين كمثال لما اختلف فيه الناس .

أما القضية الأولى ، فتتعلق بحقوق المرأة وواجباتها .

وأريد هنا أن أركز على إبراز أهم مظاهر التكريم والإعزاز للمرأة ، كما جاءت بها شريعة الإسلام فأقول :

إن المتدبر للقرآن الكريم ، يراه قد خص المرأة بحديث مستفيض ، بين فيه حقوقها وواجباتها ، ورفع من شأنها ، وأثنى عليها بما تستحقه من تكريم ، وشملها فى جميع تشريعاته بالرحمة والعدل ، ووكل إليها أمورا هامة فى حياة المجتمع ، وسوى بينها وبين الرجل فى معظم شئون الحياة ، ولم يفرق بينهما إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة طبيعة كل من الجنسين ، ومراعاة المصلحة العامة للأمة ، والحفاظ على تماسك الأسرة واستقامة أحوالها ، بل ومنفعة المرأة ذاتها .

ومن أبرز مظاهر تكريم شريعة الإسلام للمرأة ، ووجوه المساواة بينها وبين الرجل مايأتى :

(١) تقرير المساواة بينهما فى أصل الخلقة :

وهذه الحقيقة نراها فى آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً . . ﴾ [النساء : ١] .

والمعنى : يأيها الناس اتقوا ربكم ، بأن تطيعوه فلا تعصوه ، وبأن تشكروه فلا تكفروه ، فهو وحده الذى أوجدكم بقدرته من نفس واحدة ، هى نفس أبيكم آدم ، وأوجد - أيضا - من هذه النفس الواحدة ومن جنسها زوجها وهى حواء ، ونشر من هذه النفس الواحدة وزوجها على وجه التوالد والتناسل ، رجالا كثيرا ، ونساء كثيرات .

والتعبير بالبث فى قوله – تعالى – : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ : يشعر بأن هؤلاء الذين توالدوا وتناسلوا ، عن تلك النفس الواحدة وزوجها ، قد تكاثروا وانتشروا فى أقطار الأرض ، على اختلاف ألوانهم . ولغاتهم ، وبأن من الواجب عليهم – مهما تباعدت ديارهم ، واختلفت ألسنتهم وأشكالهم – أن يدركوا أنهم جميعا ينتمون إلى أصل واحد . وهذا يقتضى تراحمهم وتعاطفهم فيما بينهم .

وشبيه بهذه الآية فى أن الرجل والمرأة من أصل واحد ، قوله – سبحانه – : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) ﴾ [الحجرات : 13] .

أى : يا أيها الناس إنا أوجدناكم جميعا من ذكر واحد هو آدم ، ومن أنثى واحدة هى حواء ، فأنتم جميعا رجالا ونساء تنتسبون إلى أصل واحد ، وجعلناكم بقدرتنا شعوبا ذات أعداد كبيرة ، وقبائل تمثل جزءا من تلك الشعوب ، ليعرف بعضكم نسب بعض ، ولتدركوا جميعا أن أكرمكم عند الله – تعالى – هو أكثركم طاعة له ، واستجابة لأداء تكاليفه ، سواء أكان من الرجال أم من النساء .

وشبيه بهاتين الآيتين فى تقرير المساواة بين الرجال والنساء فى أصل الخلقة ، قوله – سبحانه – : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ . . . ﴾ [آل عمران : 195] .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة فى أعقاب ذكر جانب من الدعوات الطيبات الخاشعات ، التى تضرع بها المؤمنون الصادقون إلى خالقهم .

أى : فاستجاب الله – تعالى – لهؤلاء المتقين دعاءهم ، وبشرهم بأنه لا يضيع عمل عامل منهم ، سواء أكان من الذكور أم من الإناث ، لأنهم جميعا من أصل واحد ، ولأن الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر .

بل إن حكمته – عز وجل – قد اقتضت أن جميع المخلوقات تتكون من ذكر وأنثى ، كما قال – سبحانه – : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : 49] .

أى : ومن كل شىء فى هذا الكون الذى لا يعلم سعته ومخلوقاته إلا خالقه ـ تعالى ـ ، أوجدنا نوعين متقابلين ، كالذكر والأنثى ، والليل والنهار والسماء

والأرض ، والغنى والفقر ، والهدى والضلال ، وقد فعلنا ذلك لعلكم تعتبرون وتتعظون ، وتتذكرون ما يجب عليكم نحو بارئكم من الشكر والطاعة .

فمعنى قوله - تعالى - : ﴿ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ . . . ﴾ : أن الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر ، وأنهما متساويان فى أصل الخلقة . وقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة ، فأكدت هذه الحقيقة السافرة ، وهى أن الرجال والنساء ، قد أوجدهم الله- تعالى - من أصل واحد ، ومن هذه الأحاديث : ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، وأبو داود والترمذى فى سننهما ، عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال : « إنما النساء شقائق الرجال » .

ولتأكيد هذه الحقيقة ، وهى أن الذكور والإناث يتساوون فى أصل الخلقة ، حرمت شريعة الاسلام تحريما قاطعا ، ماكان شائعا بين بعض قبائل العرب فى الجاهلية ، من تفضيل الذكور على الإناث ، ومن قتل البنات وهن صغار . ومن الآيات التى حرمت ذلك تحريما شديدا ، قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) ﴾ [النحل : ٥٨ ، ٥٩] .

ولتأكيد هذه الحقيقية أيضا - ، ولإثبات مظهر من مظاهر قدرته التى لا يعجزها شىء ، ولا يستطيع أى مخلوق أن يتجاوز ما قدره وأراده ، قرر - سبحانه - أنه وحده الذى يملك أن يمنح لمن يشاء الذكور ، وأنه يمنح لمن يشاء الإناث ، فقال - تعالى - : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى : ٤٩ ، ٥٠] .

ففى هاتين الآيتين وضح - سبحانه - ، أن أحوال الناس بالنسبة للذرية ، لا تخلو من أقسام أربعة ، فهو - سبحانه - إما أن يهب لمن يشاء من عباده الإناث فقط ، وإما أن يهب لهم الذكور فقط ، وإما أن يهب لهم الذكور والإناث معا ، وإما أن يجعل بعضهم عقيما ، أى : لا ذرية له .

وهذه الأحوال الأربعة ، كلها مشاهدة فى حياة الناس ، مما يدل على كمال قدرته

– عز وجل – ، وعلى نفاذ مشيئته وحكمته ، وعلى أن الناس مهما أوتوا من علم وقوة ، فهناك أمور فوق علمهم وقوتهم ، ولن يستطيع أحد إيجادها سوى الله – تعالى – .

ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن الرجل والمرأة متساويان فى أنهما من أصل واحد ، وأنه ليس لأحدهما من مقومات الإنسانية أكثر مما للآخر ، وأنه لا فضل لأحدهما على الآخر إلا بالإيمان والعمل الصالح . . . ومع هذه المساواة بين الرجال والنساء فى أصل الخلقة ، إلا أن الله – تعالى – قد اقتضت حكمته لعمارة هذا الكون ، أن يختص الرجال – فى مجموعهم – بالمزيد من قوة الجسم ، ومن تحمل المشاق . . . وأن يختص النساء – فى مجموعهن – برقة العواطف ، وحنان القلب ، ويكفى أن الرسول ﷺ قد وصفهن بالقوارير ، وقال «ماأكرم النساء إلا كريم ، وما أهانهن إلا لئيم» وقال : «استوصوا بالنساء خيرا» .

ولقد تغنى الأدباء والشعراء بمناقب النساء ، ورقة إحساسهن ، وشدة تأثرهن بالأحداث ، واستمع إلى أمير الشعراء أحمد شوقى – رحمه الله – ، وهو يرثى المرحوم مصطفى فهمى باشا ، بعد أن مات وترك عددا من الإناث ليس من بينهن رجل فيقول :

أ أبا البنات ، رُزِقتهن كرائما ... ورُزقتَ فى أصهارك الكرماءِ
لا تذهبن على الذكور بحسرة ... الذِّكْر نعم سلالةُ العظماءِ
إن البنات ذخائر من رحمة ... وكنوز حب صادق ووفاءِ
والساهرات لِعلّةٍ أو كَبرَةٍ ... والصابرات لشدة وبلاءِ
والباكيات حين ينقطع البكا ... والزائرات فى العراء النائى
والذاكرات ما حيين تحدثا ... بسوالف الحرمات والآلاءِ
عذرا لهن إذا ذهبن مع الأسى ... وطلبن عند الدمع بعضَ عزاءِ

* * *

(٢) المساواة بينهما فى التكاليف الشرعية:

كثيرا ما نرى القرآن الكريم يجمع بين الرجال والنساء فى التكاليف الشرعية ، وفي الأوامر الدينية ، وفى الثواب على الإحسان ، وفى العقاب على المعصية ، وفي توجيه الخطاب إليهما معا . .

ومن الآيات القرآنية التى تدل على ذلك قوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥) ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

فهذه الآية الكريمة قد اشتملت على عشر فضائل ، جمع الله - تعالى - فيها بين الرجال والنساء . وأخبر أن الثواب العظيم كائن لمن يتحلى بها ، سواء أكان من الذكور أم من الإناث .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : مارواه الإمام أحمد والنسائى وغيرهما ، عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : قلت للنبى ﷺ : ما لنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ؟

قالت : فلم يَرُعْنِى منه ﷺ ذات يوم إلا نداء على المنبر ، وهو يتلو هذه الآية .

وقال - سبحانه - : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل : ٩٧] .

فهذه الآية الكريمة سوت بين الرجال والنساء فى الثواب على العمل الصالح ، وفى الحصول على الحياة الطيبة ، وشبيه بهذه الآية قوله - سبحانه - : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴾ [التوبة : ٧١ - ٧٢] .

ففى هذه الآيات أسمى ألوان البشارات لمن يؤدى هذه التكاليف الشرعية ، والفضائل الخلقية ، سواء أكان من الرجال أم من النساء .

وقال - سبحانه - : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾

[النور: ٣٠، ٣١] .

والمتدبر لهاتين الآيتين يراهما قد رسمتا للرجال وللنساء على السواء ، أرقى ألوان الحياة الفاضلة ، التى تقوم على الطهر والعفاف والنقاء ، فهما تأمران الرجال والنساء بغض البصر ، كما تأمرانهم بصيانة أعراضهم عن كل ما لايليق .

ومع أن النساء يدخلن فى خطاب الرجال على سبيل التغليب ، إلا أن الله - تعالى- خصهن بالخطاب هنا بعد الرجال ، لتأكيد الأمر بغض البصر وبالتحلى بالعفاف ، ولبيان أنه كما لايحل للرجل أن ينظر إلى المرأة إلا فى الحدود التى أحلها الله - تعالى - ، فكذلك لا يحل للمرأة - أيضا - أن تنظر إلى الرجل إلا فى الحدود المشروعة ، لأن علاقته بها كعلاقتها به ، ومقصده منها كمقصدها منه ونظرة أحدهما إلى الآخر - على سبيل الفتنة وسوء النية - تؤدى إلى الشرور والآثام .

والمقصود بقوله - سبحانه - : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ : أن على كل أنثى بالغة ألا تظهر شيئا من جسدها أمر الله - تعالى - بستره ، إلا ما جرت العادة بإظهاره ، وجمهور الفقهاء على أن المراد بذلك : الوجه واليدان .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ : بيان لكيفية إخفاء بعض مواضع الزينة ، بعد النهى عن إبدائها .

والخُمُر - بضم الخاء والميم : جمع خمار . وهو ماتغطى به المرأة رأسها وعنقها وصدرها . والجيوب : جمع جيب ، وهو فتحة فى أعلى الثياب يبدو منها بعض صدر المرأة وعنقها .

أى : وعلى النساء المؤمنات أن يسترن رءوسهن وصدورهن بهذا الغطاء المسمى بالخمار ، حتى لا يطلع أحد من الأجانب على شىء من ذلك .

والمراد بزينتهن فى قوله - تعالى - : ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ : الزينة الخفية ، وهى ماعدا الوجه واليدين ، كشعر الرأس والذراعين والساقين ، فقد نهى - سبحانه - النساء المؤمنات من إبداء مواضع الزينة الخفية إلا لمن استثناهم سبحانه - بعد ذلك ، وهم اثنا عشر نوعا منهم : الأزواج ، والآباء ، وآباء الأزواج ، والأبناء ، وأبناء الأزواج ، والإخوة ، وأبناء الإخوة ، ويلحق بهؤلاء المحارم : الأعمام ، والأخوال ، كما يلحق بهم النساء والخدم والرجال الذين تقدمت بهم السن والذين لا رغبة لهم فى النساء إلا من حيث العون والمساعدة ، وكذلك الأطفال الصغار . . .

والمقصود بقوله - سبحانه - : ﴿ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ : نهى المرأة المسلمة عن استعمال أى حركة أو فعل من شأنهما إثارة الشهوة أو الفتنة ثم ختم - سبحانه - هذه الآية الجامعة لأنواع من الآداب السامية ، بقوله - تعالى- :﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

هذا ، وقد بايع النبى ﷺ النساء كما بايع الرجال على إخلاص العبادة لله - تعالى - ، وعلى أداء التكاليف الشرعية وعلى التحلى بمكارم الأخلاق . قال - تعالى- : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة : ١٢] .

فالآية الكريمة صريحة فى أن النساء يتساوين مع الرجال فى مبايعتهن لرسول الله ﷺ على الالتزام بالتكاليف الشرعية ، التى كلف - سبحانه - بها الرجال . وإذا كانت شريعة الإسلام قد أسقطت عن النساء بعض التكاليف الشرعية فى حالات الحيض أو النفاس ، فذلك من باب الرحمة بهن ، والتخفيف عنهن ، ومراعاة أحوالهن الجسمية والنفسية . وبذلك نرى أن شريعة الإسلام لم تفرق بين الرجال والنساء فيما يتعلق بالتكاليف الشرعية ، من عقائد وعبادات وآداب وسلوك حميد ، وغير ذلك من وجوب اعتناق الفضائل ، واجتناب الرذائل .

* * *

(٣) المساواة فى طلب العلم والمعرفة:

كما أن شريعة الإسلام لم تفرق بين الرجل والمرأة فى أصل الخلقة ، وفى التكاليف الشرعية - كما سبق أن ذكرنا - ، كذلك لم تفرق بينهما فى طلب العلم ، بل أمرتهما بالتسلح بالعلم النافع ، وبالثقافة المفيدة ، وبالمعرفة التى تعود عليهم وعلى أمتهم بالخير .

ولقد شرف الله - تعالى - أهل العلم - سواء أكانوا من الذكور أم من الإناث - تشريفا عظيما ، ومن مظاهر ذلك : أنه قرنهم بملائكته فى الشهادة له بالوحدانية فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وأنه قصر خشيته والخوف منه عليهم فقال :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وأنه - تعالى - قرر أن العلماء وحدهم هم الذين يعقلون ما يضربه للناس من أمثال ، فقال : ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

وأنه نفى التسوية بينهم وبين غيرهم فقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩] .

وأنه - سبحانه - رفع درجاتهم عنده فقال : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

ثم جاءت الأحاديث النبوية الشريفة ، فأكدت هذا التكريم لأهل العلم سواء أكانوا من الرجال أم من النساء ، ففى الصحيحين : «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين» .

وروى أبو داود والترمذى عن أبى الدرداء ﷺ قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «من سلك طريقا يبتغى فيه علما ، سهل الله له طريقا إلى الجنة . . . »

ولقد كان النبى ﷺ يجعل وقتا للنساء يخصهن فيه بالإرشاد والتعليم والإجابة على أسئلتهن ، فقد روى البخارى وغيره عن أبى سعيد الخدرى قال : قالت النساء للنبى ﷺ غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوما من نفسك ، فوعدهن يوما لقيهن فيه ، فوعظهن وأمرهن . . . » .

وفى حديث آخر : جاءت امرأة للنبى ﷺ فقالت : يارسول الله ، ذهب الرجال بحديثك ، فاجعل لنا فى نفسك يوما نأتى إليك فيه تعلمنا مما علمك الله . قال - ﷺ - فاجتمعنَ يوم كذا وكذا . فاجتَمعن ، فجاء ﷺ فعلمهن مما علمه الله .

والذى يراجع كتب السنة النبوية ، يرى كثيرا من الأحاديث قد رواها عدد من النساء عن النبى ﷺ ، وقد كان للسيدة عائشة - رضى الله عنها - نصيب كبير منها ، وكذلك لغيرها من أمهات المؤمنين .

ولقد ذكر الأستاذ عبد الله عفيفى - رحمه الله - فى كتابه : «المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها» جـ٢ ص١٣٨ ، نماذج متعددة لنساء كان لهن أثرهن العظيم فى العلوم الشرعية واللغوية والأدبية وغيرها . والأم العاقلة الرشيدة فى كل زمان ومكان ، هى التى تحرص على نشر العلم النافع بين الرجال والنساء على السواء ، دون تفرقة بينهم ، ورحم الله شاعر النيل حافظ إبراهيم فقد قال :

من لى بتربية النساء فإنها ... فى الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددتَ شعبا طيب الأعراق
الأم رَوض إن تعهده الحيا ... بالرىِّ أورق أيما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الألى ... شغلت مآثرهم مَدى الآفاق

وفى عصرنا هذا ، نجد الآلاف من النساء اللائى بلغن أسمى الدرجات فى تحصيل العلم ، ووصلن إلى أرقى المناصب فى شتى الوظائف ، وهذا شىء يسعد الأم ، ونسأل الله - تعالى - منه المزيد والمزيد .

* * *

(٤) المساواة فى حق العمل:

إذ العمل الذى أحله الله - تعالى - حق مشروع لكل من الرجل والمرأة دون تفرقة بينهما فى هذا الحق .

قال - تعالى - : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] .

وقال - سبحانه - : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] .

وليس فى شريعة الإسلام ، ما يمنع المرأة من أن تكون طبيبة أو مهندسة أو مدرسة أو تاجرة ، أو فى أى عمل شريف ، تبغى من ورائه الرزق الحلال الذى يغنيها عن سؤال الناس ، وتؤديه بعفاف واحتشام وستر لما أمر الله - تعالى - بستره من جسدها .

لقد أباحت شريعة الإسلام للمرأة أن تضطلع بالوظائف العامة ، وبالأعمال المشروعة ، التى تحسن أداءها ، ولا تتنافر مع طبيعتها كأنثى ، ولم تقيد هذا الحق إلا بما يحفظ لها كرامتها ، ويصونها عن التبذل ، وينأى بها عن كل ما يتعارض مع الخلق الكريم ، والسلوك الحميد ، ويبعدها عن قيامها بواجباتها نحو زوجها وأولادها . .

والمتدبر لأحوال المجتمع فى العهد النبوى وفى عهود السلف الصالح ، يرى أن النساء كن يقمن بكثير من الأعمال داخل بيوتهن وخارجها .

فهذه أسماء بنت أبى بكر الصديق ، بعد أن تزوجت بالزبير بن العوام ﷺ تقول عن نفسها ، «كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله ، وكنت أسوس فرسه وأعلفه ، وكنت أفرى الدلو ، وأسقى الماء ، وأحمل النوى على رأسى من أرض له على ثلثى فرسخ» .

وهذه عائشة وأم سُلَيم ، كانا يخدمان المجاهدين فى غزوة أحد ، ويقدمان لهم الماء وماهم فى حاجة إليه .

وهذه أمينة بنت قيس الغفارية ، أبلت بلاء حسنا فى غزوة خيبر فقلدها الرسول ﷺ بعد الغزوة قلادة ، فكانت تتزين بها على صدرها طول حياتها ، وأوصت بدفنها معها بعد وفاتها .

وهكذا نرى أن شريعة الإسلام قد سوت بين الرجل والمرأة فى حق العمل ، مادام هذا العمل من الأعمال التى أحلها الله - تعالى - ، ويتناسب مع طبيعتها وخصائصها وكرامتها . .

* * *

(٥) المساواة فى الحقوق المدنية:

إن الذى يتأمل شريعة الإسلام ، يراها قد سوت بين الرجال والنساء ، فيما يسمى بالحقوق المدنية على اختلاف أنواعها ، كالبيع والشراء والتملك والتصرف فى التملك

والوكالة وغير ذلك من ألوان التصرف ، ومن الأدلة على ذلك ما يأتى :

إذا كانت الفتاة لم تبلغ سن الرشد ، فقد أمر القرآن الكريم وليها بالمحافظة على أموالها ، وبالعمل على تنمية هذه الأموال واستثمارها حتى تبلغ سن الرشد ، فإذا ما بلغت هذه السن ، وجب عليه أن يؤدى إليها مالها كاملا غير منقوص ، ولا فرق فى ذلك بين الذكر والأنثى .

ومن الآيات التى تقرر ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٦] .

فإذا مابلغت المرأة سن الرشد ، أباحت لها شريعة الإسلام - كغيرها من الرجال - أن تتعاقد عن طريق البيع أو الشراء أو الهبة أو الوصية ، أو ما يشبه ذلك من العقود ، وأعطتها كامل الحرية فى تحمل الالتزامات ، وفى تملك ما تريد أن تتملكه من أموال أو عقارات أو منقولات ، وأن تتصرف فيما تملكه بالطريقة التى تختارها ، ولا يصح لغيرها سواء أكان زوجا أم غير زوج أن يتصرف فى أموالها إلا بإذنها . . .

كما أن شريعة الإسلام أباحت للمرأة البالغة الرشيدة ، أن تختار الزوج الذى تريده اختيارا حرا ، لا إكراه معه ولا إجبار ، ومنعت وليها من إجبارها ، وجعلت العقد عليها دون استئذانها غير صحيح ، وأباحت لها حق المطالبة بفسخ عقد الزواج . . .

ومن الأحاديث الصحيحة التى وردت فى وجوب استئذان المرأة قبل زواجها ، قوله ﷺ : « لاتُنكح الأيم - أى التى سبق لها الزواج - حتى تُستأمر - أى : حتى تصرح برضاها - ولا البكر حتى تستأذن : قالوا : يارسول الله ، وكيف إذنها ؟ قال : أن تسكت» .

بل إن الإمام أبا حنيفة يرى أن للمرأة البالغة الرشيدة ، أن تزوج نفسها بمن تشاء ، بشرط أن يكون كفئا لها ، وليس لوليها حق الاعتراض عليها ، إلا إذا زوجت نفسها من غير كفْئًا لها ، أو كان مهرها أقل من مهر مثلها .

ومن حجج الإمام أبى حنيفة فى ذلك : أنها مادامت تستقل بعقد البيع وغيره من العقود ، فمن حقها أن تستقل بعقد زواجها ، إذ لا فرق بين عقد وعقد .

وهكذا نرى أن شريعة الإسلام ، قد أعطت المرأة كافة الحقوق التى أعطتها للرجل ، من حيث التملك ، والتصرف فى تلك الممتلكات بكافة أنواع التصرفات المشروعة . . .

* * *

(٦) المساواة فى تحمل المسئولية :

إذ من القواعد المقررة فى شريعة الإسلام ، أن المرأة كالرجل فى تحمل المسئولية ، فهما يستويان فى الثواب على الطاعة ، وفى العقاب على المعصية .

قال - تعالى - : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) ﴾ [النساء : ١٢٤] .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) ﴾ [المائدة : ٣٨] .

وقال - عز وجل - : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ . . . ﴾ [النور : ٢] .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته . والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها . . .»

والخلاصة : أن من المبادئ والأسس التى قامت عليها شريعة الإسلام : أن كل إنسان بالغ عاقل ، مسئول عن تصرفاته وأقواله وأفعاله ، سواء أكان رجلا أم امرأة ، حاكما أم محكوما . . .

* * *

(٧) المساواة فى الكرامة الإنسانية :

إذ كرامة الرجل من كرامة المرأة ، وكرامة المرأة من كرامة الرجل ، ولقد كرم الله -

تعالى - جميع ذرية آدم - عليه السلام - فقال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

والمقصود ببنى آدم هنا : مايشمل ذكورهم وإناثهم .

والقرآن الكريم ساوى بين الرجال والنساء فى وجوب صيانة أعراضهم ، وفى وجوب عقوبة من يقذفهم بالتهم الباطلة ، ويكفى قوله - سبحانه - : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ٢٣] .

وقوله عز وجل - : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾ [النور: ٤، ٥] .

وثبت أن النبى ﷺ كما قبل جوار الرجال ، قبل جوار النساء ، وكما أكرم الرجال أكرم النساء ، وقال للسيدة أم هانئ عندما أجارت بعض أقارب زوجها : «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ » .

بل لعلى لا أكون مبالغا إذا قلت إن حرص شريعة الإسلام على كرامة النساء ، تفوق حرصها على غيرهن

* * *

(٨) المساواة فى أصل التوارث:

كانت المرأة فى الجاهلية لا ترث شيئا من المال ، وكذلك الصغار وإن كانوا ذكورا ، وكان أهل الجاهلية يقولون : لايرث إلا من قاتل على ظهور الخيل ، وطاعن بالرمح ، وقاتل بالسيف ، وحاز الغنيمة . . .

فجاء الإسلام وقرر أن للمرأة حقا فى الميراث كالرجل . قال - تعالى - : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) ﴾ [النساء: ٧] .

ثم فصلت شريعة الإسلام هذا الحق فى التوارث ، فجعلت نصيب الأنثى نصف الذكر ، قال - تعالى - : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ... ﴾ [النساء: ١١] .

وقد جعل - سبحانه - نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى ؛ لأن التكليفات المالية على المرأة ، تقل كثيرا عن التكليفات المالية على الذكر ، إذ الرجل مكلف - شرعا- بالنفقة على نفسه ، وعلى زوجته ، وعلى أولاده ، وعلى كل من يعولهم ، بينما المرأة نصيبها من الميراث أو من كل ماتملكه لها خاصة ، لا يشاركها فيه مشارك ، اللهم إلا على سبيل التبرع والمساعدة لغيرها

* * *

(٩) المساواة فى أصل الشهادة :

فقد احترمت شريعة الاسلام شهادة المرأة فى الشئون الخاصة بالنساء ، واعتبرتها هى الأصل فى رد الحقوق إلى أصحابها . وفيما عدا ذلك من الأمور التى تقبل شهادتها فيها ، جعلت شهادة المرأتين معادلة لشهادة رجل واحد ، ولا تكون الشهادة كاملة الأركان إلا إذا شارك فيها الرجال .

قال - تعالى - فى أطول آية فى القرآن - : ﴿ ... وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ... ﴾ [البقرة: ٢٨٢] .

أى : وقد جعلنا المرأتين بدل رجل واحد فى الشهادة ، خشية أن تنسى إحداهما ، فتذكر كل واحدة منهما الأخرى ، إذ المرأة لقوة عاطفتها ، وشدة انفعالها بالأحداث ، قد تتوهم شيئا لم يحدث ، فكان من الحكمة أن يكون مع المرأة أخرى فى الشهادة ، بحيث يتذاكران الحق فيما بينهما ..

وعلى آية حال فما أمر الله - تعالى - به أو نهى عنه ، علينا أن نقول سمعنا وأطعنا ، سواء فهمنا الحكمة من وراء هذا الأمر أو النهى أم لم نفهمها .

* * *

(١٠) **وبعد** : فمن كل ماتقدم نرى أن شريعة الإسلام قد سوت بين الرجال والنساء فى أصل الخلقة ، وفى التكاليف الشرعية وفى طلب العلم ، وفى حق العمل ، وفى الحقوق المدنية ، وفى تحمل المسئولية ، وفى الكرامة الإنسانية ، وفى أصل التوارث ، وفى أصل الشهادة . . ولكن هل معنى هذه المساواة أنه لا توجد أية فوارق بين الرجل والمرأة ؟ الحق أن شريعة الإسلام قد فرقت بين الرجل والمرأة فى أمور معينة ، لأن العدالة ، والمصلحة ، وسعادة الجنسين ، وطبيعة كل منهما تقتضى ذلك ، إذ ما بالذات لا يتغير ، والرجل رجل فى خصائصه وتكوينه ، والمرأة امرأة فى خصائصها وتكوينها . وقد أشار القرآن الكريم فى مواطن متعددة إلى تلك الفوارق بين الرجل والمرأة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) ﴾ [النساء : ٣٢] .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما جاء عن السيدة أم سلمة - رضى الله عنها - أنها قالت للرسول ﷺ : يارسول الله ، يغزو الرجال ولا نغزو ، ولنا نصف الميراث ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .

وهذه نماذج موجزة لأمور فرقت فيها شريعة الإسلام بين الرجال والنساء :

فى مجال العبادات نجد شريعة الإسلام قد أسقطت الصلاة عن المرأة فى حال حيضها ونفاسها ، ولم تكلفها بقضائها بعد طهرها رحمة بها ، وأوجبت عليها الفطر فى رمضان فى هاتين الحالتين ، على أن تقضى ما أفطرته بعد شهر رمضان .

وفى مجال الأعباء الاقتصادية ، خفضت شريعة الإسلام للمرأة جناح الرحمة ، وكفلت لها من أسباب الرزق ما يحميها من التبذل ، ويصونها من شرور الكدح فى الحياة ، وألقت بمعظم هذه الأعباء الاقتصادية على كاهل الرجل ، فالمرأة قبل الزواج ، أوجبت شريعة الإسلام نفقتها على أصولها أوفروعها أو أقربائها ، ما دامت لا تملك من المال ما يكفيها ، أما فى حالة زواجها فنفقتها على زوجها ، حتى ولوكانت تملك من المال ما يغنيها عنه ، إذ أموالها الخاصة ملك لها ، اللهم إلا إذا تبرعت أو ساعدت

غيرها بما تشاء من أموالها الخاصة برضاها واختيارها . . وحتى فى حال الطلاق ، فإن الزوج يتحمل جانبا كبيرا من أمواله لزوجته ، إذ عليه أن يدفع لها مؤخر الصداق ، وعليه نفقتها من مأكل وملبس ومسكن مادامت فى العدة ، وعليه أجور حضانة أولاده منها ونفقتهم . . . وقد فصلت كتب الفقه أحكام نفقة المرأة فى كل مراحل حياتها ، تفصيلا دقيقيا حكيما .

وفى مجال المسئولية عن الأسرة ، جعلت شريعة الإسلام حق القوامة والرياسة للرجل لا للمرأة ، لأنه هو المكلف بالإنفاق ، وهو الأقوى على تحمل هذه المسئولية . وهذه القوامة والرياسة تقوم على المودة الرحمة لا على الطغيان . وقد قرر القرآن هذه القوامة والرياسة للرجل فى آيات منها قوله - تعالى - : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

أى : وللنساء على الرجال من الحقوق مثل ما للرجال عليهن ، إلا أن للرجال على النساء مزية وزيادة فى الحقوق ، بسبب حمايتهم لهن ، وقيامهم بشئونهن ونفقتهن وغير ذلك من واجبات ومسئوليات .

وفى مجال الآداب ومكارم الأخلاق أمر الله - تعالى - المرأة متى كانت بالغة أن تلتزم بالحياء ، والعفاف ، والاحتشام ، وستر ما أمر الله - تعالى - بستره من جسدها ، امتثالا لقوله - سبحانه - : ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ ماظهر منها ﴾ [النور : ٣١] .

وجمهور الفقهاء على أن المقصود بما ظهر منها : الوجه واليدان ، وهذا لا يمنع أن تظهر المرأة بالملبس الجميل ، وبالمظهر الحسن ، وبالكيفية التى تراها مناسبة لها ، بشرط أن تكون ملابسها ساترة لما أمر الله - تعالى - بستره من جسمها .

وستر ما يجب ستره من جسدها : من المسائل التى لاتقبل نقاشا أو جدالا أو تأويلا سقيما ، لأنها ثابتة من الدين ثبوتا لا يقبل التردد ، وكل ماثبت من الدين بالضرورة علينا أن نقول أمامه سمعنا وأطعنا ، سواء أفهمنا الحكمة أم لم نفهمها . وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

* * *

أما القضية الثانية التى كثر الحديث فيها ، واختلف الناس فى الحكم الشرعى بالنسبة لها اختلاف واسعا ، فهى مسألة «تنظيم الأسرة» وقد كتبت بشأن هذه المسألة منذ بضع سنوات بحثا مفصلا قلت فيه ما خلاصته :

إن مسألة تنظيم الأسرة من المسائل التى اهتمت بها بعض الدول والهيئات ، وكتبت فيها عشرات البحوث والمقالات .

وقبل أن أبدأ الحديث عن هذه المسألة من الناحية الدينية ، أحب أن نتفق على الحقائق التالية ، لأن تحديد موضع النزاع - كما يقول علماء أصول الفقه - يعين على حسن الاقتناع . وهذه الحقائق هى :

(١) إن الشرائع السماوية التى أنزلها الله - تعالى - على أنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - ، مقاصدها الأساسية ، هداية الناس إلى الصراط المستقيم ، ورسم طريق السعادة ، وغرس المعانى الفاضلة فى قلوبهم . . .

قال - تعالى - : ﴿ الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١] .

(٢) إن الكلام فى الأمور الدينية بصفة خاصة ، وفى غيرها بصفة عامة ، يجب أن يكون مبنيا على العلم الصحيح ، والفهم السليم ، والإخلاص فى الوصول إلى الحق ، والسؤال عما يكون خافيا من الأمور ، فالله - تعالى - يقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧] .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من قلوب العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رءوسا جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا» .

(٣) إن الخلاف فى الأمور التى تقبل الاجتهاد لا غبار عليه ، ولا ضرر منه ، ما دام القصد من وراء هذا الخلاف ، الوصول إلى الحق ، ومادام مصحوبا بالنية الحسنة ، وبالكلمة الطيبة ، وبالمناقشة الرصينة التى يزينها الأدب ، ومكارم الأخلاق .

ولقد سما النبى ﷺ بهذا الاجتهاد ، فبشر أصحابه بأنهم مأجورون سواء أصابوا

أم أخطأوا ، ففى الحديث الصحيح : «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد»

(٤) إن الأولاد هم ثمرة القلب ، وإحدى زينتى الحياة الدنيا ، وقد تمنى الذرية جميع الناس حتى الأنبياء ، ولكن الأولاد فى الوقت نفسه ، هم أمانة فى أيدى آبائهم ، ويجب على الآباء أن يرعوا هذه الأمانة حق رعايتها ، بأن يحسنوا تربيتهم دينيا ، وجسميًا ، وعلميا ، وخلقيا ، وبأن يقدموا لهم ماهم فى حاجة إليه من عناية مادية ومعنوية ، ففى الحديث الصحيح : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» .

(٥) إن هذا الكون قد أقامه الله - تعالى - على نظام دقيق بديع محكم ، إذ كل شىء فيه يسير وفق تدبير متقن ، وتنظيم بديع ، فالشمس تشرق وتغرب فى وقت معلوم ومثلها القمر والليل والنهار ، كما قال - سبحانه - : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس: ٤٠] .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ [الملك: ٣] .

أى : ماترى فى خلق الرحمن من اضطراب أو خلل . والإنسان العاقل هو الذى يتخذ النظام شعارا له فى سائر تصرفاته ، فما وجد فى شىء إلا زانه ، وما فقد من شىء إلا شانه . وصدق الله - تعالى - إذ يقول : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١] .

(٦) إننا نعيش غى عصر لا تتنافس فيه الأمم بكثرة أفرادها ، ولا باتساع أراضيها ، وإنما نحن نعيش فى عصر تتنافس فيه الأمم بالاختراع والابتكار ووفرة الإنتاج ، والتقدم العلمى بشتى صوره وألوانه .

هذا التقدم الذى يجعل احتياج الغير إليك ، أكثر من احتياجك إليه . ونحن نشاهد أمما أقل عددا من غيرها ، ولكنها أقوى وأغنى من ذلك الغير . والأمثلة على ذلك يعرفها عامة الناس ، فضلا عن علمائهم . . .

(٧) إن من مزايا شريعة الإسلام ، أن الأمور التى لا تختلف المصلحة فيها باختلاف الأوقات والبيئات والاعتبارات ، تنص على الحكم فيها نصا قاطعا ، لا مجال معه للاجتهاد والنظر كوجوب التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل .

أما الأمور التى تخضع فيها المصلحة للظروف والأحوال ، فإن شريعة الإسلام تكل الحكم فيها إلى أرباب النظر والاجتهاد والخبرة ، ومن هذه الأمور : مسألة تنظيم الأسرة ، فإنها من المسائل التى تختلف فيها الأحكام باختلاف ظروف كل أسرة ، وكل دولة ، وباختلاف إمكانياتها .

فمثلا هناك دول ، هى فى حاجة إلى الكثرة البشرية ، لأن وسائل الإنتاج والرقى فيها تحتاج إلى هذه الكثرة القوية المنتجة الرشيدة ، وأمثال هذه الدول يقال لها : مرحبا بهذه الكثرة المؤمنة القوية العاقلة .

وهناك دول لا تحتاج إلى الكثرة فى عددها ، لأن هذه الكثرة موجودة فيها ، ولأن إمكانياتها لا تتحملها ، ولأن السواد الأعظم من أفرادها ، يعيش على جهود القلة فيها ، ولأنها مع كثرتها تستورد من غيرها معظم ضروريات حياتها . . .

وأمثال هذه الدول يكون تنظيم الأسرة فيها أمرا مرغوبا فيه ، ومطلوبا منها مع غيره من الوسائل الأخرى التى تؤدى إلى تقدمها ، كمضاعفة الإنتاج ، وتطوير الزراعة والصناعة وغيرهما ، وحرص أفرادها على أداء ما عليهم من واجبات بإحسان وإتقان وعفاف ومراقبة لله - تعالى - .

مرة أخرى نقول : إن الكثرة الصالحة المنتجة مرحبا بها ، أما الكثرة الضعيفة فى دينها وفى خلقها وفى أدائها لما يجب عليها نحو خالقها ونحو أوطانها . . . ، والمعتمدة فى كثير من ضروريات حياتها على غيرها ، فالقلة خير منها .

بعد هذه الحقائق التى أرجو أن تكون محل اتفاق ، أحب أن أدخل إلى موضوع «تنظيم الأسرة» بأسلوب السؤال والجواب فأقول :

أولا : مامعنى تنظيم الأسرة ؟ وهل هناك فرق بينه وبين التحديد والتعقيم والإجهاض؟

والجواب : ببساطة لا تعقيد معها : إن تنظيم الأسرة معناه : أن يتخذ الزوجان باختيارهما واقتناعهما ، الوسائل التى يريانها كفيلة بتباعد فترات الحمل ، أو إيقافه لمدة معينة من الزمان ، يتفقان عليها فيما بينهما ، مع اقتناعهما التام بأن هناك ضرورة تقرها شريعة الإسلام تدعو إلى ذلك ، وبأن ما قدره الله - تعالى - لا بد أن يكون ، وهما إنما يباشران الأسباب فقط ، وهذه الأسباب قد تنجح وقد لا تنجح . . .

والمقصود من ذلك : تقليل عدد أفراد الأسرة ، بصورة تجعل الأبوين ، يستطيعان القيام برعاية أولادهما ، رعاية متكاملة دون عسر ، أو حرج ، أو اختلاط فى المضاجع بين الذكور والإناث ، أو احتياج مذل . . .

وهناك فرق شاسع بين تنظيم الأسرة بهذا المعنى الذى ذكرنا ، وبين التحديد والتعقيم والإجهاض إذ تحديد النسل بمعنى منعه منعا مطلقا ودائما حرام شرعا ، ومثله التعقيم الذى هو بمعنى القضاء على أسباب النسل نهائيا .

وأما الإجهاض وهو إسقاط الجنين من بطن أمه ، فهو حرام - أيضا - ، وممنوع شرعا ، إلا إذا وجدت الضرورة التى تحتمه ، كأن يقول الطبيب الثقة : إن بقاء الجنين فى بطن أمه سيؤدى إلى موتها ، أو إلى إلحاق ضرر محقق بها . وكل حالة من الحالات التى يتحدث فيها عن الإجهاض ، لها ظروفها ، ولها ملابساتها ، ولها حكمها الذى يقرره أهل العلم من الفقهاء والأطباء .

وليس من الفقه السليم ، ولا من العقل القويم ، أن يقال : إن الإجهاض مباح إباحة مطلقة ، أو ممنوع منعا مطلقا ، وإنما لكل حالة حكمها الذى يناسبها والذى يقرره الفقهاء والأطباء ، مع ملاحظة أن الأصل فى شريعة الإسلام ، أن تحافظ المرأة على جنينها محافظة تامة ، منذ اليوم الأول من إحساسها به ، إلى يوم مولده ، وإلى ما بعد يوم مولده ، ولا تلجأ إلى الإجهاض إلا عند الضرورة التى يقرها الفقهاء والأطباء .

* * *

ثانيا : هل تنظيم الأسرة بتلك الصورة التى سبق بيانها جائز من الناحية الدينية؟

والجواب : إن تنظيم الأسرة بتلك الصورة التى سبق بيانها قال بجوازه كثير من الفقهاء ، ويكفى أن نسوق ما قاله فضيلة الشيخ السيد سابق فى كتابه «فقه السنة» جـ٧ ص١٤٥ ، فقد قال فضيلته : «تقدم أن الإسلام يرغب فى كثرة النسل ، إذ أن ذلك مظهر من مظاهر القوة والمنعَة بالنسبة للأمم والشعوب ، «وإنما العزة للكاثر» ، ويجعل ذلك من أسباب مشروعية الزواج : «تزوجوا الولود الودود ، فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» . إلا أن الإسلام مع ذلك لا يمنع فى الظروف الخاصة من تحديد النسل ، باتخاذ دواء يمنع من الحمل ، أو بأى وسيلة أخرى من وسائل المنع .

فيباح التحديد فى حالة ما إذا كان الرجل مُعيلا - أى : كثير العيال - ، لا يستطيع

القيام على تربية أبنائه التربية الصحيحة . وكذلك إذا كانت المرأة ضعيفة ، أو كانت موصولة الحمل ، أو كان الرجل فقيرا .

ففى مثل هذه الحالات يباح تحديد النسل ، بل إن بعض العلماء رأى أن التحديد فى هذه الحالات لا يكون مباحا فقط بل يكون مندوبا إليه .

وألحق الإمام الغزالى بهذه الحالات ، حالة ما إذا خافت المرأة على جمالها ، فمن حق الزوجين فى هذه الحالة أن يمنعا النسل . بل ذهب كثير من أهل العلم إلى إباحته مطلقا . . . »

* * *

ثالثا : أهناك فتاوى رسمية صدرت فى موضوع تنظيم الأسرة ؟

والجواب : نعم هناك فتاوى متعددة صدرت فى هذا الموضوع ، نكتفى بإيراد واحدة منها :

فى الخامس والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٣٧ - أى : منذ ما يقرب من ستين عاما - ورد إلى دار الإفتاء المصرية ، سؤال هذا نصه : «رجل رزق بولد واحد ، ويخشى إن هو رزق أولادا كثيرين ، أن يقع فى حرج من عدم قدرته على تربية الأولاد والعناية بهم ، أو تسوء صحة زوجته لكثرة ما تحمل وتضع ، دون أن يمضى بين الحمل والحمل فترة تستريح فيها ، وتسترد قوتها ، فهل له أو لزوجته أن يتخذا بعض الوسائل التى يشير بها الأطباء ، ليتجنب كثرة النسل ، بحيث تطول الفترة بين الحمل ، فتستريح الأم ، ولا يرهق الوالد . . . ؟

وقد أجاب فضيلة المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم - مفتى الديار المصرية فى ذلك الوقت - بقوله : «اطلعنا على هذا السؤال ، ونفيد بأن الذى يؤخذ من نصوص الفقهاء الأحناف ، أنه يجوز أن تتخذ بعض الوسائل لمنع الحمل ، على الوجه المبين بالسؤال . . . [والفتوى بكاملها منشورة بمجموعة «الفتاوى الإسلامية» جـ٢ ص٤٤٥]

* * *

رابعا : أَمِن المصلحة أن تصدر الدولة قانونا لتنظيم الأسرة ؟

والجواب : ليس من المصلحة ذلك فى تقديرى ، لأن مسألة تنظيم الأسرة من المسائل الشخصية التى تتعلق بالزوجين وحدهما ، والتى تختلف من أسرة إلى أسرة

على حسب ظروفهما وأحوالهما ، وما يتعلق بالزوجين لا تعالجه القوانين ، وإنما خير وسيلة لتنظيم الأسرة ، فهم الدين فهما سليما ، وإشاعة هذا الفهم بين جميع أفراد الأمة ، وإنى أرجح أن على رأس الأسباب التى جعلت بعض الناس يتهاون فى مسألة تنظيم الأسرة ، هو عدم الفهم السليم لأحكام الدين ، ولشئون الدنيا ، والاستخفاف بالمسئولية نحو الأبناء . . .

* * *

خامسا : هل تتعارض الدعوة إلى تنظيم الأسرة مع قوله – تعالى – : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ . أو مع قوله – سبحانه – : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ . أو مع قوله – عز وجل – : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ . أو مع قوله ﷺ : «تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة» .

والجواب : لا تتعارض الدعوة إلى تنظيم الأسرة ، مع هذه النصوص الكريمة ، متى فهمت هذه النصوص فهما دينيا سليما . .

فالدعوة إلى تنظيم الأسرة لا تتعارض مع قوله – سبحانه – : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ . لأنه لم ينكر أحد من العقلاء أن المال الحلال ، والذرية الصالحة ، هما زينة الحياة الدنيا ، إلا أن الأولاد إذا لم نحسن تربيتهم ، قد يكونون فتنة ، كما قال – سبحانه– : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ . وقد يكونون أعداء كما فى قوله– سبحانه – : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ . . . ﴾ .

فالأولاد قد يكونون زينة ، وقد يكونون فتنة ، وقد يكونون أعداء . وتنظيم الأسرة متى صاحبته النية الطيبة ، والمقاصد الشريفة ، كان عونا للإنسان على أن يكون الأولاد قرة عين للإنسان .

ولا تتعارض الدعوة إلى تنظيم الأسرة مع قوله – تعالى – : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ لأنه ما قال عاقل إن تنظيم الأسرة قتل للأولاد ، وإنما هو حماية لهم دينيا وصحيا ونفسيا واجتماعيا . . وهذه الآية الكريمة وما يشبهها من آيات ، تنهى عن قتل الأولاد قبل ولادتهم وبعد ولادتهم ، كما كان يفعل الناس

فى الجاهلية مع البنات . قال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ . ولا يتعارض تنظيم الأسرة مع قوله - سبحانه - : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، لأن كل إنسان لا يكون مؤمنا حقا ، إلا إذا اعتقد اعتقادا جازما ، أن كل دابة من إنسان وحيوان وغيرهما ، رزقها على الله - تعالى - وحده ، ولكن ذلك لا ينافى الأخذ بالأسباب ، والسعى فى سبيل الحصول على الرزق ، إذ أن هذا الرزق قد جعل الله - تعالى - له وسائل ، من سلكها نجح ، ومن أهملها خسر ، وكيف لا وهو القائل - سبحانه - فى آية أخرى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥] .

وفى الحديث الشريف : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا» .

ومن أقوال عمر بن الخطاب ﷺ : «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، ثم يقول اللهم ارزقنى ، وهو يعلم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة» .

ثم إنى بعد ذلك أتساءل فى حسرة ؟ هل الناس - فى مجموعهم - يؤمنون بهذه الآية إيمانا عمليا كما ينطقون بها لفظيا ؟

والجواب : إن واقعهم العملى الذى نشاهده يخالف أقوالهم ، بدليل ما تراه من وساطات سيئة ، ومن إذلال للنفس من إنسان لآخر لكى يساعده فى الحصول على وظيفة لأولاده ، أو يلحقهم فى كلية معينة ، بأسلوب يتنافى مع العفاف ومع الكرامة الإنسانية التى تدعو الإنسان إلى أن يكون اعتماده على الله - تعالى - وحده . ولا يتعارض تنظيم الأسرة - أيضا - : مع الحديث الشريف الذى يقول : «تناكحوا تناسلوا تكثروا . . . » لأننا نرجح أن المقصود به الكثرة المؤمنة الصالحة القوية فى دينها وفى أداء ما يجب عليها . . .

ولقد ذم ﷺ الكثرة الضعيفة فى عقيدتها وفى سلوكها وفى أخلاقها فقال : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها ، قالوا أو من قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : بل أنتم حينئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل . . .»

وإذاً فالكثرة الصالحة القوية مرحبا بها ، أما الكثرة الجاهلة الطائشة الضعيفة ، فالقلة خير منها .

* * *

سادسا : هل تنظيم الأسرة يتنافى مع الإيمان بقضاء الله وقدره ؟

والجواب : ما قال عاقل : إن تنظيم الأسرة بالمعنى الذى ذكرناه يتنافى مع الإيمان بقضاء الله وقدره ؛ لأن تنظيم الأسرة ماهو إلا لون من مباشرة الأسباب التى أمرنا الله - تعالى - بمباشرتها لتنظيم حياتنا . وهذه الأسباب قد تنجح وقد لا تنجح ، قد تتخذ المرأة وسائل منع الحمل لفترة معينة ، ومع ذلك يأتى الحمل ، كما أن المريض قد يذهب إلى الطبيب ، فيعطيه علاجا معينا ، ولكن هذا العلاج قد يؤدى إلى الشفاء ، وقد لا يؤدى إلى ذلك . ونحن مطالبون - دينيا وعقليا - بمباشرة الأسباب التى شرعها الله - تعالى - لنجاحنا فى الحياة ، مع إيماننا بأن ما قدره الله وقضاه لابد أن يكون ، إلا أن ما قدره الله - تعالى - نحن لا نعلمه ولا نعرفه ، لأن مرده إليه وحده ، ورحم الله القائل :

إنما الغيب كتاب صانه عن عيون الخلق رب العالمين
ليس يبدو منه للناس سوى صفحة الحاضر حينا بعد حين

وإذاً ، فتنظيم الأسرة لا يتعارض إطلاقا مع الإيمان بالقضاء والقدر ، لأن ماقدره - سبحانه - نحن لا نعلمه ، وإنما نحن نباشر الأسباب التى شرعها الله - تعالى - لسعادتنا ، ثم بعد ذلك يسلك الله - عز وجل - بنا مايشاء «ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين» .

هذه كلمة مركزة عن مسألة تنظيم الأسرة من الناحية الدينية ، وكل عنصر من عناصرها كان فى إمكانى أن أجعله فى صفحات ، ولكن «حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق» .

* * *

الفصل الثالث

نماذج من المحاورات

١ - حوار حول وحدانية الله - تعالى .

٢ - حوار حول اليوم الآخر .

٣ - حوار حول القرآن الكريم .

٤ - حوار بين الخالق - عز وجل - وبين بعض مخلوقاته .

٥ - حوار بين الرسل - عليهم السلام - وبين أقوامهم

وجود الله تعالى - هو الحقيقة العظمى التى استقرت فى كل قلب سليم ، وفى كل عقل قويم ، وفى كل فطرة نقية ، وفى كل نفس سوية . . .

ولقد حكى القرآن فى آيات كثيرة ، أن المشركين كانوا يعترفون بوجود الله - تعالى - دون جدال منهم فى ذلك ، ومن هذه الآيات الكريمة قوله - سبحانه - ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف : ٩]

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت : ٦١]

وقوله - سبحانه- : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت : ٦٣]

وقوله - عز وجل - : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٧]

إذًا فوجود الله - تعالى - دلت عليه الفطرة الإنسانية ، واعترف به المؤمنون وغير المؤمنين ، واعترفوا بأن خالقهم هو الله - تعالى - وأن خالق هذا الكون بأرضه وسمائه وما بينهما هو الله - عز وجل - اعترفوا بمسألة وجوده - سبحانه - اعترافا واضحا صريحا لا لبس فيه ولا خفاء . .

ولكن المسألة التى عارض فيها الضالون ، وأثاروا الشبهات من حولها ، وأرسل الله - تعالى - الرسل والأنبياء لتجليتها ولدعوة الناس إليها ، هى مسألة إخلاص العبادة لله - عز وجل - وحده ! !

والسؤال كيف عالج القرآن الكريم هذه القضية ؟ وكيف ناقش وحاور وجادل المنكرين أو الشاكين فى وحدانية الله - تعالى - أو فى وجوب إخلاص العبادة له وحده ، مُناقشةً تقنع كل ذى قلب سليم بأن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - وحده ، ومحاورةً تهدى الفطر الإنسانية إلى طريق الحق والصواب ، ومجادلة موضوعية حكيمة تزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم بوجوب إخلاص العبادة والطاعة لله الواحد القهار ، وتحمل غيرهم على اتباع الحق متى فتحوا عقولهم له ، وتركوا التقليد العقيم ، والعناد الأحمق ، والهوى المردى ، والمتاع الدنيوى الزائل . . ؟ ! !

إن المتدبر للقرآن ، يراه عندما حاور المنكرين لوحدانية الله - تعالى - أو الشاكين فيها ، لم يأت لهم بدليل واحد على أن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - وحده ، ولم يكتف بأسلوب واحد لتأكيد وتقرير هذه الحقيقة ، وإنما ساق حشودا من الأدلة والبراهين ، وألوانا من الأساليب الحكيمة ، التى تقنع العقول ، وتشرح الصدور ، وتجعل كل ذى قلب سليم يهتف من أعماق نفسه : إنما الله إله واحد ، لا عبادة إلا له - عز وجل - : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأعراف: ٥٤]

وهاك جانبا من الأدلة والأساليب التى سلكها القرآن الكريم لتأكيد هذه الحقيقة العظمى . .

أولا : بين القرآن الكريم للناس جميعا ، أن الرسول ﷺ عندما دعاهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، قد أكد وقرر ما جاء به كل رسول من قبله .

وحكى القرآن الكريم ذلك فى آيات منها قوله - سبحانه - ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

أى : وما أرسلنا من قبلك من رسول يا محمد ، إلا وأعلمناه عن طريق وحينا الأمين ، أنه لا إله يستحق العبادة إلا أنا الواحد القهار ، فعليه أن يأمر قومه بطاعتى وعبادتى والخضوع لى وحدى .

ثم فصل القرآن الكريم هذا الإجمال فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩]

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥]

وقوله - عز وجل - : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٨٥]

وهكذا نجد أن كل نبى أرسله الله - تعالى - إلى الناس ، كانت الكلمة الأولى التى ينصح بها قومه : أن يأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، وأن ينهاهم عن أن يشركوا به شيئا ، ثم يرشدنا إلى وجوب التحلى بالفضائل ، والتخلى عن الرذائل .

ثانيا : بين القرآن للناس جميعا ، أن الأديان السماوية التى أنزلها الله – عز وجل – على أنبيائه ، متفقة فى جوهرها ، وأن الخلاف بينها إنما هو فى الفروع فحسب ، ومن الآيات القرآنية التى قررت هذه الحقيقة قوله – سبحانه – : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣]

قال الإمام الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآية جـ ٢ ص ٢٨٢ : «أى شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ، ما وصى به نوحا ومحمدًا وإبراهيم وموسى وعيسى . . . وإنما خص – سبحانه – هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر ، لأنهم أكابر الأنبياء ، وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرين . . . .»

والمراد بما سنه وشرعه – سبحانه – على ألسنة هؤلاء الرسل الكرام : أصول الأديان التى لا يختلف فيها دين عن دين ، أو شريعة عن شريعة ، كإخلاص العبادة لله – تعالى – والإيمان بكتبه ورسله ، وملائكته ، واليوم الآخر ، كما قال – تعالى – : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) ﴾ [البقرة : ٢٨٥]

أما ما يتعلق بفروع الشرائع ، كتحليل بعض الطيبات لقوم على سبيل التيسير لهم ، وتحريمها على قوم على سبيل العقوبة لهم ، فهذا لايدخل فى الأصول الثابتة فى جميع الأديان ، وإنما يختلف باختلاف الظروف والأحوال ، ويؤيد ذلك قوله–سبحانه– : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨]

أى : لكل أمة من الأمم الحاضرة والماضية ، وضعنا شريعة حكيمة ، ومنهاجا واضحا خاصين بها فيما يتعلق بالجزئيات والفروع ، أما الأصول والأركان كإخلاص العبادة لله ، والتحلى بمكارم الأخلاق ، فالأديان كلها متفقة فيها .

وقوله – سبحانه – : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ : تفصيل وتوضيح لما شرعه الله – تعالى – لهؤلاء الرسل الكرام ولما وصاهم به .

والمراد بإقامة الدين : التزام أوامره ونواهيه ، وطاعة الرسل فى كل ما جاءوا به من عند ربهم . أى : أوصاكم الله - تعالى - يا أمة محمد ﷺ كما أوصى الأمم السابقة ، بإخلاص العبادة لخالقكم ، وبالتزام الفضائل واجتناب الرذائل وعدم الاختلاف فى أحكامه التى لا تقبل ذلك . ثم بين - سبحانه - موقف المشركين من الدين الحق فقال : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ .

أى : شق وعظم على المشركين ودعوتكم إياهم إلى إخلاص العبادة لله وحده ، وإلى ترك ما ألفوه من الشرك ومن التقاليد الفاسدة التى ورثوها عن آبائهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ : «بيان لكمال قدرته - تعالى - ونفاذ مشيئته ، أى : الله - تعالى - بإرادته وحكمته يصطفى ويختار لرسالته من يشاء من عباده ، ويهدى إلى الحق من ينيب إليه ، ويرجع إلى طاعته و يُقبل على عبادته بإخلاص وخشوع . هذا ، وقد كانت أقوال النبى ﷺ تأكيدا وتفصيلا لما جاء فى القرآن الكريم ، فقد أثنى ﷺ على جميع الأنبياء ، ومدحهم بما هم أهل له ، وبين أنه هو خاتمهم ، ففى الصحيحين - البخارى ومسلم - عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : إنَّ مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لَبِنَة - أى : طوبة - من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاَّ وُضِعتَ هذه اللبنة؟ قال ﷺ : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين» .

وعندما قال له ﷺ أحدُ أصحابه : يا خيرَ البرية : رد عليه ﷺ بكل تواضع بقوله : «ذاك إبراهيم - عليه السلام-»

وقال ﷺ : «الأنبياء إخوة من عَلاَّت : دينهم واحد ، وأمهاتهم شتى» .

هكذا نرى أن الأديان السماوية التى أنزلها - سبحانه - على أنبيائه ، متفقة فى أنه لا عبادة إلا لله - تعالى - وحده .

ثالثا : من أهم وسائل الإقناع التى اتبعها القرآن الكريم ، فى دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لخالقهم : أنه ساق الشبهات التى تذرع بها المشركون فى عبادتهم لغير الله - تعالى - بأمانة وموضوعية ، ثم رد عليها بما يزهقها ، ويكشف عن بطلانها . .

ومن أهم هذه الشبهات : التقليد الأعمى من المشركين لآبائهم ورؤسائهم ، وزعمهم أن تلك الآلهة الباطلة ستشفع لهم ، وستدافع عنهم . .

أما التقليد الأعمى للآباء والانقياد للزعماء والرؤساء ، فقد حكاه القرآن عنهم فى آيات متعددة ، ورد عليهم بما يجعلهم يقلعون عن ذلك لو كانوا يعقلون .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠]

أى : وإذا قيل لأولئك الضالين ، اتركوا التقليد الأعمى واتبعوا الحق الذى جاءكم من عند ربكم ، أعرضوا عن الناصح لهم ، وقالوا على سبيل العناد والجهل : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة للأصنام ، ومن خضوع للقادة والزعماء !! وهنا يرد عليهم القرآن بما يزيل جهلهم ، ويهديهم إلى الطريق الحق لو فتحوا عقولهم له فيقول : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ أى أيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ، ويقلدونهم هذا التقليد الذميم ، حتى ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا من أمور الدين الصحيح ، ولا يهتدون إلى طريق الصواب .

ومن أجمع الآيات التى نفرت من التقليد الباطل ، وصورت تصويرا بليغا مؤثرا العداوة التى تكون بين التابعين والمتبوعين . . . قوله - تعالى - ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾ [البقرة : ١٦٥ - ١٦٧]

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد مدحت المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا عبادتهم لخالقهم ، عن إذعان واقتناع ، وذمت الذين ينقادون للمخلوقات والمعبودات الباطلة دون فهم أو إدراك ، وصرحت بأن الزعماء والرؤساء سيتبرءون من أتباعهم ومرءوسيهم ، وأن هؤلاء الأتباع سيندمون ويتحسرون ويتمنون العودة إلى الدنيا لكى يتبرءوا من زعمائهم ، ولكن هذا التبرؤ والتحسر لن يفيدهم شيئا ، وإنما الجميع مصيرهم إلى النار وبئس المصير .

وأما مزاعم المشركين بأن معبوداتهم الباطلة ستنفعهم فقد حكاها القرآن فى آيات

منها قوله - تعالى - : ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر : ٣]

أى : لله وحده الدين الخالص ، والمشركون الذين اتخذوا معبودات باطلة ليعبدوها من دون الله ، كانوا يقولون فى الرد على من ينهاهم عن ذلك : إننا ما نعبد هذه المعبودات إلا من أجل أن نتوسل بها ، لكى تقربنا إلى الله قربى ، ولتكون شفيعة لنا عنده حتى يرفع عنا البلاء والمحن .

أما الآيات القرآنية التى صرحت بأن هذه المعبودات الباطلة لن تستطيع أن تدافع عن نفسها فضلا عن الدفاع عن غيرها ، فهى كثيرة وقد قررت هذه الحقيقة بأساليب متنوعة ، تارة عن طريق بيان أن هذه الآلهة مع عابديها ستكون وقوداً للنار ، كما فى قوله - تعالى- : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٨] ، وتارة عن طريق بيان أن هذه الآلهة لا تسمع ولا ترى ، كما فى قوله-سبحانه - : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٤] ، وتارة عن طريق ضرب الأمثال كما فى قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج : ٧٣] .

رابعا : من أبلغ الأساليب والبراهين التى استعملها القرآن لإقناع العقول ، بأن المستحق للعبادة والطاعة ، هو الله - تعالى - وحده : ضرب الأمثال .

وإنما تضرب الأمثال ، لتوضيح المعنى الخفى ، وتقريب المعقول من المحسوس ، وعرض الشىء الغائب فى صورة الأمر المشاهد ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [العنكبوت : ٤٣]

وفى آية ثانية : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر : ٢١]

وفى آية ثالثة : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٢٥]

ومن الأمثال التى ضربها الله - تعالى - لبيان أنه - سبحانه - لا معبود بحق سواه قوله - عز وجل - : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٧٥]

أى : ذكر الله - تعالى - لكم - أيها الناس - لكى تتعظوا وتتفكروا وتخلصوا العبادة لخالقكم ، حال رجلين . أحدهما : عبد مملوك لغيره ، وهذا العبد لا يقدر على شىء من التصرفات حتى ولو كانت قليلة . .

والثانى : عبد حر مالك لأمر نفسه ، رزقه الله - تعالى - مالا وفيرا حلالا حسنا ، فهو ينفق من هذا المال فى السر والعلن على المحتاجين والمساكين . . .

هذان هما الجانبان المتقابلان فى هذا المثل ، والفرق بينهما واضح وعظيم عند كل ذى عقل سليم ، ولذا جاء بعدهما الاستفهام الإنكارى التوبيخى وهو قوله : ﴿هل يستوون﴾ ؟ أى : هل يستوى فى عرفكم أو فى عرف أى عاقل ، هذا العبد المملوك الرقيق العاجز الذى لا يقدر على شىء ، مع هذا الإنسان الحر المالك الذى رزقه الله - تعالى - رزقا واسعا حلالا ، فشكر الله عليه ، وأنفق منه سرا وجهرا ؟! إن مما لا شك فيه أنهما لا يستويان حتى فى نظر من عنده أدنى شىء من عقل ، وما دام الأمر كذلك فكيف سويتم - أيها المشركون الجهلاء - فى العبادة بين الخالق الرازق الذى يملك كل شىء ، وبين غيره من المعبودات الباطلة التى لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تجلب خيرًا أو تدفع ضرا ! ! .

وقوله - سبحانه - ﴿الحمد لله﴾ : ثناء منه - سبحانه - على ذاته ، حيث ساق - سبحانه - هذه الأمثال الواضحة للتمييز بين الحق والباطل .

أى : قل - أيها الإنسان المؤمن العاقل - الحمد كله لله - تعالى - على إرشاده لعباده المؤمنين ، وتعليمهم كيف يقذفون بحقهم على باطل أعدائهم فإذا هو زاهق .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : بل أكثر هؤلاء المشركين ، لا يعلمون كيف يميزون بين الحق والباطل لانطماس بصائرهم ، واستيلاء الجحود والحسد والجهل عليهم .

وقال : سبحانه :﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ .. ﴾ للإشعار بأن هناك قلة من أولئك المشركين ، تعرف الحق معرفة تامة ولكن الهوى والغرور والتقليد الأعمى حال بينها وبين اتباع الحق .

هذا هو المثال الأول الذى ذكره الله – تعالى – للاستدلال على بطلان التسوية بين عبادة الله – تعالى – الخالق لكل شىء ، والمالك لكل شىء ، وبين عبادة غيره من الأصنام ، والجمادات التى لا تخلق شيئا ، ولا تضر ولا تنفع . ولكن هل اكتفى القرآن بضرب هذا المثل الواضح فى التفرقة بين الحق والباطل ؟ كلا ، لقد ساق القرآن بعد هذا المثل مثلاً آخر أشد وضوحا فى الدلالة على وجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، فقال – سبحانه – ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦]

أى : وذكر الله – تعالى – لكم – أيها الناس – مثلا آخر لرجلين : أحدهما أبكم لا يستطيع النطق بكلمة ولا يقدر على فعل شىء ، وهو فى الوقت ذاته ﴿ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ ﴾ أى : حِمْلٌ ثقيل وهَمّ كبير على مولاه الذى يتولى شئونه من طعام وشراب وغيرهما ، وفضلاً عن كل ذلك فإن هذا الرجل الأبكم العاجز ؛ حيثما يوجهه مولاه وكافله لقضاء أمر من الأمور ، يعود خائبا ، لعجزه ، وضعف حيلته ، وزوال إدراكه ، فأنت ترى أن الله – تعالى – قد وصف هذا الرجل بأربع صفات ، تدل على سوء فهمه ، وقلة حيلته ، وانسداد طرق الخير فى وجهه . . .

هذا هو الجانب الأول من المثل ، أما الجانب الثانى منه ، فيتجلى فى قوله – سبحانه – : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

أى : هل يستوى هذا الرجل الأبكم العاجز ، مع رجل آخر يأمر غيره بالعدل ، ويسلك الطريق المستقيم ، ويتحلى بالخلق القويم ، وبالعقل السليم ، إذ هو صالح فى ذاته ونافع لغيره .

لاشك أن هذين الرجلين لا يستويان فى عقل عاقل ، إذ أن أولهما : أبكم عاجز خائب ، وثانيهما : فصيح بليغ ، وفى الوقت نفسه نافع لغيره ، وجامع لخصال الخير فى ذاته .

وما دام الأمر كذلك ، فكيف سويتم - أيها المشركون الضالون - فى العبادة بين الله الواحد القهار ، وبين تلك المعبودات الباطلة الصماء الخرساء التى لا تملك الدفاع عن نفسها .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد ساقتا مثلين واضحين ، لبيان الفرق الشاسع بين ذات الله - تعالى - الخلاق العليم ، والرازق الكريم ، وبين تلك المعبودات الباطلة التى أشركها الجاهلون فى العبادة مع الله - تعالى - أو بين المؤمن الذى هو على بصيرة من أمره ، وبين الكافر الذى استحب العمى على الهدى ، أو بين الحق فى وضوحه وجماله وجلاله ، وبين الباطل فى ظلامه وقبحه وخذلانه .

وهناك مثل ثالث لا يقل فى روعته وجلاله ، وفى إحقاقه للحق وفى إبطاله للباطل ، عن المثلين السابقين ويتجلى هذا المثل فى قوله - تعالى - : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩]

والمعنى : إن مثل المشرك الذى يعبد آلهة متعددة ، كمثل عبد مملوك لجماعة من الناس متشاكسين متنازعين لسوء أخلاقهم وطباعهم ، وهذا العبد ممزق بينهم ، لأن أحدهم يطلب منه شيئا معينا ، والثانى يطلب منه شيئا يناقض ما طلبه الأول ... وهو حائر بينهم جميعا ، لا يدرى أيطيع ما أمره به الأول أم الثانى أم الثالث ...

هذا هو حال المشرك فى حيرته ، وضلاله ، وانتكاس باله ..

أما مثل المؤمن ، فهو كمثل عبد مملوك لسيد واحد ، وخالص لفرد واحد ، وليس لغيره من سبيل إليه ، ولا سلطان عليه ، فهو يخدم سيده بإخلاص وطاعة ، وفى راحة تامة من الحيرة التى انغمس فيها ذلك العبد الذى يملكه الشركاء المتشاكسون المتنازعون .

فالمقصود بهذين المثلين بيان ما عليه العبد المشرك من ضلال وتحير وتمزق ، وما عليه العبد المؤمن من هداية واستقرار واطمئنان .

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية جـ ٤ ص ١٢٦ ما ملخصه : «واضرب يا محمد لقومك مثلا وقل لهم : ما تقولون فى رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء ، بينهم تنازع واختلاف ، كل واحد منهم يدعى أنه عبده .. وهو متحير فى أمره ...

وفى آخر : قد سَلِم لمالك واحد وخلُص له ، فهو معتنق لما لزمه من خدمته ، معتمد عليه فيما يصلحه ، أى العبدين أحسن حالا وأجمل شأنا ؟

والمراد تمثيل حال من يعبد آلهة شتى ، ويبقى متحيرا ضائعا . . وحال من يعبد إلها واحدا لا شريك له » . .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾؟ للإنكار والاستبعاد .

أى لا يستوى حال الرجل الذى يملكه متشاكسون متنازعون ، بحال الرجل الذى لا يملكه سوى خالقه ورازقه ، فى رأى أى ناظر ، وفى عقل أى عاقل ، فالأول فى حيرة من أمره ، والثانى على بينته من شأنه .

وجملة ﴿ الحمد لله ﴾ تقرير وتأكيد لما قبلها من نفى الاستواء واستبعاده ، وتصريح بأن ما عليه المؤمنون من إخلاص فى العبودية لله - تعالى - يستحق منهم كل شكر وثناء على الله - تعالى - حيث وفقهم لذلك .

وهاك مثلا رابعا لا مجال للجدل فيه لوضوحه واعتماده على المنطق السليم فى إثبات أن لهذا الكون إلها واحدا ، يجب أن يخلص له الجميع العبادة والطاعة ، وهذا المثل منتزع من أحوال النفس الإنسانية ، التى هى أقرب ما تكون إلى الإنسان ، ويتجلى فى قوله - تعالى - : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨]

والمعنى : ضرب الله - تعالى - لكم أيها الناس مثلا منتزعا من أنفسكم التى هى أقرب شىء إليكم ، وبيان هذا المثل : أنكم لا ترضون أن يشارككم فى أموالكم التى رزقناكم إياها عبيدكم وإماؤكم ، مع أنهم مثلكم فى البشرية ، ونحن الذين خلقناهم كما خلقناكم ، بل إنكم لتخافون على أموالكم منهم أن يشاركوكم فيها ، كما تخافون عليها من الأحرار المشابهين لكم فى الحرية وفى جواز التصرف فى تلك الأموال ، فإذا كان هذا شأنكم مع عبيدكم الذين هم مثلكم فى البشرية ، والذين لم تخلقوهم ، بل نحن الذين خلقناهم وخلقناكم ، فكيف أجزتم لأنفسكم أن تشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ، مع أنه - سبحانه - هو الخالق لكم ولهم ، والرازق لكم ولهم ؟!!

إن تصرفكم هذا ظاهر التناقض والبطلان ، لأنكم لم ترضوا أن يشارككم غيركم فى أموالكم ، ورضيتم أن تشركوا مع الله - تعالى - غيره فى العبادة ، مع أنه - سبحانه - هو الخالق والرازق لكل شىء .

فالمقصود من الآية الكريمة : إبطال الشرك بأبلغ أسلوب ، وأوضح بيان ، وأصدق حجة ، وأقوى دليل ، ولذا ختمها - سبحانه - بقوله : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى : مثل ذلك التفصيل الجلى الواضح ، نفصل الآيات الدالة على وحدانيتنا لقوم يعقلون هذه الأمثال ، وينتفعون بها فى إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

قال الإمام القرطبى عن تفسيره لهذه الآية : «قال بعض العلماء : هذه الآية أصل فى الشركة بين المخلوقين ، لافتقار بعضهم إلى بعض ، ونفيها عن الله - سبحانه - وذلك أنه قال ﴿ضرب لكم مثلا من أنفسكم﴾ فيجب أن يقولوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا فيقال لهم : فكيف يتصور أن تنزهوا أنفسكم من مشاركة عبيدكم ، وتجعلوا عبيدى شركائى فى خلقى ، فهذا حكم فاسد ، وقلة نظر وعمى قلب .

فإذا أبطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة والخلق كلهم عبيد الله - تعالى - فيبطل أن يكون شىء من العالم شريكا لله فى شىء من أفعاله»[1] .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم لا يكتفى بإيراد مثل واحد ، أو أسلوب واحد ، للدلالة على أن المستحق للعبادة إنما هو الله - تعالى - وحده ، وإنما يسوق الأمثال المتنوعة ، ليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، وليعود غيرهم إلى الرشد والصواب ، إن كانوا من أولى الألباب .

خامسا : التنفير من الإشراك بالله - تعالى - تنفيرا يجعل كل عاقل ينأى بنفسه عن الاقتراب منه ، وقد جاء هذا التنفير بأساليب متعددة . . .

منها : التصريح بأن كل الذنوب قد يغفرها الله - تعالى - سوى الإشراك به ، قال - تعالى - ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨]

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٣ .

أى إن الله - تعالى - لا يغفر لمشرك مات على شركه ، ويغفر ما دون ذلك من الذنوب لمن يشاء أن يغفر له ، ومن يشرك بالله فى عبادته غيره من خلقه ، فقد ارتكب من الآثام والكبائر ما لا تتعلق به المغفرة .

وقد أورد الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ، ثلاثة عشر حديثا نبويا تتعلق بها ، ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ : «لا تزال المغفرة بالعبد ما لم يقع فى الحجاب . قيل يا نبى الله وما الحجاب ؟ قال : الإشراك بالله ، ثم قرأ ﷺ هذه الآية» . وشبيه بهذه الآية قوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة : ٧٢] ، ومنها : تصوير حال من يشرك بالله - تعالى - تصويرا تنخلع له القلوب ، ويحمل كل عاقل على اجتناب هذا الرجس ، كما فى قوله - سبحانه - : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] .

أى : ومن يشرك بالله - تعالى - فى عبادته ومات على ذلك ، فكأنما سقط من السماء على الأرض ، فاختطفته جوارح الطير بسرعة فمزقت أوصاله ، أو تسقطه الريح فى مكان بعيد أشد البعد ، بحيث لا يعثر له على أثر . ومنها : بيان أن الإشراك بالله يؤدى إلى أشد ألوان العذاب ، ومن الآيات التى أكدت هذه الحقيقة قوله - تعالى - : ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) ﴾ [الزمر : ١٥، ١٦] .

ومنها : الإخبار بأن المؤمنين لا يليق بهم أن يستغفروا للمشركين مهما بلغت القرابة بينهم ، كما فى قوله - سبحانه - : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾ [التوبة : ١١٣، ١١٤] .

أى : ما صح وما استقام للنبى ﷺ ولأصحابه ، أن يطلبوا المغفرة للمشركين مهما

بلغت درجة القرابة فيما بينهم ، من بعد ما ظهر لهم أن هؤلاء المشركين من أصحاب النار بسبب موتهم على الكفر . ولا حجة لهم فى استغفار إبراهيم – عليه السلام – لأبيه آزر ، لأن استغفاره له إنما كان بسبب وعد صدر من إبراهيم لأبيه فلما أصر الأب على كفره ومات على ذلك ، تبرأ منه إبراهيم – عليه السلام– لأنه كثير الخشوع لله – تعالى – ، والمراد بهذا الوعد ما جاء فى القرآن من قول إبراهيم لأبيه :﴿ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ .

هذه بعض الآيات التى وردت فى التنفير من الإشراك بالله – تعالى – ، وهناك آيات أخرى فى هذا الشأن ، لو استقصيناها لطال المقال ، ولعل فيما ذكرناه العظة لأولى الألباب .

سادسا : من أحكم الأدلة التى استعملها القرآن الكريم لإثبات أن المستحق للعبادة والطاعة إنما هو الله – تعالى – وحده : مخاطبة العقول عن طريق المشاهدة ، بأن هذا الكون البديع ، الذى كل شىء فيه يسير بنظام متقن ، وبترتيب دقيق ... لا يصلح لخلقه وإيجاده إلا إله واحد لا شريك له ...

وصدق الله إذ يقول : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) ﴾ [الملك : ٣ ، ٤]

أى : ما ترى – أيها الناظر فى هذا الكون – فى خلق الرحمن من تفاوت أو اضطراب أو خلل ، فإن كنت فى شك من ذلك ، فكرر النظر فيما خلقنا حتى يتضح لك الأمر ، وستكون النتيجة بعد تكرار النظر مرات ومرات ، إلى هذا الكون الذى أوجدناه بقدرتنا ، أن ينقلب إليك بصرك خائبا وهو كليل متعب ، لأنه لم يجد فيما خلقناه أدنى شىء من الخلل أو الوهن أو التباين .

ومن الآيات القرآنية الكثيرة التى تشبه هاتين الآيتين فى الدلالة على أن هذا الكون قد أوجده الله – تعالى – بتقدير بديع ، وتكوين حكيم ، وإتقان ليس بعده إتقان ، قوله – سبحانه – : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس : ٣٧ – ٤٠]

ولقد ساق القرآن الكريم كثيرا من الأدلة العقلية والنقلية ، التى تشهد بأن هذا الكون البديع المتقن ، لا يصلح أن يكون بهذه الصورة الجميلة المحكمة إلا إذا كان خالقه إلها واحدا ، وهو الله - تعالى - ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ .

ومن الآيات التى قررت هذه الحقيقة قوله - تعالى - : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) ﴾ [الأنبياء : ٢٢ - ٢٤]

والمعنى : لو كان فى السموات والأرض آلهة أخرى سوى الله - تعالى - تدبر أمرهما ، لفسدتا ولخرجتا عن نظامهما البديع ، الذى لا خلل فيه ولا اضطراب ، وذلك لأن تعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم ، فيختل النظام لهذا الكون ، ويضطرب الأمر ، ويعم الفساد فى هذا العالم .

ولما كان المشاهد غير ذلك ، إذ كل شىء فى هذا الكون يسير بنظام محكم دقيق ، دل الأمر على أن لهذا الكون كله ، إلها واحدا قادرا حكيما لا شريك له .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : «والمعنى لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى ، غير الواحد الذى هو فاطرهما لفسدتا ، وفيه دلالة على أمرين : أحدهما : وجوب ألا يكون مدبرهما إلا واحدا . والثانى : ألا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده لقوله : «إلا الله» .

فإن قلت : لم وجب الأمران ؟ قلت : لعلمنا أن الرعية تفسد بتدبير الملكين ، لما يحدث بينهما من التناكر والتغالب والاختلاف ، ولقد قال عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق : كان والله أحبَّ إلىّ من دم عينى ، ولكن لا يجتمع فحلان فى شَوْل[1] - أى : لا يجتمع ذكران فى عدد من الإناث - !! وبعد أن ساق - سبحانه - هذا الدليل العقلى الناصع على وحدانيته ، أتبعه بدليل آخر نقلى ، فقال - تعالى - : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي . . . ﴾

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١١١

أى : إن هؤلاء المشركين قد أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة بسبب جهلهم وعنادهم ، قل لهم- أيها الرسول الكريم - هاتوا برهانكم على أن مع الله - تعالى - آلهة أخرى ، ولاشك أنهم لا برهان لهم على ذلك ، لأن الوحى الإلهى الناطق بتوحيد الله موجود فى القرآن الذى نزل علىّ ، وموجود فى كتب الأنبياء السابقين . وبذلك تكون الآيات الكريمة قد أقامت أعظم الأدلة العقلية والنقلية على وحدانية الله - عز وجل - .

وشبيه بهذه الآيات قوله - تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ من وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١]

أى : لم يتخذ - الله تعالى - ولدا كما يزعم هؤلاء الجاهلون ، لأنه ـ سبحانه - منزه عن ذلك ، ولم يكن معه إله يشاركه فى ألوهيته وربوبيته ، ولو كان الأمر كما يزعمون من أن معه إلهًا آخر ، لذهب كل إله بما خلق واستقل به عن غيره ، ولحدث بينهم التحارب والتغالب ، ولفسد هذا الكون . تنزه الله - تعالى - وتقدس عما قاله هؤلاء الضالون .

سابعا : دحض مزاعم المشركين فى أن الله - تعالى - قد شاء لهم الكفر ، وقد جاء هذا الدحض لمزاعمهم بأساليب متنوعة ، وفى آيات متعددة ، منها قوله - تعالى- : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا من شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٨ ، ١٤٩]

أى : سيقول الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة : سيقولون لو شاء الله ألا نشرك معه فى العبادة غيره لنفذت مشيئته ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، بل شاء لنا أن نشرك معه فى العبادة هذه الأصنام !! ومثل هذه الكلام الساقط قد قاله الأقوام السابقون لأنبيائهم ، واستمروا على ذلك حتى نزل بهم عذابنا فأهلكهم . قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين : هل عندكم من علم ثابت تعتمدون عليه فى قولكم ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ !! إن كان عندكم هذا العلم فأخرجوه لنا لنتباحث معكم فيه ، فإن العاقل لا يتكلم بدون علم ، ولا يحيل كذبه على مشيئه الله - تعالى - التى لا يدرى أحد عنها شيئا . . .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله تعالى - : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل : ٣٥]

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٠]

والحق أن هؤلاء المشركين ما يتبعون فى أقوالهم وعقائدهم إلا الظن الباطل ، والكذب الواضح . . .

ثم قل لهم - أيها الرسول الكريم - للمرة الثانية على سبيل التبكيت والتوبيخ : لله وحده البينة الواضحة ، ولو شاء سبحانه - هدايتكم أجمعين لهداكم ، ولكنه - تعالى - لم يشأ ذلك لأنكم صرفتم اختياركم إلى سلوك طريق الباطل ، فلما زغتم عن الحق أزاغ الله قلوبكم ، أما الذين صرفوا اختيارهم إلى طريق الحق ، فقد هداهم الله - تعالى - إليه ، كما قال - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾ [الليل : ٥ - ١٠]

والخلاصة : أن مشيئة الله - تعالى - لعباده ، لا يعلمها أحد من الناس ، وإنما الذى نعلمه جميعا أن الله - تعالى - كلفنا بتكاليف معينة علينا أن ننفذها بإخلاص وقوة ، ثم بعد ذلك نترك النتائج لله - تعالى - يسيرها كيف يشاء ، ويعجبنى فى هذا المقام قول الإمام جعفر الصادق ﵁ «إن الله - تعالى - أراد بنا أشياء ، وأراد منا أشياء ، فما أراده بنا أخفاه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فلماذا نشغل أنفسنا بما أراده بنا عما أراده منا» !!

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أبطلت مزاعم المشركين الذين ادعوا أن الله - تعالى - هو الذى شاء لهم الشرك ، وبينت أن مشيئته - سبحانه - لا علم لهم ولا لأحد بها ، وأنهم هو الذين إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى اتخذوه سبيلا ، وأنهم لا يتبعون فى أقوالهم وأعمالهم إلا الظن الباطل ، والجهل الفاضح .

ثامنا : أسلوب التحدى والمقارنة ونعنى به أن القرآن الكريم نراه فى كثير من المواطن يسرد ألوانا من النعم الجليلة التي أنعم بها على الناس ، ثم يتبعها بالتحدى الساخر لمن يزعم أن أحدًا يستطيع أن يشاركه فى خلق هذه النعم أو إيجادها ، أو حتى فى إيجا د ما يشبهها . . .

ففى سورة «النحل» - مثلا - وتسمى - أيضا - سورة النعم ، نراه فى مطلعها يتحدث باستفاضة عن النعم التى سخرها - سبحانه - للناس ، كنعمة الأنعام ، والماء ، والسماء ، والليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والأرض ، والبحر ، والجبال . . . . ثم يعقب على ذلك بقوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٧] .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ لأولئك المشركين الذين عبدوا غير الله - تعالى - أى : أفمن يخلق هذه النعم الجليلة ، وتلك المخلوقات البديعة ، كمن لا يخلق شيئا على الإطلاق ، بل هو مخلوق كتلك الأصنام والأوثان التى أشركتموها فى العبادة مع الله - تعالى - ؟ إن فعلكم هذا لدليل واضح - أيها المشركون - على جهلكم ، وانطماس بصيرتكم ، وقبح تفكيركم ! !

وقوله - سبحانه - «أفلا تذكرون» : زيادة فى توبيخهم وفى التهكم بهم . أى : أبلغ بكم السفه والحمق ، أنكم سويتم فى العبادة بين من يخلق ومن لا يخلق ، وهلا فكرتم قليلا لكى تفيئوا إلى رشدكم ؟

وفى سورة «لقمان» نرى القرآن بعد أن ساق جانبا من النعم التى أنعم الله - تعالى- بها على عبادة يقول : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾

وفى سورة «الأحقاف» الآية الرابعة نجد قوله - سبحانه - : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

وفى سورة «النمل» يورد القرآن عددًا من الآيات المشتملة على صنوف من جلائل النعم ، ثم يختمها بالتحدى الواضح لمن يزعم أن هناك أحدًا سوى الله - تعالى - أنعم على الناس بمثل هذه النعم .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٤]

وهكذا يرى المتدبر للقرآن الكريم ، أن كثيرا من آياته ، تعقد المقارنات بين الحق والباطل ، وتتحدى المشركين أن يأتوا بدليل أو ما يشبه الدليل على صحة باطلهم ، أو على أن معبوداتهم تنفع أو تضر !!

تاسعا : تلقين النبى ﷺ وأتباعه الحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، التى تزيدهم إيمانا على إيمانهم ، بأن المستحق للعبادة والطاعة ، إنما هو الله - تعالى - وحده .

وهذا التلقين قد جاء بأساليب شتى من أبرزها : أمر النبى ﷺ وأتباعه ، أن يثبتوا على عقيدة التوحيد ، وأن يعلنوا للناس أنهم لن يتزحزحوا عنها مهما تحملوا فى سبيل ذلك من بأساء وضراء ، ومن الآيات القرآنية الكثيرة التى كلفت النبى ﷺ أن يجهر للناس بهذه الحقيقة الكبرى قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) ﴾ [الزمر: ٦٤ - ٦٦]

وقوله – عز وجل – : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) ﴾ [الزمر : ١١ – ١٤]

وقوله – سبحانه – : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ [الإخلاص : ١ – ٤]

أى : قل – أيها الرسول الكريم – للناس : الله – عز وجل – هو الواحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وهو الذى يقصده غيره بالسؤال والطلب والعون والمساعدة ، وهو – سبحانه – منزه عن أن يكون له ولد أو والد ، وعن أن يكون له شبيه أو نظير ، كما قال – سبحانه – : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

عاشرا : تذكير الناس بأنهم عند الشدائد والمصائب لا يلجأون إلا إلى الله وحده لدفعها عنهم . وهناك آيات كثيرة أكدت هذه الحقيقة ، منها قوله – سبحانه– : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾ [يونس : ٢٢ ، ٢٣]

والمعنى : هو الله وحده الذى يرعاكم بقدرته سواء أكنتم فى البر أم فى البحر ، حتى إذا كنتم فى إحدى مرات أسفاركم راكبين فى السفن وأنتم فى حالة مرح وسرور ، وانقلبت أحوالكم فجأة ، حيث ارتفعت الأمواج ، واشتدت العواصف ، وتأكدتم أنكم قد أحاط بكم الهلاك . . .

هنا وفى تلك الساعات العصيبة ، توجهتم إلى الله – تعالى – وحده بالدعاء قائلين : نقسم لك يا ربنا لئن أنجيتنا من تلك الأهوال التى نحن فيها لنكونن من الشاكرين لك ، المخلصين لك العبادة وحدك .

فلما أنجاكم بفضله ورحمته خالقكم ، إذا أنتم تبغون فى الأرض بغير الحق ، وتشركون معه فى العبادة آلهة أخرى . واعلموا - أيها الناس - أن ضرر هذا الشرك وذلك البغى إنما يعود عليكم وحدكم فى الدنيا والآخرة .

ومن الآداب والأحكام التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين : أن كثيرا من الناس جبلوا على أنهم عند المصائب والمحن يتضرعون إلى الله - تعالى - وحده لكى ينقذهم منها .

وبعد : فهذه مقتطفات من الآيات القرآنية التى بينت للناس بالأدلة الساطعة ، وبالأساليب المتنوعة ، أن المستحق للعبادة ، والطاعة إنما هو الله رب العالمين ، والمتدبر فيها يراها قد اشتملت على الأدلة العقلية والنقلية ، التى تقنع العقول ، وترضى العواطف ، كما اشتملت على ألوان من الترغيب والترهيب ، والعقلاء من الناس فى كل زمان ومكان يتعلمون من هدى القرآن الكريم ، ومن هدى رسوله ﷺ ما يجعلهم ينجحون فى دعوتهم لغيرهم إلى اتباع طريق الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالمجادلة التى هى أحسن ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

* * *



٢ - حوار حول اليوم الآخر وما فيه من ثواب أو عقاب

الإيمان باليوم الآخر ، أو بيوم القيامة ، وما فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب : ركن من أركان الدين ، وجزء من أجزاء العقيدة السليمة ، ولا يكون الإنسان صحيح الإسلام ، إلا إذا آمن إيمانا راسخا ، بأن هذه الحياة الدنيا بما فيها وبمن فيها ، ستنتهى فى الوقت الذى يريده الله – تعالى – وستعقبها حياة أخرى هى الحياة الباقية الدائمة ، كما قال – سبحانه – : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت : ٦٤]

أى : إن هذه الحياة الدنيا وما فيها من مسرات وأحزان ، تشبه فى سرعة انقضائها ، وزوال متعها وشهواتها ، الأشياء التى يلهو بها الأطفال ، يجتمعون عليها وقتا ، ثم ينفضون عنها !! أما الدار الآخرة ، فهى دار الحياة الباقية الدائمة ، التى لا يعقبها موت ، ولا يعتريها فناء ولا انتهاء . فالمقصود بلفظ «الحيوان» فى الآية الكريمة : الحياة الحقة التى لا زوال معها ولا انتهاء .

والسؤال الآن : كيف هيأت شريعة الإسلام الأذهان والقلوب والمشاعر والعواطف لتقبل عقيدة الإيمان باليوم الآخر ، وما فيه من حساب ، وما يترتب على هذا الحساب من سعادة أو شقاء ؟ وكيف حاورت المنكرين بهذا اليوم ، أو الشاكين فى حدوثه ؟ وكيف ردت على شبهاتهم بأسلوب يقنع كل ذى عقل سليم ؟ وكيف ساقت الأدلة الساطعة ، والبراهين الواضحة على أن هذا اليوم آت لا ريب فيه ؟ وكيف غرست فى النفوس والمشاعر أن العدالة بكل صورها وألوانها تستلزم حدوث هذا اليوم ، حتى ينال كل مكلف ما يستحقه من ثواب أو عقاب ؟ !! وكيف صورت أهواله بأسلوب مؤثر حكيم ، يحمل العقلاء على حسن الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح ؟

للإجابة على هذه الأسئلة نقول : لقد سلك القرآن الكريم طرقا شتى ، لغرس عقيدة الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب ، وجاءت أحاديث النبى ﷺ ففصلت ما أجمله القرآن الكريم عن هذا اليوم الذى تعددت أسماؤه ، وتنوعت أهواله . . . ومن أهم هذه الطرق التى اتبعها القرآن الكريم لغرس عقيدة الإيمان بيوم القيامة ما يأتى :

١ – بين لنا القرآن الكريم فى آيات كثيرة ، مراحل خلق الإنسان منذ بدايته إلى نهايته فى هذه الدنيا ، كما بين – أيضا – مصيره بعد نهاية هذه الدنيا ومن هذه الآيات قوله – تعالى – : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً

فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾ [المؤمنون : ١٢ - ١٦]

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة بعد أن وضحت مراحل خلق الإنسان ذلك التوضيح البديع ، قد ختمت بقوله - سبحانه - : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾

أى : ثم إنكم بعد ذلك الذى ذكره - سبحانه - لكم من أطوار خلقكم ، تصيرون أطفالا ، فصبيانا فغلمانا ، فشبانا ، فكهولا ، فشيوخا . . ثم مصيركم بعد ذلك كله ، أو خلال ذلك كله إلى الموت المحتوم الذى لا مفر لكم منه ، ولا مهرب لكم عنه ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون من قبوركم للحساب والجزاء . .

ولا شك أن هذا التذكير للإنسان بأطوار نشأته ، وبحلقات حياته ، وبنهاية عمره ، وبحتمية بعثه ، فيه ما فيه من الاعتبار للمعتبرين ، ومن الاتعاظ للمتعظين .

٢ - مع أن الله - تعالى - قد بين للناس فى عشرات الآيات ، أن هذه الدنيا مصيرها إلى الزوال - كما سبق أن أشرنا - ، إلا أنه - سبحانه - قد أمرنا أن نعمر حياتنا فيها ، بإخلاص العباده له - عز وجل - ، وبالأقوال الطيبة ، والأعمال الصالحة ، عن طريق التجارة أو الزراعة أو الصناعة ، أو غير ذلك من ألوان تبادل المنافع بين الناس فى حدود ما أحله الله - تعالى - فإن هذه الدنيا قد أوجدنا - سبحانه - فيها لتعميرها لا لتخريبها ، ولإصلاحها لا لإفسادها ، وهذا ما أعلنه كل نبى لقومه . .

فهذا - على سبيل المثال - سيدنا صالح - عليه السلام - يقول لقومه :﴿ . . . يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا . . . ﴾ [هود : ٦١]

أى : قال لهم على سبيل النصح والإرشاد : يا قوم أخلصوا العبادة لخالقكم ، فهو الذى خلق أباكم آدم من هذه الأرض ، وأنتم من نسله ، وما دام الأمر كذلك فكونوا معمرين لهذه الأرض لا مخربين لها . ونراه فى مواطن آخر ينهاهم عن الإفساد فى الأرض فيقول : ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) ﴾ [الشعراء : ١٥١ ، ١٥٢]

ومن أجمع الآيات التى أرشدت الإنسان إلى ما يجب عليه أن يعمله فى دنياه ، قوله - تعالى - : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) ﴾ [القصص : ٧٧]

ونرى سيدنا رسول الله ﷺ يؤكد هذه الحقائق فى أحاديث كثيرة منها : قوله ﷺ : «ما من مسلم يزرع زرعا ، أو يغرس غرسا ، فيأكل منه طير أو إنسان أو حيوان ، إلا كان له به صدقه» ومنها : قوله - ﷺ - : «إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة - أى : نخلة صغيرة - فليغرسها» . وقد يقول قائل : وما النتيجة لهذا التعمير للحياة الدنيا عن طريق الإيمان والعمل الصالح ؟ والجواب : النتيجة لذلك : السعادة فى الدنيا والآخرة ، بدليل قوله - سبحانه - : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧]

أى : من عمل عملا صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة فى الدنيا ، يظفر معها بالسعادة وصلاح البال ، والأمان والاطمئنان ، أما فى الآخرة ، فسنجزيه جزاء أكرم وأفضل مما كان يعمله فى الدنيا من أعمال صالحة .

والخلاصة : أن اعترافنا بأن حياتنا مهما طالت لها نهاية ، وبأن هذه الدنيا مهما توالت عليها من قرون لا يمنع كل من يعيش فيها بأن يعمل على تعميرها بالإيمان الصادق ، وبالعمل الصالح ، لأن ذلك هو طريق سعادته فى دنياه وفى آخرته .

٣ - أشار القرآن الكريم فى آيات متعددة إلى أن الإنسان لا يكاد يترك هذه الحياة بعد انتهاء أجله فيها ، حتى يبدأ حسابه ، ويظهر ثوابه أو عقابه ، فالسعداء يبدأون حياة جديدة فيها كل ألوان النعيم ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله - تعالى - ، كما قال - سبحانه- : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩]

أما الأشقياء فيبدأون حياة أخرى تعيسة ، كما قال - سبحانه - : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦]

بل إن السعداء الأتقياء ليرون بشارات الخير تساق إليهم وهم فى اللحظات الأخيرة من حياتهم ، كما قال - عز وجل - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) ﴾ [فصلت : ٣٠]

أى : تتنزل عليهم الملائكة لتقول لهم فى ساعة احتضارهم : لا تخافوا مما أنتم قادمون عليه فى المستقبل ، ولا تحزنوا على ما فارقتموه من أموال وأولاد ، وأبشروا بالجنة التى وعدكم ربكم بها . أما الأشرار فنذر العذاب تواجههم وهم فى النزاع الأخير من حياتهم ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[الأنعام: ٩٣]

هذا ، والأدلة على نعيم القبر أو عذابه كثيرة ، وكلها تتوافق على إثبات أن القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ، وفى الحديث الشريف : « إن أحدكم إذا مات ، عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار . . . فيقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » .

٤ - صرح القرآن الكريم فى آيات كثيرة أن يوم القيامة آت لاشك فيه ، ولكن فى وقت لا يعلمه إلا الله - تعالى - وحده .

ومن الآيات التى صرحت بأن يوم القيامة آت لا ريب فيه قوله - سبحانه - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج : ٥ - ٧] .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يرى أنها قد أقامت دليلين ساطعين على إمكانية البعث وإعادة الناس إلى الحياة مرة أخرى ، أما الدليل الأول : فعن طريق تطور خلق الإنسان من حال إلى حال . وأما الدليل الثانى : فعن طريق مشاهدة الأرض وتنقلها من هيئة إلى هيئة أخرى . فكأن الله - تعالى - يقول : إن القادر على إيجادكم فى أطوار متعددة ، والقادر على تحويل الأرض من حال إلى حال ، قادر - أيضا - على إعادتكم إلى الحياة بعد موتكم .

٥ - حكى القرآن الكريم أقوال المنكرين لليوم الآخر ، كما حكى شبهاتهم حوله ، ثم رد عليها بما يبطلها بأساليب متعددة منها :

(أ) تفويض علم وقوع هذا اليوم إلى الله - تعالى - وحده .

ومن الآيات القرآنية التى أكدت هذه الحقيقة قوله - تعالى - : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧]

أى : يسألك المشركون عن وقت قيام الساعة سؤال استنكار واستخفاف ، قل لهم- أيها الرسول الكريم - : علم قيامها لا يعلمه إلا الله - تعالى - وحده . ولا يكشف خفاءها إلا هو - عز وجل - .

ثم عظم - سبحانه - أمر قيام الساعة فقال : ﴿ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة﴾ أى : كبرت وشقت على أهلها لخوفهم من شدائدها وأهوالها وما فيها من محاسبة ومجازاة ، وهى لا تأتى إلا فجأة وبغتة دون توقع أو انتظار .

وقد وردت أحاديث متعددة تؤيد وقوع الساعة فجأة ، ومنها ما أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه . ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته - أى : ناقته - فلا يطعمه . ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه - أى : يطليه بالجص والطين - فلا يسقى فيه . ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فمه فلا يطعمها» .

ثم أكد - سبحانه - أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا هو وحده فقال : «يسألونك كأنك حفى عنها - أى : كأنك عالم بها مع أنك لا علم لك بوقت قيامها -قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ولقد جاء فى الحديث الصحيح أن جبريل - عليه السلام - قد سأل النبى ﷺ عن وقت قيام الساعة ، فأجابه ﷺ بقوله : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» ثم قال - ﷺ - وسأخبرك عن أشراطها - أى : عن علاماتها - : «أن تلد الأمة ربها - أى : أن تلد غير الحرة سيدها - وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان» .

(ب) إنذار المنكرين ليوم القيامة بسوء المصير وأنهم سيتحسرون وسيندمون فى يوم لا ينفع فيه الندم بسبب هذا الإنكار .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) ﴾ [الأنعام: ٣٠، ٣١]

أى : ولو ترى - أيها العاقل - حال المنكرين لليوم الآخر عندما يقفون للحساب لرأيت هولاً كبيرا ، إذ سيسألهم ربهم : أليس هذا الذى تشاهدونه حقا ؟ وهنا لم يملكوا إلا أن يجيبوا بقولهم : بلى يا ربنا هذا هو الحق بعينه . وهنا يحكم الله -تعالى- فيهم بحكمه العادل فيقول : فانغمسوا فى العذاب بسبب إنكاركم لهذا اليوم العصيب وهو يوم القيامة .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى- : ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

(جـ) تلقين الرسول ﷺ الإجابة على مزاعم المشركين الذين أنكروا يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب .

وقد تكرر هذه التلقين عن طريق الحوار بألفاظ «قالوا وقل» فى كثير من الآيات القرآنية ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ

هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥٢]

أى : وقال الكافرون المنكرون ليوم القيامة للنبى ﷺ : أإذا كنا يامحمد عظاما بالية ، ورفاتا يشبه التراب فى تفتته ، أإنا لراجعون إلى الحياة مرة أخرى ؟ قل لهم - أيها الرسول الكريم - كونوا إن استطعتم حجارة أو حديدا أو أى شئ سوى ذلك ، فإن الله - تعالى - لن يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى لكى يحاسبكم على أعمالكم .

فسيقولون لك : من الذى سيعيدنا إلى الحياة مرة أخرى ؟ قل لهم : سيعيدكم إلى الحياة الله - تعالى - الذى أوجدكم فى هذه الحياة على غير مثال سابق .

ثم بين - سبحانه - ما يكون من هؤلاء الجاهلين من سوء أدب واستهزاء فقال : ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ ؟ أى فسيحركون إليك رءوسهم عندما يسمعون ردك عليهم ويقولون على سبيل الاستهزاء : متى سيأتى ذلك اليوم وهو يوم القيامة ؟ قل لهم : هذا اليوم الذى تنكرونه عسى أن يكون قريب الوقوع ، والله وحده هو الذى يعلم ذلك .

ولا شك فى أنه قريب الوقوع ، لأن لفظ «عسى» فى كلام الله - تعالى - لما هو محقق الوقوع ، وكل ما هو محقق الوقوع فهو قريب «وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون» .

وفى الحديث الشريف يقول ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى . وشبيه بهذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن : ٧]

وقوله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ... ﴾ [سبأ : ٣]

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ

﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٧٨ - ٨١]

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآيات، أن أُبَى بن خلف وكان من زعماء المشركين، جاء إلى النبى ﷺ وفى يده عظم رميم، فأخذ يفتته ويذريه فى الهواء و يقول للنبى ﷺ : يامحمد، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال له - ﷺ - : نعم يهلكك الله ويجعلك مثل هذا التراب، ثم يبعثك ثم يدخلك النار .

وهكذا نرى أن الحديث فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة عن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب قد تكرر كثيرا ، وبأساليب تدل على إمكانيته ، وعلى تحقق وقوعه ، وعلى شدة أهواله ، وقد لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ الإجابات السديدة والحكيمة ، عند مجادلة المشركين له فى شأن هذا اليوم العصيب ، حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، ويقينا على يقينهم بأن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وحتى يستعدوا له بكل ما يرضى خالقهم من أقوال وأفعال .

* * *



٣- حوار حول القرآن الكريم

من أجمل وأحكم ما فى القرآن الكريم من هدايات : مخاطبتهُ للعقول والمشاعر بأسلوب يقنع كل ذى عقل سليم بأنه كلام الله - تعالى - الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإيرادُه للأدلة الواضحة ، وللبراهين الساطعة التي تشهد وتعلن بأن هذا القرآن هو صوت الحق الذى قامت به السموات والأرض ومن فيهن ، وبأنه هو المعجزة الكبرى الخالدة الناطقة فى فم الدنيا بصدق النبى - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه .

ومع هذا ، فهل آمن جميع الناس بأن هذا القرآن من عند الله ؟ وهل اتبعوا ما جاء به من عقائد وعبادات وهدايات وآداب وأحكام . . . ؟

كلا ، ليسوا جميعا قد اتبعوا ما جاء به القرآن الكريم ، وإنما منهم من آمن به ومنهم من أعرض عنه ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾ [التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥]

والسؤال : كيف أقام القرآن الكريم الأدلة المتنوعة على أنه كلام الله - تعالى - وليس كلام أحد سواه ؟ وكيف أقنع القلوب والعواطف بذلك إقناعا فى أعلى درجات اليقين والتصديق بالنسبة لأولى الألباب ؟ وكيف حاور المعارضين له ؟ وناقش المعرضين عنه ؟ ورد على شبهاتهم بأسلوب حكيم يبطل هذه الشبهات ويهدم ما تفوهوا به من ترهات ؟ وكيف ساق ما ساق من براهين بطريقة موضوعية بديعة ، بعيدة عن السفسطة والسفاهة ، ومنزهة عن الانقياد للهوى والشهوات ، ومبرأة من الكذب والانحراف عن الحق ؟

إن المتدبر للقرآن الكريم ، يراه قد ساق حشوداً من الأدلة على أنه كلام الله - تعالى- وليس كلام أحد سواه ، ومن أهمها ما يأتى :

١ - بيان مصدر هذا القرآن وأنه من عند الله - عز وجل - ، ومن الآيات التى قررت هذه الحقيقة : قوله - سبحانه - : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) ﴾ [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥]

أى : وأن هذا القرآن المنزل من رب العالمين لا من غيره ، والذى نزل به من عند

الله- تعالى - هو جبريل أمين الوحى وعبر عنه بالروح ، لأن الأرواح تحيا بما نزل به كما تحيا الأجسام بالغذاء ، وقد نزل به جبريل على قلبك - أيها الرسول الكريم - لتكون من المنذرين للناس بسوء المصير ، إذا ما استمروا على كفرهم وفسوقهم عن أمر خالقهم ، وقد أنزلناه بلسان عربى واضح ، ليكون فهم قومك لمعانيه أبلغ وأظهر ، لأننا لو نزلناه بلغة أخرى لتعللوا بعدم فهمه وقلة إدراكه ، وبذلك نرى أن الله - تعالى - قد بين مصدر القرآن ، وبين النازل به والنازل عليه ، وكيفية النزول ، وحكمة هذا النزول ، واللغة التى نزل بها ، وكل ذلك أدلة من القرآن ذاته على أنه من عند الله - تعالى - وأنه من كلامه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

كذلك من الآيات التى أكدت أن هذا القرآن من كلام الله - تعالى - وليس من كلام غيره ، قوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩]

أى : إنا نحن وحدنا الذين بقدرتنا وإرادتنا نزلنا هذا القرآن على قلب نبينا محمد ﷺ وإنا لهذا القرآن لحافظون من كل ما يقدح فيه ، كالتحريف والتبديل ، والزيادة والنقصان ، وسيستمر هذا الحفظ لهذا القرآن - مهما أصاب أتباعه من ضعف - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وأيضا من الآيات التى قررت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - قوله سبحانه : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾ [الحاقة : ٣٨ - ٤٣] .

أى : أقسم بما تبصرون من مخلوقاتنا كالسماء والأرض والجبال والبحار ، وما لا تبصرون منها كالملائكة والجن ، أن هذا القرآن لهو قول رسول كريم هو محمد ﷺ باعتباره أنه تلقاه عن ربه ، وبلغه بأمره وإذنه كما تلقاه ، كما قال - سبحانه - ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ وليس هذا القرآن بقول شاعر ممن يحسنون نظم الشعر ، ولا بقول كاهن ممن يزعمون علم الغيب ، وإنما هو منزل من رب العالمين ، وليس من أحد سواه - عز وجل - .

ويصح أن يكون المعنى : لا أقسم بما تبصرونه من مخلوقاتنا وبما لا تبصرونه ، لأن الأمر من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى قسم ، وهذا الأمر هو أن هذا القرآن منزل من رب العالمين ، وليس من كلام أحد سواه .

٢ – صرح القرآن الكريم فى أكثر من موضوع بأن الرسول ﷺ ليس فى قدرته أن يحرف شيئا من هذا القرآن ، وأنه لو بدل شيئا منه – على سبيل الفرض – لتعرض للعقوبة الشديدة التى لا يعلمها إلا الله – تعالى – .

ومن الآيات التى أكدت ذلك قوله – سبحانه – : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس: ١٥، ١٦]

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية ، أن جماعة من المشركين ، قالوا للنبى ﷺ : إن كنت تريد أن نؤمن لك ، فعليك أن تأتينا بقرآن ليس فيه ترك عبادة آلهتنا ، وإن لم ينزل عليك ذلك ، فقل أنت هذا من نفسك أو بدله . . . فنزلت هذه الآية الكريمة .

والمعنى : وإذا تتلى على أولئك المشركين آياتنا المنزلة عليك – أيها الرسول الكريم – قالوا لك على سبيل الجدال والعناد والحسد : ائت يا محمد بقرآن آخر سوى هذا القرآن الذى تتلوه علينا ، أو بدله بأن تجعل مكان الآية التى فيها سب لآلهتنا آية أخرى فيها مدح لها .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فماذا كان غرضهم – وهم أدهى الناس وأمكرهم – من هذا الاقتراح ؟

قلتُ : كان غرضهم الكيد والمكر . أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر . وأما اقتراح التبديل والتغيير فللطمع ولاختيار الحال ، وأنه إذا وجد منه تبديل ، فإما أن يهلكه الله ، فينجوا هم منه ، أو لا يهلكه فيسخروا منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه ، وتصحيحا لافترائه على الله»[1] .

ولقد أمر الله – تعالى – رسوله محمدا ﷺ أن يرد على قولهم هذا بما يدحضه فقال : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي . . . ﴾ .

أى : قل لهم على سبيل التوبيخ والتعليم : لا يصح لى أن أبدل هذا القرآن من عند نفسى ، وإنما أنا أبلغه إليكم كما أوحاه ربى إلىّ دون زيادة أو نقصان ، وإنى

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٩

أخاف إن عصيت ربى أية معصية عذاب يوم عظيم الأهوال ، وإذا كان شأنى أن أخشاه - سبحانه - من أية معصية ولو كانت صغيرة ، فكيف لا أخشاه إن عصيته بتبديل كلامه استجابة لأهوائكم .

ثم أمره - سبحانه - بأمر آخر فقال له : وقل لهم - أيضا - يا محمد لو شاء الله أن لا أتلو عليكم هذا القرآن لفعل ، ولو شاء أن لا تعرفوا منه شيئا لفعل - أيضا - فإن مرد الأمور كلها إليه ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، بل شاء وأراد أن أتلو هذا القرآن عليكم ، وأنتم تعلمون علم اليقين ، أنى قد مكثت فيكم قبل النبوة أربعين سنة ، لم أقرأ عليكم من القرآن سورة أو آية ، لأن الله - تعالى - لم ينزل علىّ شيئا منه ، أما بعد النبوة فأنا أقرأ عليكم ما أوحاه الله إلىّ من قرآن دون زيادة أو نقصان .

وقد ختم - سبحانه - هذه المحاورة التى دارت بين الرسول ﷺ وبين أعدائه بقوله : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ : أى أجهلتم هذا الأمر الجلى الواضح ، فصرتم لا تعقلون أنه ليس فى إمكانى ولا فى إمكان أحد من الخلق أن يغير أو يبدل شيئًا من القرآن ؟ !!

كذلك من الآيات التى أعلنت أن الرسول ﷺ لو غير شيئا من القرآن - على سبيل الفرض - لأصابه العذاب الشديد ، قوله - تعالى - : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾ [الحاقة : ٤٤ - ٤٧]

أى : ولو أن محمدا ﷺ نسب إلينا ما لم نقله ، لأنزلنا به العقوبة التى تهينه بكل قوة وسرعة ، ثم بعد هذا الأخذ بقوة وسرعة ، لقطعنا منه الوتين ، وهو عرق يتصل بالقلب ، متى قطع هلك صاحبه ، ولن يستطيع أحد أن يدفع عنه هذه العقوبة . .

والحق أن فى هذه الآيات الكريمة أقوى الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - لأنه لو كان كما زعم الجاهلون الضالون أنه من تأليف الرسول ﷺ لما نطق بهذه الألفاظ التى فيها ما فيها من التهديد والوعيد ، كما أن فيها كذلك إشارة إلى أنه ﷺ لم يتقول شيئا ، وإنما بلغ هذا القرآن عن ربه - عز وجل - دون أن يزيد حرفا أو ينقص حرفا ، لأن حكمة الله - تعالى - قد اقتضت أن يهلك كل من يفترى عليه الكذب ، وقد شهد الله - تعالى - لنبيه محمد ﷺ بأنه لا ينطق عن الهوى ، وكفى بشهادته - سبحانه - شهادة .

٣ - المتدبر للقرآن الكريم يرى أن الله - تعالى - قد بين لنا فى آيات متعددة من كتابه ، وظيفة هذا الكتاب ، ومقاصده ، وهداياته ، وحسن عاقبة العاملين بأحكامه وآدابه ، وسوء عاقبة المعرضين عنه . ومن هذه الآيات قوله - سبحانه - : ﴿ .. كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

[إبراهيم : ١]

أى أنزلنا إليك هذا القرآن الكريم يا محمد لكى تخرج الناس من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية . ومنها قوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الإسراء : ٩، ١٠]

ومنها قوله - تعالى - : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف : ١]

أى : ولم يجعل فيه شيئا من التناقض أو التعارض لا فى ألفاظه ولا فى معانيه ، وإنما جعله فى أسمى درجات الاستقامة والإحكام .

ومنها : قوله - عز وجل - : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر : ٢٣]

أى : الله - تعالى - نزل عليك يا محمد أحسن الحديث وأتمه وأكمله ، كتابا هو القرآن الكريم المشتمل على السور والآيات التى يشبه بعضها بعضًا فى الهداية والإعجاز ، والتى تتكرر مرات ومرات فلا تمل على كثرة التكرار ، والتى يقرؤها المؤمنون الصادقون ، فترتجف جلودهم من شدة ما اشتملت عليه من زواجر ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إذا ما قرءوا أو استمعوا إلى آيات الرحمة والمغفرة . . .

٤ - حكى الله - تعالى - فى كثير من آيات كتابه الكريم ، الشبهات التى أثارها أعداؤه عنه ، ورد عليها - سبحانه - بما يحق الحق ويبطل الباطل . .

ومن هذه الشبهات قولهم : إن هذا القرآن هو من كلام محمد ﷺ وقد علمه إياه رجل أعجمى ! !

قال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠٣]

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية : أن بعض المشركين كانوا يقولون : إن رجلاً أعجميًا اسمه «بلعام» كان يعلم الرسول ﷺ هذا القرآن ، فنزلت هذه الآية فى الرد عليهم .

والمعنى : ولقد نعلم - أيها الرسول الكريم - علما لا يغيب عنه شىء ، ما يقوله الملحدون فى شأنك ، من أنك تتعلم القرآن من واحد من الأعاجم . قل لهم على سبيل التوبيخ : لقد كذبتم كذبا يدل على غبائكم وانطماس بصائركم ، لأن لغة القرآن لغة عربية فى أعلى درجات البلاغة ، ولغة هذا الإنسان لغة أعجمية ، فكيف يعلم الأعجمى غيره اللغة العربية التى لا يحسن النطق بها ؟!! إن زعمكم هذا لفى نهاية الغفلة والجهالة !!

ومن شبهاتهم : زعمهم بأن هذا القرآن أساطير الأولين ، وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦) ﴾ [الفرقان : ٥ ، ٦]

أى : وقال الكافرون : إن هذا القرآن أكاذيب الأولين وخرافاتهم ، أخذها عنهم رسول الله ﷺ فى الصباح وفى المساء !! قل لهم - أيها الرسول الكريم - كذبتم وفجرتم ، فإن هذا القرآن ما أنزله علىّ إلا الله - تعالى - الذى يعلم السر وأخفى ، وإنه سبحانه واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأناب .

وهكذا ساق القرآن الكريم ألوانا من الشبهات التى أثارها أعداؤه من حوله ، ثم رد عليها ردا حاسما حكيما ، يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، ويهدم شبهات الضالين والمعاندين .

٥ - ثم كانت نهاية المطاف أن تحدى القرآن أعداءه أن يأتوا بأقصر سورة من مثله ، وهذا التحدى الساخر قد حكاه القرآن فى مواطن عدة منها :

(ا) أنه حكى مزاعمهم ثم رد عليها فى قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٣١) ﴾ [الأنفال : ٣١]

والمعنى : أن هؤلاء المشركين قد بلغ بهم الكذب والتمادى فى الطغيان ، أنهم كانوا إذا قرأ الرسول ﷺ عليهم القرآن قالوا : لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن الذى تتلوه علينا يا محمد ، وما هو إلا من قصص الأولين وحكاياتهم التى سطرها بعض الناس عن بعض ، وليس من كلام الله - تعالى - .

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : «نفاجة منهم وصلف تحت الراعدة فإنهم لم يتوانوا فى مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة ، وإلا فما الذى منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاءوا غلبة من تحداهم وقرعهم بالعجز ، حتى يفوزوا بالقدح المعلى دونه ، مع فرط أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا فى باب البيان خاصة . .»[1] .

(ب) هذه هى دعواهم : «لو نشاء لقلنا مثل هذا» فكيف رد القرآن عليهم ؟

رد عليهم - أولا - بأن تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن ، ومن ذلك قوله -تعالى- ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) ﴾ [الطور : ٣٤]

ثم رد عليهم - ثانيا - بأن سهل لهم الأمر فطالبهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود : ١٣]

أى : إن هؤلاء المشركين قد زعموا أنك يا محمد قد اخترعت وألفت هذا القرآن من عند نفسك . قل لهم على سبيل التحدى : إن كان الأمر كما تزعمون فأنا واحد منكم ، وبشر مثلكم ، فهاتوا أنتم عشر سور مفتريات من عند أنفسكم ، تشبه ما جئت به فى حسن النظم ، وجمال الأسلوب ، وحكمة المعنى ، وادعوا لمعاونتكم فى بلوغ هذا الأمر كل من تتوسمون فيه المعاونة سوى الله - تعالى - لأنه هو وحده القادر على أن يأتى بمثله .

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : إن كنتم صادقين فى زعمكم أنكم لو شئتم لقلتم ولأتيتم بمثل هذا القرآن ، فهاتوا فقط عشر سور من مثله ، ولا أطالبكم بأن تأتوا بمثله .

ثم تحداهم - ثالثا - بأن طالبهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثل القرآن ، ولم يطلب منهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله ، وهذا نهاية تيسير الأمر لهم .

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢١٦ . والنفاجة : التكبر . والراعدة : السحابة . وهذا مثل يضرب للرجل يتوعد ثم لا يعمل شيئا .

وهذا التحدى الذى يتمثل فى مطالبتهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثل القرآن ، جاء فى موضعين الأول فى قوله - تعالى - : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾ [يونس : ٣٨]

والمعنى : إن هؤلاء المشركين يجادلونك ويحاورونك فى شأن القرآن ، فيزعمون أنك اخترعته من عند نفسك . قل لهم فى الرد عليهم : إن كان الأمر كما زعمتم من أنى إنا الذى اختلقت هذا القرآن ، فأتوا أنتم يا فصحاء العرب بسورة واحدة مثل سوره فى البلاغة والهداية ، وادعوا لمساعدتكم من شئتم من الناس ، إن كنتم صادقين فى زعمكم أن هذا القرآن من تأليفى . . .

أما الموضع الثانى ففى قوله - تعالى - : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾ [البقرة : ٢٣، ٢٤]

والمعنى : إن كنتم - أيها المشركون - فى شك فى أن هذا القرآن من عند الله ، وليس من كلام أحد سواه ، فأتوا أنتم بسورة من مثله فى البلاغة والهداية ، واستعينوا على ذلك بآلهتكم وبكل من تتوقعون منهم العون والمساعدة ، إن كنتم صادقين فى زعمكم أنكم تقدرون على معارضة القرآن ، فإن لم تعارضوا القرآن ، ولن تستطيعوا معارضته أو الإتيان بسورة واحدة من مثله ولو كانت أقصر سورة ، فاتركوا العناد ، وعودوا إلى الحق ، واتبعوا رسولكم محمدا ﷺ لكى تتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، والتى أعدها - سبحانه - للجاحدين المكاذبين .

وفى هذه الآيات الكريمة معجزة من نوع الإخبار بالغيب ، لأن أحدًا لم يستطع أن يأتى بسورة واحدة من مثل القرآن لا فى العهد النبوى ولا فى غير العهد النبوى .

ورحم الله صاحب الكشاف - فقد قال : «فإن قلتَ من أين لك أنه إخبار بالغيب حتى يكون معجزة ؟

قلتُ : لأنهم لو عارضوه بشىء لم يمتنع أن يتواضعه الناس ويتناقلوه ، إذ خفاء مثله فيما عليه مَبْنَى العادة محال ، لا سيما والطاعنون فيه أكثف عددًا من الذابين عنه ، فحين لم يُنْقَل عُلِمَ أنه إخبار بالغيب على ما هو به ، فكان معجزة »[1] .

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ١٠٢ .

وهكذا ثبت لكل عاقل أن هذا القرآن من عند الله – تعالى – وحده ﴿ ... وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾

وإثبات أن هذا القرآن من عند الله – تعالى – لم يكن بدون حجة أو دليل ، وإنما كان بالبرهان الساطع ، وبالدليل الناصع ، وبالحجة البالغة .

لقد بين الله – تعالى – مصدر هذا القرآن ، ووظيفته ، وهداياته ، وإعجازه ، وصيانته من كل تحريف ، ورد على شبهات أعدائه ردا حكيما حاسما ، وتحداهم أن يأتوا بأصغر سورة من مثله ، وهذا التحدى سيبقى إلى أن يرث الله هذه الدنيا ومن عليها .

وحكى فى كثير من ردوده ومن ومحاوراته لأعدائه أقوالهم – كما سبق أن أشرنا– ، ثم لقن رسوله محمدا ﷺ الجواب الذى يبطل أقوالهم ، ومن ذلك قوله – سبحانه – : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾ [النحل : ١٠١ ، ١٠٢] .

* * *

٤ - حوار بين الخالق - عز وجل - وبين بعض مخلوقاته

أقصد بالحوار بين الخالق - عز وجل - وبين بعض عباده : ما حكاه لنا القرآن الكريم من أن الله - تعالى - قد قال لبعض عباده أقوالا بكيفية لا يعلمها إلا هو - سبحانه- ، وقد أجاب هؤلاء الأخيار على ما قاله خالقهم لهم بإجابات تدل على طاعتهم له - عز وجل - وعلى أدبهم السامى . .

ولعله - عز وجل - عندما ساق هذه المحاورات فى كتابه الكريم ، إنما أراد أن يعلمنا أدب المحاورة والمناقشة والمراجعة بأسلوب حكيم ، وبمنهج قويم ، يهدى إلى الرشد ، ويؤدى إلى السعادة والفلاح .

وسنختار النماذج التى فيها مادة «القول» وما اشتق منها كقال ويقول وقل وقالوا . . . إلخ ، لأن هذه المادة هى أوضح الألفاظ الدالة على المحاورة والمراجعة .

ومن تلك النماذج ما وجهه - سبحانه - إلى ملائكته الكرام من أقوال وما قالوه فى الرد على خالقهم - عز وجل - كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾ [البقرة : ٣٠ - ٣٣]

أى واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، وقت أن قال الله - تعالى - لملائكته بكيفية لا يعلمها إلا هو ، إنى جاعل فى الأرض خليفة هو آدم وذريته ، لكى يعمروا هذه الأرض ، وينشروا فيها ما ينفعهم . وخطاب - الله تعالى - لملائكته بأنه سيجعل فى الأرض خليفة ، ليس المقصود به المشورة ، وإنما خاطبهم بذلك من أجل ما ترتب عليه من سؤالهم عن وجه الحكمة من هذه الخلافة ، وما أجيبوا به بعد ذلك . أو من أجل تعليم العباد المشاورة فى أمورهم قبل أن يقدموا عليها ، وعرضها على ثقاتهم وعقلائهم ، وإن كان هو - سبحانه - بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن المشاورة .

وقد رد الملائكة خالقهم بقولهم : يا ربنا أتجعل فى هذه الأرض من يفسد فيها ويريق الدماء ، والحال أننا ننزهك عما لا يليق بعظمتك . .

وقولهم هذا إنما صدر منهم على وجه استطلاع الحكمة فى خلق نوع من الكائنات يصدر منهم الإفساد فى الأرض وسفك الدماء ، وقطعهم بحكمة الله - تعالى - فى كل ما يفعل ، لا ينافى تعجبهم من بعض أفعاله ، لأن التعجب يصدر عن خفاء سبب الفعل . .

والملائكة لا يعلمون الغيب ، فلابد أن يكونوا قد علموا ماذا سيكون من الفساد فى الأرض وسفك الدماء بوجه من الوجوه التى يطلع الله بها على الغيوب بعض الأخيار من خلقه .

قال الإمام ابن كثير : «وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله - تعالى - ولا على وجه الحسد لبنى آدم كما يتوهمه البعض ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك . يقولون يا ربنا ما الحكمة فى خلق هؤلاء ، مع أن منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، فإن كان المراد عبادتك ، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، ولا يصدر منا شىء من ذلك ، فهلا وقع الاقتصار علينا»؟[1] .

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يوقفهم عند حدود الأدب الكامل واللائق بمقام الخالق - عز وجل - فقال لهم : إنى أعلم ما لا تعلمونه أنتم من شئون خلقى ، ومن عجائب ملكوتى . .

ثم أخذ - سبحانه - فى بيان جانب من حكمة خلق آدم وجعله خليفة فى الأرض ، و بعد أن أجاب الملائكة على سؤالهم بالجواب الحكيم المناسب ، فقد علّم - سبحانه - آدم أسماء الأشياء كلها ، ثم عرض هذه المسميات على الملائكة ، فقال لهم على سبيل التعجيز : أخبرونى بأسماء هذه الكائنات ، إن كنتم صادقين فيما دار فى خواطركم من أنى لا أخلق خلقا إلا وأنتم أعلم منه وأفضل ؟

فما كان من الملائكة بعد هذه المحاورة الحكيمة إلا أن ردوا على خالقهم - عز وجل - بقولهم : جل شأنك يا ربنا ، فنحن لا علم لنا بشىء سوى ما تعلِّمُنا إياه ، فأنت وحدك العليم بكل شىء ، الحكيم فى خلقك وأمرك .

ومن الفوائد التى تؤخذ من هذه المحاورة التى دارت بين الخالق - عز وجل - وبين ملائكته الكرام : أنه - سبحانه - قد أفسح المجال أمام الملائكة لكى يعبروا عن رأيهم أنه - سبحانه - قد أرشدهم بأسلوب مهذب حكيم إلى ما يجب عليهم الوقوف عنده .

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٦٩ .

وهكذا يتعلم العقلاء من هذه المحاورة أن الرئيس عليه أن يفسح المجال لمرءوسيه المخلصين ، لكى يناقشوه فيما خفى عليهم من أمور ، وإذا تجاوزوا حدود الأدب اللائق معه ، راعى فى عتابهم ما عرفه فيهم من سلامة القلب ، ومن تلقى أوامره بحسن الطاعة ، وأن محبتهم وإخلاصهم له لا يتعارض مع استطلاع الحكمة عن بعض ما صدر عنه من أقوال أو أفعال .

ومن الأدب السامى فى الحوار ما حكاه القرآن الكريم من أن الله - تعالى - يسأل رسله الكرام يوم القيامة - وهو العليم بكل شىء - فيقول لهم : ماذا كان جواب أقوامكم لكم عندما دعوتموهم إلى إخلاص العبادة لى وحدى؟

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يقص علينا ذلك بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١٠٩]

اذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ ولتزداد إيمانا على إيمانك ، يوم يجمع الخالق - عز وجل - رسله الكرام يوم القيامة فيقول لهم : ما الإجابة التى أجابكم بها أقوامكم حينما أمرتموهم بعبادتى وحدى ؟

وخص - سبحانه - الرسل وحدهم بالذكر مع أنهم وغيرهم سيُجمعون للحساب يوم القيامة ، لإظهار شرفهم ، وللإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرهم من الأقوام ، لأن هؤلاء الأقوام إنما هم تبع لهم .

وقال - سبحانه - «ماذا أُجِبتم» ولم يقل - مثلا- : هل بُلِّغتم رسالتى أو لا ؟ للإشعار بأن الرسل الكرام قد بلغوا الرسالة التى كلفهم بها خالقهم على أكمل ، وأن الذين خالفوهم من أقوامهم سيتحملون وزر مخالفتهم يوم القيامة .

وقوله - تعالى - ﴿ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ حكاية لإجابة الرسل .

فإن قيل : لماذا نفوا عن أنفسهم العلم مع أن عندهم بعض العلم ؟ فالجواب على ذلك : أن هذا من باب التأدب مع الخالق - عز وجل - فكأنهم يقولون : لا علم لنا يذكر بجانب علمك المحيط بكل شىء ، ونحن وإن كنا قد عرفنا ما أجابنا به أقوامنا إلا أن معرفتنا هذه لا تتعدى الظواهر ، أما علمك أنت يا ربنا فشامل للظواهر والبواطن ، وأنت وحدك الذى تحكم بيننا وبينهم ، بمقتضى علمك المحيط بكل شىء وعدلك الذى لا يحوم حوله ظلم أو خطأ .

ومما يؤخذ من هذه المحاورة الحكيمة : تشريف الخالق - عز وجل - لرسله الكرام ، وأدب هؤلاء الرسل مع خالقهم - سبحانه - .

كذلك من المحاورات التى فيها ما فيها من إظهار الحق ودحض الباطل ، ما حكاه القرآن الكريم فى قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) ﴾ [المائدة : ١١٦ - ١١٩]

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وليذكر معك كل مكلف ، وقت أن يسأل الله - تعالى - عبده ورسوله عيسى فيقول له : يا عيسى أأنت قلت للناس اجعلونى أنا وأُمّى إلهين من غير الله ؟

والمقصود بهذا الاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ : توبيخ الكفرة من قومه ، وتبكيت كل من نسب إلى عيسى وأمه ما ليس من حقهما ، وفضيحة الضالين على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ، لأن عيسى - عليه السلام - سينفى أمامهم أنه قد قال شيئا من ذلك ، ولا شك أن النفى بعد السؤال أبلغ فى التكذيب ، وأشهد فى التوبيخ والتقريع ، وأدعى لقيام الحجة على من وصفوه بما هو برىء منه . وقد أجاب عيسى - عليه السلام - بأبلغ إجابة ، وبأوضح بيان حيث قال : أنزهك يا إلهى عن أن أقول هذا القول ، فإنه ليس من حقى ولا من حق أحد أن ينطق به . .

ثم أضاف إلى هذا الأدب العالى فى الجواب : إظهار ضعفه المطلق أمام علم خالقه - عز وجل - حيث قال : إن كنتُ قلتُ هذا القول ، فأنت تعلمه ولا يخفى عليك منه شىء ،لأنك يا إلهى تعلم ما فى ذاتى ولا أعلم ما فى ذاتك ، وأنت علام الغيوب .

وبعد هذا التنزيه من عيسى - عليه السلام - لخالقه - عز وجل - ، وبعد هذا النفى

المؤكد لما سئل عنه ، وبعد هذا الإظهار للضعف المطلق أمام بارئه ، بعد كل ذلك صرح بما قاله لقومه فقال : إنى يا إلهى ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به ، ألا وهو عبادتك وطاعتك ، وإنى كنت رقيبا وشهيدا عليهم ، فلما قبضتنى إليك ، ورفعتنى إلى سمائك ، كنت - يا إلهى - أنت وحدك الحفيظ عليهم ، والمراقب لأحوالهم ، وأنت على كل شىء شهيد ، لا تخفى عليك خافية فى الأرض ولا فى السماء .

ثم فوض - عليه السلام - الأمر كله إلى خالقه فقال : إن تعذب يا إلهى هؤلاء الناس فبعدلك ، وإن تغفر لهم فبفضلك ورحمتك ، فأنت العزيز الحكيم .

ثم ختم - سبحانه - هذه المحاورة والمجاوبة ببيان حسن عاقبة الصادقين يوم القيامة فقال : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

وتأمل معى - أيها القارئ الكريم - هذه الآيات الكريمة مرة ومرات ، وقل لى بربك هل تجد حوارًا فيه من الفضل العظيم لمن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وفيه من الأدب الرفيع من عيسى - عليه السلام - مع خالقه - عز وجل - كهذا الحوار .

إن أمثال هذه المحاورات الحكيمة تزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، وتزيد الذين فى قلوبهم مرض رجسا على رجسهم .

وإذا كان الخالق - عز وجل - فى تلك المشاهد السابقة ، هو الذى وجه إلى ملائكته وإلى بعض أنبيائه هذه الأقوال والأسئلة ، فإننا نرى القرآن الكريم فى مواطن أخرى قد حكى لنا ما تضرع به بعض الأنبياء إلى خالقهم ، وما قاله - عز وجل - لهم فى الإجابة على مطالبهم ودعائهم . . .

* * *

واستمع إلى تلك المحاورة التى دارت بين نوح - عليه السلام - وبين خالقه - عز وجل - بعد أن رأى نوح ابنه وقد ابتلعته أمواج الطوفان ، وبعد أن عصى قول أبيه له : ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾

لقد وقف نوح - عليه السلام - بعد أن قضى الأمر بهلاك الكافرين وبنجاة المؤمنين يدعو الله - تعالى - ويقول - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ ... رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي

وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٨]

أى : وبعد أن تخلف ابن نوح - عليه السلام - عن الركوب مع أبيه فى السفينة وغرق مع الغارقين ، أحس نوح - عليه السلام - بعاطفة الأبوة الحانية تسرى فى كيانه ، فتضرع إلى خالقه فى استعطاف ورجاء قائلا : يارب إن ابنى من أهلى وهو قطعة منى ، فأسألك أن ترحمه برحمتك الواسعة ، وإن كل وعد تعده لعبادك هو الوعد الحق ، وأنت قد وعدتنى بنجاة أهلى إلا من سبق عليه القول منهم . . .

واكتفى نوح - عليه السلام - بأن يقول : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ دون أن يصرح بمطلوبه وهو طلب النجاة له من العذاب ، تأدبًا مع خالقه وحياء منه ، واعتقادا بأنه - سبحانه - عليم بما يريده وخبير بما يجول فى قلبه .

وهذا لون من الأدب السامى سلكه الأنبياء مع خالقهم - عز وجل - عند مخاطبتهم له ، ومَنْ أولى بذلك منهم ؟ ولعل نوحا - عليه السلام - عندما تضرع إلى خالقه بهذا الدعاء لم يكن يعلم أن طلب النجاة لابنه الكافر ممنوع . فكان حاله وهو فى أشد حالات الحزن على ابنه ، كحال النبى ﷺ عندما قال لعمه أبى طالب : لأستغفرن لك ما لم ينهانى الله عن ذلك . واستمر فى استغفاره له إلى أن نهاه الله عن هذا الاستغفار فى قوله - تعالى - : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

[التوبة: ١١٣]

ولقد رد - سبحانه - على عبده نوح بقوله : يا نوح إن ابنك هذا الذي سألتنى الرحمة له ، ليس من أهلك المؤمنين الذين وعدتك بنجاتهم ، بل هو ممن سبق القول بهلاكه بسبب كفره ، والقرابة النافعة إنما هى قرابة الإيمان ، أما قرابة النسب فلا وزن

لها إذا لم يكن معها الإيمان والعمل الصالح ، فابنك هذا انقطعت صلته بك بسبب إصراره على كفره ، وأبوتك النسبية له لن تنفعه بسبب عمله الفاسد ، وما دام الأمر كذلك ، فلا تلتمس منى ملتمسا لا تعلم على وجه اليقين أصواب هو أم خطأ ؟ ، وإنى أنهاك يا نوح عن أن تكون من القوم الجاهلين ، الذين يسألون عن أشياء لا يتحققون من وجه الصواب فيها .

وهنا تنبه نوح - عليه السلام - إلى ما أرشده ربه إليه فقال : يا رب إنى أستجير بك وأحتمى بجنابك من أسألك شيئا بعد الآن ، ليس عندى علم صحيح بأنه جائز ولائق ، وإن لم تغفر ما فرط منى من قول ، وترحمنى برحمتك الواسعة ، لأكونن من الذين خسروا أنفسهم بالاحتجاب عن علمك وحكمتك .

وقد ختمت هذه المحاورة ببشارة الله - تعالى - لنبيه نوح - عليه السلام - بأنه - سبحانه - بشره بقبول توبته ، وبالأمان والسلام له ولكل من آمن وعمل صالحا .

ومن الدروس التى نتعلمها من هذه المحاورة : أن العاطفة الأبوية هى العاطفة الأبوية فى كل زمان ومكان ، وأن هذه العاطفة لا وزن لها إذا تعارضت مع الإيمان والعمل الصالح ، وأن من شأن الأخيار إذا ما أرشدوا إلى الطريق الصحيح عادوا إليه مستغفرين خالقهم مما فرط منهم ، وأن رحمته - سبحانه - قريبة من المحسنين .

* * *

وإليك محاورة أخرى دارت بين إبراهيم - عليه السلام - وبين خالقه - سبحانه - وهى تدل على كمال قدرة الله - تعالى - وعلى محبته إبراهيم - عليه السلام - للوصول إلى أعمق درجات الإيمان ، وقد حكى القرآن هذه المحاورة فى قوله - تعالى - :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٠]

وقد ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم هذا لربه أسبابا منها : أنه لما قال للنمرود «ربى الذى يحيى ويميت» ، أحب أن يترقى بأن يرى ذلك مشاهدة .

أى : واذكر - أيها العاقل لتزداد إيمانا بقدرته - تعالى - وقت أن قال إبراهيم لربه : يا رب أرنى بعينى كيف تعيد الحياة إلى الموتى .

وفى قوله «رب» تصريح بكمال أدبه مع خالقه ، فهو قبل أن يسأله يستعطفه ويعترف له بالربوبية الحقة ، وبالألوهية التامة . .

وقد رد الله - تعالى - على طلب إبراهيم بقوله : أتقول ذلك وتطلبه وكأنك لم تؤمن إيمانا تاما بأنى قادر على إحياء الموتى وعلى فعل كل شىء ؟

وهنا يجيب إبراهيم على سؤال ربه فيقول : بلى يارب إنى أومن بوحدانيتك وقدرتك إيمانًا صادقا تاما ، ولكنى سألت هذا السؤال ليزداد قلبى سكونا واطمئنانا وإذعانا ، لأن من شأن المشاهدة أن تغرس فى القلب إيمانا أقوى ، واطمئنانا أشد ، وأنا أريد أن أنتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين ، ومن درجة البرهان إلى درجة العيان . ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كان من جواب الخالق - عز وجل - على نبيه إبراهيم فقال : ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أى : فاضممهن إليك لتتأملهن وتعرف أشكالهن لئلا تلتبس عليك بعد الإحياء ، ثم اذبحهم وقطعهن قطعا ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ﴾ ثم بعد ذلك نادهن وقل لهن تعالين بإذن الله ، يأتينك إتيانا سريعا وقد عادت إليهن الحياة كما كان حالهن قبل الذبح ، واعلم أن الله - تعالى - غالب على أمره ، حكيم فى كل شئونه وأفعاله .

فالمقصود من هذه المحاورة : إظهار أكمل الأدلة على قدرة الله- تعالى - ووحدانيته ، وبيان أنه - سبحانه - يجيب سؤال الأخيار ليزدادوا إيمانا على إيمانهم ، ويفتح بابه أمامهم لكى يسألوا عما يريدون السؤال عنه ، ويتقبل مطالبهم بحلم عظيم ، وفضل كبير .

* * *

وتأمل هذه المحاورات التى دارت بين موسى - عليه السلام - وبين خالقه - سبحانه- ، وهذه المحاورة حكاها القرآن الكريم فى قوله - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [الأعراف : ١٤٣ ، ١٤٤]

والمعنى : وحين جاء موسى - عليه السلام - فى الوقت الذى حددناه له ، وفى
المكان الذى أمرناه بأن يذهب إليه ، لكى يتلقى التوراة بواسطة وحينا ، وحين كلمناه
بكيفية لا يعلمها أحد سواه ، قال موسى بشوق لرؤية ربه : يا رب أرنى ذاتك الجليلة ،
أى : مكنى من رؤيتك بعينى . فأجابه الخالق - عز وجل - بقوله : يا موسى لن
تطيق رؤيتى وأنت فى هذه الدنيا ، ولكن انظر إلى الجبل الذى هو أقوى منك ، فإن
ثبت مكانه حين أتجلى له ولم يتفتت من هذا التجلى ، فسوف ترانى بعينيك ، وحين
ظهر نور الخالق - عز وجل - للجبل على الوجه اللائق بجلاله اندك الجبل وتفتت ،
وسقط موسى مغشيا عليه من هول ما رأى ، فلما أفاق قال يارب أنزهك تنزيها
عظيما ، وأتوب إليك توبة صادقة ، وأنا أول المؤمنين . وقد بشره الله - تعالى -
باصطفائه واختياره لحمل رسالته ، وأمره بتبليغها على الوجه الأكمل وبالمداومة على
شكره - سبحانه - .

ومن كل ما تقدم نرى نماذج من محاورات حكيمة دارت بين الخالق وبين ملائكته
وبين بعض رسله ، ومن الدروس التى نتعلمها منها : فضل الله - تعالى - على عباده
حيث أفسح المجال لهم لكى يسألوه ، ثم يجيبهم على أسئلتهم بكل منطق سليم ،
وتوجيه كريم ، ولكى يزدادوا إيمانا على إيمانهم ، ولكى يتعلم العقلاء من هذه المحاورات
الحكيمة مايسعدهم فى حياتهم ، وما يهديهم إلى الصراط المستقيم .

* * *

٥ - حوار بين الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وبين أقوامهم

المحاورات التى حدثت بين الرسل الكرام وبين أقوامهم ، وردت فى القرآن الكريم فى مئات الآيات ، وفى عشرات المواضع ، ولو أردنا أن نحصيها إحصاء دقيقا لاحتجنا إلى مؤلف خاص ، لذا فسنكتفى بنماذج منها تعطينا صورة واضحة لما دار بينهم من أقوال ومجادلات . . .

وهذه المحاورات منها ما ساقه القرآن الكريم على ألسنة الرسل مع أقوامهم بصفة عامة ، ومنها ما حكاه القرآن الكريم على لسان كل نبى مع قومه بصفة خاصة .

ومن النوع الأول قوله - تعالى - فى سورة إبراهيم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) ﴾ [إبراهيم: ٩ - ١٤]

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ لَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ للتقرير ، لأن المخاطبين كانوا يعرفون أخبار هؤلاء الرسل وأقوامهم ولو على سبيل الإجمال . فقوم نوح بلغتهم أخبارهم بسبب خبر الطوفان الذى كان مشهورا بينهم . وقوم عاد وثمود بلغتهم أخبارهم لأنهم من العرب ومساكنهم فى بلادهم ، وهم يمرون على ديار قوم صالح فى أسفارهم إلى بلاد الشام للتجارة .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لقومك : لقد علمتم يا أهل مكة ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ، كما علمتم ما حل بالمكذبين من بعدهم كقوم إبراهيم ولوط وشعيب وموسى ، وكغيرهم ممن لايعلم أحوالهم إلا الله - تعالى - وما دام الأمر كذلك ،

فاعتبروا واتعظوا واتبعوا الحق الذى جاءكم به رسولكم الكريم ، لكى تنجوا من العذاب الأليم الذى حل بالظالمين من قبلكم .

إن هؤلاء الظالمين الذين حل بهم العقاب المدمر ، جاءهم رسلهم بالحجج الواضحات ، وبالمعجزات الظاهرات الدالة على صدقهم ، فماذا كان موقف هؤلاء الظالمين من رسلهم الذين جاءوا لهدايتهم ؟ كان موقفهم فى نهاية الجهالة والقبح ، فقد وضعوا أطراف أيديهم فى أفواههم ، فعضوها غيظا وبغضا مما جاء به الرسل الكرام ، وقالوا لهم بغضب وضجر : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وبما جئتمونا به من معجزات ، فانصرفوا عنا ، واتركونا وشأننا ، فنحن لا نريد أن نراكم ، وإننا فوق ذلك لفى شك من صدقكم ، وفى قلق واضطراب من أمركم .

فأنت ترى أن هؤلاء الأقوام لم يكتفوا فى ردهم على رسلهم بجهالة أو سفاهة واحدة ، وإنما هم ظهروا أمامهم بمظهر الكاره لهم ، والمتوعد إياهم بالأذى والسوء ، وقالوا لهم إنا مصرون على كفرنا بكم ، وإننا لفى ريب واضح من أمركم .

وهكذا نرى كيف يكون حوار السفهاء المتكبرين الجهلاء ، مع الأخيار العقلاء .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما رد به الرسل الكرام على المكذبين من أقوامهم فقال : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ ﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ للتوبيخ والإنكار . ومحل الإنكار هو وقوع الشك فى وجود الله - تعالى - وفى وحدانيته .

أى : قال الرسل في حوارهم مع أقوامهم على سبيل الإنكار والتعجب من أقوالهم الباطلة : أفى وجود الله - تعالى - وفى وحدانيته شك ، مع أنه - سبحانه - هو خالق السموات والأرض ، وهو الذى يدعوكم إلى الإيمان بما جئناكم به لكى يغفر لكم ذنوبكم ، ولكى يؤخركم فى هذه الحياة الدنيا إلى وقت معين ، ثم تموتون وتبعثون فيحاسبكم على أقوالكم وأعمالكم ، دون أن يعاجلكم فى حياتكم بعذاب الاستئصال رحمة بكم وأملاً فى هدايتكم ؟

فأنت ترى أن رد الرسل الكرام كان منصبا على إنكار أن يستمر هؤلاء الأقوام على كفرهم وعلى إنكارهم لوجود الله - تعالى - ولوجوب إخلاص العبادة له ، مع أنه - سبحانه - هو الخالق لهم وللسموات والأرض وما فيهما .

وكان فى إمكان هؤلاء الأقوام - لو كانوا يعقلون - أن يكفوا عن مجادلاتهم لرسلهم ، وإن يطيعوهم فيما أمروهم به ، بعد أن سمعوا منهم ما يدل على صدقهم ولكن هؤلاء الأقوام لجوا فى طغيانهم وقالوا لرسلهم : ما أنتم أيها الرسل إلا بشر مثلنا فى الهيئة والصورة والمأكل والمشرب ، وما تريدون منا إلا إبعادنا عن عبادة الآلهة التى كان يعبدها آباؤنا ، فإن كنتم صادقين فى دعوتكم ، فأتونا بحجة ظاهرة تدل على صدقكم .

وكأنهم بهذا الرد يرون أن الرسل لا يصح أن يكونوا من البشر ، وأن هؤلاء الرسل ليسوا صادقين فى دعوتهم ، وأن معجزاتهم وحججهم ليست صحيحة .

وهنا يرد عليهم الرسل بالمنطق الحكيم وبالأسلوب المهذب ، فيقولون لهم : نحن نوافقكم كل الموافقة على أننا بشر مثلكم كما قلتم ، ولكن هذه المماثلة بيننا وبينكم فى البشرية ، لا تمنع أن يمن الله - تعالى - على من يشاء من عباده بالنبوة ، وفى الوقت ذاته نحن لا نستطيع أن نأتيكم بخارق من الخوارق التى تقترحونها علينا إلا بإذن الله - تعالى - فنحن عباده ولا نتصرف إلا بإذنه ، وعليه وحده نتوكل ، وإليه وحده نفوض أمرنا .

فأنت ترى أن الرسل الكرام قد سلموا للمكذبين دعواهم المماثلة فى البشرية فى أول الأمر ، ثم بعد ذلك بينوا لهم أن المشاركة فى الجنس لا تمنع التفاضل ، فالبشر كلهم عباد الله وقد أوجدهم جميعا من أب واحد ومن أم واحدة ، إلا أنه - سبحانه - قد فضل بعضهم على بعض فى الرزق وفى العقل وفى غير ذلك من ألوان التفضيل . .

وفى الوقت ذاته أنكر الرسل على أقوامهم مطالبهم المتعنتة ، وصارحوهم بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوهم بخوارق أو معجزات لم يأذن بها خالقهم - عز وجل - . .

ثم بعد ذلك أخبر الرسل أقوامهم بأنهم سيمضون فى طريق دعوتهم ، وفى توكلهم على خالقهم الذى هداهم لأقوم الطرق ، وأنهم سيصبرون على أذى الجاحدين والظالمين ، ولكن هؤلاء الأقوام الجاهلين ازدادوا طغيانا على طغيانهم ، فهددوا رسلهم تهديدا . سافرا شنيعا ، حيث قالوا لهم : إما أن تخرجوا من بلادنا ، وإما أن تسيروا معنا على عبادة آلهتنا ، فأوحى - سبحانه - إلى رسله بأنه - سبحانه - سيهلك الظالمين ، وسينصر رسله عليهم ، وسيسكنهم أرضهم من بعدهم . والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها قد حكت لنا بأسلوب مؤثر حكيم ، جانبا من المحاورات التى

دارت بين الرسل وبين مكذبيهم ، وبينت لنا كيف دافع الرسل عن عقيدتهم ، وكيف ردوا على الأقوال السيئة ، والأفعال القبيحة التى واجههم بها المكذبون ، وكيف أعلنوا فى قوة وعزم وإصرار ثباتهم فى وجوه أعدائهم ، وكيف قابلوا الأذى بالصبر الذى لا جزع معه مهما وضع الأعداء فى طريقهم من عقبات ، وكيف قابلوا أقوالهم الباطلة ، بالمنطق السليم ، وبالحوار الحكيم ، وبالحجة الناصعة ، وكيف أنه - سبحانه - بفضله ورحمته وعدله ، قد أهلك الظالمين ، ونصر المظلومين .

وشبيه بهذه الآيات ، وما اشتملت عليه من محاورات دارت بين الرسل وبين أقوامهم قوله - تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) ﴾ [يس : ١٣ - ١٩]

والمعنى : واجعل - أيها الرسول الكريم - حال أصحاب القرية مثلا لمشركى مكة فى الإصرار على الكفر والعناد ، وحذرهم من أن مصيرهم سيكون كمصير هؤلاء السابقين الذين كانت عاقبتهم أن أخذتهم الصيحة فإذا هم خامدون ، لأنهم كذبوا المرسلين . . .

لقد أرسل الله - تعالى - على أهل هذه القرية رسولين فكذبوهما ، وأعرضوا عن دعوتهما ، فأرسل الله - تعالى - مع الرسولين رسولا ثالثا ليشد من أزرهما وليعاونهما على تبليغ كلمة الحق ، وأذعن الثلاثة لأمر ربهم فقالوا لأهل القرية : إنا إليكم مرسلون لا إلى غيركم ، فأطيعونا فيما ندعوكم إليه من إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ومن وجوب التحلى بمكارم الأخلاق .

ولكن أهل القرية قالوا للرسل على سبيل الإنكار والتطاول : أنتم لستم إلا بشرا مثلنا فى البشرية ، ولا مزية لكم علينا . وكأن البشرية فى زعمهم تتنافى مع الرسالة والنبوة . .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : وما أنزل الرحمن من شىء عليكم - أيها الرسل - ، وما أنتم إلا كاذبون فيما تدّعون من أنكم رسل إلينا .

وهكذا قابل أهل القرية رسل الله بالإعراض عن دعوتهم ، وبالتطاول عليهم ، وبالإنكار لما جاءوا به ، وبوصفهم بالكذب فيما يقولونه .

ولكن الرسل الكرام قابلوا هذه السفاهات بالأناة والصبر شأن الواثق من صدقه ، فقالوا لأهل القرية : ربنا وحده يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وكفى بعلمه علما وبحكمه حكمًا ، وما علينا بعد ذلك بالنسبة لكم إلا أن نبلغكم ما كلفنا بتبليغه إليكم تبليغا واضحا لا غموض فيه ولا التباس .

فأنت ترى أن الرسل لم يقابلوا سفاهة أهل القرية بمثلها ، وإنما قابلوا تكذيبهم لهم بالمنطق الرصين ، وبالجواب السليم ، وبالحوار العاقل الكريم .

ولكن أهل القرية لم يقتنعوا بهذا المنطق السليم ، بل ردوا على الرسل ردا أقبح من سابقه ، حيث قالوا لهم : إنا تشاءمنا بكم وأصابنا الضر عندما رأينا وجوهكم ، ولئن لم تتركونا وشأننا ، وترحلوا عنا ، لنرجمنكم بالحجارة ، وليمسنكم منا عذاب شديد الألم . . .

ولكن الرسل الكرام قابلوا هذا التهديد - أيضا - بالثبات وبالرد الشجاع الحكيم فقالوا لهم : ليس الأمر كما ذكرتم من أن وجودنا معكم هو سبب شؤمكم ، بل الحق أن شؤمكم معكم ومن عند أنفسكم ، لأنكم قوم عادتكم ودأبكم الإسراف فى الكفر والفسوق والعصيان .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن أهل هذه القرية جاءهم واحد منهم ينصحهم بأن يتبعوا الرسل وأن يطيعوهم ، فلم يلتفتوا إليه ، بل قتلوه ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

ومن العبر والعظات التى نأخذها من هذه الآيات والتى قبلها ، أن العقلاء يسلكون فى حوارهم مع غيرهم الأسلوب الحكيم ، والأدب الرفيع ، والصبر الجميل ، والرد المقنع ، والثبات على الحق ، والتوجيه السليم . . . أما السفهاء والجهلاء فسلاحهم فى حوارهم وجدالهم : الغرور الفاضح ، والغباء الواضح ، والمنطق السيئ ، والتهديد السافر لمن يخالفهم ، وعاقبتهم الخسران والبوار .

هذان مثلان لمحاورات دارت على ألسنة الرسل مع أقوامهم بصفة عامة ، أما المحاورات التى دارت بين كل رسول مع قومه فما أكثرها ، ونكتفى هنا بذكر نماذج منها .

فهذا نوح - عليه السلام - أرسله الله - تعالى - إلى قوم يعبدون الأصنام ، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - وينهاهم عن عبادة غيره ، وجرى بينه وبينهم الكثير من الجدال والحوار ، وحكى القرآن الكريم جانبا من هذا الحوار والجدال فى سور متعددة منها سورة الأعراف ويونس وهود والمؤمنون والشعراء والصافات ونوح .... وإليك طرفا من هذا الحوار الذى دار بين نوح وقومه كما حكاه القرآن الكريم .

لقد قالوا له عندما دعاهم إلى عبادة الله وحده وإلى ترك عبادة غيره : ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ فبماذا رد عليهم ؟ لقد رد عليهم بقوله : ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣)﴾ [الأعراف: ٦٠ - ٦٣]

أى : أن نوحا - عليه السلام - قد قال للزعماء من قومه الذين وصفوه بالضلال والابتعاد عن الطريق القويم : يا قوم ليس بى أدنى شىء من الضلال ، وإنما أنا رسول إليكم من خالق الناس جميعا ، لكى أبلغكم رسالته التى أوحاها إلى ، ولكى أتحرى نصيحتكم التى فيها صلاحكم ، وقد أعطانى الله - تعالى - من العلم ما لم يعطكم . وإذا كنتم قد تعجبتم لأنى واحد منكم قد أوحى الله - تعالى - إلىَّ بالنبوة ، وأمرنى بتذكيركم بأنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة ، فاعلموا أن عجبكم هذا فى غير محله .

فأنت ترى أن نوحا - عليه السلام - قد رد على الذين وصفوه بالضلال والانحراف عن الحق ، بأسلوب عف كريم ، حيث وصف نفسه بأربع صفات أولها الرسالة وثانيها التبليغ وثالثها النصيحة ورابعها العلم الذى يفوق علمهم ، ثم استنكر عليهم استبعادهم أن يخصه الله - تعالى - بالنبوة دونهم .

وفى موطن آخر نراهم يقولون له - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)﴾ [هود: ٢٧]

أى : أن الزعماء من قوم نوح - عليه السلام - قالوا له على سبيل الاستهزاء به يا نوح : ما نراك إلا بشرا مثلنا ، فليست فيك مزية تجعلك مختصا بالنبوة دوننا ، فهم لجهلهم توهموا أن النبوة تتنافى مع البشرية ، ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : وما نراك اتبعك إلا الذين هم فقراؤنا وأقلنا شأنا ، وأحقرنا حالا ، وقد اتبعوك دون أن يتثبتوا من حقيقة أمرك ، أو أنهم اتبعوك فى الظاهر وهم ينكرون نبوتك فى الباطن .

ثم أضافوا إلى مزاعمهم السابقة مزاعم أخرى فقالوا : وما نرى لك أو لمن اتبعك زيادة علينا فى غنى أو علم أو عقل ، بل الذى نعتقده أنك وهم من الكاذبين فى أقوالهم وأفعالهم .

هكذا بدأ الكافرون من قوم نوح حوارهم معه ، بأن وصفوه هو ومن آمن به بحقارة الحال ، وبقلة الشأن وبضعف العقل ، وبالكذب فى القول والفعل !!

فبماذا أجابهم نوح - عليه السلام ؟ لقد رد عليهم ردا حكيما يزهق باطلهم ، ويقنع كل ذى عقل سليم بأنه على الحق هو ومن آمن به ، ولقد قص علينا القرآن الكريم هذا الرد فى قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) ﴾ [هود : ٢٨ - ٣١]

أى : قال نوح - عليه السلام - فى رده على الكافرين من قومه : أخبرونى إن كنت على بصيرة من أمرى ، وعلى حجة واضحة أرشدنى إليها ربى الذى وهبنى النبوة ، فخفيت عليكم وغاب عنكم الانتفاع بهداياتها ، أأستطيع أنا بعد أن تبلدت عقولكم أن ألزمكم برأيى ؟ مما لا شك فيه أنى لا أستطيع ذلك . . .

ثم وجه إليهم نداء ثانيا فقال لهم : ويا قوم لا أسألكم أجرا على دعوتى إياكم إلى الحق ، وإنما أنا أطلب الأجر من خالقى وحده . واعلموا أنى لست بطارد الذين آمنوا بدعوتى سواء أكانوا من الأغنياء أم من الفقراء ، لأن الله - تعالى - هو المحاسب للجميع وهو الخالق للجميع ، ولكن مع هذا البيان الواضح أراكم قوما تجهلون ما هو واضح .

ثم وجه إليهم نداء ثالثا قال لهم فيه : ويا قوم من يستطيع أن يجيرنى من عذاب الله - تعالى - إن طردت هؤلاء المؤمنين الفقراء عن مجلسى ، أفلا تتذكرون هذا الإرشاد الحكيم ؟!!

ثم أخذ نوح - عليه السلام - بعد هذه النداءات لقومه يفند شبهاتهم شبهة بعد أخرى فقال لهم : وأنا فضلا عن كل ذلك لا أقول لكم إنى أملك خزائن الأرزاق ، ولا أقول لكم إنى أعلم الغيوب . ولا أقول لكم إنى ملك من الملائكة ، وإنما أنا بشر مثلكم إلا أن الله - تعالى - قد اختصنى بالنبوة ، ولا أقول لكم - أيضا - فى شأن الذين تحتقرونهم لفقرهم ، أن الله - تعالى - لن يؤتيهم خيرا كثيرا من فضله وكرمه ، فهو - سبحانه - هو الأعلم بما فى نفوسهم من خير أو شر ، ولو قلت لكم شيئا من ذلك لكنت من الظالمين لأنفسهم .

وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - يحاور قومه ويجادلهم ويرد على شبهاتهم بهذا الأسلوب المقنع الحكيم فهل آمنوا به وصدقوه ؟ كلا إنهم لم يؤمنوا به ولم يصدقوه ، بل لجأوا إلى أسلوب التحدى وقد أخذتهم العزة بالإثم فماذا قالوا له ؟ لقد قالوا له - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

أى : قالوا له بعد أن وجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد عليه بأسلوب رد الحجة بالحجة : يا نوح قد خاصمتنا وجادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا به من العذاب إن كنت من الصادقين فى كلامك .

وهكذا الجاهلون المعاندون عندما يعجزون عن الرد المقنع يشهرون السيف فى وجه من يحاورهم ويجادلهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكن نوحا - عليه السلام - لم يخرجه هذا التحدى عن سمته الكريم ، وإنما رد عليهم بكل أدب حيث قال لهم - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) ﴾[هود : ٣٣ ، ٣٤]

أى : قال نوح لقومه بتواضع وأدب : يا قوم إن العذاب الذى تتعجلونه القادر على إنزاله بكم هو الله - تعالى - وحده ، وإذا أنزله بكم فلن تستطيعوا الهروب منه ، وإنى

قد دعوتكم إلى إخلاص العبادة لخالقكم بكل أسلوب ، ومع ذلك فإن نصحى لن يفيدكم شيئا ما دمتم مصرين على كفركم ، وإذا كان الله - تعالى - قد أراد إضلالكم فلن أملك لكم من الأمر شيئا ، فهو - سبحانه - الذى بيده أموركم وأحوالكم ، ومرجعكم إليه وحده وسيحاسبكم على أعمالكم .

وفى موضع ثالث نرى قوم نوح - عليه السلام - يصفونه بالجنون وبالتباهى والتفاخر والغرور ، واستمع إلى ما حكاه القرآن عنهم بعد أن دعاهم نبيهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده حيث قال : ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) ﴾ [المؤمنون : ٢٤ ، ٢٥]

أى : إن نوحا - عليه السلام - بعد أن دعا قومه إلى عبادة الله وحده ، ردوا عليه ردا قبيحا ، حيث قال كبراؤهم وزعماؤهم لضعفائهم : ما نوح إلا بشر مثلكم ولكنه ابتدع هذا الدين الذى يدعو إليه ليكون له الفضل عليكم ، ولو شاء الله أن يرسل رسولا لأرسله من الملائكة . وإن ما جاءنا به نوح ما سمعنا به فى ملة آبائنا الأولين الذين ندين بدينهم ، وما هو إلا رجل به حالة من الجنون والخبل ، فانتظروا عليه إلى وقت شفائه أو موته ، وعندئذ تستريحون منه ومن دعوته التى ما سمعنا بها فى آبائنا الأولين .

فأنت ترى أن القوم قد واجهوا نبيهم نوحا أقبح مواجهة ، وحاوروه بأسلوب سيئ ذميم ، حيث وصفوه بأن ما يريد من وراء دعوته سوى السيادة عليهم ، وأنه ليس نبيا لأن الأنبياء لا يكونون إلا من الملائكة ، وأنه قد خالف ما كان عليه آباؤهم ومن خالف ما كان عليه الآباء يجب عدم الاستماع إليه ، وأنه مصاب بالجنون ، وأنه عما قريب سينزل به الموت أو يشفى مما هو فيه من سقم .

وهكذا الجهل والغرور والحسد ، عندما يستولى على النفوس يحول فى نظرها الإصلاح إلى إفساد ، والإخلاص على حب للرياسة ، والشىء المعقول المقبول إلى شىء مكروه منبوذ ، وكمال العقل ورجحانه إلى جنونه ونقصانه .

ولقد كان رد - نوح - عليه السلام - عليهم فى هذه المرة ردا مختصرا ، اكتفى به باللجوء إلى خالقه يلتمس منه وحده النصر على هؤلاء الطغاة فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ

انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ وقد أجاب الله - تعالى - دعاءه حيث نصره عليهم ، بأن أغرقهم أجمعين .

وفى موضع رابع نرى محاورة تدور بين نوح وقومه ، تتجلى فيها حكمة نوح وصبره ، بينما تظهر فيها سفاهة قومه ، استمع إلى القرآن وهو يصور ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ(١٢٠) ﴾ [الشعراء : ١٠٥ - ١٢٠]

والمعنى أن قوم نوح - عليه السلام - بعد أن دعاهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده بأسلوب مهذب رقيق ، بين لهم فيه أنه لا يطلب منهم أجرًا على دعوته ، قالوا له بغرور وسفه : أتريد منا يا نوح أن نؤمن لك والحال أن الذين اتبعوك من فقراء الناس وضعفائهم ؟

وهنا يرد عليهم نوح ردا حكيما فيقول لهم : وأى علم لى بأعمال أتباعى ، إن الذى يعلم حقيقة نواياهم وأعمالهم هو الله - تعالى - ، أما أنا فوظيفتى قبول أعمال الناس على حسب ظواهرها ، وحسابهم بعد ذلك على خالقهم ، وما أنا بحال من الأحوال بطارد المؤمنين الذين اتبعونى وصدقونى سواء أكانوا من الأغنياء أم من الفقراء .

فأت ترى أن نوحا - عليه السلام - قد جمع فى حواره معهم وفى رده عليهم ، بين المنطق الحكيم ، وبين الحزم والشجاعة والدفاع عن المؤمنين الصادقين ، لذا نراهم وقد أخرسهم المنطق القويم ، ويلجأون إلى التهديد والوعيد فيقولون : لئن لم تكف يا نوح عن دعوتك لنرجمنك بالحجارة حتى تموت .

وهنا لجأ نوح إلى ربه يسأله النصر ، فأجاب الله - تعالى - دعاءه ، ونصره عليهم .

وبعد : فمن هذه النماذج من المحاورات التى دارت بين نوح - عليه السلام - وبين قومه ، نرى بوضوح أن نوحا قد سلك فى حواره معهم الأدب الجم ، والشجاعة الفائقة ، والصبر الجميل ، والكلام الحكيم ، والحجة الناصعة ، والشكوى إلى خالقه - عز وجل - ، أما زعماء قومه الذين كفروا به فقد لجأوا فى حوارهم إلى وصفه تارة بالكذب ، وتارة بالجنون ، وتارة بالضلال ، وتارة بأنه يريد أن يتفضل عليهم ، ثم يضيفون على كل ذلك التهديد والوعيد له ولأتباعه . .

وهكذا العقلاء ، محاوراتهم لغيرهم تقوم على المنطق السليم والأدب الرفيع والدليل الساطع والبرهان الواضح ، أما محاورة السفهاء فتقوم على الغرور وسوء الظن ، والتهديد والوعيد لمن يخالف باطلهم .

* * *

وننقل الآن إلى محاورات أخرى حدثت بين «هود» - عليه السلام - وبين قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام ، وكانوا معروفين بالغنى والقوة فى الجسم . . .

لقد أمرهم بعبادة الله وحده ، ونبذ عبادة الأصنام فبماذا أجابوه ؟ استمع إلى ما قاله طغاة قومه له - كما حكاه القرآن الكريم - ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : قال أصحاب الجاه والسلطان من قوم هود له على سبيل التطاول وسوء الأدب : يا هود إنا لنراك قد تمكنت صفة خفة العقل منك ، لأنك قد تركت دين الآباء وجئتنا بدين جديد ننكره ولا نقبله ، وإنا لنعتقد أنك من الكاذبين . هكذا كان رد قوم هود عليه عندما قال لهم : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، وقد قابل هذا الرد القبيح بالمنطق الحكيم ، وبالدفاع عن نفسه بأسلوب يقوم على الحجة والبرهان فماذا قال لهم : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾ [الأعراف: ٦٧ - ٦٩]

فأنت ترى أن هودا - عليه السلام - فى هذا الرد الحكيم على قومه قد نفى عن نفسه تهمة السفاهة ، ثم بين لهم وظيفته وطبيعة رسالته ، ثم أخبرهم بعد ذلك بأنه

بمقتضى أخوته لهم ليس معقولا أن يكذب عليهم أو يخدعهم ، وإنما هو ناصح أمين يرشدهم إلى ما ينفعهم ، ثم أخذ فى تذكيرهم بواقعهم ، وبنعم الله عليهم ، وأمرهم بشكر هذه النعم لكى يزيدهم خالقهم منها . . .

ولكن الطغاة من قومه عموا وصموا عن هذه النصائح وقالوا له بغرور وطغيان :
﴿ . .أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٠]

وهكذا أنهوا حوارهم معه بالتحدى والتهديد والاستهزاء به وبنصائحه . .

وفى موضع آخر نراه يبدأ حديثه معهم بأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، وبإخبارهم بأنه لا يريد أجرا على دعوته ، وبإرشادهم إلى أن استغفارهم لخالقهم وتوبتهم إليه ستزيدهم غنى على غناهم ، وقوة إلى قوتهم . واستمع إلى الآيات القرآنية وهى تقص علينا ذلك فتقول :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود : ٥٠ - ٥٢]

لقد كان المنتظر من قومه لو كانوا يعقلون ، أن يستمعوا إليه بعد أن ناداهم ثلاث مرات وبعد إن بشرهم وأنذرهم ، ولكنهم قابلوا هذه الإرشادات السامية بالتطاول عليه ، وبالسخرية منه ، فماذا قالوا ؟

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ . . . ﴾ [هود : ٥٣ ، ٥٤]

أى : قالوا لنبيهم ومرشدهم : أنت - أولا - لم تأتنا بحجة مقنعة ترضى نفوسنا .

ونحن - ثانيا - لن نترك عبادة آلهتنا التى كان يعبدها آباؤنا بسبب قولك الخالى من الدليل .

ونحن - ثالثا - نصر على مخالفتك لأنك عندنا من الكاذبين .

ونحن – رابعا – نعتقد أن تركك لعبادة آلهتنا ، جعل بعضها – لا كلها – يتسلط عليك فيصيبك بالجنون والهذيان ، ولم يقولوا أصابتك آلهتنا بسوء ، بل قالوا – كما حكى القرآن عنهم : ﴿بعض آلهتنا﴾ تهديدا له ، وإشارة إلى أنه لو تصدت له جميع الآلهة لأهلكته إهلاكا سريعا .

وهكذا نراهم قد ردوا على نبيهم ومرشدهم بأربعة ردود ، تساقطوا فيها من السيئ إلى الأسوأ ومن القبيح إلى الأقبح ، مما يدل على طغيانهم وفجورهم .

فماذا كان موقفه منهم ؟ كان موقفه منهم موقف المتبرئ من شركهم ، والمتحدى لطغيانهم ، والمعتمد على الله – تعالى – وحده فى الانتصار عليهم ، ولقد حكى القرآن رده عليهم فقال : ﴿ ... قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)﴾ [هود : ٥٤ – ٥٧] .

أى : قال هود – عليه السلام – فى رده على الطغاة من قومه : إنى أشهد الله الذى لا رب سواه ، وأشهدكم – أيضا – على براءتى من كل عبادة لأحد سواه .

ثم ينتقل من براءته من شركهم إلى تحديهم بثقة واطمئنان فيقول لهم : وها أنذا أمامكم ، فانضموا إلى آلهتكم المزعومة ، فحاربونى جميعا فإنى لا أعبأ بكم ولا بأصنامكم .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان أن السبب فى استخفافه بهم وبآلهتهم ، أنه فوض أمره إلى الله – تعالى – الذى ما من دابة تدب على وجه الأرض إلا هو مالكها والمتصرف فيها .

ثم يختتم حواره معهم ورده عليهم بتحذيرهم من سوء عاقبة غرورهم وإصرارهم على كفرهم ، فبين لهم أن هذا الإصرار سيؤدى إلى هلاكهم ، وإلى مجىء قوم آخرين سيخلفونهم ، ولن يتغير هذا الكون بسبب هلاكهم ، فهم أحقر من أن يغيروا سنة من سنن الله فى خلقه .

وفى موطن ثالث نراه يستنكر عليهم طغيانهم وإدلالهم بقوتهم فيقول لهم : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) ﴾ [الشعراء : ١٢٨ - ١٣٥]

أى : أن هودا - عليه السلام - بعد أن أمر قومه بعبادة الله وحده . وبين لهم أنه لا يريد منهم أجرا على دعوته إياهم ، انتقل إلى استنكار ما هم فيه من ترف وطغيان فقال لهم : أتبنون بكل مكان مرتفع من الأرض على سبيل اللهو والعبث بناء يعتبر آية وعلامة على عبثكم وترفكم وغروركم ، وتعملون قصورا ضخمة حتى لكأنكم تريدون من وراء إنشائها الخلود والبقاء دون موت ، وإذا أردتم السطو والعدوان على غيركم أخذتموه بعنف وقسوة ، دون أن تعرف الرحمة أو الرأفة إلى قلوبكم سبيلا ، وإذا كان هذا شأنكم فى الحياة فإنى أنهاكم عن ذلك ، وأحذركم من سوء عاقبة هذا الترف والغرور والظلم ، وآمركم بتقوى الله وخشيته .

والمتأمل فى هذه المحاورات التى دارت بين هود - عليه السلام - وبين قومه ، يراها زاخرة بالحجج الباهرة ، وبالجرأة النادرة ، وبالنصائح البليغة ، وبالوضوح والصراحة من جانب هود وهو يجابه قومه بما هم عليه من قوة وغرور وبسطة فى الرزق .

أما قومه فكان حوارهم يقوم على الاستهزاء بنبيهم ، ووصفه بالسفاهة والكذب ، كما يقوم على الإصرار على كفرهم وشركهم ، وزعمهم أن آلهتهم تنفع وتضر ، وعلى التحدى لنبيهم اعتمادا على قوتهم حيث قالوا : من أشد منا قوة ، فكانت نهايتهم الدمار والبوار .

* * *

وأرسل الله - تعالى - بعد هلاك قوم هود - عليه السلام - رسوله «صالحا» - عليه السلام- وكانت رسالته إلى قبيلة ثمود ، الذين كانت مساكنهم بالحِجْر ، وهو مكان بين بلاد الحجاز والشام ، وكانوا يعبدون الأوثان ، فنصحهم نبيهم «صالح» - عليه السلام- بأن يجعلوا عبادتهم لله - تعالى - وحده ، وحدثت بينه وبينهم محاورات وردت فى سور متعددة ، منها قوله - تعالى- : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا

تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) ﴾ [الأعراف: ٧٣، ٧٤]

هكذا نصح صالح - عليه السلام - قومه ودعاهم - أولا - إلى عبادة الله وحده، ثم بين لهم - ثانيا - معجزته التى تدل على صدقه فيما يبلغه عن ربه، وهى ناقة يرونها بأعينهم، وأضافها إلى الله - تعالى - للتفضيل والتخصيص والتعظيم لشأنها. ثم أرشدهم - ثالثا - إلى ما يجب عليهم نحو هذه الناقة فقال لهم: اتركوها تأكل فى أرض الله، ولا تعتدوا عليها بأى لون من ألوان الاعتداء، لأنكم لو اعتديتم عليها لأصابكم عذاب أليم. ثم ذكرهم - رابعا - بنعم الله عليهم فقال لهم: واشكروا الله- تعالى - على نعمه حيث جعلكم خلفاء لقبيلة عاد فى الحضارة والعمران والقوة والبأس ومكنكم من الأرض الطيبة التى تعيشون فوقها، ويسر لكم أن تتخذوا من أرضها المنبسطة قصورا، وأن تتخذوا من جبالها بيوتا تسكنونها بعد نحتكم إياها..

وما دام أمركم كذلك، فاذكروا نعم الله، واشكروه عليها، وأخلصوا العبادة له، واحذروا الإفساد فى الأرض. بهذا الأسلوب الجامع لأسمى ألوان الترغيب والترهيب نصح «صالح»- عليه السلام - قومه، فماذا كان ردهم عليه؟ إنهم لغرورهم واستخفافهم به، لم يلتفتوا إليه، بل وجهوا خطابهم إلى الذين آمنوا به واتبعوه، فسخروا منهم، واستمع إلى ما حكاه القرآن عنهم فقال: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

أى: إن الزعماء من قوم صالح لم يلتفتوا إليه إهمالا لشأنه، بل وجهوا حديثهم إلى المؤمنين به فقالوا لهم على سبيل الاستهزاء بهم: أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه؟

وهنا أجابهم المؤمنون بكل شجاعة وصراحة فقالوا لهم: إنا بما أرسل به صالح مؤمنون إيمانا صادقا. وهنا أعلن المستكبرون عن موقفهم فى عناد وصلف وجحود فقالوا: إنا بصالح وبما جاء به وبمن اتبعوه كافرون، ثم أتبع المستكبرون قولهم القبيح هذا بفعل أقبح، حيث ذبحوا الناقة متحدين بذلك نصائح نبيهم صالح -عليه السلام- فأنزل الله - تعالى - بهم العذاب الذى أهلكهم.

وفى موضع آخر نرى صالحا - عليه السلام - يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ، بأسلوب فيه ما فيه من التوجيهات الجليلة ، كما فى قوله - سبحانه- :﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾ [هود: ٦١]

أى : قال لهم : يا أهلى ويا عشيرتى أنصحكم بأن تخلصوا العبادة والطاعة لله وحده ، الذى أوجد أباكم آدم من هذه الأرض بقدرته وأنتم من نسله ، وهو - سبحانه- الذى مكنكم من تعمير هذه الأرض بشتى أنواع الزروع والثمار . . .

ومادام الأمر كذلك فاستغفروه وتوبوا إليه واشكروه على نعمه لكى يزيدكم منها ، إن ربى قريب الرحمة من المحسنين ، مجيب الدعاء للشاكرين المخلصين .

ولكن قومه ردوا على هذا الكلام الطيب بكلام سيئ فقالوا له - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[هود: ٦٢]

أى : قال قوم صالح له بعد أن دعاهم لما يسعدهم : يا صالح قد كنت فينا رجلا فاضلا قبل أن تقول ما قلته ، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد ، فقد صرت رجلا سيئا وخاب رجاؤنا فيك ، وصرت إنسانا مختل التفكير ، وإلا فكيف - لو كنت عاقلا - تنهانا عن عبادة الأصنام التى كان يعبدها آباؤنا ، إننا مصممون على مخالفتك لأننا فى شك كبير من صحة كلامك ، ولذا فنحن مستمرون على عبادة آلهتنا التى كان يعبدها آباؤنا ولن نلتفت إلى شىء من كلامك . ولكن صالحا - عليه السلام - لم ييأس ، بل رد عليهم بأسلوب حكيم فقال لهم للمرة الثانية : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) ﴾ [هود: ٦٣]

أى : قال صالح لقومه : أخبرونى إن كنت على حجة واضحة أرشدنى إليها ربى ، وأعطانى من عنده رحمة عظيمة ، حيث اختارنى لتبليغ رسالته ، فمن ذا الذى يجبرنى ويعصمنى من غضبه إذا أنا خالفت أمره أو قصرت فى تبليغ رسالته مسايرة لكم فى باطلكم ؟

إننى سأستمر فى تبليغ ما أرسلت به إليكم ، ولن يمنعنى من ذلك ترغيبكم أو ترهيبكم ، وإن طاعتى لكم ستوصلنى إلى الخسران والغضب من الله - تعالى - .

وهكذا نرى أن صالحا - عليه السلام - استعمل فى محاورته مع قومه أساليب التذكير والترغيب والترهيب ، ورد على تطاول قومه وشبهاتهم وسوء ظنهم به وتكذيبهم له بطريقة تقنع كل ذى عقل سليم .

وفى موطن ثالث يحكى لنا القرآن الكريم جانبا من طغيان الظالمين من قوم صالح ، وكيف أن فريقا منهم تآمروا على قتله ، ولكن الله - تعالى - نجاه من مكرهم ودمرهم تدميرا . واستمع إلى الآيات الكريمة التى تقص علينا ذلك فتقول : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النمل : ٤٥ - ٤٧]

أى : والله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا لكى يأمرهم بعبادة الله وحده ، فكانت المفاجأة أن انقسم قومه إلى قسمين : قسم آمن به وهم الأقلون ، وقسم كفر به وهم الأكثرون . فقال صالح - عليه السلام - لمن كفر برسالته وهم الأكثرون : ياقوم أخبرونى لماذا تعرضون عن الحق ، وتستعجلون العقاب ، وتقابلون الإحسان بالإساءة ، وهلا بدلا من كل ذلك استغفرتم الله لعله يرحمكم ؟ فكان ردهم على هذا الكلام الطيب الحكيم أن قالوا له بتكبر وغرور : تشاءمنا بك وبمن معك من المؤمنين بك ، وأصابنا النحس والفقر منذ وجودكم بيننا . .

فكان رده عليهم أن قال لهم موبخا وزاجرا : ليس الأمر كما زعمتم من أن وجودنا بينكم هو السبب فيما أصابكم من شر ، بل الحق أن ما أصابكم من شر هو من عند الله - تعالى - بسبب إصراركم على كفركم وبغيكم .

ثم حكى القرآن بعد ذلك أن تسعة منهم تآمروا على قتل نبيهم صالح ، فأهلكهم الله جميعا . وهكذا نرى أن محاورات صالح لقومه قامت على المنطق السليم ، والأدب الرفيع ، والتحذير من التمادى فى العصيان ، والتذكير بنعم الله عليهم ، أما قومه فقد كانت ردودهم تطفح بسوء الأدب والغرور والمكر السيئ .

* * *

ولننتقل بعد ذلك إلى نموذج رابع من المحاورات التى دارت بين بعض الأنبياء وبين أقوامهم ، بعد أن ذكرنا جانبا من محاورات نوح وهود وصالح - عليهم الصلاة والسلام- مع أقوامهم .

وهذا النموذج الرابع نأخذه من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع أبيه وقومه ، ومنه نرى كيف أن إبراهيم - عليه السلام - قد استعمل فى حواره مع أبيه وقومه أحكم الأساليب وأرقها وأوضحها فى إحقاق الحق وفى إبطال الباطل .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى لنا جانبا من المحاورات التى دارت بين إبراهيم وبين أبيه فيقول : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) ﴾ [مريم: 41 - 45]

وتأمل معى أيها القارئ الكريم هذه الآيات ، فسترى فيها ألطف وأرق ألوان الحوار والخطاب ، لقد نادى أباه أربع مرات بلفظ «يا أبت» الدال على الأدب والتوقير . .

ثم بين له - أولا - أنه ليس من العقل فى شىء أن يعبد الإنسان صنما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع . ثم بين له - ثانيا - أن الله - تعالى - قد أعطى ابنه من العلم ما لم يعط لغيره والآباء العقلاء يفخرون بالأبناء الحكماء . ثم بين له - ثالثا - أن عبادة الأصنام هى عبادة للشيطان الذى هو عدو للإنسان . ثم بين - رابعا - شفقته به ، وحبه له ، وخوفه عليه من عذاب الله بسبب الإصرار على الكفر .

بهذا الأسلوب الحكيم الهادئ المهذب الرقيق خاطب إبراهيم - عليه السلام - أباه ، فماذا كان رد أبيه الكافر عليه ؟ لقد كان رده فى نهاية الإنكار والتهديد ، واستمع إليه كما نطق به القرآن الكريم : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ أى : قال والد إبراهيم له على سبيل التهديد والزجر : أتارك أنت عبادة آلهتى يا إبرهيم وكاره لها ، ومنفر للناس من طاعتها ، وداع إياى إلى عبادة إلهك ؟ كلا لن أطيعك فى ذلك وسأستمر على عبادة هذه الأصنام ، وإذا لم

تسكت عن دعوتى إلى دينك فسأرجمك بالحجارة ، وابتعد عن وجهى زمنا طويلا فإنى لا أريد أن أراك .

وهكذا قابل الأب الكافر أدب ابنه المؤمن بالفظاظة والغلظة والتهديد ، شأن كل جهول عنيد . ولكن إبراهيم – عليه السلام – قابل كل ذلك بالنطق الجميل وبالأدب السامى فماذا قال لأبيه ؟ : ﴿ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ أى : قال إبراهيم لأبيه الذى هدده وتوعده بالرجم بالحجارة : لك منى يا أبت السلام الذى لا يخالطه جدال أو أذى ، ولك منى الوداع الذى أقابل معه إساءتك بالإحسان ، وفضلا عن كل ذلك المغفرة من ربى ، إنه كان بى بارا كثير الإحسان .

وقد وفى إبراهيم – عليه السلام – بوعده ، حيث استمر على استغفاره لأبيه إلى أن نهاه الله – تعالى – عن ذلك قال – تعالى– : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[التوبة : ١١٤]

هذا جانب من المحاورات التى دارت بين إبراهيم وبين أبيه ، أما المحاورات التى دارت بينه وبين قومه فى أكثرها ، وكلها تشهد بأن إبراهيم – عليه السلام – قد استعمل فى محاوراته الرقة فى الخطاب ، والأساليب المقنعة للعقول والعواطف ، والحجج الباهرة التى تفحم الخصم – لو كان منصفا وعاقلا – يشهد بأن إبراهيم على حق .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق جانبا من حوار إبراهيم – عليه السلام – مع قومه فيقول : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾[الشعراء : ٦٩ – ٨٢]

والمعنى : واقرأ يا محمد على قومك الذين يزعمون أنهم من نسل إبراهيم – عليه السلام – جانبا من قصة هذا النبى الكريم وقت أن قال لهم ولأبيه على سبيل إلزامهم

الحجة : أى شىء هذا الذى تعبدونه من دون الله ؟ فأجابوه : نعبد أصناما فنظل لها عاكفين دون انقطاع وكأنهم يتفاخرون بذلك .

وقد رد عليهم بقوله : هذه الأصنام التى تعبدونها هل تسمع كلامكم إذا وجهتم الكلام إليها ؟ وهل تستطيع أن تقدم إليكم منفعة أو تدفع عنكم مضرة ؟

ولم يستطع القوم أن يواجهوا إبراهيم بجواب بعد أن ألقمهم حجرا بنصاعة حجته ، فلجأوا إلى التمسح بآبائهم فقالوا : إنا وجدنا آباءنا يعبدونها ونحن نقلدهم فى ذلك .

وهنا يرد عليهم إبراهيم ردا بليغا حكيما مؤثرا فيقول : إن هذه الأصنام أكبر أعدائى لأن عبادتها باطلة ، وعبادها جاهلون ، وعبادتى إنما هى - لله - تعالى - وحده ، الذى خلقنى بقدرته ، وهدانى إلى طريق الحق بفضله ، والذى هو يمنحنى ما به قوام حياتى من الطعام والشراب ، والذى يشفينى من مرضى إذا مرضت ، والذى يعيد إلىّ الحياة بعد الموت ، والذى أطمع فى كرمه أن يغفر لى ما فرط منى من ذنوب يوم يقوم الناس للحساب والجزاء .

والمتأمل فى هذه الآيات التى اشتملت على جانب من محاورات إبراهيم مع قومه ، يرى فيها أفضل أنواع طرق الإقناع إلى الحق ، وأسمى ألوان الأدب مع خالقه - عز وجل - حيث نسب المرض على ذاته ونسب الشفاء إلى خالقه ، ووجه طمعه فى المغفرة إليه - تعالى - وحده ...

وفى موضع آخر نرى إبراهيم - عليه السلام - يناقش قومه بطريقة فيها ما فيها من الحكمة والإقناع ، ويحكى القرآن الكريم ذلك فيقول : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ [العنكبوت : ١٦ - ١٨]

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - وقت أن قال إبراهيم - عليه السلام - يا قوم اعبدوا الله - تعالى - وحده ، وصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه ، ذلكم الذى أمرتكم به من العبادة والتقوى ، خير لكم إن كنتم من ذوى العلم النافع والعقل السليم .

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - قد بدأ دعوته لقومه بأمرهم بإخلاص العبادة لخالقهم وبالخوف من عقابه ، ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إلى قلوبهم ببيان أن هذا الإيمان خير لهم فى جميع أحوالهم ، ثم ثلّث بتهييج عواطفهم نحو العلم النافع الذى يتنافى مع الجهل .

ثم بعد ذلك نفرهم من فساد ماهم عليه من باطل فقال لهم : إنكم بعبادتكم للأصنام إنما تعبدون ما لا يضر ولا ينفع ، وتكذبون كذبا واضحا عندما تطلقون على هذه الأوثان أنها آلهة ، وكيف تعبدون شيئا لا يملك لكم شيئا من الرزق ، وتتركون عبادة من وهبكم هذا الرزق ، ومن إليه سترجعون فيحاسبكم على أعمالكم .

ثم أخذ إبراهيم - عليه السلام - بعد ذلك فى تحذيرهم من الاستمرار فى الشرك ، وبين لهم أن يتعظوا بأخبار من سبقهم ، وكيف أن الذين سبقوهم فى الكفر كان مصيرهم إلى الهلاك ، وأنه رسول من عند ربه وظيفته البلاغ ، وقد أعذر من أنذر .

والمتأمل فى هذه الآيات يرى أن إبراهيم - عليه السلام -قد خاطب قومه بأبلغ أسلوب وبأخلص نصيحة ، وبأقوى حجة ، وبأسطع برهان على صدقه .

فماذا كان جواب قومه عليه ؟ استمع إلى القرآن وهو يقص علينا ذلك فيقول :
﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢٤]

وهكذا نرى أن محاورات إبراهيم لأبيه وقومه كانت تقوم على الأدب فى الخطاب ، وعلى الموعظة الحسنة ، وعلى البراهين الواضحة التى تشهد بأنه صادق فيما يبلغه عن ربه ، وعلى التبشير بحسن عاقبة من أخلص لله - تعالى - فى عبادته ، وعلى الإنذار بسوء عاقبة من أصر على باطله .

أما أبوه وقومه فقد قابلوا كل ذلك بالسفاهة والتطاول والتهديد والوعيد بالقتل أو الإحراق ، ولكن الله - تعالى - نجاه من كيدهم وقال : ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

* * *

والنموذج الخامس للحوار المبنى على المنطق الرصين ، وعلى الحجة البالغة ، وعلى النصح الحكيم ، نراه فى حوار خطيب الأنبياء «شعيب» - عليه السلام- مع قومه . .

وقد جاء هذا الحوار فى مواضع متعددة من القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله – تعالى – : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

[الأعراف : ٨٥ – ٨٧]

هذا جانب من النصائح التى وجهها شعيب – عليه السلام – إلى قومه الذين كانوا إلى جانب عبادتهم للأصنام ، يطففون فى المكيال والميزان .

إنه – أولا – أمرهم بعبادة الله – تعالى – وحده ، وبترك عبادة غيره من الأصنام والأوثان . وإنه – ثانيا– يصارحهم بأنه قد جاءهم بالمعجزات والبراهين التى تدل على صدقه فى نبوته . وإنه – ثالثا – أخذ فى أمرهم بمكارم الأخلاق وفى نهيهم عن غشيان الرذائل والمنكرات ، فقال لهم : أعطوا الناس حقوقهم عندما تتعاملون فيما بينكم ، وأوفوا الكيل والميزان بالحق والعدل ، واحذروا من أكل أموال غيركم بالباطل ، وابتعدوا عن الإفساد فى الأرض بعد أصلح أمرها الأخيار من عباد الله ، واعلموا أن هذا الإصلاح فيه الخير والسعادة لكم إن كنتم من أهل الإيمان والعلم .

ثم انتقل إلى نهيهم عن رذائل أخرى كانوا متلبسين بها فقال لهم : ولا تقعدوا بكل طريق من الطرق التى يسلكها الناس ، فتهددونهم بالقتل وبالأذى لأنهم آمنوا برسالتى ، وتصرفون عن دين الله وطاعته المؤمنين ، وتلصقون التهم الباطلة بالصالحين والصادقين ، واذكروا أنكم كنتم قلة فى العدد فزاد الله – تعالى – بفضله وإحسانه فى عددكم ، واذكروا – أيضا – أن الإفساد فى الأرض وأن جحود النعم يؤدى إلى سوء المصير . ثم ختم نصائحه فى هذه الآيات بأن أمرهم بالتزام العدل ، وبسعة الصدر ، وبأن يتركوا أتباعه أحرارا فى عقيدتهم حتى يحكم الله – تعالى – بحكمه الحق بين الجميع فقال لهم : وإذا كان بعضكم قد آمن بى ، وبعضكم كفر بى واستمر على كفره ، فعلى الفريق الكافر أن يترك الفريق المؤمن وشأنه ، وليصبر هذا الفريق الكافر

حتى يحكم الله - تعالى - بيننا جميعا بحكمه العادل ، وهو - سبحانه - خير الحاكمين .

وهكذا طوف شعيب - عليه السلام - مع قومه فى نصائحه ، فأمرهم ونهاهم بأساليب متنوعة ، وبحجج ساطعة ، وبكلام يفرح به ويلبى توجيهاته كل ذى عقل سليم . . .

ولكن ماذا كان موقفهم منه ؟ لقد كان من المرتقب أن يتقبل قوم شعيب هذه النصائح الغالية بالقبول الحسن ، وأن يصدقوه فيما يبلغه عن ربه ، ولكن المستكبرين منهم عموا وصموا عن الحق ، واستمع على القرآن الكريم وهو يحكى موقفهم فيقول : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا . . . ﴾ [الأعراف : ٨٨]

أى : قال الزعماء المستكبرون من قوم شعيب فى الرد عليه بعد أن ساق لهم ألوانا من النصائح الحكيمة ، قالوا له بتطاول وغرور : والله لنخرجنك يا شعيب أنت والذين آمنوا معك من قريتنا بغضا لكم ، وكرها لرؤية وجوهكم ، أو لتعودون جميعا إلى ديننا وملتنا وتقاليدنا التى ورثناها عن آبائنا والتى من المستحيل تركها ، فعليك يا شعيب أنت وأتباعك أن تختار لأنفسكم أحد أمرين : الإخراج من قريتنا أو العودة إلى ملتنا .

وقد أكدوا قولهم هذا بالجملة القسمية للمبالغة فى إفهامهم أنهم مصممون على تنفيذ ما يريدونه منه ومن أتباعه .

ونسبوا الإخراج إليه أولا وإلى أتباعه ثانيا ، للتنبيه على أصالته فى ذلك ، وأن الذين معه إنما هم تبع له ، فإذا ما خرج هو كان خروج غيره أسهل .

وقالوا : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ مخاطبين الجميع مع أن شعيبا - عليه السلام - لم يكن يوما فى ملتهم ، من باب التغليب ، فكأنهم لتطاولهم وسفاهتهم لا يكتفون بعودة من آمن بشعيب إلى عقيدتهم الباطلة ، بل يطالبون شعيبا - أيضا - أن يقلع عن دعوته ، وأن يرجع إلى ملتهم التى ورثوها عن آبائهم أولا وهى عبادة الأصنام .

وهنا نجد شعيبا - وهو خطيب الأنبياء كما وصفه الرسول ﷺ يرد عليهم ردًا بليغا حكيما ملزما فيقول لهم - كما حكى القرآن عنه : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن

قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (89) ﴾ [الأعراف : ٨٨، ٨٩]

أى : قال شعيب – عليه السلام – فى رده على المستكبرين من قومه : أتجبروننا على العودة إلى ملتكم ، حتى ولو كنا كارهين لها . لاعتقادنا أنها باطلة وقبيحة ومنافية للعقول السليمة وللأخلاق القويمة ؟ لا ثم لا لن نعود إلى ملتكم بأى حال من الأحوال بعد إذ نجانا الله – تعالى – منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا فى حال مشيئة الله – تعالى – فهو وحده القادر على ذلك .

ومع أن شعيبا – عليه السلام – يعلم علم اليقين أن الله – تعالى – لم يسأله ولا أتباعه العودة إلى ملة الكافرين ، إلا أنه فوض الأمر إلى مشيئته – سبحانه – تأدبا وتعظيما وإجلالا لخالقه – عز وجل – .

ثم قال : على الله وحده توكلنا . ياربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين . وجاء الحكم سريعا ، إذا أخذ الله – تعالى – المستكبرين أخذ عزيز مقتدر ، فأصبحوا فى ديارهم هالكين .

وفى موضع آخر نرى لونا آخر من الحوار الذى دار بين شعيب – عليه السلام – وبين قومه ، وقد جاء هذا الحوار بصورة أكثر تفصيلا من سابقه ، واستمع إليه فى قوله – تعالى – : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (84) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (86) ﴾

[هود : ٨٤ – ٨٦]

فأنت ترى أن شعيبا – عليه السلام – بعد أمر قومه بعبادة الله – تعالى – وحده ، وبعد أن نهاهم عن التطفيف فى المكيال والميزان ، بين لهم الأسباب التى حملته على أمرهم ونهيهم فقال لهم : إنى أراكم تملكون المال الكثير ، ومن كان كذلك فمن

الواجب عليه أن يعطى كل ذى حق حقه ، وإنى أخاف عليكم إذا ما تماديتم فى شرككم وفى تطفيفكم فى المكيال والميزان ، عذاب يوم أهواله شديدة ، وعذابه محيط بكل ظالم أثيم .

ثم واصل شعيب - عليه السلام - نصائحه لقومه ، فأكد لهم ما سبق أن أمرهم به من طاعات ، وما نهاهم عنه من رذائل وسيئات ، وأرشدهم إلى أن ما يبقيه الله لهم من مال حلال ، هو خير لهم من المال الحرام مهما كثر ، فعليهم أن يستجيبوا له إن كانوا ممن يؤمنون بالحق والعدل ، وهو قد قال لهم ما قال من نصائح إبراء لذمته وتنفيذاً لأمر ربه وهو عليه البلاغ ، وعلى الله - تعالى - الحساب لكل من طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا .

والمتأمل لهذه الآيات يرى أن شعيبا - عليه السلام - قد أرشد قومه إلى ما يصلحهم فى عقائدهم وفى معاملاتهم ، وفى صلاتهم بعضهم ببعض ، وفى سلوكهم الشخصى ، بأسلوب حكيم جامع لكل ما يسعد ويهدى إلى الحق ، فماذا كان رد قومه عليه ؟

لقد كان ردهم طافحا بالاستهزاء به ، والسخرية منه ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧]

أى : قال قوم شعيب له على سبيل التهكم والاستهزاء : يا شعيب أصلاتك التى تزعم أن ربك كلفك بها والتى أنت تكثر منها ، تأمرك أن نترك عبادة أصنامنا التى عبدها آباؤنا ، وتأمرك أن تقول لنا : اتركوا التطفيف فى المكيال والميزان وهى عادة تعودناها ولا نستطيع التخلى عنها ؟

إن كانت صلاتك تأمرك بأن تقول لنا هذا ، فهى صلاة باطلة ، ولا وزن لها عندنا ، بل نحن نراها لونا من ألوان جنونك وهذيانك .

وجملة ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ زيادة منهم فى السخرية منه وفى التهكم عليه ، فكأنهم يقولون له : كيف تأمرنا بترك عبادة الأصنام ، وبترك النقص فى الكيل والميزان ، مع علمك اليقينى بأن هذين الأمرين قد بنينا عليهما حياتنا ، مع زعمك لنا بأنك أنت الحليم الذى يتأنى ويتروى فى أحكامه ، الرشيد الذى يرشد غيره إلى ما ينفعه ؟

إن هذين الوصفين لا يليقان بك ، مادمت تأمرنا بذلك ، وإنما اللائق بك أضدادهما ، أى : الجهالة والسفه والعجلة فى الأحكام !!

هكذا رد الظالمون المتكبرون على نبيهم ومرشدهم شعيب - عليه السلام - وهو رد يحمل كل ألوان السخرية والسفاهة وسوء الأدب .

ومع كل ذلك نرى شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء ، يتغاضى عن هذه السفاهات ، لأنه يحس أن أصحابها جهلاء ، كما يحس بقوة الحق الذى أتاهم به من عند ربه ، فيردعليهم بقوله : ﴿ .. يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) ﴾ [هود : ٨٨ - ٩٠]

أى : قال شعيب لقومه : يا قوم أخبرونى إن كنت على حجة واضحة ، وبصيرة مستنيرة منحنى إياها ربى ومالك أمرى ، ورزقنى من فضله رزقا حسنا ، أترونني بعد ذلك يجوز لى أن أتبع أهواءكم ؟ لا ولن أتبع أهواءكم بل سأسير فى طريقى حتى أبلغ رسالة ربى . ثم يكشف لهم عن سلوكه معهم فيقول : وليس من خلقى أن أنهاكم عن فعل شىء ثم أنا أفعله ، وإنما أنا أريد بما آمركم به وما أنهاكم عنه صلاحكم ومنفعتكم ، وما توفيقى فيما أدعوكم إليه من خير أو أنهاكم عنه من شر ، إلا بتأييد الله وعونه ، فهو وحده الذى عليه أتوكل وأعتمد فى كل شئونى ، وهو وحده الذى إليه أرجع فى كل أمورى .

ثم يواصل شعيب - عليه السلام - نصحه لقومه ، فينتقل بهم إلى تذكيرهم بمصارع السابقين ، محذرا إياهم من أن يكون مصيرهم كمصير الظالمين من قبلهم فيقول : يا قوم لا تحملكم عداوتكم لى على افتراء الكذب علىّ ، وعلى التمادى فى عصيانى ومحاربتى ، فإن ذلك سيؤدى بكم إلى أن يصيبكم العذاب الذى أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وإذا كنتم لم تتعظوا بما أصاب هؤلاء الأقوام السابقين من عذاب أليم ، فاتعظوا بقوم لوط الذين نزل العذاب بهم وبقريتهم فجعل أعلاها أسفلها ، وهم ليسوا بعيدين عنكم لا فى الزمان ولا فى المكان .

ثم فتح لهم بعد كل هذه النصائح والمحاورات باب الأمل فى رحمة الله - تعالى - إن هم تابوا وأنابوا فقال : واستغفروا ربكم من كل ما فرط منكم من ذنوب ، ثم توبوا إليه توبة صادقة ، يقبل- سبحانه - منكم توبتكم ، لأنه - سبحانه - رحيم بعباده ، كثير المحبة لمن أطاعه .

وهكذا نجد شعيبا - عليه السلام - يلون لقومه النصيحة ، وينوع لهم العظة ، ويطوف بهم فى مجالات الترغيب والترهيب ، ويحاورهم بشتى الأساليب .

ولكن قومه كانوا قد بلغوا النهاية فى الفساد ، فقد ردوا عليه بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) ﴾ [هود: ٩١]

أى : قال قوم شعيب فى ردهم عليه : يا شعيب إننا لا نفهم الكثير من قولك ، لأنه قول لم نألفه ولن تتقبله نفوسنا ، وقد أطلت فى محاوراتك لنا حتى كرهناك ولا نريد أن نراك ، وإنا لنراك فينا شخصا ضعيفا لا قوة لك إلى جانب قوتنا ، ولا قدرة عندك على مقاومتنا إن أردنا طردك من ديارنا ، أو قتلك بأيدينا ، ولولا عشيرتك التى هى على ملتنا لرجمناك بالحجارة حتى تموت ، وما أنت علينا بمكرم أو محبوب ، بل أنت فينا المنبوذ الضعيف المبغوض .

وهنا نجد شعيبا - عليه السلام - ينتقل فى أسلوب مخاطبته لقومه من اللين إلى الشدة ، ومن التلطف إلى الإنكار ، دفاعا عن جلال ربه فيقول بهم : ﴿ .. يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) ﴾ [هود: ٩٢، ٩٣]

أى : قال شعيب لقومه بغضب من أجل دينه وعقيدته : أعشيرتى ورهطى الذين من أجلهم لم ترجمونى ، أعز وأكرم عندكم من الله الذى هو خالقكم ورازقكم ومميتكم ومحييكم ، والذى جعلتم أوامره ونواهيه التى جئتكم بها من لدنه - سبحانه - كالشىء المنبوذ المهمل ، إن ربى محيط بأقوالكم وأفعالكم وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب مهين ، وياقوم اعملوا كل ما فى إمكانكم عمله معى ، وابذلوا فى

تهديدى ووعيدى ما شئتم ، فإن ذلك لن يضيرنى ، وكيف يضيرنى وأنا المتوكل على الله المعتمد على عونه ورعايته ؟ وإنى سأقابل عملكم السيئ هذا بعمل آخر حسن من جانبى ، وهو الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وإلى مكارم الأخلاق ، وسوف تعلمون من منا الذى سينزل به عذاب يخزيه ويفضحه ويهينه ، ومن منا الذى هو كاذب فى قوله وعمله ، وانتظروا سوء عاقبة تكذيبكم لى ، فإنى معكم منتظر ومرتقب . ولم يطل انتظار شعيب ، فقد نزل بقومه الظالمين العذاب الذى دمرهم تدميرا .

وهكذا نرى أن شعيبا - عليه السلام - قد جادل قومه بالتى هى أحسن ، وحاورهم وناقشهم بأسلوب جمع ألوانا من الهدايات ، ووضع كل كلمة قالها لهم فى الموضع الذى يناسبها ، وخاطبهم بأحكم منطق وأبلغ بيان ، ولكنهم قابلوا كل ذلك بالكلام القبيح ، وبالتطاول والغرور ، وبالتهديد السافر ، والوعيد الظاهر ، فكانت عاقبتهم الخسران والبوار .

هذه نماذج من المحاورات التى دارت بين نوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب - عليهم الصلاة والسلام - وبين أقوامهم ، وهناك محاورات أخرى كثيرة حدثت بين أنبياء آخرين وبين أقوامهم ، يطول الحديث لو تعرضنا لها بالتفصيل ، وقد ذكرناها فى غير هذا المكان[1] .

ونحب أن نختتم حديثنا عن هذا النوع من المحاورات ، بذكر جانب من الشبهات التى أثارها المشركون حول الرسول ﷺ وحول رسالته ، وكيف لقن الله - تعالى - رسوله ﷺ الحجة البالغة التى قذفها فى وجه باطل المكذبين فإذا هو زاهق .

لقد قال الكافرون عن النبى ﷺ إنه ساحر كذاب ، وتعجبوا أن كان هذا الرسول ﷺ واحد منهم ، وحكى القرآن ذلك فى آيات متعددة ، كما حكى الرد الذى يخرس ألسنتهم ، ويمحو شبهاتهم كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ

(١) راجع كتابنا : «القصة فى القرآن الكريم» - ففيه قصة كل نبى مع قومه بالتفصيل .

هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ⑧ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ⑨ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ ⑩ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ⑪ ﴾ [ص: ٤ - ١١]

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : أن جماعة من أهل مكة اجتمعوا مع نفر من زعماء قريش ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبى طالب لنكلمه فى شأن محمد ابن أخيه .

فلما دخلوا علَى أبى طالب قالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك ، فمره فليكف عن شتم آلهتنا ، وندَعُه وإلهه .

فقال أبو طالب للنبى ﷺ : يا ابن أخى هؤلاء مشيخة قريش ، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك .

فقال ﷺ : يا عم ، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ؟ فقال له : وإلى أى شىء تدعوهم ؟

فقال : أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم .

فقال أبو جهل من بين القوم : ما هى وحق أبيك ؟ فقال ﷺ : تشهدون أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله .

فقال أبو جهل : سلنا غير هذا .

فقال ﷺ : لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ما سألتكم غيرها .

فقاموا غاضبين وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذى أرسلك بهذا .

والمعنى الإجمالى لهذه الآيات الكريمة : أن مشركى مكة تعجبوا من مجىء منذر منهم ينذرهم بسوء عاقبة الشرك ، ويأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده ، وقال هؤلاء الكافرون عندما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الدين الحق : هذا الرسول ساحر لأنه يأتينا بخوارق لم نألفها ، وكذاب فيما يسنده إلى الله - تعالى - من أنه - عز وجل - أرسله إلينا .

ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل بأسلوب الاستفهام الإنكارى ، أقوالا أخرى لا تقل عن غيرها فى الفساد والبطلان فقال : أجعل محمد ﷺ الآلهة المتعددة إلها

واحدا ، إن هذا الذى طلبه منا ودعانا إليه لشىء قد بلغ النهاية فى العجب والغرابة ومجاوزة ما يقبله العقل . ولم يكتفوا بهذا الكلام الفاسد ، بل انطلق زعماؤهم يقولون لدهمائهم : أن امشوا فى طريقكم التى كان عليها آباؤكم واصبروا على عبادة آلهتكم مهما سخر منها محمد ﷺ ، فإن هذا الذى يدعونا إليه هذا الرجل من عبادة إله واحد ، لشىء يراد من جهته هو ، وهو مصمم عليه كل التصميم ، ونحن من جانبنا يجب أن نقابل تصميمه بتصميم آخر من جانبنا وهو أن نستمر على عبادة آلهتنا .

ثم أرادوا أن يقنعوا أنفسهم وغيرهم بأن ما أتى به الرسول ﷺ هو شىء شاذ ، فقالوا : ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه محمد ﷺ فى ملة العرب التى كان عليها آباؤنا ولا فى الملة الأخرى التى كان عليها أهل الكتاب ، ولا فى الملة التى تكون فى آخر الزمان ، والتى حدثنا عنها الكهان ، وإن ما يقوله محمد ﷺ هو نوع من الاختلاف والافتراء لكلام يقوله من عند نفسه ، دون أن يسبقه إليه أحد .

ثم صرحوا فى النهاية بالسبب الحقيقى الذى حملهم على الإصرار على الكفر ، ألا وهو الحقد والحسد ، وإنكار أن يختص الله - تعالى - رسوله محمدا ﷺ من بينهم بالرسالة ، فقالوا فى استنكار وتهكم : كيف يدعى محمد ﷺ أنه قد أنزل عليه القرآن من بيننا ، مع أننا نحن السادة الأغنياء وهو الفقير اليتيم ؟ إننا ننكر دعواه كل الإنكار .

بهذه المزاعم الفاسدة وجه المشركون كلامهم إلى النبى - ﷺ - فوصفوه بأنه ساحر وبأنه كذاب وبأنه يقول كلاما من عند نفسه ، وبأنه ليس أهلا لأن يكون رسولا . . .

فبماذا رد القرآن الكريم عليهم ؟ لقد رد القرآن عليهم بأسلوب فيه الإضراب عن كلامهم ، وفيه التهوين من شأنهم ، وفيه التسلية للرسول ﷺ ، وفيه ما يقنع العقول السليمة بصدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وبكذبهم فيما قالوه وتفوهوا به .

وكان هذا الرد يتضمن أن هؤلاء المشركين لم يقطعوا برأى فى شأنك - أيها الرسول الكريم - وفى شأن ما جئتهم به ، ولم يستندوا فى حوارهم معك إلى دليل أو ما يشبه الدليل ، فهم تارة يصفونك بالسحر ، وتارة يصفونك بأنك تقول ما تقول من عند نفسك . . .

فلا يحزنك قولهم – أيها الرسول الكريم – فإنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم لم يذوقوا عذابى بعد ، فإذا ذاقوه أيقنوا بأنك على الحق وهم على الباطل .

واعلم أن هؤلاء المشركين ليست عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ، حتى يعطوا منها من يشاءون ، ويمنعوها عمن يشاءون ، ويتخيروا للنبوة والرسالة من يشتهون ، وإنما المالك لكل ذلك هو ربك الذى لا يغلبه غالب ، والذى عطاؤه لخلقه لا يعد ولا يحصى .

وأيضا هؤلاء المشركون ليسوا بمالكين لشىء من السموات أو من الأرض أو مما بينهما ، وإنما المالك لهذا الكون هو خالقه وهو الله رب العالمين ، ولو كان لهم شىء من ذلك فليصعدوا فى الطرق التى توصلهم إلى ما نملكه حتى يستولوا عليه ، ويدبروا أمره ، وينزلوا الوحى على من يختارونه للنبوة من زعمائهم وأغنيائهم . .

وأعلم – أيها الرسول الكريم – أن هؤلاء المشركين أعجز وأهون ممن سبقهم من الأمم التى كذبت أنبياءها ، وما دام الأمر كذلك فلا تهتم بأمرهم ، ولا تكترث بجموعهم ، فهم سواء أكانوا قلة أم كثرة ، لا قيمة لهم بجانب قوتنا ، ومهما تحزبوا عليك فهم جند مهزمون ومغلوبون أمام قوة المؤمنين ، فامض فى طريقك فالنصر والفوز فى النهاية لك ولأتباعك .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكت ما تفوه به المشركون من أكاذيب حول الرسول ﷺ وحول دعوته ، وردت عليها بالنطق الرصين ، وبالحجة البالغة ، وبالأدلة الواضحة على صدق النبى ﷺ وعلى كذبهم فيما قالوه وزعموه .

وفى موطن آخر نرى المشركين يصفون النبى ﷺ بالجنون وبغير ذلك من الصفات الذميمة التى هو برىء منها ، فينزل القرآن فينفى عنه ﷺ هذه التهم الباطلة ، ويصفه بأفضل الصفات ، وأعظم المناقب ، ومن الآيات التى حكت ذلك قوله – سبحانه – : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾

[القلم : ١ – ٧]

أى : وحق القلم الذى يكتب به الكاتبون ، إنك - إيها الرسول الكريم - لمبرأ مما اتهمك به أعداؤك من الجنون وغيره مما يتنافى مع الكمال الإنسانى ، وكيف تكون مجنونا وقد أنعم الله - تعالى - عليك بالنبوة والحكمة .

ثم بشره - سبحانه - ببشارات أخرى فقال : وإن لك عندنا لأجرا عظيما لا يعلم مقداره إلا نحن ، وهذا الأجر غير مقطوع بل هو متصل ودائم ، وإنك لعلى دين عظيم ، وخلق قويم ، وسلوك كريم ، وكيف لا وأنت المبعوث لتتمم مكارم الأخلاق ، وسترى وستعلم وسيعلم أعداؤك فى أى فريق منكم الإصابة بالجنون أفى فريق المؤمنين أم فى فريق الكافرين ، وأن ربك وحده يا محمد هو الأعلم بمن ضل عن طريق الحق وبمن هو على صراط مستقيم .

فالمقصود من هذه الآيات الكريمة دفع التهم الباطلة التى قالها المشركون فى حقه ﷺ وتسليته عما أصابه منهم ، وتبشيره ببشارات متعددة ، ووصفه بالمناقب الكريمة التى هو أهل لها .

وفى موضع ثالث يذكر القرآن الكريم جانبا من المقترحات المتعنتة التى اقترحها المشركون ، ويرد عليها ، حكيما يخرس ألسنتهم ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٨، ٩]

وقد ذكروا فى سبب نزول هاتين الآيتين أن جماعة من المشركين قالوا للنبى ﷺ يا محمد لو كان معك ملك يحدث عنك الناس ويرى معك ، لآمنا بك وصدقناك . .

والمعنى : وقال الكافرون للنبى ﷺ على سبيل التعنت والعناد : هلاَّ كان معك ملك من الملائكة يشهد بصدقك ، ونسمع كلامه ونرى هيئته وفى هذه الحالة قد نؤمن بك . فهم لا يريدون ملكا لا يرونه وإنما يريدون ملكا يمشى معه ويشاهدونه بأعينهم .

وقد رد الله - تعالى - على قولهم هذا بردين حكيمين : أما الرد الأول فيتمثل فى قوله - تعالى - : ﴿ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ﴾ أى : ولو أنزلنا معك ملكا كما اقترحوا وبقوا على ما هم عليه من الكفر لقضى الأمر بهلاكهم ثم لا يمهلون ولا يؤخرون ، فقد مضت سنة الله فيمن قبلهم أنهم كانوا إذا اقترحوا آية فأعطوها ولم يؤمنوا أن يهلكهم الله - تعالى - بسبب إصرارهم على جحودهم .

وأما الرد الثانى فيتمثل فى قوله - سبحانه - ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ أى : ولو جعلنا الرسول من الملائكة - كما اقترحوا - لكانت الحكمة تقضى أن نجعله فى صورة بشر ليتمكنوا من رؤيته ومن سماع كلامه ، وفى هذه الحالة سيقولون لهذا الملك المرسل إليهم فى صورة بشر ؛ سيقولون له لست ملكا ، لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التى تمثل بها ، وحينئذ يقعون فى نفس اللبس والاشتباه الذى يلبسون على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشرا .

وبهذين الجوابين الحكيمين يكون القرآن قد دحض شبهات أولئك الجاحدين ، وبين لهم أن العقل السليم يحكم بأن الرسول يجب أن يكون بشرا من جنس المرسل إليهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[الأنبياء : ٧] .

وشبيه بهاتين فى بيان ما جبل عليه المشركون من مقترحات فاسدة ، ومن مطالب متعنتة يطلبونها من النبى ﷺ على سبيل العناد والجحود قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٣]

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات رواية طويلة ملخصها : أن جماعة من زعماء قريش اجتمعوا عنه الكعبة ، وطلبوا رسول الله ﷺ فجاءهم ، فقالوا له يا محمد : إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، فإن كنت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تطلب شرفا فينا جعلناك ملكا علينا . . .

فقال لهم ﷺ : ما بى شىء مما تقولون ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل علىّ كتابا وأمرنى أن أكون بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بينى وبينكم .

فقالوا له : يا محمد ؛ فإن كنت صادقا فيما تقول ، فسل لنا ربك الذى بعثك ، فليبعد عنا هذا الجبل الذى قد ضيق علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، ويفجر فيها الأنهار ، ويبعث مَن مضى مِن آبائنا فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ، وسله أن يبعث معك ملكا يصدقك ، واسأله أن يجعل لك جنانا وقصورا ، أو كنوزا من ذهب وفضة تعينك على معاشك .

فقال ﷺ : ما بعثت بهذا . قالوا : فأسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفا .

وقال أحدهم : لا أومن بك أبدا حتى تتخذ لك سُلّما إلى السماء ترقى فيه ونحن ننظر إليك ، فانصرف عنهم ﷺ لما رأى من تباعدهم عن الهدى ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات تسلية له . ومعنى الآيات : أن المشركين قالوا للنبى ﷺ وهم يحاورنه ويجادلونه : يا محمد لن نؤمن لك ، ولن نصدقك حتى تخرج لنا من أرض مكة القليلة المياه عينا لا ينضب ماؤها ولا يزول . وحتى تكون لك بصفة خاصة حديقة عامرة بالفواكه وبالنخيل وبالأعناب ، وتجرى الأنهار فى وسطها جريا عظيما ، أو أن تسقط أنت علينا السماء إسقاطا مماثلا لما هددتنا به ، من أن قدرة ربك - عز وجل - أن ينزل علينا عذابا متقطعًا من السماء . أو تأتى بالله والملائكة معه لكى يشهدوا لك بأنك رسول صادق فى دعوته ، أو يكون لك بيت من ذهب ، أو تصعد على السماء أمام أعيننا ، ولن نصدق بصعودك مع مشاهدتنا لك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ونفهم ما فيه ، وفيه ما يدل دلالة قاطعة على أنك رسول من عند الله - تعالى - وما يدعونا على الإيمان بك .

هذه جملة من المقترحات المتعنتة والمحاورات السيئة التى واجه بها المشركون رسولهم محمدا ﷺ فماذا كان الرد عليهم ؟

كان الرد عليهم مع وجازته ردا حاسما قاطعا يبطل مزاعمهم وشبهاتهم ، وقد لقن الله - تعالى - رسوله ﷺ هذا الرد الحاسم فقال : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ ؟

أى : قل لهم يا محمد على سبيل التعجب من سوء تفكير هؤلاء الجاحدين : يا سبحان الله هل أنا إلا بشر كسائر البشر ورسول كسائر الرسل ، وليس من شأن من

كان كذلك أن يأتى بتلك المطالب المتعنتة التى طلبتموها ، وإنما من شأنه أن يبلغ ما أمره الله بتبليغه من هدايات ، تخرج الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان والتوحيد ، ومن أباطيل الجهل والسفه إلى ضياء العلم والفهم السليم للأمور .

وفى موضع رابع نرى المشركين يقولون للنبى ﷺ : لن نؤمن لك يا محمد حتى ينزل علينا الوحى كما ينزل عليك . ويرد القرآن عليهم مبينا لهم أن النبوة هبة يهبها الله لمن يشاء من عباده ، وأن الوحى لا ينزل إلا على الأنبياء الذين اصطفاهم الله - سبحانه - لحمل رسالته وتبليغ دعوته .

قال - تعالى- : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام : ١٢٤]

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية أن الوليد بن المغيرة قال للنبى - ﷺ - : لو كنت يا محمد نبيا حقا لكنت أنا أولى منك بها ، لأنى أكبر منك سنا وأكثر مالا .

وقيل نزلت فى أبى جهل وذلك أنه قال : زاحمنا بنو عبد المطلب فى الشرف ، حتى إذا كنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يوحى إليه ، والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .

والمعنى : وإذا وصلت إلى هؤلاء المشركين حجة قاطعة تشهد بصدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، قالوا على سبيل الحسد له : لن نؤمن لك يا محمد حتى نُعطَى من الوحى والرسالة مثل ما أعطيتَ ، ومثل ما أعطى رسل الله السابقين .

وقد رد الله - تعالى - على هؤلاء الحاقدين بقوله : الله وحده أعلم منهم ومن كل أحد بالموضع الصالح لحمل الرسالة فيضعها فيه ، فهو - سبحانه - يختار لها بحكمته وعلمه من يستحقها وينهض بها ويهب نفسه لها وينسى فى سبيلها ذاته .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء الماكرين الحاسدين فقال : سيصيب الذين أجرموا بعد تكبرهم وغرورهم وتطاولهم ذل عظيم وهوان شديد ثابت لهم عند الله فى الدنيا والآخرة ، بسبب مكرهم المستمر ، وبسبب عدائهم الدائم لرسل الله - تعالى - ولأوليائه .

وفى موضع خامس يحكى لنا القرآن الكريم أن المشركين زعموا أن هذا القرآن ليس من عند الله ، وأن محمدا ﷺ هو الذى اخترعه وساعده على ذلك قوم آخرون ، وقد أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم بالرد الذى يخرس ألسنتهم فقال :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦) ﴾ [الفرقان : ٤ - ٦]

أى : وقال الذين كفروا بالحق لما جاءهم به رسول الله ﷺ : ما هذا القرآن الذى يدعى أنه من عند الله إلا كذب وبهتان ، افتراه واختلقه محمد ﷺ من عند نفسه ، وساعده على تأليفه عدد من أهل الكتاب كعداس مولى حويطب بن عبد العزى ، ويسار مولى العلاء بن الحضرمى ، وأبى فكيهة الرومى .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ رد على أقوالهم الباطلة ، أى : فقد فعل هؤلاء الكافرون بقولهم هذا ظلما عظيما وزورا كبيرا ، حيث وضعوا الباطل موضع الحق ، والكذب موضع الصدق .

ثم حكى - سبحانه - مقولة أخرى من مقولاتهم الفاسدة ، وهى أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بقولهم السابق فى شأن القرآن الذى هو المعجزة الكبرى الخالدة للرسول ﷺ بل أضافوا على ذلك قولا آخر أشد شناعة وقبحا ؛ وهو زعمهم أن هذا القرآن أكاذيب الأولين وخرافاتهم ، وأن الرسول ﷺ قد أمر غيره بكتابتها من صحف الأولين ، فهى تلقى عليه بعد اكتتابها ليحفظها ويقرأها على أصحابه فى الصباح والمساء .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يرد عليهم بما يكبتهم فقال : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين : كذبتم أشنع الكذب وأقبحه ، فأنتم أول من يعلم بأن هذا القرآن له من الحلاوة والطلاوة والبلاغة وقوة التأثير ما يشهد بأنه ليس من كلام البشر ، وبأنه مُنَزل من الله - تعالى - الذى يعلم ما خفى فى السموات والأرض ، والذى من شأنه المغفرة والرحمة ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ... ﴾

وفى موضع سادس بعد هذه الآيات مباشرة نرى مقولة فاسدة أخرى للمشركين ، تتعلق بشخصية النبى ﷺ حيث أنكروا أن يكون الرسول ﷺ يأكل الطعام ويمشى

فى الأسواق وليس معه ملك ، يدافع عنه ، وليس له مال كثير يوزعه ذات اليمين وذات الشمال ، وليس له بساتين فيحاء يأكل منها . . .

وقد حكى القرآن عنهم ذلك ، ورد عليهم ردا فيه ما فيه من الحكمة الحكيمة ، ومن البراهين التى تدفع المبطلين ، ومن التشريف والتكريم له ﷺ حيث قال - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ۝ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ۝ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝ ﴾ [الفرقان : ٧ - ١١]

أى : إن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بقولهم إن محمدا ﷺ قد افترى القرآن ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم قالوا على سبيل السخرية والتهكم : كيف يدعى محمد ﷺ أنه رسول من عند الله ، وحاله الذى نشاهده بأعيننا أنه يأكل الطعام كما يأكل سائر الناس ، وأنه يتردد على الأسواق كما نتردد عليها ، هلا أنزل إليه ملك يعضده ويساعده ويشهد له بالرسالة ، وينذر من يخالفه بسوء المصير !!

فإذا لم يكن معه هذا الملك فلا أقل من أن يلقى إليه مال عظيم يغنيه عن التماس الرزق بالأسواق كسائر الناس ، أو تكون له حديقة مليئة بالأشجار المثمرة لكى يأكل منها ونأكل معه من خيرها .

وقال الظالمون من زعماء قريش لضعفائهم : احذروا اتباع هذا الرجل فإنه مغلوب على عقله ، ومصاب بمرض قد أثر فى تصرفاته .

فأنت ترى أن هؤلاء الكذابين الظالمين قد اشتمل قولهم الذى حكاه القرآن على على ست قبائح ، قصدهم من التفوه بها صرف الناس عن اتباعه ﷺ .

وقد رد الله - تعالى - على مقترحاتهم الفاسدة ، وعلى شبهاتهم الباطلة ، بالتهوين من شأنهم وبالتعجب من تفاهة عقولهم ، وبالتسلية للرسول ﷺ عما أصابه منهم فقال :﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾

أى : انظروا - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء الظالمين ، وتعجب من تعنتهم وضحالة عقولهم وسوء أقاويلهم ، حيث وصفوك تارة بالسحر ، وتارة بالشعر ، وتارة بالكهانة ، وقد ضلوا وانحرفوا عن الحق عن تعمد ومكر وسوء نية .

واعلم يا محمد أن ربك قادر على أن يجعل لك فى حياتك خيرا من ذلك الذى اقترحوه من الكنوز والبساتين ، بأن يهب لك جنات عظيمة تجرى من تحتها الأنهار ، ويهبك قصورا فخمة ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ لك ذلك ، لأن ما ادخره لك من عطاء كريم خير وأبقى . وأعلم - أيها الرسول الكريم - أن هؤلاء الظالمين لم يكتفوا بما قالوه من قبائح فى شأنك ، بل هم قد كفروا بيوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار ، وقد أعددنا لمن كفر بهذا اليوم عذابا عظيما .

وفى موضع سابع نرى محاورات المشركين مع النبى ﷺ تدور حول ما يتعلق بأمنهم وسلامتهم ، فيقولون له ﷺ : إن اتباعنا لك وإيماننا بك سيترتب عليه أن تتخطفنا العرب ، وأن تطردنا من أرضنا . واستمع إلى القرآن الكريم وهو يصور ذلك بأسلوبه البليغ فيقول : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾

[القصص : ٥٧]

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية أن بعض المشركين أتوا إلى النبى ﷺ فقالوا له يا محمد : نحن نعلم أنك على الحق ، ولكننا نخشى إن اتبعناك وخالفنا العرب أن يتخطفونا من أرضنا ، وإنما نحن أكلة رأس - أى : قليلون لا نستطيع مقاومة العرب - فنزلت هذه الآية .

والمعنى : وقال المشركون للنبى ﷺ على سبيل التذرع بالأعذار الواهية : يا محمد نحن نعلم أنك الصادق الأمين ولكننا نخاف إن اتبعناك وآمنا بك وصدقناك أن يقاطعنا بقية العرب ، وأن يعتدوا علينا ، وأن ينزعونا من أرضنا بسرعة .

وقد رد الله - تعالى - عليهم ردا ملزما حيث قال لهم فى أسلوب استنكارى : كيف يقولون ذلك والحال أننا جعلنا لهم حرمًا آمنا يعيشون من حوله ، وتأتيهم خيرات الأرض من كل مكان ، وقد فعلنا ذلك معهم وهم مشركون ، فكيف نعرضهم للعدوان عليهم وهم مؤمنون ؟

قال صاحب الكشاف : «وكانت العرب حولهم فى الجاهلية يتغاورون ويتناحرون وهم – أى : أهل مكة – آمنون مطمئنون فى حرمهم ، وبحرمة البيت هم قارون بواد غير ذى زرع والثمرات والأرزاق تجبى إليهم من كل مكان ، فإذا خولهم الله ما خولهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام ، فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخطف والخوف ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام»[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى – ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) ﴾ [العنكبوت : ٦٧]

* * *

هذه نماذج من محاورات الرسل مع أقوامهم . ومن الآداب التى نأخذها منها : أن الرسل الكرام بنو محاوراتهم مع أقوامهم على المنطق السليم ، وعلى الأدب الرفيع ، وعلى الحجة الباهرة ، وعلى الصبر الجميل ، وعلى الصراحة فى القول ، وعلى حب الخير لمن يخاطبونهم ، وعلى الحرص التام على أن يبلغوا رسالات الله إلى أقوامهم دون أن يخشوا أحدًا سوى خالقهم – عز وجل – .

أما أقوامهم فقد كانت محاوراتهم لرسلهم تقوم على السفاهة والتطاول والكذب والاستخفاف برسلهم ، ووصفهم بأقبح الصفات وأسوأ النعوت ، لذا كانت نهايتهم كما قال – سبحانه – : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت : ٤٠] .

كما أننا نلاحظ أن محاورات الرسل السابقين مع أقوامهم كان معظمها يستعمل فيه لفظ «قالوا» الذى تكرر فى القرآن ثلاثمائة وإحدى وثلاثين مرة ، ولفظ «قال» الذى تكرر فى القرآن خمسمائة وتسع وعشرين مرة .

ترى ذلك فى محاورات نوح – عليه السلام – مع قومه كما فى قوله – تعالى –

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٧٢

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) ﴾ [هود: ٣٢، ٣٣]

وفى محاورات هود – عليه السلام – مع قومه ، كما فى قوله – تعالى – : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) ﴾ [هود: ٥٣ – ٥٥]

وفى محاورات صالح – عليه السلام – مع قومه ، كما فى قوله – تعالى – : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) ﴾ [هود: ٦٢، ٦٣]

وفى محاورات إبراهيم – عليه السلام – مع قومه – كما فى قوله – سبحانه – : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) ﴾ [الشعراء: ٦٩ – ٧١]

وفى محاورات شعيب – عليه السلام – مع قومه ، كما فى قوله – عز وجل – : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) ﴾ [هود: ٩١، ٩٢]

أما المحاورات التى حدثت بين الرسول ﷺ وبين أعدائه ، فنراها فى مجموعها تجرى بأسلوبين :

أولهما : تلقين النبى ﷺ الجواب الذى يرد به على أعدائه ، وقد جاء هذا

التلقين بلفظ «قل» ، وقد تكرر هذا اللفظ فى القرآن الكريم ثلاثمائة واثنتين وعشرين مرة . نرى ذلك كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) ﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥١]

وثانيهما : أن يتولى الله - تعالى - الرد على شبهات المشركين التى أثاروها حول الرسول ﷺ وحول دعوته ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام: ٨، ٩]

وعلى أية حال فإن القرآن الكريم قد استعمل ألوانا من الأساليب الحكيمة فى المحاورات التى دارت بين الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وبين أقوامهم الذين قابلوا إرشادات الرسل وتوجيهاتهم الكريمة ، وأقوالهم الطيبة ، وأدلتهم الساطعة ، وحججهم الواضحة ، قابلوا كل ذلك بكل الجهالات والسفاهات التى أدت بهم إلى سوء المصير ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

* * *

الفصل الرابع

حوار مع أهل الكتاب

إن الذى يتدبر القرآن الكريم ، يرى كثيرا من آياته قد قصت علينا ألوانا متعددة من المحاورات مع أهل الكتاب بصفة عامة ، ومع بنى إسرائيل بصفة خاصة .

والمقصود بأهل الكتاب : اليهود والنصارى ، كما أن المقصود بالكتاب هنا : التوراة والإنجيل . أما التوراة فهى الكتاب الذى أنزله الله - تعالى - على نبيه ورسوله موسى - عليه السلام - . قال - تعالى - : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢) ﴾ [الإسراء: ٢].

وأما الإنجيل فهو الكتاب الذى أنزله الله - تعالى - على نبيه ورسوله عيسى - عليه السلام - . قال - تعالى - : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) ﴾ [المائدة: ٤٦].

أى : وأتبعنا عى آثار أولئك النبيين السابقين بعيسى ابن مريم ناهجا نهجهم فى إخلاص العبادة لخالقه ، ومصدقا للتوراة التى تقدمته ، ومنفذا لأحكامها ، إلا ما جاء نسخه فى الإنجيل منها ، وقد أنزلنا عليه الإنجيل ليكون هداية ونورا وتأييدا للتوراة ، وموعظة لمن صان نفسه عن كل ما لا يرضى الله - تعالى - .

وقد أورد القرآن الكريم هذا الوصف - وهو أهل الكتاب - تارة على سبيل المدح والتكريم ، لأنهم آمنوا بالحق الذى جاءهم به رسول الله ﷺ ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤].

وتارة على سبيل الذم والتأنيب لأنهم كفروا بالحق حين جاءهم به الرسول ﷺ كما فى قوله - عز وجل - : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾ [آل عمران: ٩٨، ٩٩].

وقد أمر القرآن الكريم أتباعه أن يجادلوا أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، وأن يناقشوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، قال - تعالى - : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

أى : عليكم - يا معشر المسلمين - أن تجعلوا جدالكم مع أهل الكتاب بالطريقة التى هى أحسن الطرق وأقومها ، إلا الذين ظلموا منهم بأن أساءوا إليكم وتمادوا فى هذه الإساءة ، فعاملوهم بالمثل ، وردوا على إساءاتهم بالطريقة الكفيلة بصيانة حرمة دينكم وأنفسكم وأموالكم وأوطانكم .

ثم ضرب القرآن مثلا للمجادلة بالتى هى أحسن فقال : وقولوا لهم إذا جادلوكم فى شأن دينكم : آمنا بالذى أنزل إلينا وهو القرآن الكريم ، وبالذى أنزل إليكم وهو التوراة والإنجيل ، وآمنا بأن إلهنا وإلهكم واحد هو الله رب العالمين ، ونحن له مسلمون وطائعون .

فهذه الآية الكريمة أرشدت المؤمنين إلى أن يجادلوا أهل الكتاب بالتى هى أحسن من حيث الأسلوب ومن حيث الموضوع عن طريق إقناعهم بأن دين الله واحد ، وأن إلهنا وإلههم واحد .

وسنقتصر فى بحثنا هذا على بعض المحاورات التى ذكرها القرآن مع أهل الكتاب بلفظ «القول» وما اشتق منه كلفظ قالوا ، وقل ، ويقولون ...

ونبدأ بالمحاورات التى حكاها القرآن مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى بصفة عامة ، وقد وردت هذه المحاورات فى صور متنوعة منها :

(ا) الرد عليهم فى قولهم : ﴿ ... نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) ﴾ [المائدة: ١٨].

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية أن جماعة من أهل الكتاب ، جاؤا إلى النبى ﷺ فدعاهم إلى الدخول فى الإسلام ، وحذرهم من الإصرار على الكفر ، فقالوا : يا محمد ؛ أتخوفنا بعذاب الله ؟ نحن أبناء الله وأحباؤه ، فنزلت هذه الآية .

والمعنى : وقالت طائفة من اليهود ، وأخرى من النصارى : نحن فى القرب من الله

- تعالى - بمنزلة أبنائه المدللين ، وأحبائه المختارين ، فلنا من الفضل والمنزلة والتكريم ماليس لغيرنا من البشر .

ونسب - سبحانه - هذا القول الباطل إلى الطائفتين جميعا ، مع أن القائل قد يكون بعضا منهم ، لأن رضاهم جميعا بهذا القول جعلهم كأنهم قد قالوه جميعا .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يرد عليهم بما يكشف عن ضلالهم وجهلهم فقال : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾؟

أى : قل يا محمد لهؤلاء المغرورين : إن كان الأمر كما زعمتم من أنكم أبناء الله وأحباؤه ، فلماذا يعذبكم إذ الحبيب لايعذب حبيبه .

وان واقعكم - يا أهل الكتاب - يناقض دعواكم ، فقد عذبكم فى الدنيا بسبب ذنوبكم بالقتل والأسر والجوع ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات . .

أما فى الآخرة فكتبكم التى بين أيديكم تشهد بأنكم ستعذبون فى الآخرة بسبب ما اقترفتم فى الدنيا من سيئات وآثام .

وقد أقر اليهود - كما حكى القرآن عنهم - أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات - فى زعمهم - ، كما أقر النصارى بأن الله - تعالى - سيحاسب عباده يوم القيامة على أعمالهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ : رد على أصل دعواهم الكاذبة ، وبيان لما هو الحق من أمرهم .

أى : ليس الأمر - كما زعمتم - ياأهل الكتاب - من أنكم أبناء الله وأحباؤه ، بل الحق ، أنكم كسائر البشر من خلق الله - تعالى - من آمن منكم وعمل صالحا فله ثوابه ، ومن كفر وعمل عملا سيئا فله عقابه ، وليس لأحد فضل على أحد إلا بالإيمان والعمل الصالح .

والله - تعالى - يغفر لمن يشاء أن يغفر له ، وينزل العذاب بمن يشاء أن ينزله به ، وله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه وحده مصير العباد ونهايتهم .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد حكت ما قاله اليهود والنصارى ، وردت عليهم ردا منطقيًا حكيما يؤيده الواقع كما تؤيده الكتب السماوية والعقول الإنسانية ، إذ من

المتفق عليه بين العقلاء أنه لافضل لفرد على آخر أو لطائفة على أخرى إلا بالإيمان والعمل الصالح .

(ب) الرد عليهم فى قولهم : « لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى » : وقد حكى القرآن عنهم هذا القول وناقشهم فيه مناقشة موضوعية حكيمة ، وأثبت عدم صحة دعواهم فى قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) ﴾ [البقرة : ١١١ ، ١١٢] .

والمعنى : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ، إلا أن الآية الكريمة سلكت فى طريق الإخبار عما زعموه مسلك الإيجاز ، فحكت القولين فى جملة واحدة ، وعطفت أحد الفريقين على الآخر بحرف «أو» ثقة بفهم السامع ، وأمنا من اللبس ، لما عرف من التعادى بين الفريقين ، وتضليل كل طائفة منهما للأخرى .

ولذا قال الإمام ابن جرير عند تفسيره لهاتين الآيتين : «فإن قال قائل : وكيف جمع - سبحانه - اليهود والنصارى فى هذا الخبر مع اختلاف مقالة الفريقين ، إذ اليهود تدفع النصارى عن أن يكون لها فى ثواب الله نصيب ، والنصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك ؟

قيل : إن معنى ذلك بخلاف الذى ذهبت إليه ، وإنما عنى به : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا النصارى ، ولكن معنى الكلام لما كان مفهوما عند المخاطبين به جُمع الفريقان فى الخبر عنهما . . .[١]»

وقوله - سبحانه - ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ رد عليهم المقصود به بيان أن مايزعمون من أن الجنة خاصة بكل فريق منهم ماهو إلا من باب الأمانى والأحلام والأوهام التى يتوهمونها دون حق أو دليل ، وهذه الأمانى سولتها لهم أنفسهم التى استحوذ عليها الشيطان فخدعها بالأباطيل ثم أمر الله - تعالى - رسوله محمدا ﷺ أن يطالبهم بالدليل على صحة مايدعون فقال : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . أى : قل

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص٤٩١

لهم يا محمد إن كانت الجنة خاصة بكم من دون الناس - كما تزعمون - فأين دليلكم على ذلك لكى تكونوا صادقين فى دعواكم؟ إن هذه الدعوة لا تثبت إلا عن طريق الوحى من الله - تعالى - على رسله وليس عن طريق التمنى ، ومادمتم لم تأتوا بدليل على صحة دعواكم فأنتم كاذبون فيها .

ثم أبطل - سبحانه - دعواهم وأقوالهم بدليل آخر ، وهو إيراد قاعدة كلية رتبت دخول الجنة على الإيمان والعمل الصالح بلا محاباة لجنس أو لأمة أو لجماعة فقال : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ و «بلى» حرف يذكر فى الجواب لإثبات المنفى فى كلام سابق ، وقد صدرت الآية التى معنا بحرف «بلى» لإثبات مانفوه وهو دخول غيرهم الجنة من لم يكن لا من اليهود ولا من النصارى ، مادام قد أسلم وجهه لله وهو محسن .

أى : ليس الحق فيما زعمه كل فريق منكم يا معشر اليهود والنصارى ، من أن الجنة لكم دون غيركم ، وإنما الحق أن كل من أخلص نفسه لله ، وأتى بالعمل الصالح على وجه حسن ، فإنه يدخل الجنة ، ويكون له أجره عند ربه ، ولا خوف عليه ولا على من يشبهه فى إيمانه وإحسانه ، ولاهم يحزنون .

وبهذا نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد أبطلتا دعوى اليهود والنصارى من أن الجنة لهم دون غيرهم ، وأثبتتا أن هذه الدعوى ماهى إلا من قبيل الأمانى والأحلام التى لابرهان معها يؤيدها ، وأن الجنة إنما هى لمن آمن وعمل صالحا دون محاباة لجنس ، أو لطائفة دون أخرى .

(جـ) الرد عليهم فى قولهم : ﴿ كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ . وقد حكى القرآن عنهم ذلك ، ولقن النبى ﷺ والمسلمين الجواب الذى يحق الحق ويبطل الباطل فقال - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) ﴾ [البقرة: ١٣٥، ١٣٦]

وقد ذكروا فى سبب نزول هاتين الآيتين أن بعض اليهود قالوا للنبى ﷺ : يا محمد ما الهدى إلا مانحن عليه ، وأن بعض النصارى قالوا مثل ذلك .

والمعنى : وقال جماعة اليهود للنبى ﷺ وللمسلمين : اتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا وتصيبوا الحق ، وقال جماعة من النصارى مثل ذلك .

وهنا جاء الرد عليهم : قل لهم - يامحمد - ليس الهدى فى اتباع ملتكم ، بل الحق فى أن نتبع الدين الذى كان عليه إبراهيم - عليه السلام - الذى أخلص عبادته لله - تعالى - وحده ، ولم يكن من المشركين الذين أشركوا فى العبادة مع الله - تعالى - آلهة أخرى ، فعليكم - يا أهل الكتاب - أن تتبعوا ما اتبعناه لتكونوا من المهتدين .

والحنيف فى الأصل : المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق ، ووصف به إبراهيم - عليه السلام - لميله عن الأديان الباطلة التى كانت موجودة فى عهده إلى الدين الحق الذى أوحى الله به إليه .

وقد تضمن قوله - تعالى - : ﴿ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ إبطال ما ادعاه أهل الكتاب ، لأن حرف «بل» يؤتى به فى صدر الكلام لينفى ما تضمنته الجملة السابقة ، والجملة السابقة هنا : هى قول أهل الكتاب : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ ، فجاءت بل بعد ذلك لتنفى هذا القول ، ولتثبت نقيضه وهو أن الهداية فى اتباع ملة إبراهيم وليست فى اتباع اليهودية أو النصرانية .

ثم أرشد الله المؤمنين إلى جواب جامع حكيم فى الرد على هاتين الطائفتين فقال لهم : قولوا - أيها المؤمنون - لأهل الكتاب : ليست الهداية فى اتباع ملتكم ، بل الهداية فى أن نصدق بوحدانية الله - تعالى - ، وبالقرآن الكريم الذى أنزله الله - تعالى - على نبينا محمد ﷺ ، وبما أنزله - سبحانه - على رسله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وهم أبناء يعقوب ، وحفدة إبراهيم وإسحاق - عليهما السلام - وكانوا اثنى عشر سبطا . ونصدق - أيضا - ونؤمن بالتوراة التى أنزلها الله - تعالى - على نبيه موسى ، وبالإنجيل الذى أنزله على نبيه عيسى ، ونؤمن كذلك ونصدق بكل ما أوحاه الله - تعالى - على أنبيائه من هدايات ، دون تفرقة بين نبى وآخر ، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلتم يا معشر أهل الكتاب ، بل نحن بجميع الرسل والأنبياء مؤمنون ومصدقون .

ثم ختم - سبحانه - هذه المحاورة معهم بقوله : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٣٧]

أى : فإن آمن أهل الكتاب إيمانا مثل إيمانكم - أيها المسلمون - فقد اهتدوا إلى الصراط المستقيم ، وكانوا ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وإن لجوا فى جدالهم الباطل وحوارهم الفاسد ، وأعرضوا عن الحق ، فاعلموا أنهم فى شقاق وخلاف من أمركم ، وسيكفيكم الله شرورهم ، وينصركم عليهم ، وهو - سبحانه - السميع لأقوالهم العليم بأحوالهم .

(د) دعوتهم إلى الدين الحق ، والرد عليهم فى قولهم : إن ابراهيم كان يهوديا أو نصرانيا ، وقد ساق القرآن الكريم ذلك فى آيات حكيمة ، فيها ألوان من التوجيهات الجليلة والإرشادات القويمة كما قال - تعالى - : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) ﴾ [آل عمران : ٦٤ - ٧١] .

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد وجه إلى أهل الكتاب أربع نداءات فى هذه الآيات الكريمة .

أما النداء الأول فقد طلب منهم فيه أن يتوبوا إلى رشدهم ، وأن يخلصوا لله العبادة فقال : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ والسواء : العدل

والإنصاف . أى : قل يا محمد لأهل الكتاب : هلموا وأقبلوا إلى كلمة ذات عدل وإنصاف بيننا وبينكم .

أو السواء : مصدر مستوية . أى : هلموا إلى كلمة لا تختلف فيها الرسل والكتب المنزلة والعقول السليمة ، لأنها كلمة عادلة مستقيمة ليس فيها ميل عن الحق .

ثم بين – سبحانه – هذه الكلمة العادلة المستقيمة التى هى محل اتفاق بين الأنبياء فقال : ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ أى : نترك نحن وأنتم عبادة غير الله ، بأن نفرده وحده بالعبادة والطاعة والإذعان .

﴿ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ أى : ولا نشرك معه أحدا فى العبادة والخضوع ، بأن نقول : فلان إله أو فلان ابن إله ، أو أن الله ثالث ثلاثة .

﴿ وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى ولا يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله .

قال الآلوسى : ويؤيده ما أخرجه الترمذى وحسنه من حديث عدى بن حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قال : ماكنا نعبدهم يا رسول الله . فقال ﷺ : «أما كانوا يحلون منكم ويحرمون فتأخذون بقولهم ؟ قال : نعم . فقال ﷺ : هو ذاك » .

فالآية الكريمة قد نهت الناس جميعا عن عبادة غير الله ، وعن أن يشرك معه فى الألوهية أحد من بشر أو حجر أو غير ذلك ، وعن أن يتخذ أحد من البشر فى مقام الرب – عز وجل – بأن يتبع فى تحليل شىء أو تحريمه إلا فيما أحلَّه الله أو حرمه .

ولقد كانت رسالة الأنبياء جميعا متفقة فى دعوة الناس إلى عبادة الله وحده ، وقد حكى القرآن فى كثير من الآيات هذا المعنى ومن ذلك قوله – تعالى – : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾(١) . وقوله – تعالى – : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(٢) .

ثم أرشد الله – تعالى – المؤمنين إلى ما يجب عليهم أن يقوله إذا مالج الجاحدون فى طغيانهم فقال : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

(١) سورة النحل الآية ٣٦ .   (٢) سورة الأنبياء الآية ٢٥

أى : فإن أعرض هؤلاء الكفار عن دعوة الحق ، وانصرفوا عن موافقتكم بسبب ماهم عليه من عناد وجحود فلا تجادلوهم ولا تحاجوهم ، بل قولوا لهم : اشهدوا : بأنا مسلمون مذعنون لكلمة الحق ، بخلافكم أنتم فقد رضيتم بما أنتم فيه من باطل .

قال صاحب الكشاف وقوله : ﴿ اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أى : لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم . وذلك كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال وصراع أو غيرهما : اعترف بأنى أنا الغالب وسلم لى بالغلبة . ويجوز أن يكون من باب التعريض ومعناه : اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره»[1] .

هذا وتعتبر هذه الآية الكريمة من أجمع الآيات التى تهدى الناس إلى طريق الحق بأسلوب منطقى رصين ، ولذا كان النبى ﷺ يكتبها فى بعض رسائله التى أرسلها إلى الملوك والرؤساء ليدعوهم إلى الإسلام .

«فقد جاء فى كتاب النبى - ﷺ - إلى هرقل - ملك الروم - «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ »[2] .

وأما النداء الثانى الذى اشتملت عليه هذه الآيات فقد تضمن نهى أهل الكتاب عن الجدال بالباطل فى شأن إبراهيم - عليه السلام - قال - تعالى - : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

«قال ابن جرير : عن ابن عباس قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله فتنازعوا عنده ، قالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فأنزل الله - تعالى - فيهم : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ ﴾ »[3] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٧١ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٠٥ والأريسيون هم : العمال والفلاحون وعامة الشعب .

(٣) تفسير ابن جرير جـ٣ ص ٣٠٥ طبعة مصطفى الحلبى ، سنة ١٩٥٤ .

وقوله : ﴿ تُحَاجُّونَ ﴾ من المحاجة ، ومعناها أن يتبادل المتخاصمان الحجة بأن يقدم كل واحد حجة ويطلب من الآخر أن يرد عليها .

والمعنى : لا يسوغ لكم يا معشر اليهود والنصارى أن تجادلوا فى دين إبراهيم وشريعته فيدعى بعضكم أنه كان على الديانة اليهودية ، ويدعى البعض الآخر أنه كان على الديانة النصرانية ، والتوراة والإنجيل مانزلا إلا من بعده بأزمان طويلة ، فكيف يكون يهوديا يدين بالتوراة مع أنها ما نزلت إلا من بعده ، أو كيف يكون نصرانيا يدين بالإنجيل مع أنه ما نزل إلا من بعده ، بآلاف السنين ؟ إن هذه المحاجة منكم فى شأن إبراهيم ظاهرة البطلان واضحة الفساد .

وقوله ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ أى : أفلا تعقلون يا أهل الكتاب هذا الأمر البدهى وهو أن المتقدم على الشىء لا يمكن أن يكون تابعا للشىء المتأخر عنه ؟

فالاستفهام لتوبيخهم وتجهيلهم فى دعواهم أن إبراهيم - عليه السلام - كان يهوديا أو نصرانيا .

ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر مخالفة أهل الكتاب لمقتضيات العقول السليمة وهو أنهم يجادلون فى أمر ليس عندهم أسباب العلم به فقال - تعالى - : ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ .

والمعنى : أنتم يا معشر أهل الكتاب جادلتم وبادلتم الحجة ، سواء أكانت صحيحة أم فاسدة فى أمر لكم به علم فى الجملة ، كجدالكم فيما وجدتموه فى كتبكم من أمر موسى وعيسى - عليهما السلام - أو كجدالكم فيما جاء فى التوراة والإنجيل من أحكام ، ولكن كيف أبحتم لأنفكسم أن تجادلوا فى أمر ليس لكم به علم أصلا ، وهو جدالكم فى دين إبراهيم وشريعته ؟ لأنه من البديهى أن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا إذ وجوده سابق على وجودهما بأزمان طويلة .

وإذن فجدالكم فى شأن إبراهيم هو لون من ألوان جهلكم ومخالفتكم لكل ما تقتضيه العقول السليمة ، والنفوس المستقيمة .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ تذييل قصد به تأكيد علم الله الشامل ، ونفى العلم عن أهل الكتاب فى شأن إبراهيم .

أى : والله - تعالى - يعلم حال إبراهيم ودينه ، ويعلم كل شيء فى هذا الوجود ، وأنتم لا تعلمون ذلك .

ثم صرح - سبحانه - ببراءة إبراهيم من كل دين يخالف دين الإسلام فقال - تعالى - : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وقوله ﴿ حَنِيفًا ﴾ من الحنف وهو ميل عن الضلال إلى الاستقامة ، بعكس الجنف فهو ميل عن الاستقامة إلى الضلال ويقال : تحنف الرجل أى تحرى طريق الاستقامة .

أى : ما كان إبراهيم - عليه السلام - فى يوم من الأيام يهوديا كما قال اليهود ، ولا نصرانيا كما قال النصارى ولكنه كان حنيفا ، أى مائلا عن العقائد الزائفة ، متحريا طريق الاستقامة ، وكان «مسلما» أى مستسلما لله - تعالى - منقادا له مخلصا له العبادة ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الذين يشركون مع الله آلهة أخرى بأن يقولوا إن الله ثالث ثلاثة ، أو يقولوا عزير ابن الله أو المسيح ابن الله أو غير ذلك من الأقوال الباطلة والأفعال الفاسدة .

ففى هذه الآية الكريمة تنويه بشأن إبراهيم ، وتعريض بأولئك الكافرين من أهل الكتاب الذين ادعوا أن إبراهيم كان يهوديًا أو نصرانيا بأنهم هم المشركون بخلاف إبراهيم فقد كان مبرأ من ذلك .

أخرج الإمام مسلم والترمذى وأبو داود عن أنس - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا خير البرية . فقال رسول الله ﷺ : «ذاك إبراهيم عليه السلام» .

ثم أصدر - سبحانه - حكمه الحاسم العادل فى هذه القضية التى كثر الجدل فيها فقال : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ أَوْلَى ﴾ أفعل تفضيل من الولى وهو القرب .

والمعنى : إن أقرب الناس من إبراهيم ، وأخصهم به ، وأحقهم بالانتساب إليه أصناف ثلاثة :

أولهم : بينه الله بقوله : ﴿ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ أى : الذين أجابوا دعوته فى حياته واتبعوا دينه وشريعته بعد مماته .

وقد أكد الله - تعالى - حكمه هذا بحرف ﴿إن﴾ وبأفعل التفضيل ﴿أولى﴾ وباللام فى قوله ﴿ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ليرد على أقاويل أهل الكتاب ومفترياتهم حيث زعموا أنه كان يهوديا أو نصرانيا .

وثانى هذه الأصناف : بينه - سبحانه - بقوله : ﴿ وَهَٰذَا النَّبِيُّ ﴾ والمراد به محمد ﷺ الداعى إلى التوحيد الذى دعا إليه إبراهيم .

والجملة الكريمة من عطف الخاص على العام للاهتمام به . وللإشعار بأنه ﷺ قد تلقى الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم - عليه السلام - .

وثالث هذه الأصناف : بينه الله - تعالى - بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : والذين آمنوا بمحمد ﷺ واتبعوه .

وفى هذا تنويه بشأن الأمة الإسلامية ، وتقرير بأن محمداً ﷺ أحق بالانتساب إلى إبراهيم من أهل الكتاب ، لأن المؤمنين طلبوا الحق وآمنوا به ، أما أهل الكتاب فقد باعوا دينهم بدنياهم ، وتركوا الحق جريا وراء شهواتهم .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تذييل مقصود به تبشير المؤمنين بأن الله - تعالى - هو ناصرهم ومتولى أمورهم .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يقول الله - تعالى - إن أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه ، وهذا النبى - يعنى محمدًا ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم . فعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «إن لكل نبى ولاية من النبيين ، وإن وليى منهم أبى وخليل الله عز وجل إبراهيم عليه السلام» ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ الآية»[1] .

ثم حكى - سبحانه - أن بعض أهل الكتاب لا يكتفون بما هم فيه من ضلال ، بل يحاولون أن يضلوا غيرهم فقال - تعالى - : ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٧٣ .

وقوله – تعالى – : ﴿ ودَّت ﴾ من الود ، وهو محبة الشىء وتمنى حصوله ووقوعه .

أى تمنت وأحبت جماعة من أهل الكتاب إضلالكم وإهلاككم عن الحق – أيها المؤمنون – وذلك بأن ترجعوا عن دين الإسلام الذى هداكم الله إليه ، إلى دين الكفر الذى يعتنقه أولئك الكافرون من أهل الكتاب .

ولم يقف بغى بعض أهل الكتاب وحسدهم عند هذا التمنى ، بل تجاوزوه إلى إلقاء الشبهات حول دين الإسلام ، وإلى محاولة صرف بعض المسلمين عن دينهم .

قال القرطبى : نزلت هذه الآية – فى معاذ بن جبل ، وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر ، حين دعاهم اليهود من بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع إلى اليهودية[1] .

والمراد بالطائفة رؤساء أهل الكتاب وأحبارهم . أى : ودت طائفة من أهل الكتاب إضلالكم .

والحال أنهم ما يضلون أى ما يهلكون إلا أنفسهم بسبب غوايتهم واستيلاء الأهواء على قلوبهم ، وإيثارهم العمى على الهدى ولكنهم لا يشعرون بذلك ولا يفطنون له ، لأنهم قد زين لهم الشيطان سوء عملهم فرأوه حسنا .

وأما النداء الثالث الذى اشتملت عليه هذه الآيات فهو قوله : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ .

أى : لماذا تكفرون بآيات الله – تعالى – التى يتلوها عليكم نبيه محمد ﷺ ، والحال أنكم تعلمون صدقها وصحتها علما يقينيا كعلم المشاهدة والعيان ، وتعرفون أنه نبى حقا كما تعرفون أبناءكم .

والاستفهام فى قوله : ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴾ لتوبيخهم والتعجيب من شأنهم ، وإنكار ماهم عليه من كفر بآيات الله مع علمهم بصدقها .

وفى هذا النداء إشارة إلى أن ما أعطوه من علم كان يقتضى منهم أن يسارعوا إلى الإيمان لا أن يكفروا بآيات الله الدالة على صدق نبيه ﷺ والتى تتناول القرآن الكريم ، والحجج والمعجزات التى جاءهم بها ﷺ .

ثم وجه إليهم – سبحانه – نداء رابعا نهاهم فيه عن الخلط بين الحق والباطل وعن كتمان الحق بعد أن نهاهم قبل ذلك عن الكفر بالآيات فقال – تعالى – : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٠ .

أى : يا أهل الكتاب لماذا تخلطون الحق الواضح الذى نطقت به الكتب السماوية والعقول السليمة ، بالباطل الذى تخترعونه من عند أنفسكم إرضاء لأهوائكم ؟

وفى تكرير النداء والاستفهام زيادة فى توبيخهم ولإنكار ما هم عليه ، والتهوين من شأنهم ، ذلك لأنهم جمعوا أفحش أنواع الرذائل التى على رأسها كفرهم بآيات الله وخلطهم الحق بالباطل وكتمان الحق عمن يريده .

ولدعاة الضلالة طريقتان فى إغواء الناس .

إحداهما : طريقة خلط الحق بالباطل حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر ، وهى المشار إليها بقوله - تعالى : ﴿ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ .

والثانية : طريقة جحد الحق وإخفائه حتى لا يظهر ، وهى المشار إليها بقوله - تعالى - : ﴿ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ ﴾ .

وقد استعمل أهل الكتاب الطريقتين لصرف الناس عن الإسلام ، فقد كان بعضهم يؤول نصوص كتبهم الدالة على صدق النبى ﷺ تأويلا فاسدًا يخلط فيه الحق بالباطل ليوهموا الناس أنه ليس هو النبى المنتظر ، وكان بعضهم يلقى حول الحق شبها ليوقع ضعفاء الإيمان فى حيرة وتردد ، وكان بعضهم يخفى أو يحذف النصوص الدالة على صدق النبى ﷺ أو التى لا توافق أهواءهم .

وقول : ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة حالية . أى : وأنتم تعلمون أن ما أخفيتمون وما لبستموه هو الحق ، أو وأنتم من ذوى العلم ولا يناسب من كان كذلك أن يكتم الحق ويخلطه بالباطل ، وإذا كان هذا الفعل يعد من كبائر الذنوب حتى ولو وقع من شخص عادى فإن وقعه يكون أقبح وفساده أكبر وعاقبته أشأم متى صدر من عالم فاهم يميز بين الحق والباطل .

ومن كل ما تقدم يتبين لنا كيف أن القرآن الكريم قد قص علينا ألوانا من شبهات أهل الكتاب ، ورد عليهم بما يبطل هذه الشبهات بالمنطق الصحيح ، وبالحوار السليم الذى يقنع العقول ، ويزيد أهل الحق ثباتا على ثباتهم ، وإيمانا على إيمانهم .

* * *

هذه نماذج محددة من المحاورات التى حدثت مع أهل الكتاب كما حكاها القرآن الكريم ، أما المحاورات التى دارت مع بنى إسرائيل بصفة خاصة فما أكثرها ، وقد حكاها القرآن فى عشرات الآيات ، وسنكتفى هنا - أيضا - بالآيات التى فيها مادة «القول» وما اشتق منها ، كقالوا ، وقل . . . ومن ذلك .

(ا) دعواهم أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة ورد القرآن عليهم ردًا يدحض مزاعمهم . قال - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) ﴾ [البقرة: ٨٠ - ٨٢] .

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات آثارا منها ما جاء عن ابن عباس أن اليهود كانوا يقولون إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوما فى النار ، وإنما هى سبعة أيام معدودة ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات .

وفى رواية أنهم قالوا : لن يدخلنا الله النار الا نخلة القسم ، الأيام التى عبدنا فيها العجل وهى أربعون يوما ، فإذا انقضت هذه الأيام ارتفع عنا العذاب والقسم .

والمعنى : وقالت اليهود - يامحمد- إن النار لن تصيبنا فى الآخرة إلا مدة يسيرة قد تكون سبعة أيام وقد تكون أربعين يوما ، وبعدها نخرج إلى الجنة . . .

قل لهم - أيها الرسول الكريم - : إن مثل هذا الإخبار الجازم بأن النار لن تمسكم إلا أياما معدودة لا يكون إلا ممن اتخذ عهدا من الله بذلك ، فإن كان عندكم هذا العهد فأخرجوه لنا وأطلعونا عليه ، لأن الله - تعالى - لا يخلف عهده .

وما دام قد ثبت أنه لا عهد عندكم بذلك لا فى كتبكم ولا فى غير كتبكم ، وأن كلامكم هذا تنبذه العقول السليمة ، فأنتم تقولون على الله - تعالى - قولا لا أساس له من الصدق .

واعلموا أن من أشرك بالله - تعالى - وأصر على ارتكاب الذنوب والآثام ، فهو من أهل النار يوم القيامة وسيخلد فيها . أما من آمن وقدم العمل الصالح فى دنياه فأولئك هم أصحاب الجنة وهم فيها خالدون خلودًا أبديا .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها في ردها على اليهود وفى محاوراتها لهم و قد ساقت لهم ما يدل على كذبهم من واقع كتبهم ، كما ساقت لهم مايدل على كذبهم - أيضا - من واقع ماتحكم به العقول الانسانية ، لأنهم مادام لم يوجد عندهم عهد من الله بذلك - ولن يوجد - فهم كاذبون ، كما ساقت القاعدة العامة لمن هم أهل للنار ولمن هم أهل للجنة بأسلوب يقنع كل ذى عقل سليم .

(ب) دعواهم أن قلوبهم غلف والرد عليهم ، وقد حكى القرآن عنهم هذا الزعم فى آيات منها قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾ [البقرة : ٨٨]

ولفظ ﴿ غُلْفٌ ﴾ جمع أغلف ، وهو الشىء الذى جعل له غلاف يحجبه عن التأثر ، ومنه قيل للقلب الذى لايعى ولا يفهم قلب أغلف .

أى : وقال اليهود للنبى ﷺ عندما كان يدعوهم إلى إخلاص العبادة الله - تعالى - وحده ، وإلى الإيمان بما جاء به من عند ربه ، قالوا له : إن قلوبنا مغطاة بأغطية حسية ومعنوية مانعة من نفوذ ما جئت به إليها .

ومقصدهم من ذلك : إقناطه ﷺ من الاستجابة لدعوته حتى لايعيد عليهم الدعوة من بعد . وقد رد الله - تعالى - على زعمهم هذا بما يدحضه ويفضحه فقال : ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إن قلوبهم ليست غلفا - كما يدعون - بل هى متمكنة بأصل فطرتها من قبول الحق ، ولكن الله - تعالى - أبعدهم من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء ، وقتلهم لرسلهم ، واستحبابهم العمى على الهدى ، فصاروا لايؤمنون إلا إيمانا قليلا لا يغنى من عذاب الله شيئا .

(جـ) دعواهم أنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل عليهم ورد القرآن عليهم فى هذه الدعوى الباطلة ، ومن الآيات التى صرحت بذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣) ﴾ [البقرة : ٩١ - ٩٣] .

ومعنى الآيات الكريمة إجمالا : أن اليهود المعاصرين للنبى ﷺ كانوا إذا عرض عليهم النبى ﷺ الإيمان به وبالقرآن الكريم ردوا عليه بقولهم : لن نؤمن بك يا محمد ولا بالقرآن الذى نزل عليك ، وإنما نؤمن فقط بالكتاب الذى نزل على نبينا موسى وهو التوراة ، ونكفر بكل كتاب جاء من بعد هذا الكتاب مثل القرآن وغيره .

وهنا أمر الله – تعالى – نبيه محمدا ﷺ أن يرد على كذبهم فى دعواهم بجملة من الردود التى تكبتهم . أمره أن يقول لهم : لوكنتم مؤمنين حقا بالتوراة التى أنزلها الله - تعالى – على نبيكم موسى – عليه السلام – كما تزعمون ، فلماذا قتلتم الأنبياء الذين جاؤا لهدايتكم مع أن التوراة تنهاكم عن قتلهم ؟

ولماذا عبدتم العجل فى الأيام التى فارقكم فيها لتلقى التوراة من ربه ، مع أنه قد نهاكم عن ذلك ، ولكنكم خالفتموه وأحببتم عبادة العجل حبا خالط قلوبكم ودماءكم ومشاعركم؟!! ومع أن التوراة التى تزعمون إيمانكم بها تنهاكم –أيضا – عن عبادة العجل .

ولماذا نقضتم العهود والمواثيق التى أخذناها عليكم وأمرناكم فيها أن تطيعوا أنبياءكم وأن تعملوا بما فى التوراة من هدايات وإرشادات ، ورفعنا فوقكم الطور لنريكم معجزة من معجزاتنا الدالة على قدرتنا ، وقلنا لكم خذوا ما أعطيناكم من علم نافع بجد ونشاط ، ولكنكم يامن تزعمون الإيمان بما أنزل عليكم ، خالفتم ما أنزل عليكم وهو التوراة ، وقلتم لنبيكم سمعنا قولك وعصينا أمرك ، فهل كل هذه المخالفات وما ترتب عليها من قبائح وفواحش أمرتكم بها التوارة التى تزعمون أنكم تؤمنون بها ؟

لاشك أن أفعالكم هذه تدل دلالة قاطعة على أنكم لم تؤمنوا بما أنزل عليكم ، ولم تؤمنوا – أيضا – بأى كتاب سماوى نزل على نبى من الأنبياء ، ودعواكم أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم دعوى كاذبة ينفيها واقعكم الملطخ بالذنوب والآثام وبنقض العهود والمواثيق ، وبعبادتكم لحيوان يضرب به المثل فى البلادة والغباوة . وبئس الإيمان إيمانكم الذى يأمركم بعبادة غير الله ، وبقتلكم لأنبيائه ، وبنقضكم لعهوده ومواثيقه . . .

فأنت ترى من هذه المحاورة التى أمر الله – تعالى – رسوله ﷺ أن يرد بها على اليهود الذين زعموا أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم ، ما يبطل هذا الزعم من عدة وجوه ، وهى : قتلهم للأنبياء وعبادتهم للعجل ونقضهم للعهود والمواثيق وقولهم لمن نصحهم سمعنا قولك وعصينا أمرك ، وهذه رذائل تنهى عنها التوراة التى زعموا أنهم يؤمنون بها دون غيرها

وقوله – سبحانه – فى ختام هذه الآيات : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ : إبطال مجمل لقولهم : ﴿ نؤمن بما أنزل إليك ﴾ بعد أن أبطله – سبحانه – بشواهد متعددة ، لأنهم لمازعموا ذلك ، وكانوا مع هذا يفعلون أفعالا قبيحة تناقض الإيمان بكل كتاب سماوى ، أمر الله تعالى – رسوله ﷺ أن يذمهم على هذه الأفعال التي تناقض الإيمان بما أنزل عليهم ، لكى يعلم الناس جميعا أن دعواهم لا أساس لها من الصحة .

وأضاف – سبحانه – الإيمان إليهم فقال : ﴿ إيمانكم ﴾ ولم يقل الإيمان ، لأنه ليس إيمانا صحيحا وانما هو إيمان مزعوم . فإضافة الإيمان إليهم من باب التهكم بهم والاستهزاء بعقولهم . وقوله : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ تشكيك فى إيمانهم بالتوارة ، وقدح فى صحة دعواهم ، فإن الإيمان الحق إنما يأمر بعبادة الله – تعالى – وحده ، وينهى عن عبادة سواه ، وعن ارتكاب السوء والفحشاء .

فالجملة الكريمة فى معنى النفى لادعائهم الإيمان بالتوراة ، لأنها ما أمرت بشىء يبغضه الله – تعالى – وإنما أمرتهم بإخلاص العبادة لخالقهم ، وبالطاعة لأنبيائه ، وبالوفاء بالعهود والمواثيق .

هذا ولفضيلة أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز كلام رصين عند حديثه عن هذه الآيات ، فقد قال – رحمه الله – :

يقول الله تعالى فى ذكر حجاج اليهود : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

هذا قطعة من فصل من قصة بنى إسرائيل ، والعناصر الأصلية التى تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فيما يلى :

١ – مقالة ينصح بها الناصح لليهود : إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن .

٢ – إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوى على مقصدين .

٣ – الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه .

وأقسم لو أن محاميًا بليغًا وكلت إليه الخصومة بلسان القرآن فى هذه القضية ، ثم هدى إلى استنباط هذه المعانى التى تختلج في نفس الداعى والمدعو لما وسعه فى أدائها أضعاف هذه الكلمات ، ولعله بعد ذلك لا يفى ما حولها من إشارات واحتراسات وآداب وأخلاق

قال الناصح لليهود : آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة ، ألستم قد آمنتم بالتوراة التى جاء بها موسى لأنها أنزلها الله ؟ فالقرآن الذى جاء به محمد ﷺ أنزله الله ، فآمنوا به كما آمنتم بها .

فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير فى هذا اللفظ الوجيز ﴿ آمنوا بما أنزل الله ﴾ . وسر ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنايته . فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشىء بحجته ، وبذلك أخرج الدليل والدعوى فى لفظ واحد .

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه فلم يقل : آمنوا بما أنزل الله (على محمد) ، مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة .

أتدرى لم ذلك ؟ لأنه لو ذكر لكان فى نظر الحكمة البيانية زائدًا ، وفى نظر الحكمة الإرشادية مفسدًا .

أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها فى الإلزام ، فأدير الأمر على القدر المشترك وعلى الحد الأوسط الذى هو عمود الدليل .

وأما الثانى فلأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم ويثير أحقادهم فيؤدى إلى عكس ماقصده الداعى من التأليف والإصلاح . . .

كان جواب اليهود أن قالوا : إن الذى دعانا للإيمان بالتوارة ليس هو كونها أنزلها الله فحسب ، بل آمنا بها لأن الله أنزلها علينا . والقرآن لم ينزله علينا ، فلكم قرآنكم ولنا توراتنا ، ولكل أمة شرعة ومنهاج .

هذا هو المعنى الذى أوجزه القرآن فى قوله : ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ وهذا هو المقصد الأول ، وقد زاد هذه العبارة أن حذف منها فاعل الإنزال وهو لفظ الجلالة ، لأنه تقدم ذكره فى نظيرتها .

ومن البين أن اقتصارهم على الإيمان بما أنزل عليهم يومىء إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم ، وهذا هو القصد الثانى ، ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر ، فأراد القرآن أن يبرزه ، انظر كيف أبرزه ؟ إنه لم يجعل

لازم مذهبهم مذهبًا له ولم يدخل مضمون قولهم فى جملة ما نقله من كلامهم ، بل أخرجه فى معرض الشرح والتعليق على مقالتهم فقال :

﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ أليس ذلك هو غاية الأمانة فى النقل ؟ . . ثم جاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه .

فتراه لايبدأ بمحاورتهم فى دعوى إيمانهم بكتابهم ، بل يتركها مؤقتًا كأنها مسلمة ليس عليهم وجوب الإيمان بغيره من الكتب فيقول : كيف يكون الإيمان بكتابهم باعثًا على الكفر بما هو حق مثله ؟ لا بل هو الحق كله ، وهل يعارض الحق الحق حتى يكون الإيمان بأحدهما موجبا للكفر بالآخر ؟

ثم يترقى فيقول : وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السالفة عليه كالأمر بين كل حق وحق ، فقد يكون الشىء حقًا وغيره حقًا فلا يتكاذبان ، ولكنهما فى شأنين مختلفين ، فلا يشهد بعضها لبعض ، أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهدًا ومصدقًا لما بين يديه من الكتب ، فكيف يكذب به من يؤمن بها .

فانظر إلى الإحكام فى صنعة البيان : إنما هى كلمة رفعت وأخرى وضعت فى مكانها عند الحاجة إليها ، فكانت هذه الكلمة حسما لكل عذر ، وسدًا لكل باب من أبواب الهرب ، بل كانت هذه الكلمة وحدها بمثابة حركة تطويق للخصم تمت خطوة واحدة ، وفى غير ما جلبة ولا طنطنة .

ولما قضى وطر النفس من هذا الجانب المطوى الذى ساقه مساق الاعتراض والاستطراد ، استوى الى الرد على المقصد الأصلى الذى تبجحوا بإعلانه والافتخار به ، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم ، فأوسعهم إكذابًا وتفنيدًا . وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم ، قد أشربوه فى قلوبهم ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضًا مزمنًا وأن الذى أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم ، وساق على ذلك الشواهد التاريخية المفظعة التى لا سبيل لإنكارها فى جهلهم بالله ، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه ، وتمردهم على أوامره ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له فى آخر المرحلة السابقة ، إذ يفهم السامع من تكذيبهم لما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين لكتابهم نفسه ، وهل الذى يكذب من يصدقك يبقى مصدقًا لك ؟؟ . . .

ثم انظر بعد أن سجل القرآن على بنى إسرائيل أفحش الفحش وهو وضعهم البقر الذى هو مثل فى البلادة موضوع المعبود الأقدس ، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم فى تأبيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة . بعد كل ذلك تراه لا يزيد على أن يقول فى أول الأمر : إن هذا «ظلم» ، وفى الثانية (بئسما) صنعتم ، أذلك كل ما تقابل به هذه الشناعات؟ نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجههما ، ولكن أين حدة الألم وحرارة الاندفاع فى الانتقام؟ بل أين الإقذاع والتشنيع؟ وأين الإسراف والفجور الذى تراه فى كلام الناس ، إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم .

تالله ما أعف هذه الخصومة وما أعز هذا الجناب ، وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين ، وتالله إن هذا الكلام لا يصدر عن نفس بشر»[1] .

(د) دعواهم أن الدار الآخرة خالصة لهم دون سائر الناس ، ورد القرآن عليهم فى ذلك فى آيات متعددة ، منها قوله – تعالى – : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾ [البقرة : ٩٤ – ٩٦] .

ومعنى الآيات الكريمة إجمالا :

قل – يامحمد – لأولئك اليهود الذين ادعوا أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا : إن كانت الجنة مختصة بكم وسالمة لكم دون غيركم ، وليس لأحد سواكم فيها حق ؛ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين فى دعواكم ، لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وأحب الوصول إليها .

---

(١) عن كتاب ﴿النبأ العظيم﴾ من ص ١١٤ :ص١٢٢ لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله دراز .

ثم أخبر الله أن هذا التمنى لن يحصل فقال : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ أى الموت ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى بسبب ما ارتكبوه من كفر ومعصية ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ الذين وضعوا الأمور فى غير موضعها ، فادعوا ما ليس لهم ، ونفوه عمن هو لهم .

ثم أخبر القرآن بأن حرصهم على الحياة لا نظير له ولا مثيل فقال : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ متطاولة ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ أى : وأحرص عليها - أيضًا - من الذين أشركوا الذين لا يعرفون إلا الحياة الدنيا ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ أى : يتمنى الواحد من هؤلاء اليهود أن يعيش السنين الكثيرة ولو تجاوزت الحدود المعقولة لعمر الإنسان والحال أنه ما أحد منهم بمزحزحه ومنجيه تعميره من العذاب ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : لا يخفى عليه أعمالهم ، فهو محاسبهم عليها ، ومجازيهم بما يستحقونه من عقاب .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ رد على زعمهم الباطل أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودًا ، والمراد بالدار الآخرة : الجنة ونعيمها ، ومعنى ﴿ خالصة ﴾ سالمة لكم مختصة بكم ، لا يشارككم فيها أحد من الناس .

قال الإمام ابن جرير : «يقال : خلص لى فلان بمعنى صار لى وحدى وصفا لى ، ويقال منه خلص هذا الشىء فهو يخلص خلوصًا وخالصة ، والخالصة مصدر مثل العافية . .»[1] .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ التمنى هو ارتياح النفس ورغبتها القوية فى الشىء . بحيث توده وتحب المصير إليه ، وهو يستعمل فى المعنى القائم بالقلب كما بينا ، ويستعمل فى اللفظ الدال على هذا المعنى ، كأن يقول الإنسان بلسانه ، ليتنى أحصل على كذا .

والاستعمال الثانى هو المراد بقوله تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ أى : اذكروا بألسنتكم لفظًا يدل على أنكم تحبون الموت وترغبون فيه . وإنما قلنا إن ذلك هو المراد من

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٤٢٦ .

الآية لأن المعنى الكائن بالقلب لا يعرفه أحد سوى الله - تعالى - والتحدى لا يقع بتحصيل المعانى القائمة بالضمائر والقلوب .

ومعنى الآية الكريمة . قل يا محمد لليهود : إن كانت الجنة خاصة بكم ، ولا منازع لكم فيها ولا مزاحم كما تزعمون ، فتمنوا الموت بألسنتكم لكى تظفروا بنعيمها الدائم ، إن كنتم صادقين فى دعواكم أنها خالصة لكم ، وإلا فإنكم لا تكونون صادقين فى دعواكم ، إذ لا يعقل أن يرغب الإنسان عن السعادة المحضة الدائمة المضمونة له فى الآخرة ، إلى سعادة ممزوجة بالشقاء فى الدنيا .

قال الإمام الرازى : (وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالقياس إلى نعم الآخرة . ثم إن نعم الدنيا على قلتها كانت منغصة عليهم بسبب ظهور محمد ﷺ ومنازعته معهم ، بالجدال والقتال ، ومن كان فى النعم القليلة المنغصة . ثم تيقن أنه بعد الموت لابد أن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة ، فإنه لابد أن يكون راغبًا فى الموت ، لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة ولا سبيل إليها إلا بالموت ، وحيث كان الموت يتوقف عليه المطلوب وجب أن يكون هذا الإنسان راضيًا بالموت ، متمنيًا له ، فثبت أن الدار الآخرة لو كانت خالصة لهم ، لوجب أن يتمنوا الموت . ثم إن الله - تعالى - أخبر أنهم ماتمنوا الموت ، بل لن يتمنوه أبدًا ، وحينئذ يلزم قطعًا بطلان ادعائها فى قولهم : «إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس»[1] .

وتحديهم بتمنى الموت يكون بأن يقولوا بألسنتهم ليتنا نموت ، أو يقولوا ما فى معنى هذه الكلمة كما أشرنا إلى ذلك سابقًا ، وهذا رأى جمهور المفسرين .

وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن ذلك يكون عن طريق المباهلة ، بأن يحضروا مع المؤمنين فى صعيد واحد ، ثم يدعو الفريقان بالموت على الكاذب منهما .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ الذى نطقت به الآية وأقرب أيضًا إلى معناها . إذ ليس فى الآية إشارة ما إلى طلب المباهلة ، والقرآن حينما دعا إليها نصارى نجران ، جاء اللفظ بها صريحًا فى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) ﴾ [آل عمران : ٦١] .

(١) تفسير الرازى جـ ١ ص ٤٣٣ .
(٢) آل عمران الآية ٦١ .

ثم أخبر – سبحانه – بأن هؤلاء اليهود لن يتمنوا الموت أبدًا بسبب مافعلوا من شرور فقال تعالى : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

أى : لا يتمنى اليهود الموت أبدًا بسبب ماقدمت أيدهم من آثام ، والله – عز وجل – لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتداءاتهم بل هو يسجلها عليهم ، ويجازيهم عليها الجزاء الذى يستحقونه ، والآية الكريمة خبر من الله – تعالى – عن اليهود بأنهم يكرهون الموت ، ويمتنعون عن الإجابة إلى مادعوا إليه من تمنيه ، لعلمهم بأنهم إن فعلوا فالموت نازل بهم ، وذلك لأن رسول الله ﷺ لم يخبرهم خبرًا إلا كان حقًا كما أخبر ، فهم يحذرون أن يتمنوا الموت ، خوفًا من أن يحل بهم عقاب الله بما كسبت أيديهم من الذنوب .

وقد صح من عدة طرق عن ابن عباس أن قال : «لوتمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه» .

وقال ابن جرير فى تفسيره : «وبلغنا أن النبى ﷺ قال : «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ؛ ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا» قال حدثنا بذلك أبو كريب ، حدثنا زكريا بن عدى ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ[1] .

وقال الإمام ابن كثير : ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن يزيد الرقى حدثنا فرات عن عبد الكريم به»[2] .

وقال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ من المعجزات لأنه إخبار بالغيب وكان كما أخبر به ، كقوله تعالى : ﴿ ولن تفعلوا ﴾ فإن قلت : ما أدراك أنهم لم يتمنوا الموت : قلت لو تمنوا لنقل ذلك عنهم كما نقلت سائر الحوادث ، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن فى الإسلام أكثر من الذر وليس أحد منهم نقل عنه ذلك»[3] .

ويكفى في تحقيق هذه المعجزة ، ألا يصدر تمنى الموت عن اليهود الذين تحداهم النبى ﷺ بذلك ، وهم الذين كانوا يضعون العراقيل فى طريق دعوته ، ويصرون على جحود نبوته ؛ فلا يقدح فى هذه المعجزة أن ينطق يهودى بعد العهد النبوى بتمنى

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٤٢٧ . (٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٤٢٧ .
(٣) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٢٥ .

الموت وهو حريص على الحياة ، لأن المعنيين بالتحدى هم اليهود المعاصرون للعهد النبوى .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وارد مورد التهديد والوعيد لهم وكان اليهود ظالمين بسبب ماقدمت أيديهم وبسبب كونهم قد كذبوا على الله فى دعواهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان منهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بأن هؤلاء اليهود الذين يزعمون أن الجنة خالصة لهم فى غاية الحرص على الحياة فقال تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ومعنى الآية الكريمة : ولتجدن - يامحمد - أولئك اليهود - الذين يزعمون أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس - لتجدنهم أحب الناس للحياة ، وأحرصهم عليها ، وأشدهم كراهية للموت ، وليس ذلك عندما يكونون متمتعين بالطمأنينة والعافية فقط بل هم كذلك حتى ولو زالت عنها كل معانى الراحة والطمأنينة ، فهم أحرص عليها حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث ، والذين يعتبرون نعيمهم الأكبر هو ما يتمتعون به من اللذائذ فى هذه الدنيا ، وهم فى حرصهم على الحياة يتمنون أن تطول أعمارهم دهورًا طويلة ، لا يصل إليها خيال أحد ممن يحرصون عليها كما قال تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ . وبذلك تكون الآية الكريمة قد كذبتهم فى دعواهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس لأن الأمر لو كان كما يزعمون لرحبوا بالانتقال إليها ، ولكنهم لا يحبون الموت ولا يكاد يخطر ببالهم ، ويحرصون كل الحرص على البقاء حتى مع سوء الحالة ورذالة العيش ، كما يشعر بذلك التنكير فى قوله تعالى ﴿ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ .

والمراد بالناس : جميعهم ، وأفعل التفضيل فى «أحرص» على بابه ، لأن الحرص على الحياة غريزة فى البشر إلا أنهم متفاوتون فيه قوة وكيفية وأسبابًا ، كما قال الشاعر :

أرى كلنا يهوى الحياة بسعيه ... حريصًا عليها مستهامًا بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا

فالناس جميعًا وإن كانوا يشتركون مع اليهود فى الحرص على الحياة ، إلا أن اليهود يزيدون على سائر الناس أنهم أحرصهم ، وأنهم من أجل حرصهم عليها يضحون بدينهم وبكرامتهم وبكل شىء .

ونكر - سبحانه - الحياة التى يحرصون عليها ، زيادة فى تحقيرهم ، فكأنه - سبحانه - يقول : إنهم شديدو الحرص على الحياة ، ولوكانت حياة بؤس وشقاء ، وللإشعار بأن ما يهمهم هو مطلق حياة كيفما كانت ، بصرف النظر عن العزة والكرامة ، فمن أمثال اليهود المشهورة «الحياة وكفى» .

ولا شك أن شدة التهالك على الحياة ، تؤدى إلى الجبن ، واحتمال الضيم ، وتجعل الأمة التى تنتشر فيها هذه الرذيلة لا تفرق بين الحياة الكريمة والحياة الذليلة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ عطف على الناس ، لأنه لما كان قوله تعالى : ﴿ أَحْرَصَ النَّاسِ ﴾ فى معنى : أحرص من جميع الناس صح أن يراعى المعنى ، فيكون قوله : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ معطوف عليه ، فيكون المعنى : أحرص من جميع الناس ، وأحرص من الذين أشركوا على الحياة .

والذين أشركوا ، هم الذين جعلوا لله شركاء وإنما أفردوا بالذكر مع أنهم من الناس ، مبالغة فى توبيخ اليهود وذمهم ، لأنهم إذا زاد حرصهم على الحياة - وهم أهل كتاب - على المشركين الذين لا كتاب لهم ولا يدينون ببعث أو نشور كان ذلك دليلا على هوان نفوسهم ، وابتذال كرامتهم وعدم اعتدادهم بوصايا كتبهم التى تنهاهم عن الحرص على الحياة الذليلة .

قال صاحب الكشاف : «وفيه توبيخ عظيم ، لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا ، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم ، فإذا زاد عليها فى الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء ، كان حقيقًا بأعظم التوبيخ ، فإن قلت : لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلت : لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك»[1] .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر حرصهم على الحياة فقال -تعالى- : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ أى يتمنى الواحد منهم أن يعيش دهورًا كثيرة ، ليس من عادة الناس أن يحبوا بلوغها ، لأنها تؤدى بهم إلى أرذل العمر ، وعدم طيب العيش .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٣٥ .

فالجملة الكريمة مستأنفة لإظهار مغالاتهم فى التهالك على الدنيا ولتحقيق عموم النوعية فى الحياة المنكرة ، ولدفع ما يظنه بعض الناس من أن حرصهم على الحياة مهما اشتد فلن يصل بهم إلى تمنى أن يعيش الواحد منهم ألف عام ، أو أكثر ، فجىء بهذه الجملة الكريمة . لتحقيق أن تعلقهم بالدنيا يشمل حتى هذه السن المتطاولة ، التى لا هناء فيها ولا راحة ، والتى استعاذ من بلوغها المؤمنون .

ثم بين - سبحانه - أن تعميرهم الطويل لن ينجيهم من العقوبة ، لأن الموت لا يتركهم مهما طال عمرهم ، فقال -تعالى- : ﴿ وما هو بِمزحزحِه مِن الْعَذَابِ أن يُعَمَّرَ ﴾ أى : وما أحد منهم بمبعده تعميره عن العذاب المعد له ، ولا بمنجيه منه .

والجملة الكريمة فيها بيان مصيرهم المحتوم ، وقطع لحبال مطامعهم ، لأن الموت سيلحقهم مهما بلغ عمرهم ، وسيلقون جزاءهم على سوء صنيعهم .

وفى التعبير ﴿ بِمُزَحْزِحِه ﴾ إشارة إلى أن طول عمرهم ، ليس له أى أثر فى تخفيف العذاب عنهم ، وقوله : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ تهديد ووعيد لهم لأنه - سبحانه - عليم بأعمالهم ، محيط بما يخفون وما يعلنون ، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون .

ومن هذا العرض للآيات الكريمة نرى أنها حاورت اليهود بأسلوب منطقى يخرسهم ، وردت عليهم فى دعواهم أن الجنة خالصة لهم ، ردًا يبطل حجتهم ، ويفضح مزاعمهم ، ويكبت نفوسهم ، ويخرس ألسنتهم ، ويعلن أن الجنة إنما هى لمن أسلم وجهه لله وهو محسن ، وهم ليسوا من هذا النوع من الناس ولذا حرصوا على الحياة وفزعوا من الموت ، لأنهم يعلمون أن من ورائهم النار وبئس القرار بسبب ما ارتكبوا من سيئات ، واقترفوا من أكاذيب .

وشبيه بهذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [الجمعة : ٥ - ٧] .

(هـ) إعلانهم العداوة لجبريل - عليه السلام - ، ورد القرآن الكريم عليهم ، فى

قوله- تعالى- : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨) ﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨] .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها ما أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس أن اليهود بعد أن سألوا النبى ﷺ أسئلة أجابهم عنها ، قالوا صدقت ، فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجالسك أو نفارقك . قال : وليى جبريل لم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه . قالوا : فعندها نفارقك ولو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك . قال : فما يمنعكم من أن تصدقوه ؟ قالوا : إنه عدونا . فأنزل الله – تعالى – هاتين الآيتين .

وقال الإمام ابن جرير : أجمع أهل العلم بالتأويل جميعا على أن هاتين الآيتين نزلتا جوابا ليهود بنى إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وميكائيل ولى لهم»[1] .

ومعنى الآيتين الكريمتين : قل – يا محمد – لهؤلاء الذين أعلنوا عدواتهم لجبريل أنه لا وجه لعدواته ، لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه ، وإنما نزل به على قلبك بإذن الله وأمره ، ليكون مؤيدا لما نزل قبله من الكتب السماوية ، وليكون هداية إلى طريق السعادة ، وليكون بشارة للمؤمنين .

وقل لهم كذلك من كان معاديا لله – تعالى – بأن كفر به وعبد غيره ، وكان معاديًا لملائكته بأن أنكر فضلهم ، وعصمتهم ، وكان معاديا لرسلة بأن كذبهم وخالفهم ، وكان معاديا لجبريل ولميكائيل ، من كان كذلك فإن الله – تعالى – عدو له ولكل من كان على شاكلته فى الكفر والعناد والجحود .

وقد أفرد – سبحانه – جبريل وميكال بالذكر مع أنهما من جملة الملائكة ، لتصريح اليهود بعدا وة جبريل وتعظيم ميكائيل ، فأفردهما بالذكر للتنبيه على أن المعاداة لأحدهما معاداة للجميع ، وأن الكفر بأحدهما كفر بالآخر .

وهكذا نرى الآيتين الكريمتين قد دفعتا اليهود بالكفر والجهالة ، لأنهم أعلنوا العداوة لملك من الملائكة الكرام وهو جبريل ، دون أن يكون هناك سبب لها ، أو باعث عليها سوى الحسد والغباء .

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٤٣١ .

(ح) دعواهم أنهم ليس عليهم فى الأميين سبيل ، ورد القرآن عليهم ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) ﴾ [آل عمران : ٧٥ ، ٧٦] .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها ما جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : أودع رجل عند عبد الله بن سلام ألفا ومائتى أوقية من ذهب فأداها إليه ، وأودع رجل عند فنحاص بن عازوراء اليهودى دينارا فخانه فنزلت هاتان الآيتان . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : بايع اليهود رجالا من المسلمين فى الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم عن بيوعهم . فقال اليهود : ليس علينا أمانة ولا قضاء لكم عندنا لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم .

وقال الكلبى : قالت اليهود : الأموال كانت كلها لنا ، فما فى أيدى العرب منها فهو لنا ، وأنهم ظلمونا وغصبونا ، فلا إثم علينا فى أخذ أموالنا منه .

والمعنى : ومن أهل الكتاب فريق إن تأتمنه على الكثير والنفيس من الأموال يؤده إليك عند طلبه أداء كاملا غير منقوص ، ومنهم فريق آخر إن تأتمنه على القليل والحقيرمن متاع الدنيا لايؤده إليك وإنما يستحله ويجحده ، ولا يرده إليك إلا إذا داوم صاحب الحق على المطالبة به ، واستعمل كل الوسائل فى الحصول عليه .

والسبب فى ذلك أن هذا الفريق الثانى من أهل الكتاب يزعم أنه لاحرج عليه ولا إثم ولا تبعه فى استحلال أموال من ليس على دينه من الأميين العرب الذين لايعرفون القراءة ولا الكتابة .

وهذا الفريق الخائن الغادر يفترى على الله - تعالى - الكذب عندما يقول ذلك ، وهو يعلم أنه كاذب ، لأنه لا يوجد كتاب سماوى أو عقل إنسانى سليم يبيح أكل أموال الناس بالباطل آيا كانت عقيدتهم أو جنسيتهم .

والحق الذى لاشك فيه أن كل من أوفى بعهده واتقى الله - تعالى - فى قوله وفي فعله ، فأولئك هم العقلاء الصادقون الذين يحبهم الله - تعالى - ويرضى عنهم .

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد رد على مازعمه اليهود من أنهم لاحرج عليهم فى أكل

أموال من ليس على دينهم من العرب ، ردا يفضح أكاذيبهم ، يصفهم بتعمد الكذب ، ويبين بأن المستحق لرضا الله ولمحبة الناس هو الذى يؤدى الأمانات إلى أهلها .

ولقد بين لنا النبى ﷺ فى أحاديث متعددة ، أن الأمانة يجب أن تؤدى إلى البار والى الفاجر ، ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير أنه قال : لما نزلت هذه الآية قال النبى ﷺ : «كذب أعداء الله ، مامن شىء كان فى الجاهلية الا وهو تحت قدمى إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البار والفاجر» .

ولقد سارع أتباع النبى ﷺ على مبدأ أداء الأمانة ، وعدم أخذ شىء من الأموال إلا بحقها ، وإلا بوجه مشروع .

قال الإمام ابن كثير : سأل رجل ابن عباس - رضى الله عنهما - : فقال : يابن عباس إننا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة ، الدجاجة والشاة . قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ فقال الرجل : نقول : ليس علينا بذلك بأس . فقال ابن عباس : هذا كما قال أهل الكتاب «ليس علينا فى الأميين سبيل» . إنهم إذا أدوا ما يجب عليهم لم تحل لكم أموالهم إلا عن طيب نفس منهم»[1] .

(ز) قولهم : «إن الله فقير ونحن أغنياء» . وقولهم : «إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار» ، ورد القرآن عليهم ردا ملزما يخزيهم ويفضح أكاذيبهم . قال - تعالى - : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴾ [آل عمران : ١٨١ - ١٨٤]

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : «عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما نزل قوله - تعالى - : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٥]. قالت اليهود : يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض ، فأنزل الله هذه الآية .

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص٣٧٤ .

وروى محمد بن إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق المدراس - أى : البيت الذى يتدارس فيه اليهود علومهم - فوجد من اليهود ناسا كثيرين قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له «فنحاص» وكان من علمائهم وأحبارهم . ومعه حبر يقال له «أشيع» . فقال له أبو بكر : ويحك يافنحاص اتق الله وأسلم فو الله إنك لتعلم أن محمدا رسول من عند الله ، قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل . فقال فنحاص . والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ومانتضرع إليه كما يتضرع الينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم - محمد ﷺ ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا .

فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا ، وقال : والذى نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله . . .

فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ؛ أبصر ما صنع بى صاحبك .

فقال رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : يارسول الله . إن عدو الله قال قولا عظيما . يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء . فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه .

فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذلك . فأنزل الله فيما قال فنحاص : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا . . . ﴾ .

والمعنى : لقد سمع الله - تعالى - قول أولئك اليهود الذين نطقوا بالزور والفحش فزعموا أن الله - تعالى - فقير وهم أغنياء .

والمقصود من هذا السمع لازمه وهو العلم والإحاطة بما يقولون من قبائح ، ثم محاسبتهم على ما تفوهوا به من أقوال ، وما ارتكبوه من أعمال ، ومعاقبتهم على جرائمهم بالعقاب المهين الذى يستحقونه .

وقوله : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أى : سنسجل عليهم فى صحائف أعمالهم قولهم هذا ، كما سنسجل عليهم قتلهم أنبياء الله بغير حق .

أو المعنى : سنحفظه فى علمنا ولا نهمله ، وسنعاقبهم بما يستحقون من عقوبات .

والسين للتأكيد ، أى لن يفوتنا أبدا تدوينه وإثباته ، بل سنسجله عليهم ونعاقبهم عليه عقابا أليما بسبب أقوالهم القبيحة ، وأعمالهم المنكرة .

وقد قرن – سبحانه – قولهم المنكر هذا ، بفعل شنيع من أفعال أسلافهم ، وهو قتلهم الأنبياء بغير حق ؛ وذلك لإثبات أصالتهم فى الشر واستهانتهم بالحقوق الدينية ، وللتنبيه على أن قولهم هذا ليس أول جريمة ارتكبوها ، ومعصية استباحوها ، فقد سبق لأسلافهم أن قتلوا الأنبياء بغير حق ، وللإشعار بأن هاتين الجريمتين من نوع واحد ، وهو التجرؤ على الله – تعالى – ، فقتل الأنبياء هو تعد على أمناء الله فى الأرض الذين اختارهم لتبليغ رسالاته ، وقولهم ﴿ اللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ هو تطاولٌ على ذات الله ، وكذب عليه ، ووصف له بما لا يليق به – سبحانه – وبهذا كله يكونون قد عتوا عتوًا كبيرًا ، وضلوا ضلالا بعيدا .

وأضاف – سبحانه – القتل إلى المعاصرين للعهد النبوى من اليهود ، مع أنه حدث من أسلافهم ؛ لأن هؤلاء المعاصرين كانوا راضين بفعل أسلافهم ولم ينكروه وإن لم يكونوا قد باشروه ، ومن رضى بجريمة قد فعلها غيره فكأنما قد فعلها هو .

وفى الحديث الشريف : «إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها . ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها» .

ووصف – سبحانه – قتلهم للأنبياء بأنه ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ مع أن هذا الإجرام لا يكون بحق أبدا ، للإشارة إلى شناعة أفعالهم ، وضخامة شرورهم ، وأنهم لخبث نفوسهم ، وقسوة قلوبهم لا يبالون أكان فعلهم فى موضعه أم فى غير موضعه .

ثم صرح – سبحانه بالعقوبة بعد أن كنى عنها فقال : ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى : سنجازيهم بما فعلوا ، ونلقى بهم فى جهنم ، مخاطبين إياهم بقولنا : ذوقوا عذاب تلك النار المحرقة التى كنتم بها تكذبون .

ففى الآية الكريمة إيجاز بالحذف دل عليه سياق الكلام .

والذوق حقيقته إدراك المطعومات ، والأصل فيه أن يكون فى أمر مرغوب فى ذوقه وطلبه ، والتعبير به هنا عن ذوق العذاب هو لون من التهكم عليهم ، والاستهزاء بهم كما فى قوله – تعالى – : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ .

ثم صرح – سبحانه – بأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بوقوعهم فى العذاب المحرق فقال : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

أى : ذلك العذاب الشديد الذى حاق بكم – أيها اليهود – بسبب ما قدمته أيديكم

من عمل سيئ ، وما نطقت به أفواهكم من قول منكر ، فقد اقتضت حكمته وعدالته ألا يعذب إلا من يستحق العذاب ، وأنه – سبحانه – لا يظلم عباده مثقال ذرة .

وخصت الأيدى بالذكر ، للدلالة على التمكن من الفعل وإرادته ، ولأن أكثر الأفعال يكون عن طريق البطش بالأيدى ، ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به والاتصال بذاته .

ثم ذكر – سبحانه – رذيلة أخرى من رذائل اليهود فقال : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾ .

والمراد بالوصول جماعة من اليهود منهم كعب بن الأشرف ، وفنحاص بن عازوراء ، وحيى بن أخطب .. وغيرهم ، فقد ذكر جماعة من المفسرين أنهم أتوا النبى ﷺ وقالوا له هذا القول وهو : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا ﴾ ... إلخ .

و ﴿ بِقُرْبَانٍ ﴾ هو ما يتقرب به إلى الله من نعم أو غير ذلك من القربات .

والمعنى : أن عذابنا الأليم سيصيب أولئك اليهود الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، والذين قالوا إن الله أمرنا فى التوراة وأوصانا بأن لا نصدق ونعترف لرسول يدعى الرسالة إلينا من قبل الله – تعالى – حتى يأتينا بقربان يتقرب به إلى الله ، فتنزل نار من السماء فتأكل هذا القربان ، فإذا فعل ذلك كان صادقا فى رسالته .

ومقصدهم من وراء هذا القول الذى حكاه القرآن عنهم ، أن يظهروا أمام الناس بمظهر المحافظين على عهود الله . وأنهم ماتركوا الإيمان بالنبى ﷺ حسدا له ، وإنما تركوا الإيمان به ، لأنه لم يأت بالمعجزات التى أتى بها الأنبياء السابقون ، فهم معذورون إذا لم يؤمنوا به لأنه ليس نبيا صادقا – فى زعمهم – .

ولاشك أن قولهم هذا ظاهر البطلان ، لأن الإتيان بالقربان إذا كان معجزة لرسول لا يستلزم أن يكون معجزة لكل رسول ، إذ أن آيات الله فى إثبات رسالات رسله متعددة النواحى ، مختلفة المناهج ، وكون هذا الإتيان بالقربان الذى تأكله النار معجزة لبعض الرسل لا يستدعى أن يكون معجزة لجميعهم ، ولذا فقد أمر الله – تعالى – رسوله محمدًا ﷺ أن يرد عليهم بما يبطل قولهم فقال : ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

أى : قل لهم يا محمد : ﴿ قد جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي ﴾ كثير عددهم «بالبينات» أى بالحجج الواضحة ، وبالمعجزات الساطعة الدالة على صدقهم ﴿ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ أى وجاءكم هؤلاد الرسل بالقربان الذى تأكله النار ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ بعد أن جاءوكم بتلك المعجزات الباهرة ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى دعواكم أنكم تتبعون الحق ، وتطيعون الرسل متى أتوكم بما يشهد بصدقهم ؟ .

فالجملة الكريمة ترد على هؤلاء اليهود بأبلغ الوجوه التى تثبت كذبهم فيما يدعون ، لأن قتلهم للأنبياء بعد أن جاءوهم بالمعجزات الواضحة الدالة على صدقهم ، دليل على أن هؤلاء اليهود قد بلغوا منتهى الجحود والظلم والعدوان ، وأن دعواهم أن إيمانهم بمحمد ﷺ متوقف على مجيئه بالقربان الذى تأكله النار دعوى كاذبة ، لأن من جاءهم بالقربان كان جزاؤه القتل منهم . . .

قال الفخر الرازى : «وقد بين الله بهذه الدلائل أنهم يطلبون هذه المعجزة لا على سبيل الاسترشاد وإنما على سبيل التعنت . وذلك لأن أسلافهم طلبوا هذه المعجزة من الأنبياء المتقدمين مثل : زكريا ويحيي وعيسى ، فلما أظهروا لهم هذه المعجزة سعوا فى قتلهم بعد أن قابلوهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة . وذلك يدل على أن مطالبهم كانت على سبيل التعنت ؛ إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما سعوا فى قتلهم ، ومتأخرو اليهود راضون بفعل متقدميهم . وهذا يقتضى كونهم متعنتين - أيضا - فى مطالبهم . ولهذا لم يجبهم الله فيها»[1] .

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ .

والبينات : جمع بينة وهى الآيات المبينة للحق ، والأدلة التى يستشهد بها الرسول على أنه صادق فيما يبلغه عن ربه .

والزبر :جمع الزبور - كالرسل والرسول - وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرته ، بمعنى حسنته .

وخص الزبور بالكتاب الذى أنزله الله على داود - عليه السلام - : قال - تعالى- : ﴿ وآتينا داود زبورا ﴾ .

وقيل : الزبر اسم للمواعظ والزواجر من زبرته إذا زجرته .

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٩ ص١٢٢ .

والمعنى : فإن كذبك هؤلاء اليهود يا محمد بعد أن قام الدليل على صدقك وعلى كذبهم وتعنتهم وجحودهم ، فلا تيأس ولا تحزن ، فإن الأنبياء من قبلك قد قوبلوا بالتكذيب من أقوامهم بعد أن جاءوهم بالدلائل الواضحة الدالة على صدقهم ، وبعد أن جاءوهم بالكتب الموصى بها من عند خالقهم لوعظ الناس وزجرهم ، وبعد أن جاءوهم بالكتاب الواضح المستنير المشتمل على سعادة الناس فى دنياهم وآخرتهم .

فالآية الكريمة مسوقة لتسلية الرسول ﷺ ، وللتخفيف عنه مما يلقاه من الجاحدين والمكذبين والآيات الكريمة فيها الرد الملزم والمبطل لمزاعم القائلين إن الله فقير ونحن أغنياء ، وإن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربات نتقرب بها إلى الله فتنزل نار من السماء فتحرقها ، وإن قولهم هذا ليدل على توغلهم فى الكفر والجحود والكذب وسوء الأدب .

(ح) دعواهم أن يد الله - تعالى - مغلولة ، ورد القرآن عليهم ردا يكبتهم ويجعلهم محل احتقار العقلاء وازدرائهم ، وذلك فى قوله - عز وجل - : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) ﴾ [المائدة : ٦٤] .

وقد ذكر المفسرون فى سبيل نزول هذه الآية روايات منها ما جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رجلا من اليهود يقال له شاس بن قيس قال للنبى ﷺ : يا محمد ، إن ربك بخيل لا ينفق ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية[1] .

وقد أضاف - سبحانه - هذا القول السيىء إلى اليهود جميعا ، لأنهم لم ينكروا على القائل ما قاله ورضوا به .

وقال عكرمة : إنما قال هذا القول فنحاص بن عازوراء وأصحابه ، فقد كانت لهم أموال فلما كفروا بالنبى ﷺ قل مالهم فقالوا ماقالوا .

وقيل : إنهم لما رأوا النبى ﷺ فى فقر وقلة مال وسمعوا قوله - تعالى - ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا . . ﴾ قالوا : إن إله محمد بخيل .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٧٤

وقوله - تعالى - حكاية عنهم : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ إخبار من الله عن جراءة اليهود عليه - سبحانه - وسوء أدبهم معه ، وتوبيخ لهم على جحودهم نعمه التى لا تحصى .

وأرادوا بقولهم : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ : أنه - سبحانه - بخيل عليهم ، ممسك خيره عنهم ، مانع فضله عن أن يصل إليهم ، حابس عطاءه عن الاتساع لهم ، كالمغلولة يده الذى لا يقدر أن يبسطها بعطاء ولا بذل معروف .

وليس المراد باليد هنا الجارحة المعروفة بهذا الاسم ، لأن الله - تعالى - منزه عن مشابهة الحوادث . وإنما غل اليد وبسطها مجاز مشهور عن التقتير والعطاء .

والسبب فيه أن اليد آلة لأكثر الأعمال ، لا سيما فى دفع المال وإنفاقه . فأطلقوا اسم السبب على المسبب ، وأسندوا الجود والبخل إلى اليد والكف فقيل للجواد فياض اليد ، مبسوط الكف ، وقيل للبخيل : مقبوض اليد ، كز الكف .

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف بقوله : «غُلُّ اليد وبسطُها مجاز عن البخل والجود ، ومنه قوله - تعالى - ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط . ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازا عنه ، لأنهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة ، حتى إنه يستعمله فى مَلِك لا يعطى عطاء قط ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وقبضها وبسطها . ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا : ما أبسط يده بالنوال ، لأن بسط اليد وقبضها عبارتان معاقبتان البخل والجود . وقد استعملوهما حيث لا تصح اليد كقول القائل :

جاد الحمى بسط اليدين بوابل ... شكرت نداه تلاعه ووهاده

ويقال : بسط اليأس كفيه فى صدرى ، فجعلت لليأس الذى هو من المعانى لا من الأعيان كفين .

وقد علق صاحب الانتصاف على قول صاحب الكشاف «غل اليد وبسطها مجاز» فقال : والنكتة فى استعمال هذا المجاز تصوير الحقيقة المعنوية بصورة حسية تلزمها غالبا ، وهى بسط اليد للجود وقبضها للبخل ، ولا شىء أثبت من الصور الحسية فى الذهن ، فلما كان الجود والبخل معنيين لا يدر كان بالحس . عبر عنهما بلازمهما لفائدة الإيضاح والانتقال من المعنويات إلى المحسوسات»[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٦٥٥ .

وقوله : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ دعاء عليهم بالشح المرير والبخل الشنيع بأن يخلق - سبحانه - فيهم الشح الذى يجعلهم منبوذين من الناس ومن ثم كان اليهود أبخل خلق الله ، وحكم عليهم بالطرد من رحمة الله - تعالى - بسبب سوء أدبهم معه - سبحانه - وجحودهم لنعمه .

وهذه الجملة تعليم من الله لنا بأن ندعو على من فسدت قلوبهم ، وأساءوا الأدب مع خالقهم ورازقهم ، فقالوا فى شأنه ماهو منزه عنه : ﴿ تَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً ﴾ .

قال الآلوسى ما ملخصه : «ويجوز أن يكون المراد بغل الأيدى الحقيقة ، بأن يغلوا فى الدنيا أسارى - وفى الآخرة معذبين فى أغلال جهنم . ومناسبة هذا لما قبله حينئذ من حيث اللفظ فقط فيكون تجنيسا . وقيل من حيث اللفظ وملاحظة أصل المجاز كما تقوله : سبنى سب الله دابره ، أى قطعه ، لأن السب أصله القطع»(١) .

وقوله : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ معطوف على مقدر يقتضيه المقام ، وتكذيب لهم فيما قالوه من باطل .

والمعنى : كلا - أيها اليهود - ليس الأمر كما زعمتم من قول باطل ، بل هو - سبحانه - الواسع الفضل ، الجزيل العطاء ، الذى ما من شىء إلا عنده خزائنه .

فبسط اليد هنا كناية عن الجود والفضل والإنعام منه - سبحانه - على خلقه .

وعبر بالمثنى فقال : ﴿ بَلْ يَدَاهُ ﴾ للإشارة إلى كثرة الفيض والإنعام ، لأن الجواد السخى إذا أراد أن يبالغ فى العطاء أعطى بكلتا يديه .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ أى : بل هو الواسع الفضل . الذى ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له . كما قال : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ والآيات فى هذا كثيرة .

وقد روى الإمام أحمد والشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة - أى لا ينقصها الإنفاق - سحاء - أى مليئة - الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغض ما فى يمينه . وكان عرشه على الماء ، وفى يده الأخرى الفيض - أو القبض - يرفع ويخفض وقال : يقول الله - تعالى - : أنفق أنفق عليك»(٢) .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٦ ص ١٠٨ (٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٧٥

وقوله : ﴿ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ جملة مستأنفة واردة لتأكيد كمال جوده ، والدلالة على أنه على مقتضى حكمته ومشيئته فهو - سبحانه - يبسط الرزق لمن يشاء أن يبسطه له ويقبضه عمن يشاء أن يقبضه عنه ، وقبضه الرزق عمن يشاء من خلقه لا ينافى سعة كرمه ، لأنه يعطى ويمنع على حسب مشيئته التى أقام بها نظام خلقه .

ثم بين - سبحانه - موقفهم الجحودى مما أنزله على رسوله ﷺ فقال : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ .

أى : إن ما أنزلنا عليك يا محمد من قرآن كريم ، وما أطلعناك عليه من خفى أمور هؤلاء اليهود ، ومن أحوال سلفهم كل ذلك ليزيدن الكثيرين منهم كفرا على كفرهم ، وطغيانا على طغيانهم ، وذلك لأنهم قوم أكل الحقد قلوبهم ، واستولى الحسد على نفوسهم .

وإذا كان ما أنزلناه إليك يا محمد فيه الشفاء لنفوس المؤمنين ، فإنه بالنسبة لهؤلاء اليهود يزيدهم بغيا وظلما وكفرًا .

قال - تعالى- : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾(١) .

فالجملة الكريمة بيان لموقف اليهود الجحودى من الآيات التى أنزلها الله على رسوله ﷺ وهى فى الوقت ذاته تسلية له ﷺ عما يلقاه منهم .

وقد أكد - سبحانه - هذه الجملة بالقسم المطوى ، وباللام الموطئة له ، ونون التوكيد الثقيلة لكى ينتفى الرجاء فى إيمانهم ، وليعاملهم النبى - ﷺ - وأتباعه على أساس مكنون نفوسهم الخبيثة ، وقلوبهم المريضة بالحسد والخداع .

ثم زاد - سبحانه - فى تسلية رسوله ﷺ فأصدر حكمه فيهم بدوام العداوة والبغضاء بين طوائفهم وفرقهم فقال : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فالضمير فى قوله ﴿ بينهم ﴾ يعود إلى فرق اليهود المختلفة من فريسيين وصدوقيين وقرائين ، وكتبة وغير ذلك من فرقهم المتعددة .

والمعنى : وألقينا بين طوائف اليهود المتعددة ، العداوة الدائمة والبغضاء المستمرة ، فأنت تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، وكل فرقة منهم تلصق النقائض بالأخرى ، وهم على هذه الحال إلى يوم القيامة .

(١) الإسراء : ٨٢ .

وقوله - سبحانه : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ بيان لإصرارهم على المعاصى والفواحش ، وتبشير للمؤمنين الصادقين بأن الله - تعالى - سيرد كيد هؤلاء المفسدين فى نحورهم .

أي : كلما أرادوا حرب الرسول ﷺ والمؤمنين وهيأوا الأسباب لذلك ، وحاولوا تفريق كلمتهم وإثارة العدواة بينهم ، كلما فعلوا ذلك أفسد الله عليهم خطتهم ، وأحبط مكرهم ، وألقى الرعب فى قلوبهم .

وهؤلاء اليهود يسعون سعيا حثيثا للإفساد فى الأرض عن طريق إثارة الفتن ، وإشاعة الفواحش والرذائل ، والله - تعالى - لايحب المفسدين بل يبغضهم ويمقتهم .

وبهذا نرى الآية الكريمة قد ردت على اليهود فى نسبتهم البخل إلى الله - تعالى - وبينت أنه - سبحانه - هو الواسع الفضل ، الجزيل العطاء ، وكشفت عن جوانب من رذائلهم وعنادهم ، وأوضحت أنه - سبحانه - يكرههم لتأصل الشر والفساد فى نفوسهم .

(ط) قولهم : ما أنزل الله على بشر من شىء ، وتلقين الله - تعالى - لرسوله محمد ﷺ الرد الذى يفضح أكاذيبهم . .

قال - تعالى - : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) ﴾ [الأنعام : ٩١] .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها أن مالك بن الصيف اليهودى ، خاصم النبى ﷺ فى مسألة فقال له ﷺ : أناشد الله ألا تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين - وكان ابن الصيف سمينا - فقال : «ما أنزل الله على بشر من شىء» فقال له بعض أتباعه ويحك ولا على موسى . . وأنزل الله - تعالى - هذه الآية .

والمعنى : أن هؤلاء اليهود ما عظموا الله - تعالى - حق تعظيمه ، وما عرفوه حق معرفته فى اللطف بعباده وفى الرحمة بهم ، بل أخلوا بحقوقه إخلالا عظيما ، وضلوا ضلالا كبيرا ، إذ أنكروا بعثة الرسل وإنزال الكتب ، وقالوا تلك المقالة الشنعاء ألا

وهى زعمهم أن الله – تعالى – ما أنزل على بشر شيئا من الأشياء ، قاصدين من هذه المقالة الشنعاء : الطعن فى نبوة النبى ﷺ ، وفى أن القرآن من عند الله .

وقد أمر الله – تعالى – رسوله محمدا ﷺ أن يرد عليهم بما يخرسهم ، وأن يجيب على سلبهم العام بإثبات قضية جزئية بديهية التسليم فقال – تعالى – : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أى : قل يا محمد لهؤلاء الزاعمين بأن الله ما أنزل على بشر شيئًا من الأشياء : قل لهم من الذى أنزل التوراة وهو الكتاب الذى جاء به موسى ﴿ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أى : ضياء من ظلمة الجهالة وهداية تعصم من الأباطيل والضلالة .

ثم بين – سبحانه – ما فعله الجاحدون بكتبه من تحريف وتغيير فقال : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ .

والقراطيس : جمع قرطاس وهو ما يكتب فيه من ورق ونحوه .

أى : تجعلون هذا الكتاب الذى أنزله الله نورا وهداية للناس أوراقاً مكتوبة مفرقة لتتمكنوا من إظهار ما تريدون إظهاره منها ، ومن إخفاء الكثير منها على حسب ما تمليه عليكم نفوسكم السقيمة وشهواتكم الأثيمة .

فالمراد من هذه الجملة الكريمة ذم المحرفين لكتب الله ، وتوبيخهم على هذا الفعل الشنيع ، الذى قصدوا من ورائه الطعن فى نبوة النبى ﷺ والتوصل إلى ما يبغونه من مطامع وأهواء .

وقوله ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ أى : وعلمتم على لسان محمد ﷺ مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم من المعارف التى لا يرتاب عاقل فى أنها تنزيل ربانى .

وقوله ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

أى : قل أيها الرسول لهؤلاء الجاحدين : الله – تعالى – هو الذى أنزل الكتاب على موسى ، ثم بعد هذا القول الفصل ذرهم فى باطلهم الذى يخوضون فيه يلعبون ، وفى غيهم يعمهون حتى يأتيهم من الله اليقين .

وفى أمره ﷺ بأن يجيب عنهم ، إشعار بأن الجواب متعين لا يمكن غيره ، وتنبيهه على أنهم بهتوا بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب .

وكان العطف بثم فى قوله ﴿ثم ذرهم﴾ للدلالة على الترتيب الرتبى أى : أنهم لاتنجع فيهم الحجج والأدلة فتركهم وخوضهم بعد التبليغ هو الأولى ، وإنما كان الاحتجاج عليهم لتبكيتهم وقطع معاذيرهم .

وبهذا تكون الآية الكريمة قد ردت عليهم بأبلغ رد وأحكم جواب بحيث تركتهم فى حيرة من أمرهم وفى تعجيب للعقلاء من إنكارهم حتى للتوراة التى أنزلها الله – تعالى – على موسى – عليه السلام – لهدايتهم .

(ك) قولهم لنبيهم موسى – عليه السلام – : اجعل لنا إلهاكما لهم إله ، ورد موسى – عليه السلام – عليهم .

وقبل أن نذكر الآيات الكريمة التى قصت علينا ذلك ، نحب أن نبين أن المحاورات التى ذكرناها فيما مضى كانت نماذج محددة لما دار بينهم وبين النبى ﷺ والمسلمين ، أما ما دار بينهم وبين بعض أنبيائهم السابقين من مجادلات ومحاورات فقد حكى القرآن الكريم الكثير منها ، إلا أننا نكتفى هنا بقولهم لنبيهم موسى – عليه السلام – «اجعل لنا إلهاكما لهم آلهة . .» واستمع إلى هذه المحاورة كما حكاها القرآن الكريم بأسلوبه البليغ المؤثر الحكيم .

قال – تعالى – : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) ﴾ [الأعراف : ١٣٨ – ١٤١] .

إن هذه الآيات تحكى قصة عجيبة لبنى إسرائيل ملخصها : أنهم بعد أن خرجوا من مصر بقيادة نبيهم موسى – عليه السلام – تبعهم فرعون وجنوده ليعيدوهم إليها ، إلا أن الله – تعالى – انتقم لهم من فرعون وجنده فأغرقهم أمام أعينهم ، وسار بنوا اسرائيل نحو المشرق متجهين إلى الأرض المقدسة بعد أن عبروا البحر ، ولكنهم ما إن جاوزوا البحر الذى غرق فيه عدوهم والذى مازالت رماله الرطبة عالقة بنعالهم ، حتى وقعت أبصارهم على قوم يعبدون الأصنام ، فماذا كان من بنى إسرائيل؟ وماذا قالوا لنبيهم ؟

كان منهم أن عاودتهم طبيعتهم الوثنية المنحرفة عن كل ماهو حق ، وأن قالوا لنبيهم وهاديهم ومنقذهم من ظلم فرعون وملئه : يا موسى اجعل لنا إلهًا كما أن لهؤلاء القوم آلهة يعبدونها ، واصنع لنا بيديك معبودا نعبده ، كما أن هؤلاء الناس يعكفون على أصنامهم وأوثانهم .

وهنا غضب موسى - عليه السلام - وهو المغضوب لدينه ولما يرضى خالقه - تعالى- ، ورد عليهم ردا حازما حاسما شجاعا ، ووصفهم بأنهم قوم يجهلون الحق ، وبين لهم فساد ما عليه عبدة الأصنام وأنهم قوم لا عقول لهم وإنما هم كالأنعام بل هم أضل ، وأنه لا يليق به وهو رسول من عند ربه - عز وجل - أن يرضى لهم بعبادة إله سوى الخالق - عز وجل - الذى فضلهم على عالمى زمانهم ، والذى بفضله وكرمه أنجاهم من ظلم فرعون وملئه الذين كانوا يقتلون الذكور منهم عقب ولادتهم ، ويتركون الإناث يعيشون حياة ملؤها الذل والهوان .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ بيان للمنة العظيمة التى منحهم الله إياها وهى عبورهم البحر بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فأصبح طريقا يابسا يسيرون فيه بأمان واطمئنان حتى عبروه إلى الناحية الأخرى ، يصحبهم لطف الله ، وتحدوهم عنايته ورعايته

والمراد بالبحر : بحر القلزم وهو المسمى الآن بالبحر الأحمر .

وقوله تعالى ﴿ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ بيان لما شاهدوه من أحوال بعض المشركين عقب عبورهم البحر ونجاتهم من عدوهم ، فماذا كانت نتيجة هذه المشاهدة ؟ لقد كان المتوقع منهم أن يحتقروا ماشاهدوه ، وأن ينفروا مما أبصروه ، لأن العهد لم يطل بهم منذ أن كانوا يسامون سوء العذاب فى ظل عبادة الأصنام عند فرعون وقومه ، ولأن نجاتهم مما كانوا فيه من ذل وهوان ، قد تمت على يد نبيهم الذى دعاهم إلى توحيد الله - تعالى - لكى يزيدهم من فضله .

ولكن طبيعة بنى إسرائيل المعوجة لم تفارقهم ، فهاهم أولاء ما إن وقعت أبصارهم على قوم يعكفون ويداومون على عبادة أصنام لهم ، حتى انجذبوا إليها وطلبوا من نبيهم الذى جاء لهدايتهم ، أن يجعل لهم وثنًا كغيرهم لكى يعبدوه من جديد . لقد حكى القرآن عنهم أنهم عندما شاهدوا هذا المنظر ، مالبثوا أن قالوا لنبيهم : ﴿ يَا مُوسَى

اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ ، قالوا ذلك لأن الإيمان لم يستقر فى قلوبهم ، ولأن ما ألفوه من عبادة الأصنام أيام استعباد فرعون لهم ، مازال متمكنًا من نفوسهم ، ومسيطرًا على عقولهم ، وهكذا عدوى الأمراض تصيب النفوس كما تصيب الأبدان ، وهكذا طبيعة بنى إسرائيل ما تكاد تهتدى حتى تضل ، وما تكاد ترتفع حتى تنحط ؛ وما تكاد تسير فى طريق الاستقامة حتى ترتكس وتنتكس .

وفى قولهم لنبيهم : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ بصيغة الأمر ؛ أكبر دليل على غباء عقولهم وسوء أدبهم ؛ لأنهم لو استأذنوه – مثلا – فى اتخاذ صنم يعبدونه كغيرهم لكان شأنهم أقل غرابة ؛ ولكن الذى حصل منهم أنهم طلبوا منه – وهو نبيهم الداعى لهم إلى توحيد الله – تعالى – والمنقذ لهم من عدوهم الوثنى الجبار – أن يقوم هو بنفسه بصناعة صنم لكى يعبدوه كغيرهم !! .

قال القرطبى : ونظيره قول جهال الأعراب وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تسمى ذات أنواط – لأنهم كانوا ينوطون بها سلاحهم أى يعلقونه – وكان الكفار يعظمون هذه الشجرة فى كل سنة يومًا ، قال الأعراب : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله ﷺ : «الله أكبر . قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ لتركبن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة[1] حتى إنهم لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه» وكان هذا فى مخرجه إلى حنين[2] .

ولقد غضب موسى – عليه السلام – من طلبهم هذا – وهو الغضوب بطبيعته لربه ودينه – فرد عليهم ردًا قويًا فيه توبيخ لهم وتعجب من قولهم بعد أن رأوا من المعجزات ما رأوا فقال : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أى : إنكم يابنى إسرائيل بطلبكم هذا برهنتم على أنكم قوم قد ملأ الجهل قلوبكم ، وغطى على عقولكم ، فصرتم لا تفرقون بين ما عليه هؤلاء من ضلال مبين ، وبين ما تستحقه الألوهية من صفات وتعظيم ولم يقيد ما يجهلونه ليفيد أنه جهل كامل شامل يتناول فقد العلم ، وسفه النفس ، وفساد العقل . وسوء التقدير .

وبعد أن كشف لهم سوء حالهم ، وفرط جهالاتهم ، بين لهم فساد ما طلبوه فى

---

(١) القذة : ريش السهم . قال ابن الأثير : يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان

(٢) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٢٧٣ .

ذاته ، وقبح عاقبة من أرادوا تقليدهم ، فقال لهم بأسلوب الاستئناف المفيد للتعليل ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

متبر : من التتبير بمعنى الإهلاك أو التكسير والتحطيم ، يقال : تبره يتبره ، وتبره أى : أهلكه ودمره .

أى : إن هؤلاء الذين تبغون تقليدهم فى عبادة الأوثان ، محكوم على ما هم فيه بالدمار ، ومقضى على ما يعملونه من عبادة الأصنام بالاضمحلال والزوال لأن دين التوحيد سيظهر فى هذه الديار ، وستصير العبادة لله الواحد القهار .

وبهذا الرد يكون موسى - عليه السلام - قد كشف لقومه عن سوء ما يطلبون ، وصرح لهم بأن مصير ما يبغونه إلى الهلاك والتدمير .

ثم مضى موسى - عليه السلام - يستنكر عليهم هذا الطلب ، ويبين لهم أن الله وحده هو المستحق للعبادة فقال : ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

أى قال موسى - عليه السلام مذكرا قومه بنعم الله عليهم الموجبة لإفراده بالعبادة والخضوع : أغير الله أطلب لكم معبودًا أحملكم على العبودية له ، وهو فضلكم على عالمى زمانكم وقد كان الواجب عليكم أن تخصوه بالعبادة ، كما اختصكم هو بشتى النعم الجليلة . فالاستفهام فى الآية الكريمة للإنكار المشرب معنى التعجب لابتغائهم معبودا سوى الله - تعالى - الذى غمرهم بنعمه ، وأحاطهم بألوان إحسانه .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة إنجائهم من العذاب والتنكيل ، ليبتليهم أيشكرون أم يكفرون ، فقال -تعالى- : ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

أى : اذكروا وقت أن أنجيناكم من آل فرعون . والمراد من التذكير بالوقت تذكيرهم بما وقع فيه من أحداث . وآل الرجل : أهله وخاصته وأتباعه . ويطلق غالبًا على أولى الشأن والخطر من الناس .

و ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ يبغون لكم أشد العذاب وأفظعه من السوم وهو مطلق الذهاب ، أو الذهاب فى ابتغاء الشىء . يقال : سامت الإبل فهى سائمة ، أى ذهبت إلى المرعى . وسام السلعة ، إذا طلبها وابتغاها .

والسوء - بالضم - كل ما يحزن الإنسان ويغمه من الأمور الدنيوية أو الأخروية . ويستحيون : أى يستبقون . يقال : استحياه أى : استبقاه ، وأصله : طلب له الحياة والبقاء . والبلاء : الامتحان والاختبار ويكون بالخير والشر .

والمعنى : واذكروا يابنى إسرائيل لتعتبروا وتتعظوا وتشكروا الله على نعمه وقت أن أنجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق العذاب وأصعبه ، حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم ، ويستبقون نفوس نسائكم ليستخدموهن ويستذلوهن . وفى ذلكم العذاب وفى النجاة منه امتحان لكم لتشكروا الله على نعمه ، ولتقلعوا عن السيئات التى تؤدى بكم إلى الإذلال فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة .

وجعلت النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه ، مع أنه هو الآمر بتعذيب بنى إسرائيل ، للتنبيه على أن حاشيته وبطانته كانت عونا له على إذاقتهم سوء العذاب ، وفى إنزال ألوان الإذلال بهم .

وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لبنى إسرائيل - مع أنه فى ظاهره نعمة لهم - لأن هذا الإبقاء على النساء كان المقصود منه الاعتداء على أعراضهن ، واستعمالهن فى شتى أنواع الخدمة ، وإذلالهن بالاسترقاق ، فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل ؛ وعذاب أليم ، تأباه النفوس الكريمة ، والطباع الحرة الأبية .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : فى قتل الذكور دون الإناث مضرة من وجوه :

أحدها : أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال ، وذلك يقضى انقطاع النسل ، لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن ألبتة فى ذلك ، وهذا يقضى فى نهاية الأمر إلى هلاك الرجال والنساء جميعا .

ثانيها : أن هلاك الرجال يقتضى فساد مصالح النساء فى أمر المعيشة .

فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها الرجال . لما قد تقع فيه من نكد العيش بالانفراد .

ثالثها : أن قتل الولد عقب الحمل الطويل ، وتحمل الكد ، والرجاء القوى فى الانتفاع به من أعظم العذاب . فنعمة الله فى تخليصهم من هذه المحنة كبيرة .

رابعاً : أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهن ، يؤدى إلى صيرورتهن مستفرشات للأعداء . وذلك نهاية الذل والهوان .

وقد رجح كثير من المفسرين أن المراد بالأبناء هنا الأطفال لا البالغين ، لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك ، ولأن قتل الرجال لايفيدهم حيث إنهم كانوا يستعملونهم فى الأعمال الشاقة والحقيرة ، ولأنه لو كان المقصود بالذبح الرجال لما قامت أم موسى بإلقائه فى اليم وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح .

ومن كل ما تقدم نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكت لنا ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم موسى - عليه السلام - من أقوال تدل على سوء أدبهم مع خالقهم ومع نبيهم ، وكيف أن موسى - عليه السلام - قد رد عليهم ردا يناسب حالهم وجهلهم ، حيث أخبرهم بأن عبادة غير الله - تعالى - باطلة ، وأنه لا يليق بهم بعد أن نجاهم من ظلم فرعون وبطشه أن يقابلوا النعمة بالجحود والنكران ، وأن طلبهم هذا إن دل على شيء فإنما يدل على سفاهة تفكيرهم ، وقسوة قلوبهم ، واستحواذ الشيطان عليهم .

ولو أننا استرسلنا فى بيان المحاورات والمجادلات التى دارت بين موسى - عليه السلام- وبين قومه بنى إسرائيل - كما حكاها القرآن الكريم - لاحتجنا إلى صفحات وصفحات ولكن حسبنا هذا المثال الذى فيه ما فيه من الدلالة على المنطق السليم الذى يستعمله العقلاء فى ردهم على السفهاء .

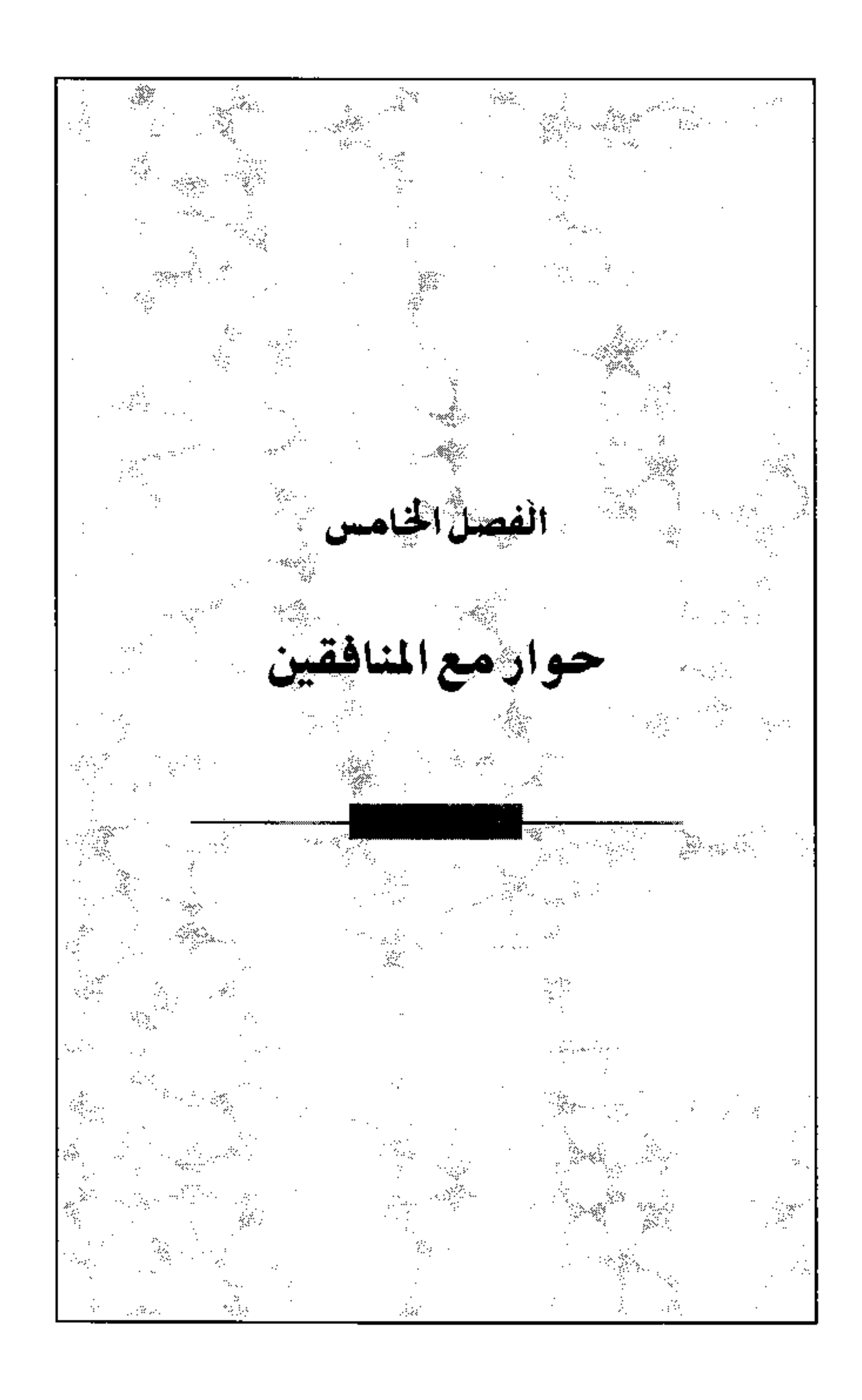
وبعد : فهذه نماذج من المحاورات والمجادلات التى حكاها القرآن مع أهل الكتاب بصفة عامة ، ومع بنى إسرائيل بصفة خاصة ، ومنها رأينا كيف علّم القرآن أتباعه أن يقابلوا حجج خصومهم ودعاواهم الباطلة ، بما يأتى على بنيانها من القواعد ، وبما يزهق ما اشتملت عليه من أكاذيب بالأدلة الواضحة ، وبالبراهين الساطعة ، وبالأساليب التى تزيد العقلاء إيمانا على إيمانهم ، وثباتا على ثباتهم .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾

[الأنبياء : ١٨]

* * *





الفصل الخامس

حوار مع المنافقين

قبل أن نتحدث عن المحاورات التى دارت بين الرسول ﷺ وأصحابه وبين المنافقين ، نرى من المناسبة أن نبين أمورًا منها :

من هو المنافق ؟ المنافق إنسان يظهر خلاف ما يبطن ، ويقول بلسانه ما ليس فى قلبه ويظهر إسلامه ويخفى كفره .

ومن الآيات القرآنية التى أشارت إلى صفاته الذميمة قوله - تعالى - : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) ﴾ [البقرة : ٨ - ١٠] .

والنفاق يوجد حيث توجد القوة التى ترهب ، لذا لم يكن هناك نفاق فى مكة وقت أن كان المسلمون بها ضعفاء لا يخافهم أحد من المشركين ، وإنما ظهر النفاق بعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة المنورة ،وبعد أن نشأت لهم دولة قوية بها ، وبعد أن انتصروا على أعدائهم المشركين فى غزوة بدر . . . .

هنا ظهر النفاق والمنافقون لكى ينالوا نصيبهم من الغنائم إذا ما انتصر المسلمون ، ولكى يعيشوا بين المسلمين وكأنهم مثلهم فى كل شئ ، وفى الوقت نفسه يناصرون سرا أعداء المسلمين ، فهم كما قال - سبحانه - : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (١٤٣) ﴾ [النساء : ١٤٢ ، ١٤٣] .

ومن أهم أسباب نفاق المنافقين : ضعف شخصيتهم ، وجبن نفوسهم ، وحبهم للمال حبا ملك عليهم قلوبهم وجعلهم من أجل الحصول عليه يحبون ويكرهون ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) ﴾ [التوبة : ٥٨] .

ولقد تحدث القرآن عن صفاتهم القبيحة حديثا مستفيضا ، فوصفهم بالكذب وبالخداع وبادعاء الصلاح وبموالاة الكفار وبالجبن وبالتحاكم إلى غير شريعة الله

وبالتذبذب وبالكسل عند القيام للصلاة وبإفشاء أسرار المؤمنين وبالأمر بالمنكر وبالنهى عن المعروف كما قال – عز وجل – : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) ﴾ [التوبة: ٦٧، ٦٨].

ولسنا هنا بصدد تفصيل القول عن صفاتهم الذميمة ، فهذا أمر يحتاج إلى بحث مستقل ، وإنما نحن هنا بصدد المحاورات والمناقشات الكاذبة التى حكاها القرآن الكريم عنهم ، وكيف لقن الله – تعالى – رسوله محمدًا ﷺ الإجابة التى تكشف عن كذبهم وفسوقهم عن أمر ربهم ، وسنكتفى فى الأعم الأغلب – بما حكاه القرآن عنهم بلفظ «قالوا» ، ويرد الرسول ﷺ عليهم بلفظ «قل» . وهاك بعض الأمثلة القرآنية لذلك .

(ا) قولهم فى شأن الشهداء «لو أطاعونا ما قتلوا» والرد عليهم ردا يزيد المؤمنين إيمانًا على إيمانهم ، ويزيد المنافقين رجسا إلى رجسهم ، واستمع إلى قوله –عز وجل– : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) ﴾ [آل عمران: ١٦٦ – ١٦٨].

هذه الآيات الكريمة وردت من بين آيات كثيرة بعضها يسبق هذه الآيات ، وبعضها أتى بعدها ، وهى جميعها تتحدث عن غزوة «أحد» .

وتبدأ هذه الآيات التى معنا بتسلية المؤمنين عما أصابهم فى هذه الغزوة من هزيمة لم يكونوا يتوقعونها فتقول لهم : إن ما أصابكم – أيها المؤمنون – من قتل وجراح يوم التقيتم مع أعدائكم ، فى غزوة «أحد» فبإذن الله وبإرادته وعلمه ، إذ ما من شئ يقع فى هذا الكون إلا بتقديره وعلمه – سبحانه – فعليكم أن تستسلموا لإرادة الله ، وأن تعودوا إلى أنفسكم فتهذبوها وتروضوها على تقوى الله وطاعته ، حتى تكونوا أهلا لنصرته وعونه .

واعلموا - أيضا - أيها المؤمنون - أن ما أصابكم من قتل وجراح فى غزوة «أحد» لحكم متعددة منها : إظهار جانب من علم الله - تعالى - لكم عن طريق المشاهدة ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه بعد أن نزل بكم من الأسى ما نزل بسبب ما أصابكم فى هذه الغزوة من قتل . فقوله - تعالى - : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بيان لبعض الحكم التى من أجلها حدث ما حدث فى غزوة أحد . والعلم هنا كناية عن الظهور والمشاهدة فى الخارج لما قدره - سبحانه - فى الأزل .

أى : أراد الله - تعالى - أن يحدث ما حدث فى غزوة أحد ليظهر للناس وليميز لهم المؤمنين من غيرهم . وقوله - سبحانه - : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ﴾ حكمة ثانية لما حدث فى غزوة أحد .

أى : حدث ما حدث فى غزوة أحد ، ليعلم - سبحانه - المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية وظهور يتميز معه عند الناس كل فريق عن الآخر تميزا ظاهرا ، إذ أن المنافقين قال لهم المؤمنون الصادقون : تعالوا لتقاتلوا معنا فى سبيل الله ، فإن لم تقاتلوا من أجل نصرة الحق وإعلاء كلمة الله ، فلا أقل من أن تقاتلوا معنا من أجل الدفاع عن المدينة والبلدة التى تسكنون فيها معنا . .

ولكن المنافقين صموا آذانهم عن هذه النصائح وقالوا للمؤمنين الصادقين بكل جبن وسوء أدب : لو نعلم أنكم تقاتلون حقا لسرنا معكم ، ولكن الذى نعلمه أنكم ستذهبون إلى جبل أحد ثم تعودون دون أى قتال لأى سبب من الأسباب ، وعادوا إلى بيوتهم دون أن يشتركوا مع المؤمنين فى القتال يتقدمهم زعيمهم عبد الله بن أبى ابن سلول . وقد حكم الله - تعالى - على هؤلاء المنافقين بحكمه العادل ، ألا وهو قوله - تعالى - : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ .

أى : أن هؤلاء المنافقين عندما قالوا هذا القول الباطل ، كانوا أقرب إلى الكفر وإلى نصرة أتباعه منهم إلى الإيمان وإلى محبة أوليائه ، وهم يقولون بألسنتهم قولا يخالف ما انطوت عليه قلوبهم من كفر وفسوق وعصيان لله - تعالى - ولرسوله ﷺ وهو - سبحانه -عليم بما يظهرونه وبما يكتمونه وسيحاسبهم على ذلك حسابا عسيرا .

واعلموا - أيها المؤمنون - أن هؤلاء المنافقين لم يكتفوا بهذا القول السيئ ، وبما فعلوه

فى غزوة أحد من مواقف شائنة ، بل إنهم بعد انتهاء المعركة قد قالوا لمن هم على شاكلتهم فى النفاق والشقاق وفى القعود عن المشاركة فى القتال .. قالوا لهم بكل تفاخر وفجور : إن هؤلاء المؤمنين الذين قتلوا فى غزوة أحد لو أطاعونا ولم يخرجوا للقتال مع النبى ﷺ لعاشوا معنا كما هو حالنا الآن ، ولكنهم لم يستمعوا إلى نصحنا وخرجوا للقتال فقتلوا .

وهذا القول منهم يدل على خبث نفوسهم ، وانطماس بصيرتهم ، وجهلهم بقدرة الله - تعالى - ونفاذ إرادته ، وشماتتهم فيما حل بالمسلمين من قتل وجراح فى أحد ..

ولذا فقد أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم ويدحض قولهم ويكشف عن جهلهم وجبنهم فقال : ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

أى : قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ لهم : إن كنتم صادقين فى أن المؤمنين الذين استشهدوا فى غزوة أحد لو أطاعوكم وقعدوا كما قعدتم ، فادفعوا أنتم عن أنفسكم الموت عندما يفاجئكم والذى سيدرككم ولو كنتم فى بروج مشيدة .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة الرد عليهم بما يبطل أقوالهم عن طريق الحس والمشاهدة ، وذلك ببيان أن القعود عن الجهاد لا يطيل الحياة ، كما أن الخروج إلى ساحات القتال لا ينقص شيئاً من الآجال ، فكم من مجاهد عاد من جهاده سالما ، وكم من قاعد أتاه الموت وهو فى عقر داره . فزعم المنافقين أن أولئك الذين استشهدوا فى أحد لو أطاعوهم ولم يخرجوا للقتال لما أصابهم القتل زعم باطل ، وإلا فلو كانوا صادقين فى هذا الزعم ، فليدفعوا عن أنفسهم الموت الذى سينزل بهم حتما فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى- ، ولا شك أنهم لن يستطيعوا دفعه فثبت كذبهم وافتراؤهم .

وهكذا القرآن الكريم فى محاوراته يلقن أتباعه الرد الذى يخزى أعداءه وينصر أولياءه . وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) ﴾ [آل عمران : ١٥٦]

(ب) قولهم حين فرض القتال : «يا ربنا لم كتبت علينا القتال» ورد القرآن عليهم ردا يشفى صدور المؤمنين ، ويفضح جبن المنافقين ، وقد حكى القرآن ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٨١) أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء : ٧٧ - ٨٢] .

هذه الآيات وردت من بين آيات كثيرة سابقة ولاحقة تحدثت عن المنافقين وعن مسالكهم الذميمة ، وعن صفاتهم القبيحة .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ للتعجب من حال أولئك المنافقين الذين كانوا يظهرون التشوق إلى القتال ، فلما فرض عليهم جبنوا عنه .

والمعنى : ألم ينته إلى علمك يا محمد حال أولئك المنافقين الذين كانوا يظهرون شدة الحماسة للقتال ، فقلت لهم انتظروا حتى تؤمروا به وداوموا على إقامة الصلاة وعلى إيتاء الزكاة ، فلما جد الجد ، واقتضت الحكمة فرض القتال إذا بأولئك المنافقين ينكصون على أعقابهم يخافون من الناس - الذين هم أعداؤهم وأعداء الحق وأعداء الخالق - عز وجل - خوفا يفوق خوفهم من الله - تعالى - .

فالمراد بالناس فى قوله - سبحانه - : ﴿ يَخْشَوْنَ النَّاسَ ﴾ : أولئك الأعداء الذين كتب الله على المؤمنون قتالهم .

وعبر عن هؤلاء الأعداء بقوله ﴿ النَّاسَ ﴾ زيادة فى توبيخ أولئك الذين خافوا منهم هذا الخوف الشديد ، لأنهم لو كانوا مؤمنين حقا ، لاستقبلوا ما فرضه الله عليهم بالسمع والطاعة ، ولما خافوا هذا الخوف الشديد من أناس مثلهم .

وفى هذه الجملة الكريمة زيادة فى توبيخهم وذمهم ، وترق فى توضيح حالتهم القبيحة لأنه إذا كان من المقرر أنه لا يجوز للعاقل أن يجعل خشيته للناس كخشيته لله ، فمن باب أولى لا يجوز له أن يجعل خشيته للناس أشد من خشيته الله - تعالى - .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله أولئك المنافقون عندما فرض عليهم القتال : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ .

أى : أن هؤلاء المنافقين لم يكتفوا بما اعتراهم من فزع وجزع عندما كتب عليهم القتال وإنما أضافوا إلى ذلك أنهم قالوا على سبيل الضجر والألم : يا ربنا لم كتبت علينا القتال فى هذا الوقت ﴿ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أى : هلا عافيتنا وتركتنا حتى نموت موتة لا قتال معها عند حضور آجالنا ، دون أن نتعرض لهذا التكليف الثقيل المخيف .

وهكذا يصور القرآن تخبط هؤلاء الضعفاء أكمل تصوير ، إنهم قبل أن يفرض القتال يظهرون التحمس له ، والتشوق لخوض معامعه ، فإذا ما فرض عليهم القتال فزعوا وارتعدوا وقالوا ما قالوا من ضلال بضيق وهلع .

والذى تطمئن إليه نفوسنا وسار عليه المحققون من المفسرين أن الآية الكريمة تحكى ما كان عليه المنافقون من بُعد عن طاعة الله ، ومن جبن فى النفوس ومن حب للحياة الدنيا وزينتها ، وأنها ليست - كما قال بعض المفسرين - تحكى ما قاله بعض المسلمين ، لأن المؤمنين بعيدون كل البعد عما اشتملت عليه الآية الكريمة من صفات وأحوال ، إذ ما عرف عنهم من إيمان وإقدام ينأى بهم عن أن يكونوا ممن قال الله فيهم ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ وعن أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ .

هذا ، وقوله - تعالى - : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ رد على التصرفات الذميمة ، والأقوال الفاسدة التى صدرت عن المنافقين

وإرشاد من الله – تعالى – لعباده إلى أن متاع الحياة الدنيا قليل بالنسبة لما اشتملت عليه الآخرة من نعيم للمؤمنين الصادقين .

والمتاع : اسم لما يتمتع به الإنسان فى هذه الحياة من مال وغيره .

والفتيل : هو الخيط الدقيق الذى يكون فى شق نواة التمرة . ويضرب به المثل فى القلة والتفاهة .

والمعنى : قل – يا محمد – لهؤلاء المنافقين الذين يخشون لقاء الأعداء ، ويفزعون من القتال طمعا فى التمتع بزينة الحياة الدنيا ، قلم لهم : إن منافع الدنيا ولذاتها قليلة مهما كبرت فى أعينكم ، لأنها زائلة فانية ، أما الآخرة بما فيها من نعيم دائم فهى خير ثوابًا ، وأعظم أجرًا لمن اتقى الله ، وجاهد فى سبيله . وإذا كان الأمر كذلك فاجعلوا خشيتكم من الله وحده ، وبادروا إلى الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، لكى تنالوا الثواب الجزيل من الله دون أن يذهب من ثوابكم شيئا مهما كان هذا الشئ ضئيلا أو قليلا ، ودون أن ينقص من أعماركم شيئاً ، لأن الجبن لا يؤخر الحياة كما أن الإقدام لا ينقص شيئا منها .

ثم بين – سبحانه – أنه لا مفر لهم من الموت ، وأنهم مهما فروا منه فإنه سيلقاهم آجلا أو عاجلا فقال – تعالى– : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّم الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ .

والبروج : جمع برج وهو الحصن المنيع الذى هو نهاية ما يصل إليه البشر فى التحصن والمنعة . وأصل البروج من التبرج بمعنى الظهور . يقال : تبرجت المرأة ، إذا أظهرت محاسنها ، والمراد بها الحصون والقلاع الشاهقة المنيعة .

والمشيدة : أى المحكمة البناء ، والعظيمة الارتفاع من شاد القصر إذا رفعه ، والمعنى : إنكم أيها الخائفون من القتال إن ظننتم أن هذا الخوف منه أو القعود عنه سينجيكم من الموت ، فأنتم بهذا الظن مخطئون ، لأن الموت حيثما كنتم سيدرككم ، ولو كنتم فى أقوى الحصون ، وأمنعها وأحكمها بناء ، وما دام الأمر كذلك فليكن موتكم وأنتم مقبلون بدل أن تموتوا وأنتم مدبرون .

والتعبير بقوله : ﴿ يُدْرِككُّمُ ﴾ للإشعار بأن الموت كأنه كائن حى يطلب الإنسان ويتبعه حيثما كان ، وفى أى وقت كان ، فهو طالب لابد أن يدرك ما يطلبه ولابد أن يصل إليه مهما تحصن منه ، أو هرب من لقائه .

وجواب (لو) محذوف اعتماداً على دلالة ما قبله عليه . أى : ولو كنتم فى بروج مشيدة لأدرككم الموت .

وقريب فى المعنى من هذه الآية قوله - تعالى- : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ وقوله - تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ﴾ [الجمعة : ٨] .

فالجملة الكريمة صريحة فى بيان أن الموت أمر لا مفر منه ، ولا مهرب عنه سواء أقاتل الإنسان أم لم يقاتل . وما أحسن قول زهير بن أبى سلمى :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم .

ثم حكى - سبحانه - ما كان يتفوه به المنافقون وإخوانهم فى الكفر من باطل وزور فقال - تعالى - : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ .

أى إن هؤلاء المنافقين وإخوانهم فى الكفر بلغ بهم الفجور أنهم إذا أصابهم حال حسنة من نعمة أو رخاء أو خصب أو غنيمة أو ظفر قالوا هذه الحال من عند الله ، وإذا أصابتهم حال سيئة من جدب أو مصيبة أو هزيمة قالوا هذه الحال من عندك يا محمد بسبب شؤمك وسوء قيادتك - وحاشاه من ذلك ﷺ .

وهذا القول منهم قريب من قول قوم فرعون لموسى - عليه السلام - كما حكاه القرآن عنهم فى قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ... ﴾ [الأعراف : ١٣١]

قال القرطبى : نزلت هذه الآية فى اليهود والمنافقين ، وذلك أنهم لما قدم رسول الله ﷺ المدينة عليهم قالوا : ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه . قال ابن عباس : ومعنى ﴿ مِنْ عِندِكَ ﴾ أى : بسوء تدبيرك . وقيل ﴿ مِنْ عِندِكَ ﴾ أى بشؤمك الذى لحقنا ، قالوه على جهة التطير»[1] .

وقوله ﴿قل كل من عند الله﴾ أمر من الله لنبيه ﷺ بأن يرد على مزاعمهم الباطلة .

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٨٤ .

أى قل لهم يا محمد كل واحدة من النعمة والمصيبة هى من جهة الله-تعالى- خلقا وإيجاداً من غير أن يكون لى مدخل فى وقوع شئ منها بوجه من الوجوه كما تزعمون .

وقوله : ﴿ فَمَالِ هَٰؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ جملة معترضة مسوقة لتعييرهم بالجهل والغباوة ، والفاء فى قوله : ﴿ فَمَالِ ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والمعنى : وإذا كان الأمر كذلك وهو أن كل شئ من عند الله ، فمال هؤلاء القوم من المنافقين وإخوانهم فى الكفر وضعف الإيمان لا يكادون - لانطماس بصيرتهم - يفقهون ما يلقى عليهم من مواعظ ، ولا يفهمون معنى ما يسمعون وما يقولون ، إذ لو فقهوا شيئا مما يوعظون به لعلموا أن الله هو القابض الباسط ، وأنه المعطى المانع .

قال - تعالى - : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ الخطاب فيه للنبى ﷺ والمراد كل مكلف من أمته .

والمراد بالحسنة : ما يسر له الإنسان ويفرح به . والمراد بالسيئة : ما يسوءه ويحزنه .

والمعنى : ﴿ ا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ أى من نعمة وأمور حسنة تفرح بها ﴿ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ أى : فبتوفيقه لك وتفضله عليك ، وإرشادك إلى الوسائل التى أوصلتك إلى ما يسرك . ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ ﴾ أى : من مصيبة أو غيرها مما يحزن ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ أى : فمن نفسك بسبب وقوعها فيما نهى الله عنه ، وتركها للأسباب الموصلة إلى النجاح ، كما قال - تعالى- : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] .

وروى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : «لا يصيب عبداً نكتة فما فوقها أو دونها إلا بذنب . وما يعفو الله عنه أكثر» . قال وقرأ : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ . .

وروى ابن عساكر عن البراء - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : «ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم . وما يعفو الله أكثر» .

وعلى هذا يكون قوله - تعالى - : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ . . إلخ من كلام الله - تعالى - والخطاب فيه للنبى ﷺ والمراد به كل مكلف - كما سبق أن أشرنا - وقد ساقه - سبحانه - على سبيل الاستئناف ردا على مزاعم المنافقين ومن هم على شاكلتهم فى الكفر وضعف الإيمان .

وقيل إن هذه الآية حكاية من الله - تعالى - لأقوال المنافقين السابقة ، فكأنهم لم يكتفوا بأن ينسبوا للرسول ﷺ أنه السبب فيما أصابهم من جدب وهزيمة . بل أضافوا إلى ذلك قولهم له : إن ما أصابك من حسنة فمن الله ولا فضل لك فيما نلت من نصر أو غنيمة ، وما أصابك من سيئة أى هزيمة أو مصيبة فمن سوء صنعك وتصرفك .

ومقصدهم من ذلك - قبحهم الله - تجريد النبى ﷺ من كل فضل ، وإلقاء اللوم عليه فى كل ما يصيبهم من مصائب .

وقد أشار القرطبى إلى هذين القولين بقوله : «قوله - تعالى- : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ الخطاب للنبى ﷺ والمراد أمته . أى : ما أصابكم يامعشر الناس من خصب واتساع رزق فمن تفضل الله عليكم ، وما أصابكم من جدب وضيق رزق فمن أنفسكم . أى من أجل ذنوبكم وقع ذلك بكم .

وقيل : فى الكلام حذف تقديره : يقولون . وعليه يكون الكلام متصلا ، والمعنى : ﴿ مَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ حتى يقولوا ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ »(١) .

وقال الجمل : «فإن قلت كيف وجه الجمع بين قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ وبين قوله ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ فأضاف السيئة إلى فعل العبد فى هذه الآية - بينما أضاف الكل إلى الله فى الآية السابقة - ؟

قلت : أما إضافة الأشياء كلها إلى الله فى الآية السابقة فى قوله : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ فعلى الحقيقة ، لأن الله هو خالقها وموجدها . وأما إضافة السيئة إلى فعل

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٨٥ بتلخيص .

العبد فى قوله : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ فعلى سبيل المجاز . والتقدير : وما أصابك من سيئة فمن أجلها وبسبب اقترافها الذنوب . وهذا لا ينافى أن خلقها من الله - كما سبق»(١) .

وقال بعض العلماء : والتوفيق بين قوله - تعالى - : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ وبين قوله قبل ذلك : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ هو أن قوله ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ كان موضوعه الكلام فى تقدير الله . فهم إن انتصر المؤمنون لا ينسبون للنبى ﷺ أى فضل ، بل يجردونه من الفضل ويقولون هو من عند الله . وما قصدوا التفويض والإيمان بالقدر ، بل قصدوا الغض من مقام النبوة . فإن كان هناك خير نسبوه إلى الله وإن كان ما يسوء نسبوه إلى النبى ﷺ إيذاء وتمردا . فالله - تعالى - قال لهم : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ ، أى كل ذلك بتقدير الله وإرادته .

أما قوله : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ فموضوعه اتخاذ الأسباب . ومعناه : أن من أخذ بالأسباب وتوكل على الله فالله - تعالى - يعطيه النتائج ومن لايتخذ الأسباب ، أو يخالف المنهاج السليم الموصل إلى الثمرة ، فإنه سيناله ما يسوؤه ، وبسبب منه .

فالأول : لبيان القدر ، والثانى لبيان العمل(٢) .

هذا ، وقوله - تعالى - : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ بيان لجلال منصبه وعلو مكانته ﷺ عند ربه - عز وجل - بعد بيان بطلان زعمهم الباطل فى حقه عليه الصلاة والسلام .

أى : وأرسلناك - يا محمد - بأمرنا وبشريعتنا لتبلغ الناس ما أمرناك بتبليغه ، ولتخرجهم من ظلمات الجهالة والكفر إلى نور التوحيد والإيمان ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ على صحة رسالتك ، وعلى صدقك فيما تبلغه عنه ، وإذا ثبت ذلك فالخير فى طاعتك والشر والشؤم فى مخالفتك .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص ٤٠٣ .
(٢) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة بمجلة لواء الإسلام العدد ١ السنة الخامسة عشرة .

والمراد بالناس جميعهم . أى : وأرسلناك لجميع الناس كما قال - تعالى - : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

وقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ تثبيت وتقوية لقلب النبى ﷺ .

أى : امض فى طريقك ولا تلتفت إلى أقوالهم ، وكفى بالله عليك وعليهم شهيدا ، فإنه - سبحانه - لا يخفى عليه أمرك وأمرهم .

ثم بين - سبحانه - أن طاعة الرسول ﷺ إنما هى طاعة له - عز وجل- ، فقال : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾

أى : من يستجب لدعوة الرسول ﷺ وينفذ ما يأمره به أوينهاه عند فقد أطاع الله -تعالى - ومن أعرض عن طاعتك - أيها الرسول الكريم - فأعرض عنه فإنا ما أرسلناك عليهم مراقبا ومحاسبا .

ثم حكى - سبحانه - جانبا آخر من رذائل المنافقين فقال : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ .

أى : أن هؤلاء المنافقين إذا أمرتهم يا محمد بأمر وهم عندك وفى مجلسك يقولون إننا مطيعون لك ، يقولون ذلك بألسنتهم فحسب ، فإذا ما خرجوا من عندك وفارقوك ، دبر رؤساؤهم وزعماؤهم لك المكايد ، وأضمروا لك ولأصحابك السوء ، وخالفوا نصيحتك وهديك ، واعلم أيها الرسول الكريم ، أن الله- تعالى - قد سجل عليهم هذا التصرف القبيح فى صحائف أعمالهم ، وسينزل بهم العذاب الذى يستحقونه .

وما دام الأمر كذلك فأعرض عنهم ، ولا تكترث بهم ، ولا تلتفت إليهم ، وسر فى طريقك متوكلا على الله ، ومعتمدا عى رعايته وحفظه ، وكفى به -سبحانه - وكيلا وكفيلا لمن توكل عليه ، واتبع أمره ونهيه .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد كشفت عن جانب آخر من رذائل المنافقين وأحوالهم ، ثم هددتهم على جرائمهم ، ورسمت للنبى ﷺ ولأتباعه الخطة الحكيمة لاتقاء شرورهم .

ثم ختمت هذه الآيات بتوبيخ المنافقين لعدم تدبرهم للقرآن ، ولإعراضهم عنه ،

وحضتهم على تأمل أحكامه وهداياته ، فقال – تعالى– : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ .

أى : إن هؤلاء المنافقين قد خيب الله – تعالى – سعيهم ، وكشف خباياهم ، ورأوا بأعينهم سوء عاقبة النفاق والكذب ، فهلا دفعهم ذلك إلى الإيمان الصادق وإلى تدبر هذا القرآن ما اشتملت عليه من هدايات وأخبار صادقة وأحكام حكيمة ، تشهد بأنه من عند الله – تعالى – ولو كان هذا القرآن من عند غير الله ، لوجدوا فى أخباره وفى نظمه وفى أسلوبه وفى معانيه ، اختلافا كثيرا ، ولكن القرآن لأنه من عند الله – تعالى – وحده لا يوجد فيهه شئ من ذلك .

ومن هذا العرض لهذه الآيات نرى كيف أن الله – تعالى – قد حكى جانبا من أقوال المنافقين كما نطقوا بها ، وأمر رسوله ﷺ أن يرد عليهم بالرد الملزم الذى لا يستطيعون معه جوابا ، حيث بين لهم أن متاع الدنيا قليل ، وأن نعيم الآخرة دائم ، وأن الموت سيلحقهم ولو كانوا فى بروج مشيدة ، وأن الله – تعالى – وحده هو الموجد للخير وللشر ، وأن وظيفته ﷺ هى البلاغ وليست الحساب ، وأن من الخير لهم تدبر هذا القرآن واتباع أوامره ونواهيه ، وبهذا الرد الذى يقنع العقول والعواطف ازداد المؤمنون إيمانًا على إيمانهم .

(جـ) قول أحدهم للرسول – ﷺ – ﴿ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي﴾ والرد عليه ، وقد حكى القرآن ذلك فى قوله– تعالى– : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) ﴾ [التوبة : ٤٩ – ٥٢] .

هذه الآيات الكريمة من سورة تسمى فى القرآن بسورة «التوبة» وهى على رأس السور التى فصلت الحديث عن المنافقين تفصيلا لا مزيد عليه ، وكان نزول كثير من آياتها فى أعقاب غزوة «تبوك» التى حدثت فى السنة التاسعة بعد الهجرة ، وكانت هذه الغزوة فى وقت شدة وحر ، وقد دعا الرسول ﷺ الناس إلى الخروج معه فى تلك

الغزوة ، كما دعاهم إلى البذل والإنفاق ، فلبى دعوته المؤمنون الصادقون ، أما المنافقون فقد جبنوا ورضوا بأن يقعدوا مع النساء ، وأشاعوا الإشاعات الكاذبة حول هذه الغزوة وعواقبها ، فنزلت عشرات الآيات من هذه السورة التى تسمى - أيضا - بالفاضحة ، لأنها فضحت المنافقين على رءوس الأشهاد ، وتسمى بالمنقرة ، لأنها نقرت عن قلوب المنافقين وكشفت خباياهم ، وتسمى كذلك بالمبعثرة والمثيرة والمدمرة ، لأنها بعثرت أسرار المنافقين وأثارت مثالبهم وعوراتهم ، وأهلكتهم . . .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول الآية الأولى من هذه الآيات أن رسول الله ﷺ حين أعد العدة للخروج إلى الروم فى غزوة تبوك قال لرجل من زعماء المنافقين يدعى الجد بن قيس : «هل لك يا جد فى قتال بنى الأصفر - أى : فى قتال الروم-»؟ فقال الجد : يا رسول الله أو تأذن لي في القعود ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى أن ما من رجل أشد حبا للنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن .

فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال له : «قد أذنت لك - أى : فى العقود- » ونزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي . . ﴾

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ وَمِنْهُم ﴾ قد تكرر فى هذه السورة عدة مرات ، وضمير الجمع يعود على المنافقين .

أى : ومن هؤلاء المنافقين الذين فصلنا لك يا محمد الحديث عنهم ، لكى تحذرهم ولكى يحذرهم معك أصحابك .

من هؤلاء المنافقين قوم غلب عليهم الفسق والفجور ، بدليل قول أحدهم لك بكل صفاته : ﴿ ائذن لى ﴾ فى القعود بالمدينة ، ﴿ ولا تفتنى ﴾ أى : ولا توقعنى فى المعصية والإثم بسبب خروجى معك إلى تبوك ، ومشاهدتى لنساء بنى الأصفر .

وعبر - سبحانه - عن قول هذا المنافق بالفعل المضارع ، لاستحضار تلك الحال لغرابتها ، فإن مثله فى نفاقه وفجوره لا يخشى إثم الافتتان بالنساء إذ لا يجد من دينه مانعا من غشيان الشهوات الحرام .

وقوله : ﴿ أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ رد عليه فيما قال ، وذم له على ما تفوه به .

أى : ألا إن هذا وأمثاله فى ذات الفتنة قد سقطوا ، لا فى أى شئ آخر مغاير لها .

وبدأ - سبحانه - الجملة الكريمة بأداة التنبيه «ألا» ، لتأكيد الخبر ، وتوجيه الأسماع إلى ما اشتمل عليه من توبيخ لهؤلاء المنافقين .

وقدم الجار والمجرور على عامله ، للدلالة على الحصر . أى فيها لا فى غيرها قد سقطوا وهووا إلى قاع سحيق .

قال الألوسى : « وفى التعبير عن الافتتان بالسقوط فى الفتنة ، تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم فى دركات الردى أسفل سافلين »[1] .

وقال الفخر الرازى ما ملخصه : «وفيه تنبيه على أن القوم إنما اختاروا القعود لئلا يقعوا فى الفتنة ، فالله - تعالى - بين أنهم فى عين الفتنة واقعون ، لأن أعظم أنواع الفتنة الكفر بالله وبرسوله ، والتمرد على قبول التكاليف التى كلفنا الله بها . .»[2] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ وعيد وتهديد لهم على أقوالهم وأفعالهم .

أى : وإن جهنم لمحيطة بهؤلاء الكافرين بما جاء من عند الله ، دون أن يكون لهم منها مهرب أو مفر .

وعبر عن إحاطتها بهم باسم الفاعل الدال على الحال ، لإفادة تحقيق ذلك حتى لكأنه واقع مشاهد .

قالوا : ويحتمل أنها محيطة بهم الآن ، بأن يراد بجهنم الأسباب الموصلة إليها من الكفر والنفاق وغير ذلك من الرذائل التى سقطوا فيها .

وقوله : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ... ﴾ بيان لنوع آخر من خبث نواياهم ، وسوء بواطنهم .

أى : ﴿ إِن تُصِبْكَ ﴾ يا محمد حسنة من نصر أو نعمة أو غنيمة - كما حدث يوم بدر - «تسؤهم» تلك الحسنة ، وتورثهم حزنا وغما ، بسبب شدة عداوتهم لك ولأصحابك .

﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ من هزيمة أو شدة - كما حدث يوم أحد - ﴿ يَقُولُوا ﴾ باختيال وعُجْب وشماتة ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ .

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٠ ص ١١٤ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٤٨ .

أى : قد تلافينا ما يهمنا من الأمر بالحزم والتيقظ ، من قبل وقوع المصيبة التى حلت بالمسلمين ، ولم نلق بأيدينا إلى التهلكة كما فعل هؤلاء المسلمون .

وقوله : ﴿ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ تصوير لحالهم ، ولما جبلوا عليه من شماتة بالمسلمين .

أى : عندما تصيب المسلمين مصيبة أو مكروه ، ينصرف هؤلاء المنافقون إلى أهليهم وشيعتهم - والفرح يملأ جوانحهم - ليبشروهم بما نزل بالمسلمين من مكروه .

قال الجمل : « فإن قلت : فلم قابل الله الحسنة بالمصيبة ، ولم يقابلها بالسيئة كما قال فى سورة آل عمران : ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ ؟

قلت : لأن الخطاب هنا للنبى ﷺ وهى فى حقه مصيبة يثاب عليها ، لا سيئة يعاتب عليها ، والتى فى آل عمران خطاب للمؤمنين »[1] .

وقوله : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا ... ﴾ إرشاد للرسول ﷺ إلى الجواب الذى يكبتهم ويزيل فرحتهم .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين الذين يسرهم ما يصيبك من شر ، ويحزنهم ما يصيبك من خير ، والذين خلت قلوبهم من الإيمان بقضاء الله وقدره ، قل لهم على سبيل التقريع والتبكيت . لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا وقدره علينا ﴿ هو مولانا ﴾ الذى يتولانا فى كل أمورنا ، ونلجأ إليه فى كل أحوالنا . وعليه وحده - سبحانه - نكل أمورنا وليس على أحد سواه .

وقوله : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ... ﴾ إرشاد آخر للرسول ﷺ إلى الجواب الذى يخرس ألسنة هؤلاء المنافقين ويزيل فرحتهم .

وقوله : ﴿ تَرَبَّصُونَ ﴾ التربص بمعنى الانتظار فى تمهل . يقال : فلان يتربص بفلان الدوائر ، إذا كان ينتظر وقوع مكروه به .

والحسنيان : مثنى الحسنى . والمراد بهما : النصر أو الشهادة .

أى : قل يا محمد لهؤلا المنافقين - أيضا - إنكم ما تنتظرون بنا إلا إحدى

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٨٨ .

العاقبتين اللتين كل واحدة منهما أحسن من جميع العواقب ، وهما إما النصر على الأعداء ، وفى ذلك الأجر والمغنم والسلامة ، وإما أن نقتل بأيديهم وفى ذلك الشهادة والفوز بالجنة والنجاة من النار .

قال الآلوسى : « والحاصل إن ما تنتظرونه بنا - أيها المنافقون - لا يخلو من أحد هذين الأمرين ، كل منهما عاقبته حسنى لا كما تزعمون من أن ما يصيبنا من القتل فى الغزو سوء ، ولذلك سررتم به .

وصح من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : «تكفل الله - تعالى - لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله ، وتصديق كلمته أن يدخله الجنة . أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة »[1] .

وقوله : ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ بيان لما ينتظر المؤمنون وقوعه بالمنافقين .

أى : ونحن معشر المؤمنين نتربص بكم أيها المنافقون إحدى السوءيين من العواقب : إما ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ ﴾ كائن ﴿ مِّنْ عِندِهِ ﴾ فيهلككم كما أهلك الذين من قبلكم ، وإما أن يصيبكم بعذاب كائن ﴿ بِأَيْدِينَا ﴾ بأن يأذن لنا فى قتالكم وقتلكم .

والفاء فى قوله : ﴿ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ للإفصاح .

أى : إذا كان الأمر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا ، فإنا معكم متربصون ما هو عاقبتكم ، وسترون أن عاقبتنا على كل حال هى الخير ، وأن عاقبتكم هى الشر .

وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة ، قد حكت طرفا من رذائل المنافقين ومن مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية ، وردت عليهم بما يكبتهم ، ويفضحهم على رءوس الأشهاد ، وبينت بأسلوب واضح مقنع لكل ذى عقل سليم ، أن دعاوى المنافقين كاذبة ، وأن أعذارهم واهية وأن حجة المؤمنين هى الساطعة التى تجعلهم يزدادون ثباتا على ثباتهم ، ويقينا على يقينهم بأنهم على الحق المبين .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١١٦ .

(د) طعنهم في عدالة النبي ﷺ عند تقسيمه للغنائم ورد القرآن الكريم عليهم ، كما في قوله - تعالى - : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) ﴾ [التوبة : ٥٨ ، ٥٩]

قال الإمام الرازي عند تفسيره لهاتين الآيتين : «اعلم أن المقصود من هاتين الآيتين : بيان نوع آخر من قبائح المنافقين وأكاذيبهم ، وهو طعنهم في الرسول ﷺ بسبب أخذ الصدقات من الأغنياء ، ويقولون إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته ، وينسبونه إلى أنه لا يراعي العدل . . .»[1] .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها : ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ، والإمام النسائي في سننه ، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : «بينما النبي ﷺ يقسم قَسْما إذا جاءه ذو الخويصره التميمي فقال : اعدل يا رسول الله . فقال له ﷺ : «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل» ؟

فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه . فقال ﷺ «دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدهم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، ويمرقون من الدين كما يمرق السهم في الرمية» .

قال أبو سعيد الخدري - راوي الحديث - : فنزلت فيهم هذه الآية : ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ .

وأخرجه ابن مردوية عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : «لما قَسّم النبي ﷺ غنائم غزوة حنين ، سمعت رجلا يقول : إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله قال : فأتيت النبي ﷺ فذكرت له ذلك فقال : «رحمة الله على موسى ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر» ونزلت هذه الآية ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ . . . ﴾ وقوله ﴿ يَلْمِزُكَ ﴾ أي يعيبك ويطعن عليك في قسمة الصدقات وغيرها من الأموال ، مأخوذ من اللمز وهو العيب ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ .

والمعنى : ومن هؤلاء المنافقين يا محمد طائفة تعيبك وتطعن عليك في قسمة الغنائم والصدقات ، زاعمين أنك لست عادلا في قسمتك .

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٤ ص ٤٥٥ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ : بيان لفساد لمزهم وطعنهم ، وإن الدافع إليه هو الطمع والشره فى حطام الدنيا و وليس الغضب من أجل إحقاق الحق ، أو من أجل نشر العدالة بين الناس .

أى : إن هؤلاء المنافقين إن أعطيتهم يا محمد من تلك الصدقات رضوا عنك ، وحكموا على هذا العطاء بأنه عدل حتى ولو كان ظلما ، وإن لم تعطهم منها سخطوا عليك ، واتهموك بأنك غير عادل حتى ولو كان عدم عطائهم هو الحق بعينه ، فهؤلاء لا يقولون ما يقولونه فيك غضبا للعدل ولا حماسة للحق ولا غيرة على الدين ، وإنما يقولون ما يقولون فيك من أجل مطامعهم الشخصية ، ومنافعهم الذاتية .

ثم وضح - سبحانه - المنهج الذى يليق بالعقلاء أصحاب العقائد السليمة فقال : ﴿ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ... ﴾ .

أى : ولو أن هؤلاء المنافقين الذين يلمزونك - أيها الرسول الكريم - فى تقسيم الغنائم ، لو أنهم رضوا بما أعطاهم الله ورسوله من عطاء ، وقالوا على سبيل القناعة والعفاف ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ أى : كفانا الله من فضله وكرمه ﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ أى : سيعطينا الله فى المستقبل المزيد من عطائه وإحسانه ، وسيعطينا رسوله ﷺ ما يغنينا عن أن نسأل غيره ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ أى : وقالوا بعد كل ذلك إنا إلى الله - تعالى - راغبون فى أن يوسع علينا ويغنينا عن سؤال غيره ، لأنه - سبحانه - له خزائن السموات والأرض .

لو أنهم قالوا ذلك ، لكان قولهم هذا يدل على صدق إيمانهم ، ورجاحة عقولهم ، وعفة نفوسهم ، ولكنهم قالوا ما هو كذب وسوء أدب مع رسولهم وهاديهم ﷺ حيث طعنوا فى قسمته ، وشكوا فى عدالته ، بقصد الإساءة إليه ﷺ ولذا رد الله - تعالى - عليهم بالرد الذى يفضحهم ويخرسهم ، حيث بين -سبحانه - أنهم قوم إن أعطوا من الصدقات ما يرضى مطامعهم قالوا هذا هو العدل ولو كان ظلما ، وإن لم يعطوا منها ما يشبع نهمهم قالوا هذا هو الظلم حتى ولو كان هذا هو عين العدل ، وقد أرشدهم - سبحانه - إلى المنهج السليم الذى لو سلكوه لكانوا من المؤمنين الصادقين ولكنهم أصروا على نفاقهم وسوء أدبهم فماتوا وهم فاسقون .

(هـ) قولهم فى النبى ﷺ هو أُذُن ، ورد القرآن عليهم ردا حكيما مبطلا لأكاذيبهم . واستمع إلى قوله - تعالى - : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾ [التوبة : ٦١] .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها : ما أخرجه ابن أبى حاتم عن السدى أنها نزلت فى جماعة من المنافقين منهم الجلاس بن سويد بن صامت ورفاعة بن عبد المنذر ووديعة بن ثابت وغيرهم قالوا ما لا ينبغى فى حق ﷺ ، فقال رجل منهم لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغ محمدا ﷺ ما تقولون فيقع فينا . فقال الجلاس : بل نقول ما شئنا ، ثم نأتيه فيصدقنا فإنه أذن .

ومرادهم - قبحهم الله - تعالى - بقولهم فى الرسول - ﷺ - أنه أُذُن : أنه كثير الاستماع والتصديق لما يقال له . والمعنى : ومن هؤلاء المنافقين يا محمد قوم يؤذونك ويقولون عنك إنك إنسان كثير الاستماع والتصديق لكل ما يقال لك دون تمييز بين ما هو حق وما هو باطل ، وبين ما هو خير وما هو شر وقوله : عز وجل - ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ رد عليهم بما يخرس ألسنتهم ويكبت أنفسهم . . .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التأنيب والتبكيت : سلمنا - كما تزعمون - أنى كثير السماع والتصديق لما يقال لى ، لكن هذه الكثرة ليست للشر والخير دون تمييز بينهما ، وإنما هى للخير ولما وافق شريعة الله -تعالى- فحسب .

وهذه الجملة الكريمة فى أعلى وأسمى درجات الحكمة والإقناع فى الرد على المرجفين والفاسقين لأنه - سبحانه - صدقهم فى كونه ﷺ أُذُنًا ، وذلك بما هو مدح له ﷺ حيث وصفه بأنه أذن خير لا شر ، وأذن طاعة لا معصية ، وأذن بر وتقوى لا أذن إثم وعدوان .

قال صاحب الانتصاف : « لا شئ أبلغ من الرد عليهم بهذا الوجه ، لأنه فى الأول إطماع لهم بالموافقه ، ثم كر على طمعهم بالحسم وأعقبهم فى تنقصه باليأس منه . . . ولا شئ أقطع من الإطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه »[1] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ تفسير وتوضيح لكونه ﷺ أذن خير لهم لا أذن شر عليهم .

(١) حاشية الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٤ .

أى : أن من مظاهر كونه ﷺ أذن خير ، أنه يؤمن بالله - تعالى - إيمانا حقا لا يحوم حوله شئ من الرياء أو الخداع أو غيرهما من ألوان السوء ، ويصدق المؤمنين فيما يقولون من أقوال توافق ما يرضى الله - تعالى - لأنهم أصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، فهم أهل للتصديق والقبول ، دون غيرهم من المنافقين الفاسقين ، وفضلا عن كل ذلك ، فهو ﷺ رحمه للذين آمنوا منكم - أيها المنافقون - إيمانًا صحيحا ، لأنه عن طريق إرشاده لهم إلى الخير ، واتباعهم لهذا الإرشاد ، يصلون إلى ما يسعدهم فى دنياهم وفى آخرتهم .

فهذه الجملة الكريمة وهى قوله - تعالى - : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ فتحت باب الإيمان والطاعة والتوبة لكل من يريد أن ينتقل من الشر إلى الخير ، ومن المعصية إلى الطاعة لأن الرسول ﷺ بجانب أنه أذن خير لكل مؤمن صادق فى إيمانه ، فهو فى الوقت ذاته هو الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ترهيب بعد الترغيب ، ووعيد بعد الوعد .

أى : والذين يؤذون رسول الله الذى هو أذن خير لا شر ، والذى هو أكمل المؤمنين إيمانا ، وأحرصهم على هداية الناس إلى الطريق المستقيم ، وأكثرهم رحمة وشفقة ورأفة بغيره ، لهم عذاب أليم فى دنياهم وآخرتهم ، لأنهم بإيذائهم له ﷺ بأى لون من ألوان الأذى ، يكونون قد استخفوا بمن مدحه الله - تعالى - بقوله : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

وبهذا نرى أن الآية الكريمة قد ردت على المنافقين ردا يكشف عن غبائهم وجهلهم وسوء أدبهم ، ويجعلهم محط احتقار العقلاء وازدرائهم ، كما أن هذا الرد قد جمع بين الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، مما يشهد بصدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه . .

(و) استهزاؤهم بالرسول ﷺ وبأصحابه إذا ماسئلوا قالوا ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ ورد القرآن عليهم ردا يفضحهم ويكشف عن جرائمهم ، وقد حكى القرآن ذلك فى قوله - تعالى- : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ

وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾ [التوبة: ٦٤ - ٦٦]

ومما جاء فى سبب نزول هذه الآيات ما روى عن زيد بن أسلم - رحمه الله - أن رجلا من المنافقين قال لعوف بن مالك فى غزوة تبوك ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا ، وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء ، فقال له كذبت ولكنك منافق ، والله لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف بن مالك إلى رسول الله فوجد القرآن قد سبقه .

قال زيد : قال عبد الله بن عمر : فنظرت إليه - أى : إلى المنافق - متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ أى : متعلقا بحبل يشد به الرحل فى بطن البعير - وجعل يقول : إنما كنا نخوض ونلعب ، فيقول له الرسول ﷺ «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون»[1] .

والمعنى : يحذر المنافقون ويخافون من أن تنزل فى شأنهم وحالهم سورة من سور القرآن الكريم ، تكشف ما انطوت عليه نفوسهم من أسرار خفية ، ومن أقوال سيئة كانوا يتناقلونها بينهم فيها ما فيها من الاستخفاف بالرسول ﷺ وبأصحابه المؤمنين الصادقين .

وقوله : ﴿ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ تهديد ووعيد لهم على نفاقهم وسوء أدبهم .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين المذبذبين بين الحق والباطل ، قل لهم ، على سبيل التهديد والتبكيت : افعلوا ما شئتم من الاستخفاف بتعاليم الإسلام ؛ إن الله - تعالى - مظهر ما تحذرونه من إنزال الآيات القرآنية التى تفضحكم على رءوس الأشهاد ، والتى تكشف عن أسراركم ، وتهتك أستاركم ، وتظهر للمؤمنين ما أردتم إخفاءه عنهم .

وأسند الإخراج إلى الله - تعالى - للإشارة إلى أنه - سبحانه - يخرج ما يحذرونه إخراجًا لا مزيد عليه من الكشف والوضوح ، حتى يحترس منهم المؤمنون ، ولا يغتروا بأقوالهم المعسولة .

وقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ بيان للون آخر من معاذيرهم الكاذبة ، وجبنهم عن مواجهة الحقائق .

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٣٣٣ - طبعة دار المعارف .

وأصل الخوض - كما يقول الألوسى - الدخول فى مائع مثل الماء والطين ، ثم كثر حتى صار اسمًا لكل دخول فيه تلويق وأذى[1] .

أى : ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عن سبب استهزائهم بتعاليم الإسلام ليقولن لك على سبيل الاعتذار ، إنما كنا نفعل ذلك على سبيل الممازحة والمداعبة لا على سبيل الجد .

وقوله : ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ إبطال لحجتهم ، وقطع لمعاذيرهم ، وتبكيت لهم على جهلهم وسوء أخلاقهم .

أى : قل لهم يا محمد - على سبيل التوبيخ والتجهيل - ألم تجدوا ما تستهزئون به فى مزاحكم ولعبكم - كما تزعمون - سوى فرائض الله وأحكامه وآياته ورسوله الذى جاء لهدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور ؟

فالاستفهام للإنكار والتوبيخ ، ودفع ما تذرعوا به من معاذير واهية .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ تأكيد لإبطال ما أظهروه من معاذير .

والاعتذار معناه محاولة محو أثر الذنب ، مأخوذ من قولهم : اعتذرت المنازل إذا اندثرت وزالت ، لأن المعتذر يحاول إزالة أثر ذنبه .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين المستهزئين بما يجب إجلاله واحترامه وتوقيره : قل لهم على سبيل التوبيخ والتجهيل -أيضاً- لا تشتغلوا بتلك المعاذير الكاذبة فإنها غير مقبولة ، لأنكم بهذا الاستهزاء بالله وآياته ورسوله ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أى : قد ظهر كفركم وثبت ، بعد إظهاركم الإيمان على سبيل المخادعة ، فإذا كنا قبل ذلك نعاملكم معاملة المسلمين بمقتضى نطقكم بالشهادتين فنحن الآن نعاملكم معاملة الكافرين بسبب استهزائكم بالله وآياته وسوله ﷺ لأن الاستهزاء بالدين . كما يقول الإمام الرازى : يعد من باب الكفر ، إذ يدل على الاستخفاف ، والأساس الأول فى الإيمان تعظيم الله - تعالى - بأقصى الإمكان ، والجمع بينهما محال[2] .

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٠ ص ١٣١ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٤٦٠ .

وقوله – تعالى – : ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ بيان لمظهر من مظاهر عدله – سبحانه – ورحمته .

أى : ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾ – أيها المنافقون – بسبب توبتهم وإقلاعهم عن النفاق ، ﴿ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾ أخرى منكم بسبب إصرارهم على النفاق ، واستمرارهم فى طريق الفسوق والعصيان .

بذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد كشفت عن سوء نيات المنافقين ، وعن تذبذبهم ، وردت عليهم بما يجعل كل عاقل يحتقرهم وينأى بنفسه عن مخالطتهم .

(ز) قولهم لمن على شاكلتهم : ﴿ لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ وتلقين الرسول ﷺ الرد عليهم ، وقد جاء ذلك فى قوله تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) ﴾ [التوبة : ٨١ – ٨٤] .

والمراد بالمخلفين : أولئك المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك ، بسبب ضعف إيمانهم ، وسقوط همتهم ، وسوء نيتهم .

والمعنى : فرح المخلفون من هؤلاء المنافقين بسبب قعودهم فى المدينة وعدم خروجهم إلى تبوك للجهاد مع الرسول ﷺ والمؤمنين ، وكرهوا أن يبذلوا شيئا من أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله – عز وجل – .

وإنما فرحوا بهذا القعود ، وكرهوا الجهاد ، لأنهم قوم خلت قلوبهم من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهبطت نفوسهم عن الارتفاع إلى معالى الأمور ، وآثروا الدنيا وشهواتها الزائلة على الآخرة ونعيمها الباقى .

وفى التعبير بقوله : ﴿ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ تحقير لهم ، وإهمال لشأنهم ، حتى لكأنهم شئ من سقط المتاع الذى يخلف ويترك ويهمل ، لأنه لا قيمة له ، أو لأن ضرره أكبر من نفعه .

وقوله :﴿ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ حكاية لأقوالهم التى تدل على ضعفهم وجبنهم وعلى أنهم قوم لا يصلحون للأعمال التي يصلح لها الرجال .

أى : وقال هؤلاء المنافقون المخلفون لغيرهم ، اقعدوا معنا فى المدينة ، ولا تخرجوا للجهاد مع المؤمنين ، فإن الحر شديد ، والسفر طويل ، وقعودكم يريحكم من هذه المتاعب ، ويحمل غيرنا وغيركم على القعود معنا ومعكم ، وبذلك ننال بغيتنا من تثبيط همة المجاهدين عن الجهاد فى سبيل الله .

وقوله : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ رد على أقوالهم القبيحة ، وأفعالهم الخبيثة ، أى ، قل يا محمد لهؤلاء المنافقين على سبيل التهكم بهم ، والتحقير من شأنهم : نار جهنم أشد حرا من هذا الحر الذى تخشونه وترونه مانعا من النفير بل هى أشد حرا من نار الدنيا . . .

روى الإمام مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «نار بنى آدم التى توقدونها . جزء من سبعين جزءا من نار جهنم . .»[1] .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : وقوله : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ استجهال لهم ، لأن من تصون مشقة ساعة ، فوقع بسبب ذلك التصون فى مشقة الأبد ، كان أجهل من كل جاهل .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ تذييل قصد به الزيادة فى توبيخهم وتحقيرهم .

أى : لو كانوا يفقهون أن نار جهنم أشد حرا ويعتبرون بذلك ، لما فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ، ولما كرهوا الجهاد ، ولما قالوا ما قالوا ، بل لحزنوا واكتأبوا على ما صدر منهم ، ولبادروا بالتوبة والاستغفار ، كما فعل أصحاب القلوب والنفوس النقية من النفاق والشقاق .

وقوله : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ وعيد لهم بسوء مصيرهم ، وإخبار عن عاجل أمرهم وآجله ، من الضحك القليل فى الدنيا والبكاء الكثير فى الآخرة .

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٦ فقد ساق هنا جملة من الأحاديث فى هذا المعنى .

والمعنى : إنهم وإن فرحوا وضحكوا طوال أعمارهم فى الدنيا ، فهو قليل بالنسبة إلى بكائهم فى الآخرة ، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية ، والمنقطع الفانى قليل بالنسبة إلى الدائم الباقى .

وفى معنى الآية قوله ﷺ كما جاء فى الحديث الصحيح : «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا» .

وقوله ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ تذييل قصدبه بيان عدالته ، سبحانه ، فى معاملة عباده .

أى : أننا ما ظلمناهم بتوعدنا لهم بالضحك القليل وبالبكاء الكثير ، وإنما هذا الوعيد حزاء لهم على ما اكتسبوه من فنون المعاصى ، وما اجترحوه من محاربة دائمة لدعوة الحق .

وجمع - سبحانه - فى قوله : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ بين صيغتى الماضى والمستقبل ، للدلالة على الاستمرار التجددى ما داموا فى الدنيا .

ثم بين - سبحانه - ما يجب على الرسول نحو هؤلاء المخلفين الكارهين للجهاد ، فقال : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾

قوله : ﴿ رَّجَعَكَ ﴾ من الرجع بمعنى تصيير الشئ إلى المكان الذى كان فيه أولا . والفعل رجع أحيانًا يستعمل لازما كقوله - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا .. ﴾ [الأعراف : ١٥٠] .

وفى هذه الحالة يكون مصدره الرجوع ، وأحيانا يستعمل متعديا كالآية التى معنا ، وكقوله - تعالى - : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ... ﴾[طه : ٤٠] وفى هذه الحالة يكون مصدره الرجع لا الرجوع .

والمعنى : فإن ردك الله - تعالى - من سفرك هذا - أيها الرسول الكريم - إلى طائفة من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك إلى تبوك ﴿ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾

معك فى غزوة أخرى بعد هذه الغزوة ﴿ فَقُل ﴾ لهم على سبيل الإهانة والتحقير ﴿ لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ ما دمت على قيد الحياة ﴿ وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ من الأعداء الذين أمرنى الله بقتالهم ، والسبب فى ذلك ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أيها المنافقون ﴿ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ ﴾ عن الخروج معى وفرحتم به فى ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ دعيتم فيها إلى الجهاد . فجزاؤكم وعقابكم أن تقعدوا ﴿ مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ أى : مع الذين تخلفوا عن الغزو لعدم قدرتهم على تكاليفه كالمرضى والنساء والصبيان . أو مع الأشرار الفاسدين الذين يتشابهون معكم فى الجبن والنفاق وسوء الأخلاق

وقال - سبحانه - : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ... ﴾ ولم يقل فإن رجعك الله إليهم ، لأن جميع الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول ﷺ إلى تبوك ، لم يكونوا من المنافقين ، بل كان هناك من تخلف بأعذار مقبولة ، كالذين أتوا إلى الرسول ﷺ ليحملهم معه ، فقال لهم : «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا «وأعينهم تفيض من الدمع حزنا» .

وقوله ﴿ لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ إخبار فى معنى النهى للمبالغة وجمع - سبحانه - بين الجملتين زيادة فى تبكيتهم ، وفى إهمال شأنهم ، وفى كراهة مصاحبتهم ...

وذلك ، لأنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوهم إلا خبالا ، ولو قاتلوا معهم ، لكان قتالهم خاليا من الغاية السامية التى من أجلها قاتل المؤمنون ؛ وهى إعلاء كلمة الله . وكل قتال خلا من تلك الغاية كان مآله إلى الهزيمة ..

هذا ، وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على أسوأ صفات المنافقين ، كما اشتملت على أشد ألوان الوعيد لهم فى الدنيا والآخرة «جزاء بما كانوا يكسبون» .

قال الجمل : « وفى قوله - تعالى - : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ... ﴾ الآية دليل على أن الشخص إذا ظهر منه منكر وخداع وبدعة ، يجب الانقطاع عنه ، وترك مصاحبته ، لأنه - سبحانه - منع المنافقين من الخروج مع الرسول ﷺ إلى الجهاد . وهو مشعر بإظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وإبعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات »[1] .

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠٥ .

وبعد أن بين - سبحانه - ما يجب على الرسول ﷺ أن يفعله معهم فى حياتهم ، أتبع ذلك ببيان ما يجب أن يفعله معهم بعد مماتهم ، فقال - تعالى- : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : « أمر الله - تعالى - رسوله محمدا ﷺ أن يبرأ من المنافقين ، وأن لا يصلى على أحد منهم إذا مات ، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له ، لأنهم كفروا بالله ورسوله ، وهذا حكم عام فى كل من عرف نفاقه ، وإن كان سبب نزول الآية فى رأس المنافقين عبد الله بن أبىّ بن سلول .

فقد أخرج البخارى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : لما توفى عبد الله بن أبىّ جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه أباه ، فأعطاه إياه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام ﷺ ليصلى عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ وقال يا رسول الله : كيف تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه . فقال ﷺ إنما خيرنى الله فقال : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ وسأزيد على السبعين . فقال عمر : يا رسول الله إنه منافق .

قال ابن عمر راوى الحديث : فصلى عليه رسول الله - ﷺ - فأنزل الله - تعالى - هذه الآية - .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : لما توفى عبد الله بن أبىّ ، دُعِى رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام عليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة ، تحولت حتى قمت فى صدره فقلت : يا رسول الله أعلى عدو الله تصلى القائل يوم كذا وكذا ، وأخذ يعدد أيامه قال : ورسول الله ﷺ يبتسم ، حتى إذا اكثرت عليه قال : تأخر عنى يا عمر ، إنى خيرت فاخترت ، قد قيل لى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ .. ﴾ ولم أعلم أنى لو زدت على السبعين غفر له لزدت .

قال عمر : ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه ، فعجبت من جرأتى على رسول الله ﷺ فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا .. ﴾ فما صلى رسول الله ﷺ بعد ذلك على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله- تعالى -»(١) .

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣١٨ ففيه جملة من الأحاديث فى هذا المعنى .

والمعنى : ولا تصل - أيها الرسول الكريم - على أحد من هؤلاء المنافقين - بعد مفارقته للحياة - ، ولا تقف على قبره عند الدفن أو بعده بقصد الزيارة أو الدعاء له ، وذلك لأن صلاتك عليهم ووقوفك على قبورهم شفاعه لهم ورحمة بهم وتكريم لشأنهم ، وهم ليسوا أهلا لذلك .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ تعليل للنهى عن الصلاة عليهم ، والوقوف على قبورهم .

أى : نهيناك يا محمد عن ذلك لأن هؤلاء المنافقين قد عاشوا حياتهم كافرين بالله ورسوله ، ومحاربين لدعوة الحق ، وماتوا وهم خارجون عن حظيرة الإسلام . وجمع - سبحانه - بين وصفهم بالكفر ووصفهم بالفسق ، زيادة فى تقبيح أمرهم وتحقير شأنهم ، فهم لم يكتفوا بالكفر وحده ، وإنما أضافوا إليه الفسق وهو الخروج عن كل قول طيب ، وخلق حسن ، وسلوك حميد ، وفعل كريم .

هذا والذى يتأمل هذه الآيات الكريمة ، يرى فيها الحوار الحكيم ، والرد السليم ، الذى يبطل فرح المنافقين لقعودهم عن الجهاد ، ويزهق ما قالوه لغيرهم : لا تنفروا فى الحر ، ويزيد المؤمنين ثباتا على ثباتهم وإيمانا على إيمان ، كما يزيدهم - أيضا - نفورا من هؤلاء المنافقين الذين كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم خارجون عن الإسلام .

(ح) قولهم : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ ورد القرآن عليهم بما يكشف عن كذبهم وتجردهم من كل خلق كريم ، واستمع إلى قوله - تعالى- : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٧) ﴾ [الأحزاب : ١٢ - ١٧]

هذه الآيات جاءت ضمن بضع عشرة آية ، تحدثت عن غزوة «الأحزاب» التى حدثت فى السنة الخامسة بعد الهجرة ، والتى كان موقف المنافقين فيها موقفا شائنا قبيحا ، بينما كان موقف المؤمنين الصادقين فيها يدل على رسوخ إيمانهم ، وحبهم لنبيهم ﷺ ، فقد استجابوا لما كلفهم به من حفر خندق حول المدينة ، ووقفوا خلفه يدافعون عن عقيدتهم بصدق وإخلاص ، فرزقهم الله - تعالى - النصر على أعدائهم ، ورد - سبحانه - هؤلاء الأعداء خائبين خاسرين . . . وقد افتتحت الآيات التى تحدثت عن هذه الغزوة بتذكير المؤمنين بفضل الله عليهم فقال - تعالى - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب : ٩ - ١١]

ثم أخذت الآيات الكريمة فى تذكير المؤمنين بالموقف السيئ الفاضح الذى وقفه المنافقون فى هذه الغزوة فقال - تعالى - : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

أى : واذكروا - أيضا - أيها المؤمنون - وقت أن كشف المنافقون وأشباههم عن نفوسهم الخبيثة وطباعهم الذميمة ، وقلوبهم المريضة ، فقالوا لكم وأنتم فى أشد ساعات الحرج والضيق : ﴿ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ بالنصر والظفر ﴿ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى : إلا وعدا باطلا ، لا يطابق الواقع الذى نعيش فيه ، حتى قال أحدهم : إن محمدا ﷺ كان يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يستطيع أن يذهب إلى الخلاء وحده .

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا . . . ﴾

أى : واذكروا - كذلك - أيها المؤمنون - وقت أن قالت لكم طائفة من هؤلاء المنافقين : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ أى : يا أهل المدينة ، لا مقام لكم فى هذا المكان الذى تقيمون فيه بجوار الخندق لحماية بيوتكم ومدينتكم ، فارجعوا إلى مساكنكم ، واستسلموا لأعدائكم .

قال الشوكانى : « وذلك أن المسلمين خرجوا فى غزوة الخندق ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلْع ، وجعلوا وجوههم إلى العدو ، وجعلوا الخندق بينهم وبين القوم . فقال هؤلاء المنافقونَ : ليس ها هنا موضع إقامة وأمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة »[1] .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين لم يكتفوا بهذا القول الذميم ، بل كانوا يهربون من الوقوف إلى جانب المؤمنين ، فقال - تعالى - : ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ﴾ .

أى : أنهم كانوا يحرضون غيرهم على ترك مكانه فى الجهاد ، ولا يكتفون بذلك ، بل كان كل فريق منهم يذهب إلى النبى ﷺ فيستأذنه فى الرجوع إلى بيوتهم ، قائلين له : يا رسول الله : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أى : خالية ممن يحرسها . يقال : دار ذات عورة إذا سهل دخولها لقلة حصانتها .

وهنا يكشف القرآن عن حقيقتهم ويكذبهم فى دعواهم فيقول : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ أى : والحال أن بيوتهم ليست كما يزعمون ، وإنما الحق أنهم يريدون الفرار من ميدان القتال ، لضعف إيمانهم ، وجبن نفوسهم .

روى أن بنى حارثة بعثوا أحدهم إلى رسول الله ﷺ ليقول له : إن بيوتنا عورة وليست دار من دور الأنصار مثل دورنا ، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا كى نرجع إلى دورنا ، فنمنع ذرارينا ونساءنا . فأذن لهم ﷺ .

فبلغ سعد بن معاذ ذلك فقال : يا رسول الله ، لا تأذن لهم ، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا فعلوا ذلك . . فردهم .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين جمعوا لأنفسهم كل نقيض ، فهم يسرعون إلى ما يؤذى المؤمنين ، ويبطئون عما ينفعهم ، فقال - تعالى - : ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً ﴾ .

والضمير فى قوله - تعالى : ﴿ دُخِلَتْ ﴾ للبيوت أو للمدينة . وفاعل الدخول من يدخل هذه البيوت أو المدينة من أهل الكفر والفساد . وأسند - سبحانه - الدخول إلى بيوتهم ، للإشعار بأن الأعداء يدخلونها وهم قابعون فيها .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٦ ص ٢٦٦ .

والأقطار : جمع قطر بمعنى الناحية والجانب والجهة .

والمراد بالفتنة هنا : الردة عن الإسلام أو قتال المسلمين .

وقوله ﴿ لآتَوْهَا ﴾ قرأه الجمهور بالمد بمعنى لأعطوها . وقرأه نافع وابن كثير ﴿ لأتَوْهَا ﴾ بالقصر ، بمعنى لجاءوها وفعلوها والتلبث : الإبطاء والتأخر .

والمعنى إن هؤلاء المنافقين الذين يزعمون أن بيوتهم عورة ، هم كاذبون فى زعمهم ، وهم أصحاب نيات خبيثة ، ونفوس عارية عن كل خير .

والدليل على ذلك ، أن بيوتهم هذه التى يزعمون أنها عورة ، لو اقتحمها عليهم مقتحم من المشركين وهم قابعون فيها ، ثم طلب منهم أن ينضم إليهم فى مقاتلة المسلمين ، لسارعوا إلى تلبية طلبه ، ولكانوا مطيعين له كل الطاعة ، وما تأخروا عن تلبية طلبه إلا لمدة قليلة ، يعدون العدة خلالها لقتالكم - أيها المسلمون - وللانسلاخ عن كل رابطة تربطكم بهم . لأن عقيدتهم واهنة ، ونفوسهم مريضة خائرة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن من الصفات اللازمة للمنافقين ، نقضهم لعهودهم فقال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾ .

أى : ولقد كان هؤلاء المنافقون قد حلفوا من قبل غزوة الأحزاب ، أنهم سيكونون معكم فى الدفاع عن الحق وعن المدينة المنورة التى يساكنونكم فيها ، ولكنهم لم يفوا بعهودهم .

﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾ أى : مسئولا عنه صاحبه الذى عاهد الله - تعالى - على الوفاء ، وسيجازى - سبحانه - كل ناقض لعهده ، بما يستحقه من عقاب .

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن هؤلاء المنافقين ، فوبختهم على سوء فهمهم ، وعلى جبنهم وخورهم ، وعلى سلاطة ألسنتهم .. فقال - تعالى - : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ .. ﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنافقين : ﴿ لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ ، لأن كل إنسان لابد له من نهاية تنتهى عندها حياته ، سواء أكانت تلك النهاية عن طريق القتل بالسيف ، أم عن طريق الموت على الفراش .

وما دام الأمر كذلك ، فعلى هؤلاء المنافقين أن يعلموا : أن الجبن لا يؤخر الحياة ، وأن الشجاعة لا تقدمها عن موعدها . وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِن فَرَرْتُم .. ﴾ جوابه محذوف لدلالة ما سبق عليه . أى : إن فررتم لن ينفعكم فراركم .

وقوله : ﴿ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ تذييل قصد به زجرهم على الجبن الذى استولى عليهم .

أى : إن فراركم من الموت أو القتل ، إن نفعكم - على سبيل الفرض - لفترة من الوقت ، فلم ينفعكم طويلا ، لأنكم لن تتمتعوا بالحياة بعد هذا الفرار إلا وقتا قليلا ، ثم ينزل بكم قضاء الله - تعالى - الذى لا مرد لكم منه ، فما تفرون منه هو نازل بكم قطعا .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يقرعهم بحجة أخرى لا يستطيعون الرد عليها ، فقال : ﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول - لهؤلاء الجاهلين : من هذا الذى يملك أن يدفع ما يريده الله - تعالى - بكم من خير أو شر ، ومن نعمة أو نقمة ، ومن موت أو حياة !!

إن أحدا لا يستطيع أن يمنع قضاء الله عنكم ، فالاستفهام للإنكار والنفى .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ تأكيد لما قبله من أن أحدًا لا يستطيع أن يدفع عنهم قضاء الله - تعالى- .

أى : أن هؤلاء المنافقين - لو كانوا يفقهون - لعلموا أن أحدًا ليس فى قدرته أن يرد قضاء الله - تعالى - فيهم ، وأنهم مهما حاولوا أن يفروا من قدر الله فلن يقدروا ، ولن يجدوا من يعصمهم من عذاب الله - تعالى - إن أراده بهم ، ولن يجدوا من يمنع عنهم رحمته إن أرادها بهم - أيضا - .

قال - تعالى - : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وبهذا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكت بأمانة وصدق جانبا من جبن المنافقين ، ومن سوء أدبهم مع خالقهم - عز وجل - ومع رسولهم ﷺ ومن أعذارهم

القبيحة ، ومن نقضهم لعهودهم ، وأمرت الرسول ﷺ بلفظ «قل» مرتين ، أن يرد عليهم بما يرشدهم - لو كانوا يعقلون -بأن فرارهم من الموت لن يفيدهم شيئا فهو واقع بهم لا محالة ، وبأن أحدًا لن يستطيع أن يدفع قضاء الله - تعالى - فيهم .

وبهذه التوجيهات الحكيمة ينتفع كل ذى قلب منيب ، وكل ذى عقل سليم .

(ح) قولهم للرسول ﷺ كذبًا ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ وقولهم ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ وقوله : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ .

وقد وردت مزاعمهم هذه فى سورة واحدة تسمى بسورة «المنافقون» التى حكت أقوالهم الذميمة ، ثم ردت عليهم بما يفضحهم ويخزيهم حيث قال - تعالى - : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾ [المنافقون : ١ - ٤]

والمتأمل فى هذه السورة الكريمة يرى أن الله - تعالى - قد افتتحها بالحديث عن صفة هى من أبرز صفات المنافقين ألا وهى صفة الكذب والخداع ، فقال : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ أى : إذا حضر المنافقون إلى مجلسك - أيها الرسول الكريم - قالوا لك على سبيل الكذب والمخادعة والمداهنة ، نشهد أنك رسول من عند الله - تعالى - وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك .

وعبروا عن التظاهر بتصديقهم له ﷺ بقولهم ﴿ نَشْهَدُ ﴾ - المأخوذ من الشهادة التى هى إخبار عن أمر مقطوع به - وأكدوا هذه الشهادة بإن واللام ، للإيهام بأن شهادتهم صادقة ، وأنهم لا يقصدون بها إلا وجه الحق ، وأن ما على ألسنتهم يوافق ما فى قلوبهم .

قال الشوكانى : أكدوا شهادتهم بإن واللام ، للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم ، مع خلوص نياتهم ، والمراد بالمنافقين ، عبد الله بن أبىّ وأتباعه .

ومعنى نشهد : نحلف ، فهو يجرى مجرى القسم ، ولذا يتلقى بما يتلقى به القسم . .

ومثل نشهد : نعلم ، فإنه يجرى مجرى القسم كما قال الشاعر :

ولقد علمت لتأتين منيتى   إن المنايا لا تطيش سهامها[1]

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها ، من كونه ﷺ رسول من عند الله - تعالى - حقا .

وجملة : ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ معطوفة على قوله : ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ ﴾

أى : إذا حضر المنافقون إليك - أيها الرسول الكريم - قالوا كذبًا وخداعا : نشهد إنك لرسول الله ، والله - تعالى - ﴿ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ حقا سواء شهدوا بذلك أم لم يشهدوا فأنت لست فى حاجة إلى هذه الشهادة التى تخالف بواطنهم .

﴿ وَاللَّهُ ﴾ - تعالى - ﴿ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى قولهم : نشهد إنك لرسول الله ، لأن قولهم هذا يباين ما أخفته قلوبهم المريضة ، من كفر ونفاق وعداوة لك وللحق الذى جئت به .

والإيمان الحق لا يتم إلا إذا كان ما ينطق به اللسان ، يوافق ويواطئ ما أضمره القلب ، وهؤلاء قد قالوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، فثبت كذبهم فى قولهم : نشهد إنك لرسول الله . .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : أى فائدة فى قوله - تعالى - : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ ؟ قلت : لو : قال : قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، لكان يوهم أن قولهم هذا كذب ، فوسط بينهما قوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ ليميط هذا الإيهام»[2] .

وجئ بالفعل ﴿ يَشْهَدُ ﴾ فى الإخبار عن كذبهم فيما قالوه ، للمشاكلة ، حتى يكون إبطال خبرهم مساويا لإخبارهم ولما نطقوا به .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٥ ص ٢٣٠ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٣٨ .

ثم بين - سبحانه - جانبا من الوسائل التى كانوا يستعملونها لكى يصدقهم من يسمعهم فقال - تعالى - : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ ..

والأيمان : - بفتح الهمزة - جمع يمين ، والجُنَّة - بضم الجيم - ما يستتر به المقاتل ليتقى ضربات السيوف والرماح والنبال ..

أى : إن هؤلاء المنافقين إذا ظهر كذبهم ، أو إذا جوبهوا بما يدل على كفرهم ونفاقهم ، أقسموا ، بالأيمان المغلظة بأنهم ما قالوا أو فعلوا ما يسىء إلى النبى ﷺ أو إلى المؤمنين ..

فهم يستترون بالحلف الكاذب ، حتى لا يصيبهم أذى من المؤمنين ، كما يستتر المقاتل بترسه من الضربات .

وقد حكى القرآن كثيرا من أيمانهم الكاذبة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾(1) .

وقوله - سبحانه : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ... ﴾(2) .

وقوله - عز وجل - : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾(3) .

قال الآلوسى : «قال قتادة : كلما ظهر شىء منهم يوجب مؤاخذتهم ، حلفوا كاذبين ، عصمة لأموالهم ودمائهم ..» (4) .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾ للتفريع على ما تقدم .

أى : اتخذوا أيمانهم الفاجرة ذريعة أمام المؤمنين لكى يصدقوهم ، فتمكنوا عن طريق هذه الأيمان الكاذبة ، من صد بعض الناس عن الصراط المستقيم ، ومن تشكيكهم فى صحة ما جاء به النبى ﷺ .

فهم قد جمعوا بين رذيلتين كبيرتين : إحداهما : تَعمُّد الأيمان الكاذبة ، والثانية : إعراضهم عن الحق ، ومحاولتهم صرف غيرهم عنه .

---

(1) سورة التوبة الآية ٥٦ .
(2) سورة التوبة الآية ٧٤ .
(3) سورة التوبة الآية ٦٢ .
(4) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٠٩ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ تذييل قصد به بيان قبح أحوالهم ، وسوء عاقبتهم .

و«ساء» : فعل ماض بمعنى بئس فى إفادة الذم .

أى : إن هؤلاء المنافقين بئس ما كانوا يقولونه من أقوال كاذبة ، وساء ما كانوا يفعلونه من أفعال قبيحة ، سيكونون بسببها يوم القيامة فى الدرك الأسفل من النار .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ يعود إلى ما تقدم ذكره من الكذب ، ومن الصد عن سبيل الله ، ومن قبح الأقوال والأفعال .

أى : ذلك الذى ذكر من حالهم الذى دأبوا عليه من الكذب والخداع والصد عن سبيل الله ... سببه أنهم ﴿ آمَنُوا ﴾ أى : نطقوا بكلمة الإسلام بألسنتهم دون أن يستقر الإيمان فى قلوبهم ، ﴿ ثم كفروا ﴾ أى : ثم ارتكسوا فى الكفر واستمروا عليه ، وظهر منهم ما يدل على رسوخهم فيه ظهورا جليا ، كقولهم : ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ .. ﴾ وكقولهم للمجاهدين : ﴿ لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ... ﴾ .

﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى : فختم الله - تعالى - عليها بالكفر نتيجة إصرارهم عليه ، فصاروا ، بحيث لا يصل إليها الإيمان .

﴿ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ أى : فهم لا يدركون حقيقة الإيمان أصلا ، ولا يشعرون به ، ولا يفهمون حقائقه لانطماس بصائرهم .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ مبتدأ ، وقوله ﴿ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ خبر : والباء للسببية و ﴿ ثُمَّ ﴾ للتواخى النسبى ، لأن إبطان الكفر على إظهار الإيمان أعظم من الكفر الصريح ، وأشد ضررا وقبحا .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم ، فما معنى قوله : ﴿ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ ؟ .

قلت : فيه ثلاثة أوجه : أحدها : آمنوا : أى نطقوا بكلمة الشهادة ، وفعلوا كما يفعل من يدخل فى الإسلام ، ثم كفروا . أى ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع الله عليه المؤمنين من قولهم : إن كان ما يقوله محمد ﷺ حقا فنحن حمير ..

والثاني : آمنوا ، أي : نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام ، كقوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

الثالث : أن يراد أهل الردة منهم .»[1]

ثم رسم - سبحانه - لهم بعد ذلك صورة تجعل كل عاقل يستهزئ بهم ، ويحتقرهم ويسمو بنفسه عن الاقتراب منهم . فقال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ .

قال القرطبي : «قال ابن عباس : كان عبد الله بن أبيّ ، وسيما جسيما صحيحا صبيحا ، ذلق اللسان ، فإذا قال : سمع النبي ﷺ مقالته»[2] .

وقال الكلبي : المراد ابن أبيّ ، وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير ، كانت لهم أجسام ومنظر ، وفصاحة . .

و ﴿خُشُبٌ ﴾ - بضم والشين - جمع خَشبة - بفتحهما - كثَمرة وثُمر .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي : كأنهم خُشْب - بضم الخاء وسكون الشين - كبَدَنة وبُدْن .

أي : وإذا رأيت - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المنافقين ، أعجبك أجسامهم ، لكمالها وحسن تناسقها ، وإن يقولوا قولا حسبت أنه صدق ، لفصاحته ، وأحببت الاستماع إليه لحلاوته .

وجملة : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ مستأنفة ، أو خبر مبتدأ محذوف .

أي : كأنهم وهم جالسون في مجلسك ، مستندين على الجدران ، وقد خلت قلوبهم من الخير والإيمان ، كأنهم بهذه الحالة ، مجموعة من الأخشاب الطويلة العريضة ، التي استندت إلى الحوائط ، دون أن يكون فيها حسن ، أو نفع ، أو عقل .

فهم أجسام تعجب ، وأقوال تغري بالسماع إليها ، ولكنهم قد خلت قلوبهم من كل خير ، وامتلأت نفوسهم بكل الصفات الذميمة . فهم كما قال القائل :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٣٩ .

(٢) تفسير القرطبي جـ ١٨ ص ١٢٤ .

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ ... جسم البغال وأحلام العصافير

وشبههم - سبحانه - بالخشب المسندة على سبيل الذم لهم ، أى : كأنهم فى عدم الانتفاع بهم ، وخلوهم من الفائدة كالأخشاب المسندة إلى الحوائط الخالية من أية فائدة .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : «فإن قلت : ما معنى ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ ؟ قلت : شبهوا فى استنادهم - وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بالخشب المسندة إلى الحوائط لأن الخشب إذا انتفع به ، كان فى سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، وما دام متروكا فارغا غير منتفع به ، أسند إلى الحائط ، فشبهوا به فى عدم الانتفاع .

ويجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب ، المسندة إلى الحيطان وشبهوا بها فى حسن صورهم ، وقلة جدواهم ، والخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يخاطب . .»[(١)] .

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد وصفهم بتلك الصفة من أجل التنفير منهم وعدم الاغترار بمظهرهم لأنهم كما قال القائل :

لا تخدعنك اللحى ولا الصور ... تسعة أعشار من ترى بقر
تراهم كالسحاب منتشرا ... وليس فيه لطالب مطر
فى شجر السرو منهم شبه ... له رواء وماله ثمر

ثم وصفهم - سبحانه - بعد ذلك بالجبن والخور فقال : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ . . . ﴾ .

والصيحة : المرة من الصياح ، والمراد بها ما ينذر ويخيف أى : يظنون لجبن قلوبهم ولسوء نواياهم ، وخبث نفوسهم - أن كل صوت ينادى به المنادى ، لنشدان ضالة ، أو انفلات دابة . . إنما هو واقع عليهم ضار بهم مهلك لهم .

قال الآلوسى : «قوله : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ . أى : واقعة عليهم ، ضارة لهم لجبنهم وهلعهم .

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٤٠ .

وقيل : كانوا على وجل من أن ينزل الله - تعالى - فيهم ما يهتك أستارهم ، ويبيح دماءهم وأموالهم .

والوقف على ﴿عليهم﴾ الواقع مفعولا ثانيا لـ ﴿يحسبون﴾ وهو وقف تام .

وقوله - تعالى - : ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ استئناف . أى : هم الكاملون فى العداوة والراسخون فيها ، فإن أعدى الأعداء ، العدو المداجى .

﴿ فَاحْذَرْهُمْ﴾ لكونهم أعدى الأعداء ، ولا تغترن بظواهرهم . .»[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ دعاء عليهم بالطرد من رحمة الله - تعالى - وتعجيب لكل مخاطب من أحوالهم التى بلغت النهاية فى السوء والقبح .

عن ابن عباس أن معنى ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ : طردهم من رحمته ولعنهم ، وكل شىء فى القرآن قتل فهو لعن . .[2] .

أى لعن الله - تعالى - هؤلاء المنافقين ، وطردهم من رحمته ، لأنهم بسبب مسالكهم الخبيثة ، وأفعالهم القبيحة ، وصفاتهم السيئة . . صاروا محل مقت العقلاء ، وعجبهم ، إذ كيف ينصرفون عن الحق الواضح إلى الباطل الفاضح ، وكيف يتركون النور الساطع ، ويدخلون فى الظلام الدامس ؟!! .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة : قد فضحت المنافقين ، وحذرت من شرورهم ، ووصفتهم بالصفات التى تخزيهم ، وتكشف عن دخائلهم المريضة .

ثم وصفهم - سبحانه - بصفات أخرى ، لا تقل فى قبحها وبشاعتها عن سابقتها فقال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون : ٥ - ٨] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١١٢ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١١٣ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة ، فصلها الإمام ابن كثير - رحمه الله - فقال ما ملخصه :

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل فى عبد الله بن أبىّ بن سلول وأتباعه ، فقد ذكر محمد بن إسحاق ، أنه لما قدم النبى ﷺ المدينة بعد غزوة أحد ، قام عبد الله بن أبىّ ، والرسول ﷺ يخطب للجمعة ، فقال : أيها الناس ، هذا رسول الله ﷺ أكرمكم الله به . . فأخذ بعض المسلمين بثيابه من نواحيه وقالوا له : اجلس يا عدو الله ، لست لهذا المقام بأهل ، وقد صنعت ما صنعت - يعنون مرجعه بثلث الناس دون أن يشتركوا فى غزوة أحد - .

فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بُجْرًا - أى : أمرا منكرا - أن قمت أشدد أمره .

فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد ، فقالوا له : ويلك ، ما لك ؟ . . ارجع للنبى يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى .

وفى رواية أنه قيل له : لو أتيت رسول الله ﷺ ، فسألته أن يستغفر لك ، فجعل يلوى رأسه ويحركه استهزاء . .

ثم قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - ما ملخصه : وذكر ابن إسحاق فى حديثه عن غزوة بنى المصطلق - وكانت فى شعبان من السنة الخامسة من الهجرة - أن غلاما لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - اسمه الجهجاه بن سعيد الغفارى تزاحم على ماء مع رجل من الأنصار اسمه سنان بن وَبْر . .

فقال سنان : يا معشر الأنصار ، وقال الجهجاه : يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبىّ - وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم - وقال : أوقد فعلوها ؟!! قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا . والله ما مثلنا وجلابيب قريش - يعنى المهاجرين - إلا كما قال القائل : «سمن كلبك يأكلك» والله لئن رجعنا إلى المدينة ، ليخرجن الأعز منها الأذل .

فذهب زيد إلى رسوله الله ﷺ فأخبره الخبر . .

فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله ، مر عباد بن بشر فليضرب عنق عبد الله بن أبىّ بن سلول .

فقال ﷺ : فكيف إذا الناس تحدث يا عمر ، أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن ناد يا عمر فى الناس بالرحيل .

فلما بلغ عبد الله بن أبىّ أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ أتاه فاعتذر إليه ، وحلف بالله ما قال الذى قاله عنه زيد بن أرقم . .

وراح رسول الله ﷺ مهجرا فى ساعة كان لا يروح فيها ، فلقيه أسيد بن الحضير ، فقال له : يا رسول الله ، لقد رحت فى ساعة ما كنت تروح فيها .

فقال رسول الله ﷺ أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبىّ ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سَيُخْرِجُ الأعزُّ منها الأذلَّ .

فقال أسيد : فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل . .

وإنما خرج رسول الله ﷺ فى هذا الوقت الذى لم يتعود السفر فيه ، ليشغل الناس عن الحديث ، الذى كان من عبد الله بن أبىّ .

قال ابن إسحق : ونزلت سورة المنافقين فى ابن أبىّ وأتباعه ، فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم ثم قال : هذا الذى أوفى الله بأذنه .

وفى رواية أنه ﷺ بعث إلى زيد فقرأها عليه ثم قال : «إن الله صدقك» ثم قال ابن إسحاق : وبلغنى أن عبد الله بن عبد الله بن أبىّ بلغه ما كان من أمر أبيه ، فأتى رسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله بلغنى أنك تريد قتل أبى . . فإن كنت فاعلا ، فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده متى ، وإنى أخشى أن تأمر غيرى بقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أرى قاتل أبى يمشى على الأرض فأقتله ، فأكون قد قتلت مؤمنا بكافر ، فأدخل النار .

فقال ﷺ : «بل نترفق به ونحسن صحبته ، ما بقى معنا» .

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبد الله بن عبد الله بن أبىّ على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه قال له : وراءك ، فقال له أبوه : ويلك مالك ؟ فقال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك الرسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل .

فلما جاء رسول الله ﷺ وكان يسير فى مؤخرة الجيش شكا إليه عبد الله بن أبى ما فعله ابنه عبد الله معه .

فقال ابنه : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله ﷺ .

فقال عبد الله لأبيه : أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن(١) .

والآن وبعد ذكر جانب من هذه الآثار التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات ، نعود إلى تفسيرها فنقول وبالله التوفيق .

قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ بيان لصفة أخرى من صفات المنافقين ، تدل على عنادهم وإصرارهم على كفرهم ونفاقهم .

والقائل لهم : ﴿ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ جماعة من المؤمنين ، على سبيل النصح لهؤلاء المنافقين لعلهم يقلعون عن كفرهم وفجورهم .

والمراد باستغفار رسول الله ﷺ لهم : توبتهم من ذنوبهم ، وتركهم لنفاقهم ، وإعلان ذلك أمامه ﷺ لكى يدعو الله - تعالى - لهم بقبول توبتهم .

وقوله : ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ من اللى بمعنى الإمالة من جانب إلى آخر ، يقال لوى فلان رأسه ، إذا أمالها وحركها ، وهو كناية عن التكبر والإعراض عن النصيحة .

أى : وإذ قال قائل لهؤلاء المنافقين : لقد نزل فى شأنكم ما نزل من الآيات القرآنية التى تفضحكم . . فتوبوا إلى الله توبة نصوحا ، وأقعلوا عن نفاقكم ، وأقبلوا نحو رسول الله ﷺ بقلب سليم ، لكى يستغفر الله - تعالى - لكم ، بأن يلتمس منه قبول توبتكم . . ما كان من هؤلاء المنافقين ، إلا أن تكبروا ولجوا فى طغيانهم ، وأمالوا رءوسهم استهزاء وسخرية من نصحهم .

﴿ وَرَأَيْتَهُمْ ﴾ أيها المخاطب ﴿ يَصُدُّونَ ﴾ أى : يعرضون عن النصيحة ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن قبولها ، لانطماس بصائرهم ، وإصرارهم على ما هم فيه من باطل وجحود للحق .

قال الآلوسى ما ملخصة : «روى أنه لما صدق الله - تعالى - زيد بن أرقم فيما أخبر به عن ابن أبىّ ، مقت الناس ابن أبىّ ، وقال له بعضهم : امض إلى رسول الله ﷺ واعترف بذنبك ، يستغفر لك ، فلوى رأسه إنكارا لهذا الرأى ، وقال لهم : لقد أشرتم علىّ بالإيمان فآمنت ، وأشرتم علىّ بأن أعطى زكاة مالى فأعطيت . . ولم يبق لكم إلا أن تأمرونى بالسجود لمحمد ﷺ .

---

(١) لمعرفة هذه الآثار بالتفصيل راجع ابن جرير جـ٢٨ جـ ٧١ ، وتفسير ابن كثير جـ٨ ص ١٥٢ .

وفى حديث أخرجه أحمد والشيخان .. أن رسول الله ﷺ دعاهم ليستغفر لهم ، فلووا رءوسهم ..»[1] .

والتعبير بقوله : ﴿ تَعَالَوْا ﴾ تتضمن إرادة تخليص هؤلاء المنافقين مما هم فيه من ضلال ، وإرادة ارتفاعهم من انحطاط فيه إلى علو يدعون إليه ، لأن الأصل فى كلمة «تعال» أن يقولها من كان فى مكان عال ، لمن هو أسفل منه .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ يرسم صورة بغيضة لهم وهم يتركون دعوة الناصح لهم ، بعناد وتكبر وغرور ، ويراهم الرائى بعينه وهم على تلك الصورة المنكرة ، التى تدل على جهالاتهم وإعراضهم عن كل خير .

وقوله - سبحانه - : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ .. ﴾ تيئيس له ﷺ من إيمانهم ، ومن قبولهم للحق .

ولفظ ﴿ سواء ﴾ اسم مصدر بمعنى الاستواء ، والمراد به الفاعل . أى : مستو ، ولذلك يوصف به كما يوصف بالمصدر ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ .. ﴾ أى : مستوية .

أى : إن هؤلاء الراسخين فى الكفر والنفاق ، قد استوى عندهم استغفارك لهم وعدم استغفارك ، فهم لتأصل الجحود فيهم صاروا لا يفرقون بين الحق والباطل ، ولا يؤمنون بثواب أو عقاب .. ولذلك فلن يغفر الله - تعالى - لهم مهما حرصت على هدايتهم وصلاحهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ تعليل لانتفاء المغفرة من الله - تعالى - لهم .

أى : لن يغفر الله - تعالى - لهم ، لأن سنته - سبحانه - قد اقتضت أن لا يهدى إلى طاعته ، وأن لا يشمل بمغفرته ، من فسق عن أمره ، وآثر الباطل على الحق ، والكفر على الإيمان ، لسوء استعداده ، واتباعه لخطوات الشيطان .

وقوله - سبحانه - : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ... ﴾ كلام مستأنف جار مجرى التعليل لفسقهم ، وحكاية لجانب من

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١١٢

أقوالهم الفاسدة . . والقائل هو عبد الله بن أبىّ ، كما جاء فى روايات أسباب النزول لهذه الآيات ، والتى سبق أن ذكرنا بعضها .

ونسب - سبحانه - القول إليهم جميعا ، لأنهم رضوا به ، وقبلوه منه .

ومرادهم بمن عند رسول الله ﷺ س : المهاجرون الذين تركوا ديارهم فى مكة واستقروا بالمدينة .

أى : إن هؤلاء المنافقين لن يغفر الله - تعالى - لهم ، لأنهم فسقوا عن أمره ، ومن مظاهر فسوقهم وفجورهم ، أنهم أيدوا زعيمهم فى النفاق ، عندما قال لهم : لا تنفقوا على من عند رسول الله من فقراء المهاجرين ، ولا تقدموا لأحد منهم عونا أو مساعدة ، حتى ينفضوا من حوله . أى : حتى يتفرقوا من حوله . يقال : انفض القوم : إذا فنيت أزوادهم يقال : نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفض ، إذا انتهى زاده . وليس مرادهم حتى ينفضوا ويتفرقوا عنه ، فإذا فعلوا ذلك فانفقوا عليهم . وإنما مرادهم ، استمروا على عدم مساعدتكم لهم ، حتى يتركوا المدينة ، وتكون مسكنا لكم وحدكم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾ والخزائن : جمع خزينة ، وهى ما يخزن فيها المال والطعام وما يشبههما ، والمراد بها أرزاق العباد التى يمنحها الله - تعالى - لعباده .

أى : ولله - تعالى - وحده لا لأحد غيره ، ملك أرزاق العباد جميعا : فيعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ولكن المنافقين لا يفقهون ذلك ولا يدركونه ، لجهلهم بقدرة الله - تعالى - ولاستيلاء الجحود والضلال على نفوسهم .

ثم حكى - سبحانه - قولا آخر من أقوالهم القبيحة فقال : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ .

والقائل هو عبد الله بن أبىّ بن سلول ، ولكن القرآن نسب القول إليهم جميعا لأنهم رضوا بقوله ، ووافقوه عليه .

وجاء الأسلوب بصيغة المضارع ، لاستحضار هذه المقابلة السيئة ، وتلك الصورة البغيضة لهؤلاء القوم .

والأعز : هو القوى لعزته ، بمعى أنه يغلب غيره ، والأذل هو الذى يغلبه غيره لذلته وضعفه .

وأراد عبد الله بن أبى بالأعز ، نفسه ، وشيعته من المنافقين ، وأراد بالأذل ، الرسول ﷺ ومن معه من المهاجرين وغيرهم من المؤمنين الصادقين .

والمراد بالرجوع فى قوله ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا ﴾ الرجوع إلى المدينة بعد انتهاء غزوة بنى المصطلق .

أى : يقول هؤلاء المنافقون - على سبيل التبجح وسوء الأدب - لئن رجعنا إلى المدينة بعد انتهاء هذه الغزوة ، ليخرجن الفريق الأعز منا الفريق الأذل من المدينة ، حتى لا يبقى فيها أحد من هذا الفريق الأذل ، بل تصبح خالية الوجه لنا . وقد رد الله - تعالى - على مقالتهم الباطلة هذه بما يخرس ألسنتهم فقال : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

أى : لقد كذب المنافقون فيما قالوه ، فإن لله - تعالى - وحده العزة المطلقة والقوة التى لا تقهر ، وهى - أيضا - لمن أفاضها عليه من رسله ومن المؤمنين الصادقين ، وهى بعيدة كل البعد عن أولئك المنافقين .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بإعادة حرف الجر ، لتأكيد أمر هذه العزة وأنها متمكنة منهم لأنها مستمدة من إيمانهم بالله - تعالى - وحده .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ استدراك قصد به تجهيل هؤلاء المنافقين ، أى ليست العزة إلا لله - تعالى - ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك ، ولا يعرفونه لاستيلاء الجهل والغباء عليهم ، لأنهم لو كانت لهم عقول تعقل ، لعلموا أن العزة لدعوة الحق ، بدليل انتشارها فى الآفاق يوما بعد يوم ، وانتصار أصحابها على أعدائهم حينا بعد حين ، وازدياد سلطانهم وقتا بعد وقت .

قال صاحب الكشاف : «قوله - تعالى- : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ ﴾ أى : الغلبة والقوة لله - تعالى - ، ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ، ومن المؤمنين ، وهم الأخصاء بذلك ، كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين .

وعن الحسن بن على - رضى الله عنهما - أن رجلا قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيها ، قال : ليس بتيه ، ولكنه عزة ، وتلا هذه الآية»(١) .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٤٣ .

وقال الإمام الرازى : «العزة غير الكبر ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه – لغير الله– ، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، وإكرامها عن أن يضعها فى غير موضعها اللائق بها ، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه ، وإنزالها فوق منزلتها . فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة وتختلف من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالضعة ، فالتواضع محمود ، والضعة مذمومة والكبر مذموم والعزة محمودة . .»[1] .

هذا ، وإن المتدبر لهذه الآيات الكريمة وفى أسباب نزولها ، ليرى فيها ألوانا من العظات والعبر .

يرى فيها التصرف الحكيم من الرسول ﷺ إذ أنه ﷺ بمجرد أن بلغته تلك الأقوال التى قالها عبد الله بن أبىّ ، لكى يثير الفتنة بين المسلمين ، ما كان منه إلا أن أمر عمر بن الخطاب ، بأن ينادى فى الناس بالرحيل . . لكى يشغل الناس عما تفوه به ابن أبىّ ، حتى لا يقع بينهم ما لا تحمد عقباه .

كما يرى كيف أنه ﷺ عالج تلك الأحداث بحكمة حكيمة فعندما أشار عليه عمر – ﷺ – بقتل ابن أبىّ . . ما كان منه ﷺ إلا أن قال له : يا عمر ، كيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟! وأبى ﷺ أن يأمر بقتله ؛ بل ترك لعشيرته من الأنصار تأديبه وتوبيخه .

ولقد بلغ الحال بابنه عبد الله ﷺ وهو أقرب الناس إليه ، أن يمنعه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله ﷺ بدخولها .

كما يرى المتدبر لهذه الآيات . والأحداث التى نزلت فيها ، أن النفوس إذا جحدت الحق واستولت عليها الأحقاد ، واستحوذ عليها الشيطان . . أبت أن تسلك الطريق المستقيم ، مهما كانت معالمه واضحة أمامها . .

فعبد الله بن أبىّ وجماعته ، وقفوا من الدعوة الإسلامية موقف المحارب لها ولأتباعها وسلكوا فى إذاعة السوء حول الرسول ﷺ وحول أصحابه كل مسلك . . مع أن آيات القرآن الكريم ، كانت تتلى على مسامعهم صباح مساء ، ومع أن إرشادات الرسول ﷺ كانت تصل إليهم يوما بعد يوم ، ومع أن المؤمنين الصادقين كانوا لا يكفون عن نصحهم ووعظهم . .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ١٥١ .

كما أن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب ، ضحى الإنسان من أجله بكل شيء . . فعبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سلول ، يقول للرسول ﷺ : يا رسول الله بلغنى أنك تريد قتل أبى ، فإن كنت لابد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه . .

ثم يقفه على باب المدينة شاهرا سيفه ، ثم يمنع أباه من دخولها حتى يأذن له الرسول ﷺ بدخولها ، وحتى يقول : إن الرسول ﷺ هو العزيز وأنه – أى : ابن سلول – هو الذليل ، كما نرى فى هذه الآيات الكريمة وفى غيرها من الآيات التى سبق لنا الحديث عنها : الحوار الحكيم المشتمل على المنطق السليم ، وعلى الدليل الواضح ، وعلى البرهان الساطع ، الذى يشهد بأن أتباع شريعة الإسلام هم على الحق المبين ، وأن المنافقين فى أقوالهم إنما يتبعون الهوى ، وأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، ولذا احتقرهم العقلاء فى كل زمان ومكان ، لأن الحق أحق أن يتبع ، ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

* * *



الفصل السادس

حوار حول ما أحله الله ـ تعالى ـ وما حرمه

قضية التحليل والتحريم من القضايا التى حكى القرآن الكريم أقوال المشركين بشأنها ، وناقشهم فيما أحلوه وحرموه من المآكل والمشارب والنذور والذبائح مناقشة منطقية حكيمة ، ورد على ماتناقلوه من عادات بالية ، ومن تقاليد موروثة ردودا فيها ما فيها من الهداية والتوجيه السليم لكل عاقل . .

وفى أواخرسورة الأنعام بضع عشرة آية حكت ما أحله المشركون وما حرموه عن جهل وسفاهة ، ولقنت الرسول ﷺ الرد الشافى الذى يزهق أباطيل أعدائه ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) ﴾ [الأنعام : ١٣٦ - ١٤٠] .

والمتدبر لهذه الآيات الكريمة ، يراها قد ساقت بأسلوبها الحكيم بعض الرذائل التى كانت متفشية فى المجتمع الجاهلى .

أما الرذيلة الأولى فملخصها : أنهم كانوا يجعلون من زروعهم وأنعامهم وسائر أموالهم ، نصيبا لله - تعالى - ونصيبا لأوثانهم ، فيشركون هذه الأوثان فى أموالهم ، فما كان لله - تعالى - صرفوه إلى الضيفان والمساكين ، وما كان للأوثان أنفقوه عليها وعلى سدنتها ، فإذا رأوا ماجعلوه لله أزكى صرفوه إلى الأوثان ، وإذا رأوا ما جعلوه للأوثان أزكى تركوه لها .

ولفظ «ذرأ» بمعنى خلق . يقال : ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا ، أى : خلقهم وأوجدهم .

أى : وجعل هؤلاء المشركون مما خلقه الله - تعالى - من الزروع والأنعام نصيبا لله يعطونه للفقراء والمساكين ، وجعلوا لأصنامهم نصيبا آخر يقدمونه للقائمين على خدمة هذه الأصنام ، فقالوا فى القسم الأول : هذا لله نتقرب به إليه ، وقالوا فى القسم الثانى : وهذا لشركائنا نتوسل به إليها . وأفعالهم وأقوالهم هذه إنما هى لون من خرافاتهم ومزاعمهم .

ثم فصل - سبحانه - ماكانوا يعملونه بالنسبة لهذه القسمة الفاسدة فبين : أن ما كان من هذه الزروع والأنعام من القسم الثانى الذى هو للأصنام ، حرموا الفقراء وغيرهم منه ، وما كان من القسم الأول الذى هو لله حسب زعمهم ، جاروا عليه وأخذوا منه مايعطونه لسدنة أصنامهم الذين يقومون بخدمتها وطرح التراب عنها . . .

وقد عقب القرآن على هذه القسمة الجائرة بقوله : ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : ساء وقبح حكمهم وقسمتهم حيث آثروا مخلوقا عاجزا عن كل شىء ، على خالق قادر على كل شىء ، فهم بجانب عملهم الفاسد من أساسه لم يعدلوا في القسمة .

هذه هى الرذيلة الأولى من رذائلهم ، أما الرذيلة الثانية فهى أن كثيرًا منهم كانوا يقتلون أولادهم ، ويئدون بناتهم لأسباب لا تمت إلى العقل السليم بصلة . وقد حكى القرآن ذلك فى قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ .

أى : ومثل ذلك التزيين فى قسمة الزروع والأنعام بين الله والأوثان ، زين للمشركين شركاؤهم من الشياطين أو السدنة قتل بناتهم خشية العار أو الفقر فأطاعوهم فيما أمروهم به من المعاصى والآثام ، وقد فعلوا معهم ذلك ليهلكوهم ، وليخلطوا لهم الحق بالباطل .

ثم سلى الله تعالى نبيه ﷺ وهدد أعداءه فقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ .

أى . ولو شاء الله ألا يفعل الشركاء ذلك التزيين أو المشركون ذلك القتل لما فعلوه ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات بسبب ما يفعلونه ، بل دعهم وما يفترونه من الكذب ، فإنهم لسوء استعدادهم آثروا الضلالة على الهداية .

والفاء فى قوله : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ فصيحة . أى : إذا كان ما قصصناه عليك بمشيئة الله ، فدعهم وافتراءهم ولا تبال بهم ، فإن فيما يشاؤه الله حكما بالغة .

ثم حكى القرآن رذيلة ثالثة من رذائلهم المتعددة ، وهى أن أوهام الجاهلية وضلالاتها ساقتهم إلى عزل قسم من أموالهم لتكون حكرا على آلهتهم بحيث لا ينتفع بها أحد سوى سدنتها ، ثم عمدوا إلى قسم من الأنعام فحرموا ركوبها وعمدوا إلى قسم آخر فحرموا أن يذكر اسم الله عليها عند ذبحها أو ركوبها إلى آخر تلك الأوهام المفتراة .

استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك فيقول : ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ .

أى : ومن بين أوهام المشركين وضلالاتهم أنهم يقتطعون بعض أنعامهم وأقواتهم من الحبوب وغيرها ويقولون : هذه الأنعام وتلك الزروع محجورة علينا أى : محرمة ممنوعة ، لا يأكل منها إلا من نشاء ، يعنون : خدم الأوثان والرجال دون النساء . أى : لا يأكل منها إلا خدم الأوثان والرجال فقال . قالوا ذلك على سبيل الزعم والكذب منهم .

هذا هو النوع الأول الذى ذكرته الآية من أنواع ضلالاتهم .

أما النوع الثانى فهو قوله - تعالى - : ﴿ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ أى : وقالوا مشيرين إلى طائفة أخرى من أنعامهم : هذه أنعام حرمت ظهورها فلا تركب ولا يُحمَل عليها ، يعنون بها البحائر والسوائب والوصائل والحوامى[1] التى كانوا يزعمون أنها تعتق وتقصى لأجل الآلهة .

وأما النوع الثالث من أنواع اختراعاتهم الذى ذكرته الآية فهو قوله : ﴿ وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ .

أى : وقالوا أيضًا هذه أنعام لا يذكر اسم الله عليها عند الذبح ، وإنما يذكر عليها أسماء الأصنام لأنها ذبحت من أجلها .

وقد عقب - سبحانه - على تلك الأقسام الثلاثة الباطلة بقوله : ﴿ افْتِرَاءً عَلَيْهِ ﴾ أى : فعلوا ما فعلوا من هذه الأباطيل وقالوا ما قالوا من تلك المزاعم من أجل الافتراء على الله وعلى دينه ، فإنه - سبحانه - لم يأذن لهم فى ذلك ولا رضيه منهم .

(١) البحيرة : الناقة التى تلد خمسة أبطن آخرها ذكر كانوا يشقون أذنها ويتركونها لآلهتهم . والسائبة : اسم للناقة التى يتركها صاحبها فلا تنحر لأنها نجت فى الحرب أو نذرها للأصنام .

والوصيلة : اسم للناقة التى تلد أول ما تلد أنثى ثم تثنى بأنثى كانوا يتركونها للأصنام . والحام : اسم للفحل إذا لقح ولد ولده قالوا حمى ظهره فلا يركب ويترك حتى يموت .

ثم ختمت الآية بهذا التهديد الشديد حيث قال :- سبحانه - ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : سيجزيهم الجزاء الشديد الأليم بسبب هذا الافتراء القبيح .

ثم يحكى القرآن الرذيلة الرابعة من رذائلهم وملخصها : أنهم زعموا أن الأجنة التى فى بطون هذه الأنعام المحرمة ، ما ولد منها حيًا فهو حلال للرجال ومحرم على النساء ، وما ولد ميتًا اشترك فى أكله الرجال والنساء .

استمع إلى القرآن وهو يفضح زعمهم هذا فيقول : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ ومرادهم بما فى بطون هذه الأنعام أجنة البحائر والسوائب .

أى : ومن فنون كفرهم أنهم قالوا ما فى بطون هذه الأنعام المحرمة إذا نزل منها حيًا فأكله حلال للرجال دون والنساء ، وإذا نزل ميتًا فأكله حلال للرجال والنساء على السواء .

وفى رواية العوفى عن ابن عباس أن المراد بما فى بطونها اللبن ، فقد كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم وكانت الشاة إذا ولدت ذكرًا ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء .

وقوله : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ تهديد لهم . أى : سيجزيهم بما هم أهله من العذاب المهين جزاء وصفهم أو بسبب وصفهم الكذب على الله فى أمر التحليل والتحريم على سبيل التحكم والتهجم بالباطل على شرعه . إنه - سبحانه - حكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه ، عليم بأعمال عباده من خير أو شر وسيجازيهم عليها .

وإلى هنا تكون الآيات الأربعة التى بدأت بقوله - تعالى - : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ .. إلخ . قد قصت علينا أربع رذائل من أفعال المشركين وأقوالهم .

وإن العاقل ليعجب وهو يستعرض هذه الضلالات - التى حكتها الآيات - يعجب لما تحملوه فى سبيل ضلالاتهم من أعباء مادية وخسائر وتضحيات ، يعجب للعقيدة الفاسدة وكيف تكلف أصحابها الكثير ومع ذلك فهم مصرون على اعتناقها ، وعلى التقيد بأغلالها ، وأوهامها وتبعاتها .

لكأن القرآن وهو يحكى تلك الرذائل وما تحمله أصحابها فى سبيلها يقول لأتباعه - من بين ما يقول - إذا كان أصحاب العقائد الفاسدة قد ضحوا حتى بفلذات أكبادهم إرضاء لشركائهم . . فأولى بكم ثم أولى أن تضحوا فى سبيل عقيدتكم الصحيحة ، وملتكم الحنيفية السمحة بالأنفس والأموال .

هذا وقد عقب القرآن بعد إيراده لتلك الرذائل بقوله : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : « قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم ، وضيقوا على أنفسهم فى أموالهم ، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم . وأما فى الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم »(١) .

والتعبير بخسر بدون ذكر مفعول معين يقع عليه الفعل للإشارة إلى أن خسارتهم خسارة مطلقة من أى تحديد ، فهى خسارة دينية وخسارة دنيوية - كما قال ابن كثير- .

ثم بين - سبحانه - نتيجة ذلك القتل والتحريم فقال : ﴿ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ أى : قد ضلوا عن الصراط المستقيم بأقوالهم وأفعالهم القبيحة وما كانوا مهتدين إلى الحق والصواب .

« روى البخارى عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ » (٢) .

وبعد أن حكى القرآن الكريم جانبا مما أحله المشركون وحرموه عن جهالة وسفاهة أوحى- أيضا - جانبا من مظاهر قدرته - سبحانه - ومن مظاهر فضله على الناس ، أخذ القرآن الكريم بعد ذلك فى محاورة هؤلاء الضالين ، وفى الرد عليهم بأسلوب منطقى حكيم فقال - تعالى - : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٨١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٨١ .

أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) ﴾ [الأنعام: ١٤٣ - ١٤٥].

ولفظ «الزوج» المراد به هنا المفرد إذا كان معه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل لأن أحدهما ذكر ، والآخر أنثى .

والمعنى : ثمانية أصناف خلقها الله - تعالى - لكم - أيها الناس - لتنتفعوا بها أكلا وركوبا وحملا وحلبا وغير ذلك .

ثم فصل - سبحانه - هذه الأزواج الثمانية فقال : من الضأن اثنين هما : الكبش والنعجة . ومن المعز اثنين هما : التيس والعنز .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يوبخهم على جهلهم فقال : ﴿ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ ﴾ .

أى : قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والزمهم الحجة : أحرم الله - تعالى - الذكرين وحدهما من الضأن والمعز ، أم الأنثيين وحدهما ، أم الأجنة التى اشتملت عليها أرحام إناث الزوجين كليهما ، سواء أكانت تلك الأجنة ذكورًا أم إناثا ؟!!

وقوله - سبحانه - : ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : أخبرونى بأمر معلوم من جهته - عز وجل - جاءت به الأنبياء ، يدل على أنه - سبحانه - قد حرم شيئا مما حرمتموه إن كنتم صادقين فى دعوى هذا التحريم .

والأمر هنا فى قوله - تعالى - : ﴿نبئونى﴾ للتعجيز والإفحام ، لأنهم لا دليل عندهم من العقل أو النقل يدل على صحة تحريمهم لبعض الأنعام دون بعض ثم قال - تعالى - : ﴿ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ ﴾ هما : الجمل والناقة ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾ هما : الثور وأنثاه البقرة ﴿قل﴾ لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التبكيت - أيضا - فى أمر هذين النوعين :

أحرم الله – تعالى – الذكرين وحدهما من الجمال والبقر أم الأنثيين وحدهما ، أم الأجنة التى اشتملت عليها أرحام إناث الزوجين كليهما سواء أكانت تلك الأجنة ذكورا أم إناثا ؟!!

قوله – تعالى – : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا ﴾ تكرير للإفحام والتبكيت .

أى : أكنتم حاضرين حين وصاكم الله وأمركم بهذا التحريم ؟ لا ، ما كنتم حاضرين فمن أين لكم هذه الأحكام الفاسدة ؟

فالجملة الكريمة تبكتهم غاية التبكيت على جهالاتهم وافترائهم الكذب على الله ، والاستفهام فى قوله –تعالى – : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ للنفى والإنكار .

أى : لا أحد أشد ظلما من هؤلاء المشركين الذين يفترون على الله الكذب بنسبتهم إليه – سبحانه – تحريم مالم يحرمه لكى يضلوا الناس عن الطريق القويم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وقوله ، ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل افترى ، أى : افترى عليه – تعالى – جاهلا بصدور التحريم .

وإنما وصف بعدم العلم مع أن المفترى عالم بعدم الصدور ، إيذانًا بخروجه فى الظلم عن الحدود والنهايات لأنه إذا كان المفترى بغير علم يعد ظالمًا فكيف بمن يفترى الكذب وهو عالم بذلك .

ثم ختمت الآية بقوله – تعالى – : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : لا يهديهم إلى الطريق الحق بسبب ظلمهم ، وإيثارهم طريق الغى على طريق الرشد .

هذا ، والمتأمل فى هاتين الآيتين الكريمتين يراهما قد ردتا على المشركين بأسلوب له– مع سهولته وتأثيره – الطابع المنطقى الذى يزيد المؤمنين إيمانًا بصحة هذا الدين ، وصدق هذا القرآن ، ويقطع على المعارضين والملحدين كل حجة وطريق .

وتقرير ذلك – كما قال بعض العلماء – أن تطبق قاعدة (السّبر والتقسيم) فيقال ، إن الله – تعالى – خلق من كل صنف من المذكورات نوعين : ذكرًا وأنثى ، وأنتم أيها المشركون حرمتم بعض الأنعام ، فلا يخلو الأمر فى هذا التحريم من :

١ – أن يكون تحريمًا معللا بعلة .

٢ - أو أن يكون تحريمًا تعبديًا ملقى من الله - تعالى - .

ولا جائز أن يكون تحريمًا معللا ، لأن العلة إن كانت هى (الذكورة) فأنتم أبحتم بعض الذكور وحرمتم بعضا ، فلم تجعلوا الأمر فى الذكورة مطردًا وإن كانت العلة هى (الأنوثة) فكذلك الأمر : حيث حرمتم بعض الإناث وحللتم بعضا ، فلن تطرد العلة ، ومثل هذا يقال إذا جعلت العلة هى اشتمال الرحم من الأنثى على النوعين ، لأنها حينئذ تقتضى أن يكون الكل حراما فلماذا أحلوا بعضه .

وهذا كله يؤخذ من قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ ﴾

فبطل إذن أن يكون التحريم معللا .

ولا جائز أن يكون التحريم تعبديا لا يُدرَى له علة ، أى : مأخوذ عن الله ، لأن الأخذ عن الله إما بشهادة توصيته بذلك وسماع حكمه به ، وقد أنكر هذا عليهم بقوله : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا ﴾ وإما أن يكون برسول أبلغهم ذلك ، وهم لم يأتهم رسول بذلك ، وفى هذا يقول - جل شأنه - متحديا لهم : ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

وإذن فما قالوه من التحريم إنما هو افتراء وضلال»[1] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ بعد إلزام المشركين وتبكيتهم ، وبيان أن ما يتقولونه فى أمر التحريم افتراء محض . بعد كل ذلك أمره بأن يبين لهم ما حرمه الله عليهم فقال : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ .

أى : ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المفترين على الله الكذب فى أمر التحليل والتحريم وغيرهما قل لهم على سبيل التوبيخ والتجهيل : لا أجد فيما أوحاه الله إلىَّ من القرآن طعاما محرما على آكل يريد أن يأكله من ذكر أو أنثى .

والجملة الكريمة تفيد أن طريق التحريم والتحليل إنما هو الوحى وليس مجرد الهوى والتشهى ، وأن الأصل فى الأشياء الحل إلا أن يرد نص بالتحريم .

(١) سورة الأنعام والأهداف الأولى للإسلام ص٨٣ لفضيلة الأستاذ محمد المدنى .

ثم بين - سبحانه - ما حرمه فقال : ﴿إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ .

أى : لا أجد فيما أوحاه الله إلى الآن شيئًا محرما من المطاعم إلا أن يكون هذا الشىء أو ذلك الطعام ﴿ميتة﴾ أى : بهيمة ماتت حتف أنفها .

﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ أى : دما مصبوبا سائلا كالدم الذى يخرج من المذبوح عند ذبحه ، لا الدم الجامد كالكبد والطحال ، والسفح : الصب والسيلان .

﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ﴾ أى : اللحم لأنه المحدث عنه ، أو الخنزير لأنه الأقرب ، أو جميع ما ذكر من الميتة والدم ولحم الخنزير .

﴿رِجْسٌ﴾ : قذر خبيث تعافه الطباع السليمة وضار بالأبدان ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أى : خروجا عن الدين ، لكونه عند ذبحه قد ذكر عليه غير اسمه - تعالى - من صنم أو وثن أو طاغوت أو نحو ذلك .

والإهلال : رفع الصوت عند رؤية الهلال ، ثم استعمل لرفع الصوت مطلقا ، ومنه إهلال الصبى ، والإهلال بالحج ، وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم سموا عليها أسماءها - كاللات والعزى - ورفعوا بها أصواتهم ، وسمى ذلك إهلالا .

وإنما سمى ﴿ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ فسقا ، لتوغله فى باب الفسق ، والخروج عن الشريعة الصحيحة ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾ .

ثم بين - سبحانه - حكم المضطر فقال : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ :

أى : فمن أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شىء مما ذكر ، بأن ألجئ بإكراه أو جوع مهلك - مع فقد الحلال - إلى أكل شىء من هذه المحرمات التى كانوا فى الجاهلية يستحلونها ، فلا إثم عليه فى أكلها .

ثم قيد - سبحانه - حالة الاضطرار بقوله : ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ .

أى : فمن أصابته ضرورة قاهرة ألجأته إلى الأكل من هذه الأشياء المحرمة حالة كونه غير باغ فى أكله ، أى غير طالب للمحرم وهو يجد غيره . أو غير طالب له للذته ، أو على جهة الاستئثار به على مضطر آخر بأن ينفرد بتناوله فيها عن الآخر .

أو حالة كونه - أيضًا - غير عادٍ فيما يأكل ، أى : غير متجاوز سد الجوعة فلا إثم عليه فى هذه الأحوال .

وباغٍ : مأخوذ من البغاء ؛ وهو الطلب . تقول : بغيته بغاء وبغى بغية وبغية أى : طلبته .

وعاد : اسم فاعل بمعنى متعد ، تقول : فلان عدا طوره إذا تجاوز حده وتعداه إلى غيره فهو عاد ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ .

وقوله ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى : فإن ربك واسع المغفرة والرحمة لا يؤاخذ المضطرين ، ولايكلف الناس بما فوق طاقتهم ، وإنما هو رءوف رحيم بهم يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر .

هذا ، والآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات فى هذه الأربعة وإنما المقصود منها الرد على مزاعم المشركين فيما حرموه بغير علم من البحائر والسوائب وغيرها .

قال ابن كثير : «الغرض من سياق هذه الآية الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك . فأمر - تعالى - رسوله أنه لايجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم ، وأن الذى حرمه هو الميتة وما ذكر معها وما عدا ذلك فلم يحرم ، وإنما هو عفو مسكوت عنه . فكيف تزعمون أنه حرام ؟ ! ومن أين حرمتموه ولم يحرمه الله - تعالى-؟! وعلى هذا فلا ينفى تحريم أشياء أخرى فيما بعد هذا . كما جاء النهى عن الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذى مخلب من الطير»[1] .

وقال القرطبى : «والآية مكية ، ولم يكن فى الشريعة فى ذلك الوقت محرم غير هذه الأشياء ، ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة وزيد فى المحرمات كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وغير ذلك ، وحرم رسول الله ﷺ بالمدينة أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير»[2] .

والخلاصة : أن الآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات فى هذه الأربعة ، فهناك محرمات أخرى نزلت بعد ذلك ، وإنما المقصود بها الرد على مزاعم المشركين الذين حرموا ما أحله الله - تعالى - وأحلوا ما حرمه ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : لاحلال إلا ما حرمتموه ، ولا حرام إلا ما أحللتموه ، ولو كنتم عقلاء لاتبعتم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٨٤ . (٢) تفسير القرطبى جـ٧ ص١١٦ .

ماجاءكم به رسول الله ﷺ من عند ربه - عز وجل - فى هذا الشأن ، ولأطعتموه فيما يأمركم به أو ينهاكم عنه ، وفيما يحله لكم وفيما يحرمه عليكم .

ثم حكى القرآن الكريم بعد ذلك شبهات أخرى تمسك بها المشركون فى شركهم وفى جهالاتهم وفى تحريمهم لما أحله الله - تعالى - ، وفى تحليلهم لما حرمه ، ثم رد على كل ذلك ردا حكيما يحق الحق ويبطل الباطل فقال - تعالى - : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠) قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾ [الأنعام: ١٤٨ - ١٥٣] .

أى : سيقول لك المشركون يا محمد على سبيل الجدال بالباطل ، والحوار المتعنت الذى لا يقبله عقل سليم ، سيقولون لك : لو شاء الله - تعالى - عدم إشراكنا ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ، ولو شاء الله ألا نحرم شيئا مما حرمناه من الحرث والأنعام وغيرهما لتمت مشيئته ولما حرمنا شيئا مما حرمناه ، ولكن الله - تعالى - لم يشأ ذلك ، بل شاء لنا أن نشرك معه فى العبادة هذه الأصنام ، وأن نحرم ما حرمنا ، فلماذا تطالبنا يامحمد بتغيير مشيئة الله ، وتدعونا على الدخول فى دينك الذى لم يشأ الله لنا الدخول فيه ؟

ولاشك أن قولهم هذا لحمته وسداه الكذب والجهل ، فإن الله – تعالى – لم يأمر بالفحشاء ، ومشيئته – سبحانه – لا يعلمها أحد سواه ، وقد بين لنا – سبحانه – عن طريق رسله الكرام طريق الخير وطريق الشر ، وأمرنا باتباع الحق واجتناب الباطل ، كما أمرنا أن نبنى حياتنا على ما أحله لنا ، وأن ننبذ ما حرمه علينا ، ولكن الجاحدين والمعاندين والجاهلين أبوا إلا أن يسندوا كفرهم وفسوقهم ومخالفتهم لما أحله الله – تعالى – ولما حرمه ، إلى مشيئة الله – تعالى – وقد رد –سبحانه– على أكاذيبهم هذه بمايبطلها فقال : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾ .

أى : مثل هذا التكذيب من مشركى مكة للرسول ﷺ فعل الذين من قبلهم مع رسلهم ثم أمر الله – تعالى – رسوله ﷺ أن يطالبهم بالدليل على مزاعمهم فقال : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ .

أى : قل لهم – يا محمد – على سبيل التوبيخ والتعجيز : هل عندكم من علم ثابت تعتمدون عليه فى قولكم ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ ؟ إن كان عندكم هذا العلم فأخرجوه لنا لنتحاور معكم فيه ، فإن العاقل هو الذى لا يتكلم بدون علم ، ولا يحيل على مشيئة الله التى لا يعرف عنها شيئا ، والحق الذى لا يحوم حوله شك ، أنكم – أيها المشركون – ما تتبعون فى أقوالكم هذه إلا الظنون الباطلة ، وما أنتم إلا تكذبون على الله – تعالى – وعلى الناس فيما تدعون وتزعمون .

وقل لهم – أيضا – أيها الرسول الكريم – : إن لله – تعالى – وحده الحجة البالغة ، والبينة الواضحة التى وصلت الى أعلى درجات الكمال ، ولو شاء – سبحانه – لهداكم أجمعين ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل شاء هداية من صرفوا اختيارهم إلى طريق سلوك الحق ، أما الذين صرفوا اختيارهم إلى اتباع طريق الباطل ، فهم فى طغيانهم يعمهون .

وقل لهم كذلك – يا محمد – على سبيل التعجيز والتبكيت : أحضروا لنا شهداءكم الذين يشهدون أن الله – تعالى – قد حرم عليكم هذا الذى زعمتم تحريمه من الأنعام والحرث وغيرهما ، واعلم – أيها الرسول الكريم – أنهم لو أحضروهم – على سبيل الفرض والتقدير – فلا تقبل شهادتهم لأنها شهادة باطلة ، واحذر أن تتبع أهواء هؤلاء الجاحدين الذين كذبوا الآيات الدالة على صدقك ، والذين لا يؤمنون بيوم القيامة وما فيه من حساب ، والذين يسوون بين عبادة الخالق وعبادة المخلوق .

ثم بعد هذا الرد المفصل والحكيم على شبهات وأكاذيب هؤلاء المشركين فيما أحلوه وحرموه فى شأن الذبائح والنذور والمطاعم والمشارب . . أمر - سبحانه - نبيه ﷺ أن يبين لهم ما حرمه - سبحانه - على الناس فقال : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ وذكر - سبحانه - مما حرمه : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل الأولاد ، واقتراف الفواحش ، وقتل النفس ، وأكل مال اليتيم ، وتطفيف المكيال والميزان ، وشهادة الزور ، وعدم الوفاء بالعهود . .

والحق أن هذه الآيات التى ورد فيها لفظ «قالوا» أكثر من مرة ، وورد فيها لفظ «قل» سبع مرات ، قد اشتملت على أسمى وأبلغ ألوان الحوار الذى يحق الحق ويبطل الباطل ، والذى يتعلم منه العقلاء كيف يردون على السفهاء ردا يهدى كل ذى قلب سليم إلى الصراط المستقيم .

وفى سورة «الأعراف» آيات كريمة ، بينت للناس أن الله - تعالى - بفضله ورحمته قد أباح لهم أن يتمتعوا بالطيبات التى أحلها لهم ، ولم يحرم عليهم إلا ما فيه ضرر بهم . .

قال - تعالى - : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [الأعراف : ٣١ - ٣٣]

وهذه الآيات الكريمة قد جاءت بعد أن زعم المشركون فى الآيات السابقة بأن الله - تعالى - هو الذى أمرهم بارتكاب الفواحش ، وقد رد القرآن عليهم بما يبطل هذه الدعوة الكاذبة ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠) ﴾ [الأعراف : ٢٨ - ٣٠] .

ثم جاءت هذه الآيات الكريمة لتوضح جانبا من نعم الله - تعالى - على عباده، ومن رحمته بهم .

والمعنى : عليكم يابنى آدم أن تتجملوا بما يستركم ، وأن تتحلوا بلباس زينتكم ، وأن تأكلوا من الطيبات دون إسراف أو تبذير أو تقتير ، لأن الله - تعالى - يحب لعباده أن يكونوا معتدلين فى شئونهم ، متوسطين فى سائر أحوالهم .

ومن أقوال ابن عباس - رضى الله عنهما - لبعض تلاميذه : «كل ماشئت والبس ماشئت ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة» .

ولقد كان بعض السلف يقفون فى عباداتهم بين يدى الله - تعالى - وهم فى أكمل زينة . فهذا - مثلا - الإمام الحسن بن علىّ - رضى الله عنهما - كان إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه ، فسئل عن السبب فى ذلك فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، فأنا أتجمل لربى ، لأنه هو القائل : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ .

ثم جاء الرد بعد ذلك على المتنطعين الذين يضيقون على أنفسهم ما وسعه الله - تعالى - ، حيث بين - سبحانه - أن الذين يحرمون ما أحله الله - تعالى - مخطئون فقال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الإنكار والتبكيت لأولئك الذين حرموا على أنفسهم ما أحله الله - تعالى- : قل لهم : من الذى حرم زينة الله التى شرعها وأحلها لعباده ، ومن الذى حرم عليهم الطيبات التى تتعلق بمأكلهم ومشربهم وملبسهم ؟

ثم أمر - سبحانه - رسوله ﷺ أن يرد عليهم بأبلغ رد فقال : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لكل من حاول أن يحرم ما أحل الله أو يحل ما حرمه الله ، قل له : هذه الزينة التى شرعها - سبحانه - لعباده ، وتلك الطيبات من الرزق ، هى ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويشاركهم فيها غيرهم ، أما فى الآخرة فهى خالصة للمؤمنين ولا يشاركهم فيها أحد ممن أشرك مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة .

ومثل تفصيلنا لهذا الحكم ، نفصل جميع الأحكام لقوم يعلمون ما تشتمل عليه من توجيهات ، سامية ومن آداب عالية .

ثم أمر - سبحانه - رسوله ﷺ للمرة الثالثة أن يبين للناس جانبا مما حرمه الله - تعالى - على عباده فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ .

أى قل لهم يا محمد : إن الله - تعالى - قد حرم عليكم ارتكاب ما كان قبيحا من الأقوال أو الأفعال سواء أكان فى السر أم فى العلن .

وحرم عليك أن تقترفوا آثاما تتعلق بما يجب عليكم نحو خالقكم أو نحو غيركم . وحرم عليكم العدوان الذى تتجاوزون فيه الحدود المشروعة التى تتعارض مع الحق والعدل . وحرم عليك الإشراك بالله - تعالى - فى العبادة دون حجة أوبرهان لا من العقل ولا من النقل . وحرم عليكم أن تقولوا قولا يتعلق بالعبادات أو بالمحللات أو بالمحرمات أو بالمعاملات أو بغيرها ، دون أن يكون عندكم علم بصحة ما تقولون ، وبغير دليل على صدق ما تدعون .

والخلاصة أن المحاورات التى ساقها القرآن الكريم حول ما أحله الله - تعالى - وحول ما حرمه ، وحول ما زعمه المشركون من أن هناك أمورا هى من باب الحلال وأخرى من باب الحرام ، وحول ماضيقه المتنطعون على أنفسهم مما أباحه الله - تعالى - لعباده . . .

هذه المحاورات قد ساقها القرآن الكريم بأسلوب منطقى حكيم ، ناقش فيها المخالفين لشريعة الله - تعالى - مناقشة عقلية موضوعية هادئة ، يرى منها كل ذى قلب سليم كيف أن الله - تعالى - قد أحل لعباده الطيبات من المآكل والمشارب وغيرهما ، وكيف أنه - سبحانه - لم يحرم عليهم إلا ما فيه مضرة بهم ، وكيف لقن نبيه ﷺ بل لقن أتباعه فى شخصه الجواب الشافى الذى يردون به على أعدائهم الذين اخترعوا من عند أنفسهم ما يتعلق بالحلال والحرام ، ووضعوا أحدهما مكان الآخر ، وكيف أنه - سبحانه - نهى الناس - نهيا قاطعا عن أن يحرموا شيئا أحله الله - تعالى - أو يحلوا شيئا حرمه - عز وجل - لأن التحليل والتحريم من شأنه وحده ، وقد بلغه رسوله محمد ﷺ عنه - سبحانه - وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل : ١١٦ ، ١١٧] .

* * *

الفصل السابع

حوار عن طريق السؤال والجواب

الحوار عن طريق السؤال والجواب ورد فى القرآن الكريم فى مواطن شتى ، والسائلون تارة يكونون من المؤمنين لكى يعرفوا ما خفى عليهم من أمور دينهم أو دنياهم ، وتارة يكونون من غيرهم على سبيل التعنت وسوء الظن . .

والمسئول فى كل الأحوال الذى يطلب منه الجواب هو الرسول ﷺ .

وقد ورد السؤال بلفظ «يستفتونك» فى موضعين ، كما ورد السؤال بلفظ «يسألك» فى موضعين - أيضا ، أما السؤال بلفظ «يسألونك» فقد جاء فى خمسة عشر موضعا ، وكان الجواب بلفظ «قل» فى جميع هذه المواطن سوى موضعين ، مما يدل دلالة واضحة على أن الإجابة على تلك الأسئلة كان بتلقين من الله - تعالى - لنبيه ﷺ .

وهذه الأسئلة منها ما يتعلق بقيام الساعة ، ومنها ما يتعلق بالأهلة ، ومنها ما يتعلق بالقتال فى الأشهر الحرم ، ومنها ما يتعلق بالخمر والميسر ، ومنها ما يتعلق بقسمة الغنائم ، ومنها ما يتعلق بالروح ، ومنها ما يتعلق بأمور خاصة بالنساء ، ومنها ما يتعلق بأحكام الميراث ، ومنها ما يتعلق بوجوه الإنفاق ، ومنها ما يتعلق بغير ذلك فى شئون الحياة . .

وقد ورد السؤال عن يوم القيامة ومتى يكون فى ثلاثة مواضع :

أولها قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾ [الأعراف : ١٨٧]

وقد ذكر فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن جماعة من اليهود سألوا النبى ﷺ فقالوا له : يامحمد أخبرنا عن موعد قيام الساعة إن كنت نبيا حقا ، فإنا نعلم متى هى ، فنزلت هذه الآية .

وعن قتادة أن جماعة من أهل مكة سألوا النبى ﷺ هذا السؤال ، وقالوا له : إن بيننا وبينك قرابة ، فقل لنا متى الساعة ، فنزلت هذه الآية .

والمقصود بالساعة هنا : يوم القيامة ، وأطلق على يوم القيامة ساعة ، إما لوقوعه بغتة ، أو لسرعة ما فيه من الحساب ، أو لأنه على طوله قدر يسير عند الله تعالى :

والمعنى : يسألك بعض الناس يا محمد عن وقت قيام الساعة ، ويجادلونك بشأنها ، ويحاورونك فى وقت قيامها ، ومنهم من ينكرون حصولها إنكارًا مطلقا . .

قل لهم : إن الساعة آتية لاريب فيها ، ولكن علم وقت قيامها مرده إلى الله- تعالى- وحده ، ولن يعلم أحد وقت قيامها لا نبى مرسل ، ولا ملك مقرب ، وإنما الذى يجلبها ويكشف الحجاب عن حقائقها ويظهرها للناس فى الوقت الذى يختاره هو الله-تعالى- وحده .

وقوله سبحانه : ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ﴾ تعظيم وتهويل لشأنها أى : كبرت وعظمت وشقت على الناس لخوفهم من شدائدها وأهوالها وما فيها من محاسبة ومجازاة ، وهى لن تأتيكم إلا فجأة وعلى حين غفلة من غير توقع ولا انتظار .

ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لتقومن الساعة ، وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعان ولا يطويان ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته - أى : ناقته - فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته الى فمه فلا يطعمها » .

ومن الحكم التى من أجلها أخفى - سبحانه - وقت قيام الساعة على الناس : لكى يكونوا دائما على حذر فيكون ذلك أدعى للطاعة ، وأزجر عن المعصية . فإنهم متى علموا بوقتها قصروا عن التوبة وأخروها إلى الوقت القريب منها .

ثم كرر- سبحانه - سؤالهم والرد عليهم تأكيدا لقيامها فى الوقت الذى يختاره - سبحانه - فقال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : يسألونك - يا محمد - عن وقت قيامها ، حتى لكأنك عالم بها ، قل لهم للمرة الثانية على سبيل التأكيد والحزم : علم قيام الساعة عند الله -تعالى- وحده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة التى اعتقدها وآمن بها المؤمنون الصادقون .

أما الموضع الثانى الذى ورد فيه السؤال عن موعد قيام الساعة ، فنراه فى قوله - تعالى - : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٦٣]

أى : يسألك بعض الناس يا محمد عن وقت حدوث يوم القيامة ، قل لهم : إن علم حدوث هذا اليوم الهائل الشديد عند الله - تعالى - وحده - دون أحد سواه .

وقوله - عز وجل - : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ تأكيد لإتيان هذا اليوم ، وتذكير بوقوعه فى وقت قريب .

أى : ومايعلمك - أيها الرسول الكريم - بوقت قيامها ؟ إن وقت قيام الساعة مرده إلى الله- تعالى - وحده ، مع كل ذلك لعل قيامها وحصولها يتحقق فى وقت قريب ، فقل للسائلين لا يتعجلون ولا يتشككون فى حدوث هذا اليوم الذى لا شك فى وقوعه .

وأما الموضوع الثالث الذى وقع فيه هذا السؤال ، ففى قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾

[النازعات : ٤٢ - ٤٦]

أى : يسألك بعض الناس عن وقت قيام الساعة قائلين لك : متى يكون استقرارها وإرساؤها ووقوعها ؟!!

وقوله - سبحانه : ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ واقع موقع الجواب عن سؤالهم عن الساعة وعن وقت وقوعها .

والمقصود بهذا الجواب : توبيخهم على إلحاحهم فى السؤال عنها ، مع أن الأولى بهم كان الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح .

و«ما» فى قوله - تعالى - «فيم» اسم استفهام بمعنى أى شىء . وهى هنا مستعملة فى التعجب من حالهم ومن كثرة أسئلتهم عن شىء لا يهمهم حدوثه ، وإنما الذى يهمهم - لو كانوا يعقلون - هو حسن الاستعداد للقاء الله - تعالى - فى هذا اليوم الشديد الأهوال .

ولقد كان النبى ﷺ يقول : «بعثت أنا والساعة كهاتين» ويشير بأصبعيه السبابة والوسطى ، كدليل على قرب قيام الساعة .

وقوله - سبحانه : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ أى : إلى ربك وحده منتهى علم قيامها ، لأنه - سبحانه - هو وحده - دون غيره - العليم علما تاما بالوقت الذى تقوم فيه الساعة .

وقوله – تعالى – : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَ ﴾ : تحديد لوظيفته ﷺ أى : ليست وظيفتك – أيها الرسول الكريم – معرفة الوقت الذى تقوم فيه الساعة ، فهذا أمر مرد معرفته إلى الله – تعالى – وحده وإنما وظيفتك امتثال ما أمرت به من بيان إقرابها ، وتفصيل أهوالها ، ودعوة الناس إلى حسن الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا ترك هؤلاء الجاهلون ما يجب عليهم من الإيمان والعمل الصالح ، وأخذوا يسألونك عن أشياء خارجية عن وظيفتك ؟

وخص – سبحانه – الإنذار بمن يخشى قيام الساعة ، لأن هؤلاء هم الذين قد أعدوا أنفسهم لاستقبالها بالإيمان الصادق وبالعمل الصالح .

وقوله – تعالى – : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَ ﴾ بيان لأحوال هؤلاء السائلين عند قيامها .

أى كأن هؤلاء الذين يلحفون ويحاورون ويجادلون وينكرون قيام الساعة ، كأنهم عندما تفاجئهم بأهوالها ، لم يلبثوا فى دنياهم أو فى قبورهم إلا وقتا يسيرا يشبه العشية أو الضحى بالنسبة للزمان الطويل .

فالمقصود من الآية الكريمة : بيان أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن المنكرين لها عند إتيانها كأنهم ما لبثوا فى انتظارها إلا يوما أو بعض يوم .

هذا ، والمتأمل فى القرآن الكريم يرى أن الحديث عن يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب ، وحساب وجزاء ، وجنة ونار ، ولا تكاد تخلو منه سورة من سور القرآن الكريم حتى السور التى هى من قصار المفصل ، ولقد جادل المشركون وغيرهم النبى ﷺ فى شأن هذا اليوم ، وحاوروه محاورات شتى ، وقد رد القرآن عليهم – كما سبق أن بينا – بأن هذا اليوم آت لا ريب فيه ، وفصل الحديث عن ذلك تفصيلا يهدى كل ذى قلب سليم .

ومن الأمور التى أكثر المشركون واليهود عن سؤال النبى ﷺ عنها ، وعن مجادلتهم له بشأنها : السؤال عن حقيقة الروح ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك ورد على السائلين ردا حكيما فى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥]

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه البخارى ومسلم

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : بينما أنا أمشى مع النبى ﷺ فى حرث وهو متوكئ على عسيب - أى : على عصا - ، إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض : اسلوه عن الروح . فقالوا : يا محمد والروح ؟ فأمسك ﷺ ولم يرد عليهم شيئا . فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامى ، فلما نزل الوحى قال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل ، فقال لهم : سلوه عن الروح . فسألوه فنزلت هذه الآية .

والمقصود بالروح هنا : حقيقتها وجوهرها وما يحيا به بدن الإنسان وما به تكون حياته ، وما بمفارقته للجسد يموت الإنسان .

والمعنى : ويسألك بعض الناس - أيها الرسول الكريم - عن حقيقة الروح ، قل لهم على سبيل الإرشاد والزجر : الروح شىء من جنس الأشياء التى استأثر الله - تعالى - وحده بعلم حقيقتها وجوهرها .

قال الإمام القرطبى : وقوله - سبحانه تعالى - : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ دليل على خلق الروح : أى هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله - تعالى - مبهما له وتاركا تفصيله ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها . وإذا كان الإنسان فى معرفة نفسه هكذا ، كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز»[1] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ : من جملة الجواب الذى أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يرد به على السائلين عن حقيقة الروح .

أى : وما أوتيتم - أيها السائلون - عن حقيقة الروح تعنتا وعنادا ومكابرة إلا علمًا قليلا بالنسبة إلى علمه - عز وجل - الذى وسع كل شىء ، وإن علمكم مهما كثر لا يمكنه أن يتعلق بحقيقة الروح وبأحوالها ، لأن ذلك شىء استأثر الله - تعالى - به وحده ، واقتضت حكمته - عز وجل - أن يجعله فوق مستوى عقولكم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٢٤ .

وفى هذه الآية ما يزجر الخائضين فى شأن الروح أبلغ زجر ، وما يردعهم أعظم ردع ، وما يشهد بأن قدره الله - تعالى - فوق كل قدرة ، وعلمه فوق كل علم ، وأن على العقلاء أن يتجهوا بعقولهم إلى ما ينتج ويثمر وينفع ، وليس إلى ما هو فوق طاقتهم وقدرتهم مما معرفته لا تفيدهم .

كذلك من الأشياء التى سأل المشركون عنها رسول الله ﷺ وجادلوه فيها ، ورد عليهم بما يقنع كل ذى عقل سليم : مسألة أحوال الجبال عند قيام الساعة ، وقد قص علينا القرآن ذلك فى قوله تعالى :﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢) ﴾ [طه : ١٠٥ - ١١٢]

والسائلون عن أحوال الجبال يوم القيامة هم مشركو مكة . روى أنهم قالوا للنبى ﷺ على سبيل الاستهزاء والاستخفاف بيوم القيامة يا محمد : إنك تزعم أن هذه الدنيا تفنى ، وأننا نبعث يوم القيامة بعد الموت ، فأين تكون هذه الجبال ، فنزلت هذه الآية .

والمعنى : ويسألك الجاهلون من أعداء الحق سؤال استهزاء وإنكار لما جئت به فيقولون لك : إذا كان يوم القيامة بأهواله التى حدثتنا عنها فأين تذهب هذه الجبال الشامخة العالية الراسخة ؟ قل لهم - أيها الرسول الكريم : هذه الجبال فى ذلك اليوم الهائل الشديد ينسفها ربى بقدرته نسفا شديا ، بأن يزيلها من أصولها ، ثم يجعلها كالرمال المتناثرة التى تفرقها الرياح ، فيتركها بعد النسف أرضا منكشفة متساوية ملساء لا نبات فيها ولا بناء . ولا ترى فى الأرض بعد اقتلاع الجبال منها مكانا منخفضا ولا مرتفعا بل تراها كلها مستوية ملساء . ثم بين - سبحانه - أحوال الناس فى هذا اليوم فقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴾ .

أى : فى هذا اليوم الذى تنسف فيه الجبال وتصير الأرض قاعا صفصفا يقوم الناس من قبورهم ويتبعون من يناديهم للحساب والجزاء دون أن يحيدوا عن هذا المنادِى ، أو يملكوا مخالفته أو عصيانه ، بل الجميع يسمع نداءه ويستجيب لأمره ، وتخفت وتسكن أصوات الجميع خشية وخوفا من الرحمن ، فلا تسمع - أيها المخاطب- فى هذا اليوم إلا صوتا خفيا خافتا .

وفى هذا اليوم - أيضا - لا تنفع الشفاعة أحدا كائنا من كان إلا شفاعة من أذن له الرحمن ورضى - سبحانه - قول الشافع فيمن يشفع له .

وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل شىء ، ثم أكد - سبحانه - مظاهر قدرته التى سبق الحديث عنها فقال : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ أى : وفى هذا اليوم الهائل الشديد تذل وتخضع جميع الوجوه لخالقها الحى الباقى الذى له الحياة الدائمة التى لا فناء معها ، القيوم ، أى : الدائم القيام بتدبير أمور خلقه ، وقد خاب وخسر من حمل فى دنياه ظلما لنفسه أو لغيره ، أما الذين يعملون العمل الصالح فى دنياهم ، فلا يخافون فى هذا اليوم أى لون من ألوان الظلم أو الهضم لشىء من حقوق .

وبهذا نرى الآيات الكريمة قد ردت على هؤلاء الجاهلين ردا حكيما يزيل شبهاتهم ، ويزهق أباطيلهم .

وأيضا من الأسئلة التى وجهها المشركون إلى النبى ﷺ على سبيل التعنت والعناد سؤالهم عن ذى القرنين ، وقد رد القرآن عليهم ردا مفصلا فيه ما فيه من العظات والعبر لقوم يعقلون وقد جاء ذلك فى قوله -تعالى- : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ

وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ﴾ [الكهف: ٨٣ - ٩٨]

والسائلون عن «ذى القرنين» وعن أحواله هم كفار قريش ، فقد ذكر الإمام ابن كثير وغيره من المفسرين أن زعماء قريش أرسلوا جماعة منهم إلى أحبار اليهود بالمدينة ، وقالوا لهم : أخبروا هؤلاء الأحبار عما يقوله لنا محمد ﷺ واطلبوا منهم أسئلة معينة نوجهها إليه ، فهؤلاء الأحبار هم أهل الكتاب الأول ، وعندهم من العلم ما ليس عندنا . .

فلما وصل وفد قريش إلى المدينة والتقوا بأحبار اليهود وأخبروهم بما يقوله الرسول - ﷺ - قالوا لهم : يا أهل مكة سلوا محمدًا ﷺ عن ثلاث فإن أخبركم بهم فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول .

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول - يقصدون أهل الكهف - ماذا كان من شأنهم .

وسلوه عن رجل طواف طاف المشارق والمغارب - يقصدون ذا القرنين - ماذا كان من خبره ؟

وسلوه عن الروح ما هو ؟

ورجع وفد قريش إلى مكة وسألوا الرسول ﷺ هذه الأسئلة ، ونزلت الآيات التى فى أوائل سورة الكهف فى شأن أهل الكهف كما نزلت هذه الآيات بشأن قصة ذى القرنين . . .[1] وذو القرنين الرأى الراجح فى شأن أنه رجل من أهل اليمين يقال له : أبو كريب الحميرى ، وكان رجلا صالحا عاقلا شجاعا ولم يكن نبيا ، وسمى بذى

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٣٢ .

القرنين لأن فتوحاته بلغت قرنى الشمس من الشرق إلى الغرب ، وقد استعمل ما أعطاه الله - تعالى - من نعم فى الخير لا فى الشر . ويرى بعضهم أنه كان بعد موسى عليه السلام ، ويرى آخرون غير ذلك . . .

ومن المقطوع به أن ذا القرنين هذا : ليس هو الإسكندر المقدونى الملقب بذى القرنين تلميذ أرسطو ، فإن الإسكندر هذا كان وثنيا . . بخلاف ذى القرنين الذى تحدث عنه القرآن ، فإنه كان مؤمنا بالله - تعالى - ومعتقدا بصحة البعث والحساب .

والمعنى : ويسألك قومك - يا محمد - عن خبر ذى القرنين وشأنه .

﴿ قُلْ ﴾ لهم - على سبيل التعليم والرد على تحديهم لك : ﴿ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ أى : قل لهم : سأتلو عليكم من خبره ، وسأقص عليكم من أنبائه عن طريق هذا القرآن الذى أوحاه الله إلى ما يفيدكم ويكون فيه ذكرى وعبرة لكم إن كنتم تعقلون .

ثم بين - سبحانه - ما أعطاه الله لذى القرنين من نعم فقال : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾

وقوله : «مكنا» من التمكين بمعنى إعطائه الوسائل التى جعلته صاحب نفوذ وسلطان فى أقطار الأرض المختلفة . أى : إنا مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء . بأن أعطيناه سلطانا وطيد الدعائم ، وآتيناه من كل شىء أراده فى دنياه لتقوية ملكه . ﴿سببا﴾ أى سبيلا وطريقا يوصله إلى مقصوده ، كآلات السير ، وكثرة الجند ، ووسائل البناء والعمران .

وهذه الأسباب التى أعطاها الله إياه ، لم يرد حديث صحيح بتفصيلها ، فعلينا أن نؤمن بأن الله - تعالى - قد أعطاه وسائل عظيمة لتدعيم ، ملكه دون أن نلتفت إلى ما ذكره هنا بعض المفسرين من إسرائيليات لا قيمة لها .

والفاء فى قوله ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ فصيحة . أى : فأراد أن يزيد فى تدعيم ملكه ، فسلك طريقا لكى يوصله إلى المكان الذى تغرب فيه الشمس .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أى : حتى إذا وصل إلى منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المغرب .

﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أى : رآها فى نظره عند غروبها ، كأنها تغرب فى عين مظلمة ، وإن لم تكن هذه فى الحقيقة كذلك .

وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس ماء فإنه يراها كأنها تشرق منه وتغرب فيه ، كما أن الذى يكون فى أرض ملساء واسعة ، يراها كأنها تطلع من الأرض وتغيب فيها .

وحمئة : أى ذات حمأة وهى الطين الأسود . يقال :حمأَتِ البئر تَحمأُ حَمأ ، إذا صارت فيها الحمأة وهى الطينة السوداء .

﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ أى : ووجد عند تلك العين على ساحل البحر قوما .

الظاهر أن هؤلاء القوام كانوا من أهل الفترة ، فدعاهم ذو القرنين إلى عبادة الله - تعالى - وحده فمنهم من آمن ومنهم من كفر . فخيره الله - تعالى - فيهم فقال - ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ .

أى قال الله - تعالى - له عن طريق الإلهام ، أو على لسان ملك أخبره بذلك : ياذا القرنين إما أن تعذب هؤلاء القوم الكافرين أو الفاسقين بالقتل أو غيره ، وإما أن تتخذ فيهم أمرًا ذا حسن ، أو أمرا حسنا ، تقتضيه المصلحة والسياسة الشرعية .

ثم حكى الله - تعالى - عنه فى الجواب ما يدل على سلامة تفكيره ، فقال : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ .. ﴾ أى : قال ذو القرنين فى الرد على تخيير ربه له فى شأن هؤلاء القوم ، يارب أما من ظلم نفسه بالإصرار على الكفر والفسوق والعصيان ﴿ فسوف نعذبه ﴾ فى هذه الدنيا بالقتل وما يشبهه . ثم يُردُّ هذا الظالم نفسه إلى ربه - سبحانه- فيعذبه فى الآخرة عذابا «نكرا» أى : عذابا فظيعا عظيما منكرا وهو عذاب جهنم .

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ يقتضيه إيمانه ﴿ فَلَهُ ﴾ فى الدارين ﴿ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ﴾ أى : فله المثوبة الحسنى ، أو الفعلة الحسنى وهى الجنة .

﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ ﴾ أى : لمن آمن وعمل صالحا ﴿ مِنْ أَمْرِنَا ﴾ أى : مما نأمره به قولاً ﴿ يُسْرًا ﴾ لاصعوبة فيه ولا مشقة ولا عسر .

فأنت ترى أن ذا القرنين قد رد بما يدل على أنه قد اتبع فى حكمة الطريق القويم والأسلوب الحكيم ، الذى يدل على قوة الإيمان ، وصدق اليقين ، وطهارة النفس .

إنه بالنسبة للظالمين ، يعذب ، ويقتص ، ويرهب النفوس المنحرفة ، حتى تعود إلى رشدها ، وتقف عند حدودها .

وبالنسبة للمؤمنين الصالحين ، يقابل إحسانهم بإحسان وصلاحهم بصلاح واستقامتهم بالتكريم والقول الطيب ، والجزاء الحسن .

وهكذا الحاكم الصالح فى كل زمان ومكان : الظالمون والمعتدون . . يجدون منه كل شدة تردعهم وتزجرهم وتوقفهم عند حدودهم .

والمؤمنون والمصلحون يجدون منه كل تكريم وإحسان واحترام وقول طيب .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس .

أى : وبعد أن بلغ مغرب الشمس ، ونال مقصده ، كر راجعا من جهة غروب الشمس إلى جهة شروقها .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ أى : حتى إذا كر راجعا وبلغ منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المشرق .

﴿ وَجَدَهَا ﴾ أى : الشمس ﴿ تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أى : لم نجعل لهم من دون الشمس ما يستترون به من البناء أو اللباس ، فهم قوم عراة يسكنون الأسراب والكهوف فى نهاية المعمورة من جهة المشرق .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى : أمر ذى القرنين كذلك من حيث إنه آتاه الله من كل شىء سببا ، فبلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها .

وقوله : ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ بيان لشمول علم الله - تعالى - بأحوال ذى القرنين الظاهرة والباطنة ولأحوال غيره .

أى : كذلك كان شأن ذى القرنين . وقد أحطنا إحاطة تامة وعلمنا علما لا يعزب عنه شىء بما كان لدى ذى القرنين من جنود وقوة وآلات . . . وغير ذلك من أسباب الملك والسلطان .

وقوله - سبحانه - ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها .

أى : ثم بعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها . . . سار فى طريق ثالث معترض بين المشرق والمغرب ، أخذا فيه ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ ﴾ فى مسيره ذلك ﴿ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ أى : الجبلين ، وسمى الجبل سدا ، لأنه سدَّ مكانا من الأرض .

قالوا : والسدان هما جبلان من جهة أرمينية وأذربيجان ، وقيل هما فى نهاية أرض الترك مما يلى المشرق :

﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ أى : من دون السدين ومن ورائهما ﴿ قَوْمًا ﴾ أى : أمة من الناس لغتهم لا تكاد تعرف لبعدهم عن بقية الناس ، ولذا قال - سبحانه - : ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ أى : لا يكاد هؤلاء القوم يفهمون أو يقرءون ما يقوله الناس لهم ، لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم ، ولا يعرف الناس - أيضا - ما يقوله هؤلاء القوم لهم ، لشدة عجمتهم .

﴿ قَالُوا ﴾ أى : هؤلاء القوم لذى القرنين : ﴿ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ .

ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، قيل : مأخوذان من الأَوْجِة وهى الاختلاط أو شدة الحر : وقيل من الأوجة وهو سرعة الجرى .

واختلف فى نسبهم ، فقيل : هم من ولد يافث بن نوح والترك منهم . وقيل يأجوج من الترك ، ومأجوج من الديلم .

أى : قال هؤلاء القوم - الذين لا يكادون يفقهون قولا - لذى القرنين ، بعد أن توسموا فيه القوة والصلاح . . يا ذا القرنين إن قبيلة يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض بشتى أنواع الفساد والنهب والسلب .

وفى الصحيحين من حديث زينت بنت جحش - رضى الله عنها - قالت : استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : «لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق - بين أصابعه - قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث» .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ حكاية لما عرضه هؤلاء القوم على ذى القرنين من عروض تدل على ثقتهم فيه وحسن أدبهم معه ، حيث خاطبوه بصيغة الاستفهام الدالة على أنهم يفوضون الأمر إليه .

والخَرْج : اسم لما يخرجه الإنسان من ماله لغيره .

أى : فهل نجعل لك مقدارا كبيرا من أموالنا على سبيل الأجر ، لكى تقيم بيننا وبين قبيلة يأجوج ومأجوج سدا يمنعهم من الوصول إلينا . ويحول بيننا وبينهم ؟

وهنايرد عليهم ذو القرنين - كما حكى القرآن عنه بما يدل على قوة إيمانه وحرصه على إحقاق الحق وإبطال الباطل - فيقول : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ... ﴾ .

أى : قال ذو القرنين لهؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا : إن ما بسطه الله - تعالى - لى من الرزق والمال والقوة . . خير من عطائكم ومالكم الذى تريدون أن تجعلوه لى فى إقامة السد بينكم وبين يأجوج ومأجوج ، فوفروا عليكم أموالكم ، وقفوا إلى جانبى ﴿ فَأَعِينُونِي ﴾ بسواعدكم وبالآلات البناء ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أى : بكل ما أتقوى به على المقصود وهو بناء السد ، لكى ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ ﴾ وبين يأجوج ومأجوج ﴿ ردما ﴾ أى : حاجزًا حصينا ، وجدارًا متينا ، يحول بينكم وبينهم .

ثم شرع فى تنفيذ ما راموه منه من عون فقال لهم : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ .

أى : أحضروا لى الكثير من قطع الحديد الكبيرة ، فأحضروا له ما أراد ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ أى بين جانبى الجبلين . وسمى كل واحد من الجانبين صدفا . لكونه مصادفا ومقابلا ومحاذيا للآخر ، مأخوذ من قولهم صادفت الرجل . أى : قابلته ولا قيته .

﴿ قَالَ انفُخُوا ﴾ أى النار على هذه القطع الكبيرة من الحديد الموضوع بين الصدفين .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا ﴾ أى : حتى إذا صارت قطع الحديد الكبيرة كالنار فى احمرارها وشدة توهجها ﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ أى : نحاسا أو رصاصا مذابا ، وسمى بذلك لأنه إذا أذيب صار يقطر كما يقطر الماء .

أى : قال لهم أحضروا لى قطع الحديد الكبيرة ، فلما أحضروها له ، أخذ يبنى شيئا فشيئا .

حتى إذا ساوى بين جانبى الجبلين بقطع الحديد ، قال لهم : أوقدوا النار وانفخوا فيها بالكيران وما يشبهها لتسخين هذه القطع من الحديد وتليينها ، ففعلوا ما أمرهم به ، حتى صارت تلك القطع تشبه النار فى حرارتها وهيئتها ، قال أحضروا لى نحاسا مذابا ، لكى أفرغه على تلك القطع من الحديد لتزداد صلابة ومتانة وقوة .

وبذلك يكون ذو القرنين قد لبى دعوة أولئك القوم فى بناء السد . وبناه لهم بطريقة محكمة سليمة ، اهتدى بها العقلاء فى تقوية الحديد والمبانى فى العصر الحديث .

وكان الداعى له لهذا العمل الضخم ، الحيلولة بين هؤلاء القوم ، وبين قبيلتى يأجوج ومأجوج الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون .

ولقد أخبر القرآن الكريم بأن ذا القرنين بهذا العمل جعل يأجوج ومأجرج يقفون عاجزين أمام هذا السد الضخم المحكم فقال : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ .

أى فما استطاع قوم يأحوج ومأجوج أن يرتفعوا على ظهر السد ، أو يرقوا فوقه لملاسته وارتفاعه ، وما استطاعوا - أيضًا - أن يحدثوا فيه نقبا أو خرقا لصلابته ومتانته وثخانته .

ووقف ذو القرنين أمام هذا العمل العظيم ، مظهرا الشكر لله - تعالى - ، والعجز أمام قدرته - عز وجل - شأن الحكام الصادقين فى إيمانهم ، الشاكرين لخالقهم توفيقه إياهم لكل خير .

وقف ليقول بكل تواضع وخضوع لخالقه : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ .

أى : هذا الذى فعلته من بناء السد وغيره ، أثر من أثار رحمة ربى التى وسعت كل شىء .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ الذى حدده لفناء هذه الدنيا ونهايتها ، أو الذى حدده لخروجهم منه ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ أى : جعل هذا السد أرضا مستوية ، وصيره مدكوكا أى : بمساواة الأرض .

﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾أى : وكان كل ما وعد الله - تعالى - به عباده من ثواب وعقاب وغيرهما ، وعدا حقا لا يتخلف ولا يتبدل ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وبذلك نرى فى قصة ذى القرنين ما نرى من الدروس والعبر والعظات ، التى من أبرزها . أن التمكين فى الأرض نعمة يهبها الله لمن يشاء من عباده . وأن السير فى الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل من صفات المؤمنين الصادقين ، وأن الحاكم

العادل من صفاته : ردع الظالمين عن ظلمهم ، والإحسان إلى المستقيمين المقسطين ، والعمل على ما يجعلهم يزدادون استقامة وفضلا ، وأن من معالم الخلق الكريم أن يعين الإنسان غيره المحتاج إلى عونه ، وأن يقدم له ما يصونه عن الوقوع تحت وطأة الظالمين المفسدين ، وأن من الأفضل أن يحتسب ذلك عند الله -تعالى- وأن لا يطلب من المحتاج إلى عونه أكثر من طاقته .

كما أن من أبرز صفات المؤمنين الصادقين : أنهم ينسبون كل فضل إلى خالقهم وإلى قدرته النافذة ، وأنهم يزدادون شكرا وحمدا لله - تعالى - كما زادهم من فضله ، وما أجمل وأحكم أن تختتم قصة ذى القرنين بقوله - تعالى - : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ .

ومن كل ما تقدم نرى أن الله - تعالى - قد لقن نبيه محمدا ﷺ الجواب الشافى والرد المفصل الحكيم البليغ ، على أسئلة المشركين الخاصة بذى القرنين ، للنبى ﷺ وهو رد يقطع لسان كل مكابر ، ويجعل المؤمنين يزدادون إيمانا على إيمانهم ، وحبا لهذا القرآن على حبهم ، وتصديقا لرسول الله ﷺ فيما جاء به من عند ربه على تصديقهم .

ومن الأمور التى دار الحوار فيها بين الرسول ﷺ وبين أصحابه : مسألة كيفية تقسيم الغنائم التى غنمها المسلمون فى غزوة بدر ، وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه الحكيم ، وأرشد المسلمين إلى ما يجب عليهم فعله بالنسبة لهذه المسألة ، واستمع إلى حكم القرآن الكريم فى ذلك ، حيث قال - عز وجل- : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾ [الأنفال: ١-٤]

ومن الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه «بدرا» فالتقى الناس ، فهزم الله - تعالى- العدو . فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون . وأقبلت طائفة على العسكر يحوزون ويجمعون . وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لكى لا يصيب العدو منه غرة . حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى

بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق بها منا . نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ لستم بأحق بها منا ، نحن أحدقنا برسول الله - ﷺ - مخافة أن يصيبه العدو بسوء فاشتغلنا به ، فنزلت هذه الآيات .

وروى أبو داود والنسائى وابن جرير وابن مردويه - واللفظ له - عن ابن عباس قال : «لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ، فتسارع فى ذلك شبان القوم ، وبقى الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذى جعل لهم ، فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءاً لكم ، لو انكشفتم لثبتم إلينا . فتنازعوا ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ... ﴾ .

وقال الثورى ، عن الكلبى ، عن أبى صالح عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : «من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا» ، فجاء أبو اليسر بأسيرين ، فقال : يا رسول الله صلى الله عليك - أنت وعدتنا . فقال سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شئ ، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة فى الأجر ولا جبن عن العدو ، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك مخافة أن يأتوك من ورائك . فتشاجروا ، ونزل القرآن : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبى أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول ﷺ فقسمه بين المسلمين عن بواء - أى : على السواء[1] .

هذه بعض الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات ، ومنها يتبين لنا أن نزاعًا حدث بين بعض الصحابة الذين اشتركوا فى غزوة بدر ، حول الغنائم التى ظفروا بها من هذه الغزوة ، فأنزل الله - تعالى - فى هذه الآيات بيان حكمه فيها .

والضمير فى قوله ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ يعود إلى بعض الصحابة الذين اشتركوا فى غزوة بدر وصح عود الضمير إليهم مع أنهم لم يسبق لهم ذكر ، لأن السورة نزلت فى هذه

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٨٣ .

الغزوة ، لأن هؤلاء الذين اشتركوا فيها هم الذين يهمهم حكمها ، ويعنيهم العلم بكيفية قسمتها .

والأنفال جمع نَفل - بفتح النون والفاء - كسبب وأسباب - وهو فى أصل اللغة من النفل - بفتح فسكون - أى : الزيادة ، ولذا قيل للتطوع نافلة ، لأنه زيادة من الأصل وهو الفرض ، وقيل لولد الولد نافلة ، لأنه زيادة على الولد . قال - تعالى - : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء : ٧٢]

والمراد بالأنفال هنا الغنائم كما روى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وطائفة من الصحابة وغيرهم .

هذا ، وجمهور العلماء على أن المقصود من سؤال بعض الصحابة لرسول الله ﷺ عن الأنفال - أى الغنائم - إنما هو حكمها وعن المستحق لها ، فيكون المعنى :

يسألك بعض أصحابك يا محمد عن غنائم بدر كيف تقسم ومن المستحق لها ؟ قل لهم : الأنفال لله يحكم فيها بحكمه - سبحانه - وللرسول ﷺ فهو الذى يقسمها على حسب حكم الله وأمره فيها .

وفى هذه الإجابة على سؤالهم تربية حكيمة لهم - وهم فى أول لقاء لهم مع أعدائهم حتى يجعلوا جهادهم من أجل إعلاء كلمة الله . أما الغنائم والأسلاب وأعراض الدنيا التى تأتيهم من وراء جهادهم ، فعليهم ألا يجعلوها ضمن مقاصدهم السامية من جهادهم ، وأن يفوضوا الأمر فيها إلى الله وإلى رسول الله ﷺ عن إذعان وتسليم .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ حض لهم على تقوى الله وامتثال أمره ، وإصلاح ذات بينهم ، وتحذير لهم من الوقوع فى المعاصى والنزاع والخلاف .

أى : فاتقوا الله - أيها المؤمنون - ، وأصلحوا نفس ما بينكم وهى الحال والصفة التى بينكم والتى تربط بعضكم ببعض وهى رابطة الإسلام . وإصلاحها يكون بما يقتضيه كمال الإيمان من الموادة والمصافاة ، وترك الاختلاف والتنازع ، والتمسك بفضيلة الإيثار .

وقوله ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ معطوف على ما قبله ، وهو قوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

أى : فاتقوا الله - أيها المؤمنون - فى كل أقوالكم وأفعالكم ، وأصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة ومودة ، وأطيعوا الله ورسوله فى حكمه الذى قضاه فى الأنفال وفى غيرها ، من كل أمر ونهى ، وقضاء وحكم . . .

وقد كرر - سبحانه - الاسم الجليل فى هذه الآية ثلاث مرات ، لتربية المهابة فى القلوب ، وتعليل الحكم حتى تقبله النفوس بإذعان وتسليم .

وذكر - سبحانه - رسوله معه مرتين فى هذه الآية ، لتعظيم شأنه ، وإظهار شرفه ، والإيذان بأن طاعته ﷺ طاعة لله - تعالى - ، ومخالفته مخالفة لأمر الله - تعالى - قال - سبحانه - : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾ [النساء : ٨٠] .

ووسَّط - سبحانه - الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة ، لإظهار كمال العناية بالإصلاح ، وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة .

وقوله :﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بالأوامر الثلاثة السابقة ، وهى : التقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله ورسوله .

وجواب الشرط محذوف دل على ما قبله ، أى : إن كنتم مؤمنين إيمانا حقا فامتثلوا هذه الأوامر الثلاثة السابقة .

وفى هذا التذييل تنشيط للمخاطبين ، وحث لهم على الامتثال والطاعة ودعوة لهم إلى أن يكون إيمانهم إيمانا عميقا راسخا ، متفقا مع كل ما جاءهم به رسولهم ﷺ من هدايات وإرشادات ، ومتساميا عن كل ما يخدش صفاءه ونقاءه من متع وشهوات .

ثم وصف - سبحانه - المؤمنين الصادقين بخمس صفات ، وبشرهم بأعلى الدرجات ، فقال فى بيان صفتهم الأولى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . . ﴾ فالجملة الكريمة مستأنفه وهى مسوقة لبيان أحوال المؤمنين الذين هم أهل لرضا الله وحسن ثوابه ، حتى يتأسى بهم غيرهم .

وقوله ﴿ وَجِلَتْ ﴾ من الوجَل وهو استشعار الخوف . يقال : وجل يوجل وجلا فهو وجل . إذا خاف وفزع .

والمراد بذكر الله : ذكر صفاته الجليلة ، وقدرته النافذة ، ورحمته الواسعة ، وعقابه الشديد . وعمله المحيط بكل شيء ، وما يستتبع ذلك من حساب وثواب وعقاب .

والمعنى إنما المؤمنون الصادقون هم الذين إذا ذكر اسم الله وذكرت صفاته أمامهم ، خافت قلوبهم وفزعت ، استعظامًا لجلاله وتهيبا من سلطانه ، وحذرًا من عقابه ، ورغبة فى ثوابه ، وذلك لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وشدة مراقبتهم لله - عز وجل- ووقوفهم عند أمره ونهيه . .

وقد جاء التعبير عن صفاتهم بصيغة من صيغ القصر وهى «إنما» ، للإشعار بأن من هذه صفاتهم هم المؤمنون الصادقون فى إيمانهم وإخلاصهم ، أما غيرهم ممن لم تتوفر به هذه الصفات ، فأمره غير أمرهم ، وجزاؤه غير جزائهم .

قال الفخر الرازى : فإن قيل : إنه - تعالى - قال ههنا : ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ وقال فى آية أخرى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ... ﴾[1] . فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : الاطمئنان : إنما يكون عن ثلج اليقين ، وشرح الصدر بمعرفة التوحيد ، والوجل : إنما يكون من خوف العقوبة . ولا منافاة بين هاتين الحالتين . بل نقول : هذان الوصفان اجتمعا فى آية واحدة وهى قوله - تعالى- : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ..... ﴾ [2] .

والمعنى تقشعر الجلود من خوف عذاب الله ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند رجاء ثواب الله[3] .

والصفة الثانية من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين عبر عنها - سبحانه - بقوله : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ .

أى أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم إذا قرئت عليهم آيات الله - أى : حججه وهى القرآن - زادتهم إيمانا ، أى : زادتهم قوة فى التصديق ، وشدة فى الإذعان ، ورسوخا فى اليقين ، ونشاطا فى الأعمال الصالحة ، وسعة فى العلم والمعرفة .

---

(١) سورة الرعد : الآية ٢٨ .
(٢) سورة الزمر : الآية ٢٣ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١١٨ .

وجاء التعبير بصيغة الفعل المبنى للمفعول فى قوله : ﴿ ذُكِرَ اللَّهُ ﴾ و ﴿ تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ ﴾ . للإيذان بأن هؤلاء المؤمنين الصادقين إذا كانوا يخافون عندما يسمعون من غيرهم آيات الله . . فإنهم يكونون أشد خوفا وفزعا عند ذكرهم لله وعند تلاوتهم لآياته بألسنتهم وقلوبهم .

فالمقصود من هذه الصيغة : مدحهم ، والثناء عليهم ، وبيان الأثر الطيب الذى يترتب على ذكر الله وعلى تلاوة آياته .

والصفة الثالثة من صفاتهم قوله - تعالى - : ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين - أيضًا - أنهم يعتمدون على ربهم الذى خلقهم بقدرته ، ورباهم بنعمته ، فيفوضون أمورهم كلها إليه وحده - سبحانه - لا إلى أحد سواه ، كما يدل عليه تقديم المتعلق على عامله .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة : أى : أنهم لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف فى الملك لا شريك له ، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . ولهذا قال سعد بن جبير : «التوكل على الله جماع الإيمان»(١) .

ومن الواضح عند ذوى العقول السليمة أن التوكل على الله لا ينافى الأخذ بالأسباب التى شرعها - سبحانه - بل إن الأخذ بالأسباب التى شرعها الله وأمر بها لبلوغ الغايات ، لدليل على قوة الإيمان ، وعلى حسن طاعته - سبحانه - فيما شرعه وفيما أمر به .

وليس من الإيمان ولا من العقل ولا من التوكل على الله أن ينتظر الإنسان ثمارًا بدون غرس ، أو شبعا بدون أكل ، أو نجاحا بدون جهد ، أو ثوابًا بدون عمل صالح .

إنما المؤمن العاقل المتوكل على الله ، هو الذى يباشر الأسباب التى شرعها الله لبلوغ الأهداف مباشرة سليمة . . ثم بعد ذلك يترك النتائج له - سبحانه - يُسيِّرها كيف يشاء ، وحسبما يريد . .

أما الصفتان الرابعة والخامسة من صفات هؤلاء المؤمنين فهما قوله - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٨٦ .

والمراد بإقامة الصلاة : أداؤها فى مواقيتها مستوفية لأركانها وشروطها وآدابها وخشوعها – من أقام الشيء إقامة إذا قومه وأزال عوجه –لأن الشأن فى صلاة المؤمنين أن تكون : إحساسا عميقا بالوقوف بين يدي الله ، وانقطاعا تاما لمناجاته ، وتمثلا حياً لجلاله وكبريائه ، واستغراقا كاملا فى دعائه .

والمراد بقوله : ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ يخرجون ويبذلون ، من الإنفاق وهو إخراج المال وبذله وصرفه .

والمعنى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يؤدون الصلاة فى مواقيتها مستوفية لأركانها وشروطها وسننها وآدابها وخشوعها . . وأنهم يبذلون أموالهم للفقراء والمحتاجين بسماحة نفس ، وسخاء يد ، استجابة لتعاليم دينهم .

فأنت ترى أنه – سبحانه – قد وصف هؤلاء المؤمنين بخمس صفات : الأولى والثانية والثالثة منها ترجع إلى العبادات القلبية التى تدل على شدة خشيتهم من ربهم ، وقوة تأثرهم بآيات خالقهم ، واعتمادهم عليه – سبحانه – وحده لا على أحد سواه .

والصفة الرابعة ترجع إلى العبادات البدنية ، وهى إقامة الصلاة بإخلاص وخشوع .

أما الصفة الخامسة فترجع إلى العبادات المالية ، وهى إنفاق المال فى سبيل الله ولا شك أن هذه الصفات متى تمكنت فى النفس ، كان صاحبها أهلا لمحبة الله ، ورضوانه ، ولذا مدح – سبحانه – أصحاب هذه الصفات ، وبين ما أعده لهم من ثواب جزيل فقال : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الكريمة هم المؤمنون إيمانا حقا ﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ ﴾ عالية ، ومكانة سامية ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ولهم ﴿ مَغْفِرَةٌ ﴾ شاملة لما فرط منهم من ذنوب ، ولهم ﴿ رِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فى الجنة ، يجعلهم يحيون فيها حياة طيبة ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ .

وقوله : ﴿ حَقًّا ﴾ منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف . أى : أولئك هم المؤمنون إيمانًا حقاً .

والتنوين فى قوله : ﴿ دَرَجَاتٌ ﴾ للتعظيم والتهويل . أى : لهم درجات رفيعة ، ومنازل عظيمة ، وفى وصف هذه الدرجات بأنها ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ مزيد تشريف لهم ،

ولطف بهم ، وإيذان بأن ما وعدهم به متيقن الوقوع ، لأنه وعد من كريم لا يخلف وعده - سبحانه - .

وفى وصف الرزق الذى أعده لهم بالكرم ، زيادة فى إدخال السرور على قلوبهم ، لأن لفظ الكريم يصف به العرب كل شىء حسن فى بابه ، بحيث يكون لا قبح فيه ولا شكوى معه .

وبذلك نرى أن أصحاب تلك الصفات الحميدة قد مدحهم الله - تعالى - مدحًا عظيما ، وكافأهم على إيمانهم الحق بالدرجات العالية ، والمغفرة الشاملة ، والرزق الكريم ﴿ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

هذا ، وقد استنبط العلماء من تلك الآيات جملة من الأحكام والآداب منها :

١ - حرص الصحابة على سؤال النبى ﷺ عما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم .
فإن قيل : كيف تأتى لأصحابه الذين شهدوا بدرًا - وهم من هم فى عفتهم وزهدهم - أن يختلفوا فى شأن الغنائم .

فالجواب . . أن بعض الصحابة المشتركين فى هذه الغزوة هم الذين حدث بينهم الخلاف فى شأنها ، لأنهم لهم عهد سابق بكيفية تقسيمها ، أما أكثر الصحابة فإنهم لم يلتفتوا إلى هذه الغنائم ، بل تركوا أمرها إلى رسول الله ﷺ يضعها كيف يشاء .

وأيضًا فإن هؤلاء الذين حدث بينهم الخلاف فى شأن الغنائم ، كان من الدوافع التى دفعتهم إلى هذا الخلاف ، ما فهموه من أن حيازة الغنائم تدل على حسن البلاء ، وشدة القتال فى سبيل الله ، فكان كل واحد منهم يحرص على أن يظهر بهذا المظهر المشرف وهم فى أول لقاء مع أعدائهم .

وعندما جاوز هذا الحرص حده ، بأن غطى على ما يجب أن يسود بينهم من سماحة وصفاء ، نزل القرآن ليربيهم بتربيته الحكيمة ، وليؤدبهم بأدبه السامى ، وليخبرهم بحكم الله فى شأن هذه الأنفال . . وبعد أن عرفوا حكم الله فى شأنها ، قابلوه بالرضا والإذعان والتسليم .

٢ - أن القرآن فى ترتيبه للحوادث ، لا يلزم سردها على حسب زمن وقوعها ، وإنما يرتبها بأسلوبه الخاص الذى يراعى فيه مقتضى حال المخاطب .

فلقد افتتحت السورة التى معنا بالحديث عن الغنائم التى غنمها المسلمون فى بدر-

مع أن ذلك كان بعد انتهاء الغزوة - ليشعر المخاطبين من أول الأمر أن النصر فى هذه الغزوة كان للمسلمين ، وأن الإسلام قد صرع الكفر منذ أول معركة نازله فيها .

وهذا اللون من الافتتاح هو ما يعبر عنه البلغاء ببراعة الاستهلال .

ولقد أفاض بعض العلماء فى شرح هذا المعنى فقال ما ملخصه .

وقد بدأت السورة بموضوع الأنفال واختلافهم فى قسمتها وسؤالهم عنها ، فساقت فى ذلك أربع آيات ، هن : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ . . ﴾ إلى قوله - ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

وقد عالجت هذه الآيات نفوس المؤمنين ، وعملت على تطهيرها من الاختلاف الذى ينشأ عن حب المال والتطلع إلى المادة ، ولا ريب أن حب المال والتطلع إلى المادة من أكبر أسباب الفشل .

ولأهمية هذا الموضوع فى حياة المؤمنين بدأت به السورة ، وإن كان اختلافهم فى قسمة الأنفال متأخراً فى الوجود عن اختلافهم فى الخروج إلى بدر ، وقتال الأعداء .

وقد عرفنا من سنة القرآن فى ذكر القصص والوقائع أنه لا يعرض لها مرتبة حسب وقوعها ، وذلك لأنه لا يذكرها على أنها تاريخ يعين لها الوقت والمكان ، وإنما يذكرها لما فيها من العبر والمواعظ ، ولما تتطلبه من الأحكام والحكم .

وقد بدأت السورة بالحديث عن الأنفال للمسارعة من أول الأمر بنتائج النصر الذى كفله الله للمؤمنين .

وليس من تربية النفوس أن نبدأ الكلام معها بما يدل على الاضطراب والفزع والتردد أمام وسائل العزة والشرف ، متى وجد لهم بجانب هذا التردد ما يدل على مواقف الشرف والكرامة . .

ولا كذلك يكون الأمر إذا بدئت ببيان تثاقلهم فى الخروج إلى الغزوة ، وانظر كيف يكون وقوع المطلع إذا جاء على هذا الوجه ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ . . . ﴾ الخ .

لا ريب أنه مطلع شديد الوقع على النفوس ، يصور علاقة المؤمنين بنبيهم فى صورة يأباها إيمانهم به وامتثالهم لأمره . يصورهم فى شقاق واختلاف مع قائدهم ورسولهم ، ويصورهم فى ثوب الكراهية الشديدة لمعالى الأمور وعز الحياة .

لهذا كله جاء الأسلوب فى سرد الوقائع غير مكترث بمخالفة ترتيبها فى الوجود الخارجى[1] .

هذا والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها قد عالجت ما تحاور بشأنه بعض الصحابة فى مسألة كيفية تقسيم الغنائم علاجا فيه الشفاء للنفوس ، والطهارة للقلوب ، والسمو فى المقاصد ، والتربية السليمة للأفراد والجماعات ، والتأديب الواضح لمن تتطلع نفسه إلى الأثرة أو حب الدنيا حبا يشغله عن حب دينه ، وطاعة الرسول ﷺ .

وبهذا التعليم والتوجيه والإرشاد والإقناع تعيش الأمة فى أمان واطمئنان .

* * *

كذلك من الأسئلة التى وجهها بعض الصحابة إلى النبى ﷺ بقصد التعرف على ما أحله الله - تعالى - لهم وما حرمه عليهم : مسألة تتعلق بالصيد والذبائح وقد حكى القرآن ذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) ﴾ [المائدة : ٤] .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ، عن عُدَى بن حاتم وزيد مهلهل الطائيين أنهما سألا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله ، قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها ، فنزلت هذه الآية .

والمعنى : يسألك بعض أصحابك يا محمد عما أحله الله - تعالى - لهم من المطاعم بعد أن عرفوا ما حرم عليهم منها ؟ قل لهم على سبيل الإرشاد والتعليم : أحل الله - تعالى - لكم الطيبات أى : الأطعمة الطيبة التى تستلذها النفوس المستقيمة ، وتستطيبها ولا تستقذرها ، والتى لم يرد فى الشرع ما يحرمها ويمنع من تناولها .

وقد أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يتولى الجواب عن سؤالهم ، لأنه هو المبلغ للرسالة وهو المبين لهم ما خفى عليهم من أمور دينهم ودنياهم .

وقوله - سبحانه : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ : معطوف على لفظ ﴿ الطَّيِّبَاتُ ﴾ .

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٥٤٤ لفضيلة الشيخ محمود شلتوت - رحمه الله .

و﴿ الْجَوَارِحِ ﴾ جمع جارحة . وهى - كما يقول ابن جرير - الكواسب من سباع البهائم والطير . سميت جوارح لجرحها لأربابها ، وكسبها إياهم أقواتهم من الصيد .

وقوله : ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ أى : مؤدبين ومعودين لها على الصيد . فالتكليب : تعليم الكلاب وما يشبهها الصيد .

والمعنى : أحل الله لكم الطيبات ، وأحل لكم صيد ما علمتموه من الجوارح حال كونكم مؤدبين ومعودين لها على الصيد .

وقوله -تعالى- : ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ﴾ .

أى : تعلمون هذه الجوارح بعض ما علمكم الله إياه من فنون العلم والمعرفة بأن تدربوهن على وسائل التحايل وعلى الطرق المتنوعة للاصطياد وعلى الانقياد لأمركم عند الإرسال وعند الطلب ، وعلى عدم الأكل من المصيد بعد صيده .

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة بيان بعض مظاهر فضل الله على الناس ، حيث منحهم العلم الذى عن طريقه علموا غيرهم ما يريدونه منه ، وسخروا هذا الغير لمنفعتهم ومصلحتهم .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : «قوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ ﴾ عطف على الطيبات : أى : أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتهم من الجوارح ، والجوارح : الكواسب من سباع البهائم والطير ، كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والبازى ، والمكلِّب : مؤدب الجوارح ومغريها بالصيد لصاحبها ، ورائضها ذلك بما علم من الحيل وطرق التأديب .

وانتصاب ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾على الحال من ﴿ عَلَّمْتُم ﴾ .

فإن قلت : ما فائدة هذه الحال وقد استغنى عنها بعلَّمتم ؟ قلت : فائدتها أن يكون من يعلم الجوارح نحريرًا فى علمه ، مدربا فيه ، موصوفا بالتكليب .

قوله - تعالى - : ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ ﴾ حال ثانية أو استئناف . وفيه فائدة جليلة وهى أن على كل آخذ علما أن لا يأخذه إلا من أبرع أهله علما وأكثرهم دراية وأغوصهم على لطائفه وحقائقه ، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل . فكم من آخذ عن غير متقن ، قد ضيع أيامه ، وعض عند لقاء النحارير أنامله »[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٦٠٦ .

وقوله ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ جملة متفرعة على بيان حل صيد الجوارح المعلمة ، ومشيرة إلى نتيجة التعليم وأثره والأمر فيه للإباحة .

والمعنى : إذا علمتم الجوارح وتوفرت شروط الحل فيما تصيده ، فكلوا مما أمسكنه محبوسا عليكم ولأجلكم .

والضمير فى ﴿ عَلَيْهِ ﴾ من قوله : ﴿ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ يعود إلى ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ ﴾ . أى : عند إرسالكم الجوارح للصيد فسموا عليها ، ويدل عليه قوله ﷺ لعدى بن حاتم : «وإذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله -تعالى- فكل مما أمسك عليك» .

وقال بعضهم إنه يعود على المصدر المفهوم من الفعل وهو الأكل . فكأنه قيل : واذكروا اسم الله عند الأكل مما صدن لكم . وقيل : يعود على قوله : ﴿ مِمَّا أَمْسَكْنَ ﴾ أى : اذكروا اسم الله على ما أدركتم ذكاته مما أمسكن عليكم أىْ الجوارح . ولا بأس من عود الضمير إلى كل ما ذكر ، بأن يذكر اسم الله عند إرسال الجوارح ، وعند الأكل مما صادته . وعند تذكية الحيوان الذى صادته الجوارح .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

أى : واتقوا الله وراقبوه واخشوه فى كل شئونكم واحذروا مخالفة أمره فيما شرع لكم وفيما كلفكم به فإنه - تعالى - لا يعجزه شىء - وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر .

فالجملة الكريمة تذييل قصد به التحذير من مخالفة أمر الله وانتهاك محارمه . هذا ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى :

١ - إباحة التمتع بالطيبات التى أحلها الله - تعالى - لعباده ، والتى تستطيبها النفوس الكريمة ، والعقول القويمة ، من مطعومات ومشروبات وغير ذلك مما أحله - سبحانه - لعباده وفى هذا المعنى وردت آيات كثيرة منها ، قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... ﴾(١) .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٢ .

٢ - إباحة الصيد بالجوارح بشرط كونها معلمة ، وعلامة كونها معلمة أن تسترسل إذا أرسلت ، وتنزجر إذا زجرت ، وتمسك الصيد ولا تأكل منه ، وتعود إلى صاحبها متى دعاها .

ويدخل فى الجوارح - عند جمهور الفقهاء - كل حيوان يصنع صنيع الكلب ، وكل طير كذلك ، لأن قوله - تعالى - : ﴿مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ ، يعم كل حيوان يصنع صنيع الكلب . وكان التعبير بمكلبين ، لأن الكلاب أكثر الحيوانات استعمالا للصيد .

وقد جاء فى حديث عدى بن حاتم الذى رواه الإمام أحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال له : «ما علمت من كلب أو باز ثم أرسلته وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك» . ويرى بعض الفقهاء أن الصيد لا يكون إلا بالكلاب خاصة .

قال القرطبى ما ملخصه : وقد ذكر بعض من صنف فى أحكام القرآن أن الآية تدل على أن الإباحة تتناول ما علمناه من الجوارح وهو ينتظم الكلب وسائر جوارح الطير . وذلك يوجب إباحة سائر وجوه الانتفاع ، فدل على جواز بيع الكلب والجوارح والانتفاع بها وبسائر وجوه المنافع إلا ما خصه الدليل . وهو الأكل من الجوارح . أى : الكواسب من الكلاب وسباع الطير .

وليس فى قوله ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ دليل على أنه إنما أبيح صيد الكلاب خاصة ، وإن كان قد تمسك به من قصر الإباحة على الكلاب خاصة»[(١)] .

٣ - استدل بعض الفقهاء بقوله - تعالى - ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ على أن الكلب وما يشبهه من الجوارح إذا أكل من الصيد الذى أمسكه ، فإنه فى هذه الحالة لا يحل الأكل منه ، لأنه لم يمسك لمن أرسله وإنما أمسك لنفسه وبهذا قال الشافعية والحنابلة .

ويرى المالكية أن الجارح مادام قد عاد بالصيد ولو مأكولا منه ، فإنه يجوز الأكل منه لأنه بعودته بما صاده قد أمسكه على صاحبه .

أما الأحناف فقالوا : إن عاد بأكثره جاز الأكل منه ، لأنه فى هذه الحالة يكون قد أمسك لصاحبه ، وإن عاد بأقله لا يجوز الأكل منه ، لأنه يكون قد أمسك لنفسه وهذه المسألة بأدلتها الموسعة مبسوطة فى كتب الفقة وفى بعض كتب التفسير[(٢)] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٦٦ .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ٦ ص ٦٩ . وتفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٦ .

٤ - استدل بعض العلماء بقوله - تعالى- :﴿ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ على وجوب التسمية عند إرسال الجوارح للصيد ، ولقوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ... ﴾(١) .

ويرى بعضهم أن الأمر للندب ، ويرى فريق ثالث أن التسمية إن تركت عمدا لا يحل الأكل من الصيد .

قال القرطبى : «وقد ذهب الجمهور من العلماء إلى أن التسمية لابد منها بالقول عند الإرسال لقوله ﷺ لعدى بن حاتم : «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك» فلو لم توجد التسمية على أى وجه كان لم يؤكل الصيد . وهو مذهب أهل الظاهر وجماعة أهل الحديث .

وذهب جماعة من أصحابنا وغيرهم إلى أنه يجوز أكل ما صاده المسلم وذبحه وإن ترك التسمية عمدا ، وحملوا الأمر بالتسمية على الندب .

وذهب مالك فى المشهور إلى الفرق بين ترك التسمية عمدا أو سهوا فقال لا تؤكل مع العمد ، وتؤكل مع السهو ، وهو قول فقهاء الأمصار ، وأحد قولى الشافعى»(٢) .

ومما سبق يتبين لنا كيف رد القرآن الكريم على السائلين عما أحله الله - تعالى - لهم ، ردا واضحا جامعا تتجلى فيه رحمه الله - تعالى - بعباده ، وسماحة الدين الذى أرسل به رسوله محمدا ﷺ .

* * *

وفى سورة «النساء» نجد ثلاثة أمور دار حول أولها حوار بين الرسول ﷺ وبين اليهود ، ودار حول ثانيها وثالثها حوار بينه ﷺ وبين بعض أصحابه ، وقد ساق القرآن ذلك بأسلوب السؤال ، ورد على تلك الأسئلة ردا بليغا شافيا .

أما الأمر الأول الذى كان الحوار فيه بين الرسول ﷺ وبين بعض أهل الكتاب ، فنراه فى قوله- تعالى - : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) ﴾ [النساء: ١٥٣] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢١ . (٢) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٦٨ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا له يا محمد : إن موسى جاء بالألواح من عند الله ، فأتنا أنت بالألواح من عند الله حتى نصدقك ، فأنزل الله تعالى - هذه الآية .

والمراد بأهل الكتاب هنا : اليهود خاصة ، بدليل سياق الآيات التى جاءت بعد ذلك والتى ذكرت أوصافا لا تنطبق إلا عليهم ، وبدليل ما ذكره المفسرون فى أسباب نزول هذه الآيات . والمعنى : يسألك بعض اليهود : يا محمد على سبيل التعنت والجحود ، أن تنزل عليهم كتابا من السماء مكتوبا جملة كما جاء موسى لآبائهم بالتوراة مكتوبة جملة .

وسؤالهم هذا مقصدهم من ورائه التعنت والعناد ، ولو كانوا يريدون الإيمان حقا لما وجهوا إليك هذه الأسئلة التى لا فائدة منها ، فقد قامت الأدلة الواضحة على صدقك . وعبر - سبحانه - بالفعل المضارع «يسألك» لقصد استحضار حالتهم العجيبة فى هذا السؤال حتى لكأن السامع يراهم ، وللدلالة على تكرار أسئلتهم وتجددها المرة تلو الأخرى دون حياء أو خجل وقوله - سبحانه - : ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ بيان للون من رذائلهم وقبائحهم ، وتسلية للرسول ﷺ عما لحقه منهم من أذى وسوء أدب . والفاء فى قوله : ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا ﴾ معطوفة على جملة محذوفة والتقدير : لا تحزن ولا تبتئس ـ أيها الرسول الكريم - من تطاول هؤلاء اليهود وتعنتهم ، فإن آباءهم الأقدمين الذين سار الأبناء على نهجهم قد سألوا نبيهم موسى - عليه السلام - أسئلة أكبر وأعظم فى سوء الأدب من سؤال اليهود المعاصرين لك ، فقد قال آباؤهم لنبيهم موسى - عليه السلام- : نريدك أن تظهر لنا الله - تعالى - أمام أعيننا ، بحيث نشاهده بأبصارنا ، ويطلب إلينا الإيمان بك ، ولقد كانت النتيجة لهذه الأسئلة السيئة من اليهود الأقدمين لنبيهم موسى ، أن أنزل الله - تعالى - عليهم الصاعقة ذات الصوت الشديد المجلجل المزلزل المصحوب بنار هائلة ، والتى كان من آثارها أن خروا مغشيا عليهم إلى حين ، بسبب جهلهم وسوء أدبهم . .

وبعد أن عفا الله - تعالى - عنهم لم يثوبوا إلى رشدهم بل استمروا فى ضلالهم وجهلهم وسفاهتهم وعنادهم ، حيث عبدوا العجل فى غياب نبيهم موسى - عليه

السلام - الذى جاءهم بالبينات الواضحة وبالبراهين القاطعة التى تشهد بصدقه فيما يبلغه عن ربه ، والتى تشهد - أيضا - بأن المستحق للعبادة إنما هو الله - تعالى - وحده .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ أى : فعفونا عن اتخاذهم العجل إلها ، بعد أن تابوا وأقلعوا عن عبادته ، وأعطينا نبينا موسى - عليه السلام - بفضلنا وإحساننا حججًا بينات ، ومعجزات باهرات ، وقوة وقدرة على الانتصار على من خالفه .

ثم ذكرت الآيات بعد ذلك على سبيل التسلية للرسول ﷺ جملة من رذائل هؤلاء السائلين ، كنقضهم للعهود والمواثيق ، واعتدائهم فى يوم السبت ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف ، وافترائهم الكذب على عيسى - عليه السلام - وعلى أمه مريم ، وتعمدهم أكل الربا واستلاب أموال الناس بالباطل .

والمقصود من كل ذلك الرد الشافى عليهم ، حتى يزداد المؤمنون الصادقون إيمانا على إيمانهم ، وحتى ينكشف الحجاب عن أن هذه الأسئلة وتلك المحاورات التى دارت بين الرسول ﷺ وبين هؤلاء اليهود ، النصر فيها للرسول ﷺ ولأتباعه ، والخزى والهزيمة فيها لهؤلاء الذين يفترون الكذب عن تعمد وإصرار .

وأما الأمر الثانى الذى كان الحوار فيه بين الرسول ﷺ وبين بعض أصحابه - فيتعلق ببعض الأحكام الخاصة بالنساء وباليتامى وبالمستضعفين ، وقد حكى القرآن ذلك ، وأمر الرسول ﷺ أن يجيب على أسئلتهم بما يقنع العقول ويرضى العواطف الشريفة ، حيث قال - تعالى - : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧) ﴾ [النساء: ١٢٧] .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ من الاستفتاء بمعنى طلب الفتوى . يقال ـ استفتيت الفقيه فى مسألة كذا . أى : سألته أن يبين حكمها .

فمعنى ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ﴾ أى : ويسألك أصحابك - أيها الرسول الكريم -

أن تفتيهم فى أمر النساء ، بأن تبين لهم ما خفى عليهم من الأحكام التى تتعلق بما يجب للنساء من حقوق ، وبما يكون عليهم من واجبات .

والذى حمل الصحابة على هذا الطلب ، أنهم كانوا فى جاهليتهم يعاملون النساء معاملة سيئة ويظلمونهن ظلما شديدا . ثم وجدوا أن الإسلام الذى أكرمهم الله - تعالى - به قد أكرم المرأة وأنصفها بطريقة لم يألفوها من قبل ، فتعددت أسئلتهم عن الأحكام التى تتعلق بالنساء حتى يطبقوا ما يجب عليهم نحوهن ، من حيث معاشرتهن وميراثهن وغير ذلك من الأحكام .

قال القرطبى : «نزلت - هذه الآية - بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن فى الميراث وغير ذلك . فأمر الله - تعالى - نبيه أن يقول لهم : الله يفتيكم فيهن . أى : يبين لكم حكم ما سألتم عنه ، وهذه الآية رجوع إلى ما افتتحت به السورة من أمر النساء . وكانت قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها فسألوا فقيل لهم : إن الله يفتيكم فيهن . .»(١) .

فسؤال الصحابة ليس عن ذوات النساء وإنما عن أحكام تتعلق بهن .

أخرج ابن جرير وغيره عن سعيد بن جبير قال : كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه ، ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئا ، فلما نزلت آية المواريث فى سورة النساء شق ذلك على الناس وقالوا : أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال ، والمرأة التى هى كذلك كما يرث الرجل الذى يعمل فى المال ؟ فرجوا أن يأتى فى ذلك حدث من السماء فانتظروا : فلما رأوا أنه لا يأتى حدث قالوا : لئن تم هذا إنه لواجب ما عنه بد . ثم قالوا : سلوا رسول الله ﷺ فسألوه . فأنزل الله ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ﴾ . . الآية»(٢) .

وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ وعد من الله - تعالى - بالإجابة عما يسألون عنه . وهو لون من تبشير المتحير بأنه قد وجد ضالته حتى يطمئن قلبه ، ويهدأ باله . وذلك مثل قولهم - ولله المثل الأعلى - لمن سأل سؤالا لمن يحسن الإجابة عنه : على الخبير وقعت .

أى : قل يا محمد لهؤلاء السائلين عن بعض الأحكام المتعلقة بالنساء : الله - تعالى - يفتيكم فى شأنهن ، ويبين لكم بأجلى بيان وأحكمه ما تجهلون من أحكامهن . ويقضى بينكم وبينهن بالعدل الذى لا يحوم حوله باطل .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٤٠٢ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٥ ص ٣٩٩ - بتصرف يسير

وفى تقديم لفظ الجلالة تنويه بشأن هذه الفتيا ، وإشعار بوجوب التزام ما تتضمنه من أحكام لأنها صادرة من العليم الخبير .

ومعنى الآية الكريمة على سبيل الإجمال : يسألك بعض أصابك يا محمد أن تفتيهم فى بعض الأحكام التى تتعلق بالنساء ، قل لهم على سبيل التعليم والإرشاد : الله - تعالى - يفتيكم ويبين لكن بيانا شافيا ما تسألون عنه بشأنهن ، ويفتيكم -أيضا- فى شأنهن ما أنزله الله - تعالى - من قرآن يتعلق بحقوقهن وبما يجب عليهن قبل نزول هذه الآية ، وما ينزله عليكم من قرآن بعد هذه الآية .

ويفتيكم - أيضا - فى شأن اليتامى من النساء ما أنزله الله من قرآن بشأنهن ، وما أنزله فى هذه الآية من أنه - سبحانه - يحرم عليكم الزواج من هؤلاء اليتامى من النساء دون أن تعطوهن حقوقهن كاملة غير منقوصة ، أو أن تمنعوهن من الزواج بغيركم طمعا فى أموالهن ، وكراهية أن تنتقل هذه الأموال منكم كأولياء لهن إلى غيركم ممن يرغبن الزواج به . ويفتيكم - كذلك - فى شأن المستضعفين من الولدان وفى شأن اليتامى بصفه عامة ، بأن تعاملوهم معاملة كريمة رحيمة ، وأن تعطوهم حقوقهم عن سخاء وطيب نفس واعلموا أن ما تفعلونه من خير لهؤلاء المذكورين جميعا ، سيكافئكم الله - تعالى - عليه مكافأة جزيلة تظفرون عن طريقها بالسعادة فى الدنيا والآخرة .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد أمرت الرسول ﷺ أن يوضح للناس ما سألوه عنه من أحكام النساء ، حتى لا يقع ظلم أو غبن عليهن ، وحتى تكون العلاقة بين الجنسين الذكور والإناث قائمة على المودة والرحمة والاحترام المتبادل .

وأما الأمر الثالث الذى كان الحوار فيه بين الرسول ﷺ وبين بعض أصحابه ، فيتعلق بكيفيه تقسيم الميراث فى حالة «الكلالة» وقد حكى القرآن الكريم ذلك ، وأجاب على أسئلة السائلين إجابة شافية ، حيث قال - تعالى - : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) ﴾

[النساء : ١٧٦] .

وقد أورد المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : دخل علىَّ النبى ﷺ وأنا مريض لا أعقل . فتوضأ فصب علىّ أو قال : صُبوا عليه . فعقلت فقلت : إنه لا يرثنى إلا كلالة . فكيف الميراث ؟ فأنزل الله آية الفرائض وفى بعض الألفاظ فأنزل الله آية الميراث ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ ﴾ الآية . وفى رواية قال جابر : نزلت فىّ ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ ﴾(1) .

ويبدو أن عددًا من الصحابة قد سألوا النبى ﷺ فى شأن ميراث الكلالة فى أزمنة متفاوتة فنزلت هذه الآية للإجابة عن أسئلتهم المتعلقة بها . وقد سمى النبى - ﷺ - هذه الآية بآية الصيف ، لأنها نزلت فى هذا الوقت .

قال القرطبى : «قال عمر : إنى والله لا أدع شيئا أهم إلىّ من أمر الكلالة . وقد سألت رسول الله ﷺ عنها فما أغلظ لى فى شىء ما أغلظ لى فيها ، حتى طعن بإصبعه فى جنبى أو فى صدرى ثم قال : «يا عمر ، ألا تكفيك آية الصيف التى أنزلت فى آخر سورة النساء»(2) .

والكلالة .. كما يقول الراغب : «اسم لما عدا الولد والوالد من الورثة . وروى أن النبى ﷺ سئل عن الكلالة فقال : «من مات وليس له ولد ولا والد» ، فجعله اسما للميت . وقال ابن عباس اسم لمن عدا الولد»(3) .

وقال ابن كثير ما ملخصه : «وكان - رضى الله عنه - يقول : الكلالة من لا ولد له . وكان أبو بكر - رضى الله عنه - يقول ـ الكلالة ما عدا الولد والوالد .

ثم قال : وعن عمر أنه قال : إنى لأستحى أن أخالف أبا بكر . وهذا الذى قاله الصديق هو الذى عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة فى قديم الزمان وحديثه . وهو مذهب الأئمة الأربعة ، والفقهاء السبعة ، وقول علماء الأمصار قاطبة ، وهو الذى يدل عليه القرآن»(4) .

وقد ذكرت كلمة الكلالة مرتين فى هذه السورة .

---

(1) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٩٢ .

(2) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٢٩ .

(3) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٤٣٧ .

(4) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٩٥ .

أما المرة الأولى ففى - قوله - تعالى - فى آيات المواريث : ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث﴾ .

والمراد بالإخوة والأخوات فيها : الإخوة لأم والأخوات لأم .

أما هنا فالأمر يختلف إذ المراد بالإخوة والأخوات فى الآية التى معنا : الإخوة والأخوات الأشقاء أو من الأب فقط .

والمعنى : يسألك أصحابك يا محمد فى كيفية ميراث الكلالة ، قل الله يفتيكم فى ذلك ، فاسمعوا حكمه وأطيعوه ولا تخالفوه .

وقد تولى - سبحانه - الإجابة مع أن المسئول هو النبى ﷺ ، للتنوية بشأن الحكم المسئول عنه ، ولتأكيد أن المواريث من الأمور التي تكفل الله ببيانها وتوزيعها وحده ، فلا يصح لأحد أن يخالف ما شرعه الحكيم الخبير فى شأنها فهو - سبحانه - أعلم بمصالح عباده ، وأرحم بهم من آبائهم ، ومن كل مخلوق .

وقوله : ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ كلام مستأنف مبين للإجابة عما سألوا عنه فى شأن ميراث الكلالة .

والمختار الذى عليه المحققوق من العلماء أن الولد هنا عام يتناول الذكر والأنثى ، لأن الكلام فى الكلالة وهو من ليس له ولد أصلا لا ذكر ولا أنثى وليس له والد - أيضا - إلا أنه اقتصر على ذكر الولد ثقة بظهور الأمر . ولأن الولد مشترك معنوى وقع نكرة فى سياق النفى فيعم الابن والبنت .

والمراد بالأخت هنا - كما سبق أن أشرنا - الأخت الشقيقة أو الأخت لأب .

والمعنى : يسألك أصحابك يا محمد عن توريث الكلالة فقل لهم : والله يفتيكم فى ذلك ، إذا مات إنسان ولم يترك أولادًا لا من الذكور ولا من الإناث ، ولم يترك كذلك والدًا ، وترك أختا شقيقة أو من أبيه ، فلأخته فى تلك الحالة نصف ما تركه هذا الميت بالفرض ، والباقى للعصبة أولها بالرد إن لم يترك عصَبة .

وإذا ماتت الأخت قبل أخيها ولم يكن لها ولد - ذكرًا أو أنثى - ، ولم يكن لها كذلك والد ، فإن الأخ فى تلك الحالة يحرز جميع مالها .

ثم بين - سبحانه - صورتين أخريين من صور الكلالة فقال : ﴿ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ أى :

فإن كانتا أى : الوارثتان بالأخوة اثنتين أو أكثر ، فلهما الثلثان مما ترك أخوهما المتوفى ، وإن كان الورثة لهذا الأخ المتوفى إخوة من الرجال والنساء ففى هذه الحالة تقسم تركته بينهم للذكر مثل حظ الانثيين .

وبهذا نرى أن الآية الكريمة قد ذكرت صورا أربعا لميراث الإخوة للميت الذى لم يترك ولدا ولا والدا . أى الميت الكلالة .

١ - أن يموت الميت وترثه أخت واحدة . ففى هذه الحالة يكون لها نصف تركته بالفرض والباقى للعصبة إن وجدوا ، فإن لم يوجدوا فلها الباقى بالرد .

٢ - أن يكون الأمر بالعكس بأن تموت امرأة ويرثها أخ واحد . فيكون له جميع تركتها .

٣ - أن يكون الميت أخا أو أختا والوارث أختان فصاعدا ، ففى هذه الحالة يكون لهما أو لهن الثلثان .

٤ - أن يكون الميت أخا أو أختا ، والورثة عدد من الإخوة والأخوات ، ففى هذه الحالة تقسم التركة بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين .

هذا ، وظاهر الآية يفيد أنه لا فرق بين الإخوة الأشقاء والإخوة لأب فى أنهم يشتركون فى التركة إذا اجتمعوا ، ولكن هذا الظاهر غير مراد ، فقد خصصت السنة هذا العموم ، فقدمت الأشقاء على الإخوة لأب . فإذا ما اجتمع الصنفان حجب الإخوة الأشقاء الإخوة لأب .

وقوله - تعالى - : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تذييل قصد به إظهار جانب من فضل الله - تعالى - على عباده ، وتحذيرهم من مخالفته شرعه وأمره .

أى : يبين الله - تعالى - لكم هذه الأحكام المتعلقة بالمواريث ، كما يبين لكم غيرها ، خشية أن تضلوا طريق الحق فى ذلك ، بأن تعطوا من لا يستحق أو تهملوا من يستحق ، والله - تعالى - عليم بكل شىء ، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ، وسيحاسبكم على أعمالكم فيجازى المتبع لشرعه بالثواب العظيم ، ويجازى المخالف له بالعذاب الأليم .

ومما تقدم نرى أن سورة «النساء» قد ذكرت ومن بين ما ذكرت من أحكام ثلاثة أسئلة ، أحدها من بعض اليهود ، والثانى والثالث من بعض الصحابة ، وقد جاء الجواب فى القرآن الكريم بما يشهد بأن الرسول ﷺ صادق فيما يبلغه عن ربه ، وبما يزيد أتباعه إيمانًا على إيمانهم ، وثباتا على الحق على ثباتهم .

* * *

أما سورة «البقرة» فقد ورد فيها لفظ ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ سبع مرات وكل سؤال عن أمر معين ، كما أن لفظ ﴿ قُلْ ﴾ قد تكرر سبع مرات ، أى : أن كل سؤال كان الجواب عليه بلفظ ﴿ قُلْ ﴾ تلقينا من الله تعالى - لنبيه ﷺ الجواب الشافى على أسئلة السائلين ، وجدال المجادلين ، وحوار المحاورين .

والسؤال الأول كان عن الحكمة من وجود الأهلة بتلك الصورة التى تجعلها فى أول أمرها صغيرة ثم تكبر رويدا رويدا إلى أن تكتمل بدرا ، وقد حكى القرآن ذلك وجاء بالجواب الحكيم حيث قال - تعالى - : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : «بلغنا أن بعض الناس قالوا : يا رسول الله ، لم خُلِقت الأهلة فنزلت» .

والأهلة : جمع الهلال ، وهو الكوكب الذى يبزغ فى أول كل شهر ، ويسمى هلالا لثلاث ليال أو لسبع ليال من ظهوره ، ثم يسمى بعد ذلك قمرا إلى أن يعود من الشهر الثانى .

قال بعضهم : وهو مشتق من استهل الصبى إذا بكى وصاح حين يولد ، ومنه أَهَلَّ القوم بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية ، وسمى بذلك لأنه حين يُرَى يُهل الناس بذكره أو بالتكبير ، ولهذا يقال أهل الهلال واستهل[1] .

والمواقيت : جمع ميقات بمعنى الوقت ، وهو ما يقدر لعمل من الأعمال وقيل : الميقات منتهى الوقت .

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٢ ص ٧١ .

والمعنى : يسألك بعض الناس عن الحكمة من خلق الأهلة ، قل لهم - يا محمد - إن الله - تعالى - قد خلقها لتكون معالم يُوقِّت ويحدد بها الناس صومهم ، وزكاتهم ، وحجهم ، وعدة نسائهم ، ومدد حملهن ، ومدة الرضاع ، وغير ذلك مما يتعلق بأمور معاشهم .

قال - تعالى- : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٥] .

وخص الحج بالذكر مع أن الأهلة مواقيت لعبادات أخرى كالصوم والزكاة للتنبية على أن الحج مقصور وقت أدائه على الزمن الذى عينه الله - تعالى - وأنه لا يجوز نقله إلى وقت آخر كما كانت العرب تفعل ، إذ كانوا ينقلون ما شاؤوا من الأشهر الحرم الأربعة التى من جملتها ذو الحجة إلى شهر آخر غير حرام ، وهو النسيء المشار إليه بقوله : ﴿ إنما النسيء زيادة فى الكفر ﴾ .

وخص الشارع المواقيت بالأهلة وأشهرها ، دون الشمس وأشهرها ، لأن الأشهر الهلالية تعرف برؤية الهلال ومحاقه ، وذلك ما لا يخفى على أحد من الخاصة أو العامة أينما كانوا ، بخلاف الأشهر الشمسية . فإن معرفتها تنبنى على النظر فى حركات الفلك وهى لا تتيسر إلا للعارفين بدقائق علم الفلك .

هذا ، ومن الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآية ما رواه أبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس قال : نزلت فى معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم قالا : يا رسول الله . ما بال الهلال يبدو - أو يطلع - دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان ، لا يكون على حال واحد ؟ فنزلت .

وعلى هذه الرواية يكون الجواب بقوله - تعالى - : ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ من قبيل أسلوب الحكيم ، وهو إجابة السائل بغير ما يتطلبه سؤاله ، بتنزيل سؤاله منزلة غيره ، تنبيها له على أن ذلك الغير هو الأولى بالسؤال لأنه هو المهم بالنسبة له .

فأنت ترى هنا أن السائلين قد سألوا عن سبب اختلاف الأهلة بالزيادة والنقصان ، فأجيبوا ببيان الحكمة من خلقها ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : عليكم أن تسألوا

عن الحكمة والفائدة من خلق الأهلة لأن هذا هو الأليق بحالكم وهو ما أجبتكم عليه ، لا أن تسألوا عن سبب تزايدها فى أول الشهر وتناقصها فى آخره ، لأن هذا من اختصاص علماء الهيئة ، وأنتم لستم فى حاجة إلى معرفة ذلك فى هذا الوقت .

ولعلماء البلاغة كلام جيد فى مزايا ما يسمونه بأسلوب الحكيم ، فقد قال السكاكى ما ملخصه : «ولهذا النوع - أعنى إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر - أساليب متفننة ، لكل من تلك الأساليب عرق فى البلاغة يتشرب من أفانين سحرها ، ولا كأسلوب الحكيم فيها . وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب ، أو السائل بغير ما يتطلب ، كما قال - تعالى - ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ﴾ الآية . قالوا فى السؤال . ما بال الهلال يبدو دقيقًا . . إلخ فأجيبوا بما ترى . وإن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادق المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور ، وأبرزه فى معرض المسحور ، وهل الآن شكيمة «الحجاج الثقفى» لذلك الرجل الخارجى ، وسل سخيمته ، حتى آثر أن يحسن على أن يسيء غير أن سحره بهذا الأسلوب ؟ إذ توعده الحجاج بالقيد فى قوله «لأحملنك على الأدهم» فقال الخارجى متغابيا : مثل الأمير يحمل على الأدهم الأشهب . مبرزًا فى معرض الوعد ، متوصلا أن يريه بألطف وجه : أن رجلا مثله جدير بأن يعد لا أن يوعد» .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ هذا القول الكريم نهى لجماعة المسلمين عن عادة كانوا يفعلونها فى الجاهلية ، وهى أنهم كانوا إذا عادوا من حجهم أو أحرموا لا يدخلون من أبواب بيوتهم ، بل كانوا يدخلون من نقب ينقبونه فى ظهور بيوتهم .

أخرج البخارى عن أبى إسحاق قال : سمعت البراء ﷺ يقول : نزلت هذه الآية فينا . كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخوا من قبل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها . فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه عُيِّر بذلك فنزلت : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ ﴾ إلخ .

والمعنى : وليس من البر ما كنتم تفعلونه فى الجاهلية من دخولكم البيوت من ظهورها عند إحرامكم إو عودتكم من حجكم ، ولكن البر الحق الجامع لخصال الخير يكون فى تقوى الله بأن تمتثلوا أوامره وتجتنبوا نواهيه ، وإذا ثبت ذلك فعليكم أن تأتوا البيوت من أبوابها عند إحرامكم أو رجوعكم من حجكم .

وفى الأمر بإتيان البيوت من أبوابها إشعار بأن إتيانها من ظهورها باسم الدين غير مأذون فيه ، وكل ما يفعل باسم الدين وليس له فى الدين من شاهد فهو بدعة ، وكل بدعة ضلالة .

وفى الآية الكريمة تعريض بمن يسأل النبى ﷺ عما هو ليس من العلم المختص بالنبوة ، ولا تتوقف معرفته على الوحى ، فهذا السائل فى سؤاله مثله كمثل من يدخل البيت من ظهره لا من بابه .

قال بعضهم : وذلك لأن العلم على ضربين : علم دنيوى يتعلق بأمر المعاش - كمعرفة الصنائع ومعرفة حركات النجوم ومعرفة المعادن والنبات ، وقد جعل الله لنا سبيلا إلى معرفة ذلك على غير لسان نبيه ﷺ .

وعلم شرعى يتعلق بالعبادات والمعاملات والعقيدة ولا سبيل إلى أخذه إلا من الصادق المصدوق ﷺ .

فلما جاءوا يسألون النبى ﷺ عما أمكنهم معرفته من غير جهته أجابهم . ثم بين أن البر فى التقوى وذلك يكون بالعلم والعمل المختص بالدين»[1] .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت . ما وجه اتصال قوله - تعالى - :﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ﴾ إلخ بما قبله ؟ قلت : كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن الحكمة فى نقصانها وتمامها : إن كل ما يفعله الله - تعالى - لا يكون إلا عن حكمة ومصلحة لعباده ، فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر فى شىء وأنتم تحسبونها برا . ويجوز أن يكون ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج ، لأنه كان من أفعالهم فى الحج ، ويحتمل أن يكون هذا لتعكيسهم فى سؤالهم وأن مثلهم كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره . والمعنى ليس البر وما ينبغى أن تكونوا عليه بأن تعكسوا فى مسائلكم ، ولكن البر بر من اتقى ذلك وتجنبه ولم يجسر على مثله . ثم قال : ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ أى : باشروا الأمور من وجوهها التى يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا ، والمراد وجوب توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب»[2] .

وقوله -تعالى- : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أمر بالتقوى التى تتضمن القيام

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٢ ص ٤٧٣ بتصرف .
(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٤٣ .

بجميع الواجبات واجتناب البدع والمنكرات . أى افعلوا ما أمركم الله به ، واجتنبوا ما نهاكم عنه ، لتكونوا من المفلحين ، وهم الفائزون بالحياة المطمئنة فى الدنيا والنعيم الخالد فى الآخرة . وبذلك تكون الآية الكريمة قد ردت عقول الناس إلى النظر والتأمل فى سنن الله وفى خلقه على النحو الذى ينشئ التقوى فى النفوس ، ويوجه إلى العمل الصالح الذى يرضى الله - تعالى - .

والسؤال الثانى كان عن أفضل طريقة لإنفاق الأموال ، وقد ورد ذلك فى قوله -تعالى- : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾ [البقرة: ٢١٥] .

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية أن جماعة من المسلمين سألوا رسول الله ﷺ أين يضعون أموالهم ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .

وعن ابن عباس قال : كان عمرو بن الجموح شيخا كبيرا ، وعنده مال كثير فقال يا رسول الله : بماذا نتصدق وعلى من ننفق ؟ فنزلت الآية .

والمعنى : يسألك بعض أصحابك - أيها الرسول الكريم - أى شىء ينفقون من أصناف الأموال ؟ قل لهم ما أنفقتم من أموالكم فاجعلوه للوالدين قبل غيرهما ليكون أداء لحق تربيتهما ووفاء لبعض حقوقهما ، وللأقربين وفاء لحق القرابة والرحم ، ولليتامى الذين فقدوا الأب الحانى الذى يسد عوزهم وللمساكين لفقرهم واحتياجهم ، وابن السبيل لأنه كالفقير لغيبة ماله وانقطاعه عن بلده ، واعلموا أن ما تفعلونه من خير مع هؤلاء المذكورين ومع غيرهم ممن هم فى حاجة إلى بركم وعطائكم يعلمه الله - تعالى - وسيجازيكم عليه أفضل الجزاء .

ثم جاء السؤال الثالث وكان عن القتال فى الأشهر الحرم ، وقد فصل القرآن الجواب عن هذا السؤال تفصيلا يقنع العقول السليمة ، ويرضى النفوس الكريمة حيث قال - تعالى - : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) ﴾ [البقرة: ٢١٧] .

وقد ذكر كثير من المفسرين ومن أصحاب السير فى سبب نزول هذه الآية قصة ملخصها : أن النبى ﷺ بعث عبد الله بن جحش ومعه اثنا عشر رجلا كلهم من المهاجرين ، وأعطاه كتابا مختوما وأمره ألا يفتحه إلا بعد أن يسير يومين ، ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ولا يستكره أحدًا من أصحابه . فسار عبد الله يومين ثم فتح الكتاب فإذا فيه «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل بنخلة – مكان بين مكة والطائف – فترصد بها عيرًا لقريش وتعلم لنا من أخبارهم» .

فقال عبد الله : سمعا وطاعة !! وأخبر أصحابه بذلك وأنه لا يستكرههم فمن أحب الشهادة فلينهض ومن كره الموت فليرجع فأما أنا فناهض . فنهضوا جميعًا ، فلما كانوا فى أثناء الطريق أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما يعتقبانه . فتخلفا فى طلبه ، ومضى عبد الله ببقية أصحابه حتى وصلوا نخلة ، فمرت عير لقريش فى طريقها لمكة وكانت فى حراسة عمرو بن الحضرمى وعثمان بن المغيرة ، وأخويه نوفل والحكم به كيسان . فتشاور المسلمون وقالوا : نحن فى آخر يوم من رجب . لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن فى الحرم فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام !! فترددوا وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم . فرمى «واقد بن عبد الله» عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله ، وأسروا عثمان والحكم ، وأفلت منهم نوفل فأعجزهم .

وقيل : كان ذلك فى أول ليلة من رجب وقد ظنوها آخر ليلة من جمادى ، فإقدامهم على ما أقدموا عليه كان على سبيل الخطأ .

ثم أقبل عبد الله ومن معه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله وقد عزلوا من ذلك الخمس ، فأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه وقال لهم : «ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام» ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا . وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه القتال فى الشهر الحرام ، واشتد ذلك على المسلمين ، حتى أنزل الله– تعالى – قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ .. ﴾ (١) .

والمعنى : يسألونك يا محمد عن حكم القتال فى الشهر الحرام ، قل لهم : القتال فيه أمر كبير مستنكر ، وذنب عظيم مستقبح ، لأن فيه اعتداء على الشهر الحرام المقدس ، وانتهاكًا لمحارم الله – تعالى – .

---

(١) تفسير ابن كثير – بتصرف وتلخيص – جـ ١ ص ٢٥٤ ، وسيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٤٠ .

والسائلون ، قيل : هم المؤمنون ، وقد سألوا عن حكم ذلك على سبيل التعليم والتماس المخرج لما حصل منهم . وقيل هم المشركون وسؤالهم على سبيل التعيير للنبي ﷺ وأصحابه ، حيث أقدم بعضهم وهو عبد الله ومن معه على القتال فيه فرد الله عليهم بأن القتال فيه كبير ولكن ما فعله هؤلاء المشركون من صد عن سبيل الله وكفر به . . . إلخ أكبر من ذلك بكثير .

فالجواب تشريع إن كان السؤال من المسلمين . وتبكيت وتوبيخ إن كان من المشركين ، لأنهم توقعوا أن يجيبهم بإباحة القتال فيه فيثيروا الشبهات حول الإسلام والمسلمين ، فلما أجابهم بأن القتال فيه كبير وأن ما فعلوه من جرائم فى حق المسلمين أكبر وأعظم كبتوا وألقموا حجرًا .

والمراد بالشهر الحرام الأشهر الحرم جميعا وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . وسميت بذلك لحرمة القتال فيها ، فأل فى الشهر للجنس . وقيل للعهد والمراد بالشهر الحرام شهر رجب الذى حدثت فيه قصة عبد الله بن جحش وأصحابه .

ثم أخذ القرآن يعدد على المشركين جرائمهم التى كل جريمة منها أكبر من القتال فى الشهر الحرام الذى فعله المؤمنون لدفع الضرر عن أنفسهم أو لجهلهم بالميقات فقال - تعالى- : ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ﴾ .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : نحن نوافقكم على أن القتال فى الشهر الحرام كبير ، ثم قال لهم أيضاً على سبيل التوبيخ إن ما فعلتموه أنتم من صرفكم المسلمين عن طاعة الله وعن الوصول إلى حرمه ، ومن شرككم بالله فى بيته ، ومن إخراجكم لأهله منه أعظم وزرا عند الله من القتال فى الشهر الحرام .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة إدخال الطمأنينة على قلوب المؤمنين بسبب ما وقع من عبد الله بن جحش ومن معه ، وتبكيت المشركين على جرائمهم التى أولها يتمثل فى قوله -تعالى- : ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ﴾ أى : منع من يريد الإسلام من دخوله ، وابتدأ - سبحانه - ببيان صدهم عن سبيله للإشارة إلى أنهم يعاندون الحق فى ذاته .

وثانيها قوله :﴿ وَكُفْرٌ بِهِ ﴾ أى : كفر بالله - تعالى - وهو معطوف على ما قبله .

وثالثها قوله : ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وهو معطوف على سبيل الله أى : وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام بمنعهم المؤمنين من الحج والاعتمار .

ورابعها قوله : ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ أى : وإخراج النبى ﷺ وأصحابه من مستقرهم حول المسجد الحرام بمكة وهم القائمون بحقوقه ، كل ذلك «أكبر» جرما ، وأعظم إثما «عند الله» من القتال فى الشهر الحرام .

ثم أضاف - سبحانه - إلى جرائمهم السابقة جريمة خامسة فقال : ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أى : ما فعله المشركون من إنزال الشدائد بالمؤمنين تارة بإلقاء الشبهات وتارة بالتعذيب ليحملوهم على ترك عقيدتهم أكبر إثما من القتل فى الشهر الحرام ، لأن الفتنة عن الدين تفضى إلى القتل الكثير فى الدنيا وإلى استحقاق العذاب الدائم فى الآخرة .

وقيل : المراد بالفتنة هنا الكفر . أى : كفركم بالله أكبر من القتل فى الشهر الحرام .

وأصل الفتنة : عرض الذهب على النار ، لاستخلاصه من الغش ، ثم استعملت فى الشرك وفى الامتحان بأنواع الأذى والاضطهاد .

ويعزى إلى عبد الله بن جحش أنه قال ردا على المشركين عندما قالوا : استحل محمد وأصحابه القتال فى الشهر الحرام .

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة	وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد	وكفر به ، والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله	لئلا يرى الله فى البيت ساجد
فإنا وإن عيَّرتمونا بقتله	وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمى رماحنا	بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دمًا ، وابن عبد الله عثمان بيننا	ينازعه غل من القد عاند

وقوله - تعالى - : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ . بيان لشدة عداوة الكفار للمؤمنين ودوامها .

أى : لا يزال المشركون يقاتلونكم أيها المؤمنون ويضمرون لكم السوء ويداومون على إيذائكم لكى يرجعوكم عن دين الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك وقدروا عليه . والتعبير بقوله « ولا يزالون» المفيد للدوام والاستمرار للإشعار بأن عداوة المشركين للمسلمين لا تنقطع ، وأنهم لن يكفوا عن الإعداد لقتالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فعلى المؤمنين ألا يغفلوا عن الدفاع عن أنفسهم .

و ﴿ حَتَّىٰ ﴾ للتعليل ، أى : ﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ ﴾ أو بمعنى إلى ، أى : إلى أن يردوكم عن دينكم . والرد . الصرف عن الشىء والإرجاع إلى ما كان عليه قبل ذلك : فغاية المشركين أن يردوا المسلمين بعد إيمانهم كافرين .

وقوله ﴿ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ يدل على - كما يقول الزمخشرى - على استبعاد استطاعتهم رد المسلمين عن دينهم ، وذلك كقول الرجل لعدوه : إن ظفرت بى فلا تبق علىَّ . وهو واثق من أنه لن يظفر به . ويشهد لذلك التعبير بإن المفيدة للشك .

وفائدة التقييد بالشرط «إن» التنبيه على سخافة عقول المشركين ، وكون دوام عداوتهم للمؤمنين لن تؤدى إلى النتيجة التى يتمنونها ؛ وهى رد المسلمين عن دينهم ، لأن لهذا الدين ربا يحيمه ، وأتباعه يفضلون الموت على الرجوع عنه .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يرتد عن الإسلام فقال : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

ويرتدد يفتعل من الرد وهو الرجوع عن دينه إلى الكفر .

و﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أى : بطلت وفسدت ، وأصله من الحبط - بفتح الباء - وهو أن تأكل الدابة أكلا كثيرًا تنتفخ معه بطونها فلا تنتفع بما أكلت ويفسد حالها وربما تموت من ذلك . شبه - سبحانه - حال من يعمل الأعمال الصالحة ثم يفسدها بارتداده فتكون وبالا عليه ، بحال الدابة التى أكلت حتى أصابها الحبط ففسد حالها .

والمعنى : ومن يرتدد منكم عن دين الإسلام ، فيمت وهو كافر دون أن يعود إلى الإيمان ، فأولئك الذين ارتدوا وماتوا على الكفر بطلت جميع أعمالهم الصالحة ، وصارت غير نافعة لهم لا فى الدنيا بسبب انسلاخهم عن جماعة المسلمين ، ولا فى الآخرة بسبب ردتهم وموتهم على الكفر ، وأولئك الذين هذا شأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون خلودًا أبديًا كسائر الكفرة ولا يغنى عنهم إيمانهم السابق على الردة شيئاً .

وجئ بصيغة الافتعال من الردة وهى مؤذنة بالتكلف ، للإشارة إلى أن من باشر الدين الحق وخالطت بشاشته قلبه كان من المستبعد عليه أن يرجع عنه ، فهذا المرتد لم يكن مستقراً على هذا الدين الحق وإنما كان قلقًا مضطربا غير مستقر حتى انتهى به الأمر بموته على الكفر لتكلفه الدخول فى الدين الحق دون الثبات عليه .

وفى قوله : ﴿ مِنكُمْ ﴾ إشعار بأنه لا يتصور أن تتحقق بغية المشركين وهى أن يردوا المسلمين جميعًا عن دينهم . بل أقصى ما يتصوره العقلاء أن ينالوا ضعيف الإيمان فيردوه إلى دينهم ، فيكون الله – تعالى – قد نفى خبثه عن هذا الدين ، إذ لا خير فى هؤلاء المشركين ولا فيمن عاد إليهم بعد إيمانه ، والكل مأواهم النار وبئس القرار .

وفى الإتيان باسم الإشارة «أولئك» في الموضعين تنبيه إلى أنهم أحرياء بتلك العقوبات الأليمة بسبب ردتهم وموتهم على الفكر .

وفى التنصيص على حبوط أعمالهم فى الدنيا والآخرة زيادة مذمة لهم ، فهم فى الدنيا – بسبب ردتهم – تسلب عنهم آثار كلمة الشهادتين من حرمة الأنفس والأموال والأعراض والصلاة عليهم بعد الموت ، والدفن فى مقابر المسلمين ، ومن طلاق زوجته المسلمة منه ، ومن عدم التوارث إلى غير ذلك من حقوق المسلمين ، أما فى الآخرة فشأنهم شأن الكافرين فى ملازمتهم للنار . وبذلك تكون الآية الكريمة قد ردت على شبهات المشركين ردا يأتى على بنيانهم من القواعد ، ويجعل أصحاب الحق يزدادون ثباتا على ثباتهم ، لأن القرآن الكريم لقنهم ما يزهقون به باطل أعدائهم .

أما السؤال الرابع والخامس والسادس فكان عن أمور متنوعة ، ذكرها الله – تعالى – فى قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) ﴾ [البقرة : ٢١٩ ، ٢٢٠]

والسائلون هنا : هو المؤمنون ، وسؤالهم إنما هو عن الحكم الشرعى من حيث الحل والتحريم ، لا عن الحقيقة والذات ، فإنهم يعرفون حقيقة الخمر والميسر وذاتهما .

وسميت الخمر بهذا الاسم ، لأنها تخمر العقل ، أى تستره وتغطيه وتجعله فى حجاب عن التفكير القويم ، والسلوك السليم .

أما الميسر فالمراد به الأفعال التى كانوا يفعلونها فى الجاهلية والتى عن طريقها يأكل أحدهم مال غيره بالباطل .

وكثير من العلماء يرون أن هذه الآية هى أول آية نزلت فى الخمر ، ثم نزلت الآية التى فى سورة النساء وهى قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ... ﴾ [النساء : ٤٣]

ثم نزلت الآيتان التى فى سورة المائدة وهى قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) ﴾ [المائدة : ٩٠، ٩١] .

فقال الصحابة بعد نزولهما : انتهينا يا ربنا ، انتهينا يا ربنا ، وألقوا بأوانى الخمر فى طرق المدينة بعد تحطيمها .

وهكذا نرى أن قوة الإيمان التى غرسها الإسلام فى نفوس أتباعه عن طريق تعاليمه السامية وتربيته الحكمية ، تغلبت على ما أحبته النفوس ، وأزالت ما ألفته الطباع .

ومعنى الآية الكريمة : يسألك أصحابك يا محمد عن حكم شرب الخمر ولعب الميسر ، قل لهم على سبيل الإرشاد والإعلام : فى تعاطيهما ﴿ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ أى : ذنب عظيم ، وضرر شديد وذلك لما فيهما من القبائح المنافية لمحاسن الشرع من الكذب ، والأذى ، وشيوع العداوة والبغضاء بين الناس ، واستلاب أموالهم بغير حق .

وقوله :﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أى وفيهما منافع دنيوية للناس ، إذ الخمر تُدر على المتاجرين فيها أرباحا مالية ، والميسر يؤدى إلى إصابة بعض الناس للمال بدون تعب .

وأطلق - سبحانه - الإثم وقيد المنافع بأنها للناس ، للتنبيه على أن الإثم فى الخمر والميسر ذاتى ، فهما فى ذاتهما رجس كبير ، وخطر وبيل ، وأن ما فيهما من منافع ضئيل ولا يتجاوز بعض الناس ، فهى منافع خاصة وليست عامة ، ويشهد لهذا قوله - تعالى - بعد ذلك .

﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ أى : أن المفاسد والأضرار التى تترتب على تعاطيهما ، أعظم من المنافع التى تنشأ عن تعاطيهما ، إذ تعاطيهما يؤدى إلى منفعة بعض الناس ، أما مضارهما فكثيرة ، من ذلك أن تعاطى الخمر يضعف الضمير ، ويفسد الأخلاق ، ويميت الحياء ، ويفقد الرشد ، ويتلف المال ، ويغرى بالتنازع بين

الناس ، ويتسبب - كما قال الأطباء الثقاة - فى كثير من الأمراض كأمراض الكبد والرئتين والقلب .. إلخ .

وإن شئت المزيد من معرفة مضار الخمر فراجع ما كتبه العلماء والمتخصصون فى ذلك [1] .

أما تعاطى الميسر فمن مضاره - كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده - إفساد التربية بتعويد النفس الكسل ، وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية ، وإضعاف القوة العقلية ، بترك الأعمال المفيدة فى طرق الكسب الطبيعية ، وإهمال المقامرين للزراعة والتجارة والصناعة التي هى أركان العمران ، وتخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر فى ساعة واحدة ، فكم من عشيرة كبيرة نشأت فى العز والغنى وانحصرت ثروتها فى رجل أضاعها عليها فى ليلة واحدة ، فأصبحت غنية وأمست فقيرة[2] .

إذن فالمنافع الدنيوية التى تعود إلى بعض الناس من تعاطى الخمر والميسر لا تساوى شيئاً بجانب تلك المضار الجسيمة التى تعود على أفراد الأمة فى دينهم وعقولهم وأجسامهم وأموالهم وترابطهم ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (91) ﴾ [المائدة : ٩١] .

ثم يأتى بعد ذلك السؤال الثانى الذى ورد فى هاتين الآيتين وهو قوله - تعالى - : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ .

ومناسبة هذا السؤال لما قبله أنهم بعد أن نهوا عن إنفاق أموالهم فى الوجوه المحرمة كتعاطى الخمر والميسر ، سألوا عن وجوه الإنفاق الحلال ، وعن مقدار ما ينفقون فأجيبوا بهذا الجواب الحكيم .

قال الألوسى : «أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس أن نفرًا من الصحابة حين أمروا بالنفقة فى سبيل الله أتوا النبى ﷺ فقالوا : إنا لا ندرى ما هذه النفقة التى أمرنا بها فى أموالنا وما الذى ننفقه منها فأنزل الله - تعالى - : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ وكان الرجل قبل ذلك ينفق ماله حتى لا يجد ما يتصدق ولا ما يأكل»[3] .

---

(١) راجع على سبيل المثال «تفسير الجواهر» فى معنى الآية للمرحوم طنطاوى جوهرى وتفسير المنار جـ٢ ص ٣٢١ .

(٢) تفسير المنار جـ ٢ ص ٣٣٠ .

(٣) تفسير الألوسى جـ ٢ ص ١١٥ .

وأصل العفو فى اللغة الزيادة . قال - تعالى - : ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ﴾ أى : زادوا على ما كانوا عليه من العدد . ويطلق على ما سهل وتيسر مما يكون فاضلا عن الكفاية . يقال خذ ما عفا لك . أى ما تيسر . كما يطلق على الترك قال - تعالى - : ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ أى تركه وتجاوز عنه .

والمراد به هنا : ما يفضل عن الأهل ويزيد عن الحاجة ، إذ هذا القدر الذى يتيسر إخراجه ويسهل بذله ، ولا يتضرر صاحبه بتركه .

والمعنى ، ويسألونك ما الذى يتصدقون به من أموالهم فى وجوه البر ، فقل لهم تصدقوا بما زاد عن حاجتكم ، وسهل عليكم إخراجه ، ولا يشق عليكم بذله .

وفى هذه الجملة الكريمة إرشاد حكيم إلى التعاون والتراحم بين أفراد المجتمع ، وتوجيه إلى المنهاج الوسط الذى يأبى التبذير وينفر من التقتير ، وفى أحاديث الرسول ﷺ ما يؤيد هذا الإرشاد والتوجيه ، ومن ذلك ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول» .

وأخرج مسلم عن جابر أن النبى ﷺ قال : «إبدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شىء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شىء فلذى قرابتك ، فإن فضل عن ذى قرابتك شئ فهكذا وهكذا» .

إلى غير ذلك من الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى .

وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كلام جيد فى هذا المقام ، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : إن الأمة المؤلفة من مليون فرد إذا كانت تبذل من فضل مالها فى مصالحها العامة كإعداد القوة وتربية الناشئة . . تكون أعز وأقوى من أمة مؤلفة من مائة مليون فرد لا يبذلون شيئا فى مثل ذلك ، لأن الواحد من الأمة الأولى يعد بأمة ، إذ هو يعتبر نفسه جزءا منها وهى كل له ، بينما الأمة الثانية لا تعد بواحد لأن كل فرد من أفرادها يخذل الآخر . . وفى الحقيقة أن مثل هذا الجمع لا يسمى أمة ، لأن كل واحد من أفراده يعيش وحده وإن كان فى جانبه أهل الأرض ، فهو لا يتصل بمن معه ليمدهم ويستمد منهم[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ .

---

(١) تفسير المنار جـ ٢ ص ٢٣٩ .

أى : مثل هذا البيان الحكيم الذى بينه الله لكم فيما سألتم عنه يبين لكم فى سائر كتابه آياته وأحكامه وحججه لكى تتفكروا وتتدبروا فيما ينفعكم فى دنياكم وآخرتكم ، بأن تعملوا فى الدنيا العمل الصالح الذى يجعلكم تظفرون برضا الله فى أخراكم .

أما السؤال الثالث والأخير الذى ورد فى هاتين الآيتين فهو قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ .

أخرج أبو داود والحاكم والنسائى وغيرهم عن ابن عباس قال :

لما نزل قوله - تعالى - : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وقوله-تعالى- : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه . وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل له الشىء من طعامه وشرابه ، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله - تعالى- : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم[(١)] .

والمعنى : ويسألونك يا محمد عن القيام بأمر اليتامى أو التصرف فى أموالهم أو عن أموالهم وكيف يكونون معهم فقل لهم : إن المطلوب هو إصلاحهم بالتهذيب والتربية الرشيدة والمعاملة الحسنة ، وإصلاح أموالهم بالمحافظة عليها وعدم إنفاقها إلا فى الوجوه المشروعة ، فهذا الإصلاح المفيد لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم ، وتركهم ، ولذا قال- تعالى - بعد ذلك : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ أى : وإن تعاشروهم وتضموهم إليكم فاعتبروهم إخوانكم فى العقيدة والإنسانية ، وعاملوهم بمقتضى ما تفرضه الأخوة من تراحم وتعاطف ومساواة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ ﴾ وعد ووعيد ، وترغيب فى الإصلاح وترهيب من الإفساد ، أى : يعلم المفسد لشئون هؤلاء اليتامى من المصلح لها ، كما أنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وسيجازى كل إنسان على حسب عمله ، فاحذروا الإفساد ولا تتحروا غير الإصلاح .

---

(١) تفسر ابن كثير جـ ١ ص ٢٥٦ .

ثم قال - تعالى - : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ ﴾ العنت : الشدة والمشقة والتضييق . يقال أعنته فى كذا يعنته إعناتا ، إذا أجهده وألزمه ما يشق عليه .

أى : ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم بتحريم مخالطة هؤلاء اليتامى ، وبغير ذلك مما يشرع لكم ، ولكنه - سبحانه - وسع عليكم وخفف فأباح لكم مخالطتهم بالتى هى أحسن ، فاشكروه على ذلك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : إن الله - تعالى - غالب على أمره لا يعجزه أمر من الأمور التى من جملتها إعناتكم ، قادر على أن يعز من أعز اليتامى ويذل من يذلهم ، حكيم فى كل تصرفاته وأفعاله ، فلا يضع الأشياء إلا فى مواضعها .

وقد استدل العلماء بهذه الآية على جواز التصرف فى أموال اليتامى على وجه الإصلاح ، وعلى أن للولى أن يخالط اليتيم بنفسه فى المصاهرة والمشاركة وغير ذلك مما تقتضيه المصلحة .

وقد وردت أحاديث متعددة فى رعاية اليتيم وإصلاح أحواله ومن ذلك ما رواه البخارى عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرق بينهما» .

وروى الطبرانى عن أبى الدرداء . قال : أتى النبى ﷺ رجل يشكو قسوة قلبه ، فقال له النبى ﷺ أتحب أن يلين وتدرك حاجتك ؟ ارحم اليتيم ، وامسح رأسه ، وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد اشتملتا على أفضل ألوان الإصلاح للأفراد والجماعات فى مطاعمهم ومشاربهم ونفقتهم وعلاقتهم بغيرهم ولا سيما اليتامى الذين فقدوا الأب الحانى ، والقلب الرحيم ، ومن شأن الأمة التى تعمل بهذا التوجيه السامى الحكيم أن تنال السعادة فى دنياها . ورضا الله - فى أخراها .

ثم يأتى السؤال السابع والأخير من سورة «البقرة» ، وقد ورد هو والجواب عليه فى قوله - تعالى - : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) ﴾ [البقرة: ٢٢٢] .

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها فى البيوت أى لا يسكنون معهن- فسأل الصحابة النبى ﷺ فأنزل الله - تعالى - : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ . الآية فقال رسول الله ﷺ اصنعوا كل شىء إلا النكاح . فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه . فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا : يا رسول الله ، إن اليهود تقول كذا وكذا ، أفلا نجامعهن ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وَجِد عليهما - أى غضب - فاستقبلتهما هدية من لبن إلى النبى ﷺ فأرسل فى آثارهما فسقاهما ، فعرفا أن لم يغضب عليهما[1] .

والحيض : الحيض مصدر حاضت المرأة تحيض حيضًا ومحاضًا فهى حائض ، وأصله السيلان . يقال حاض الوادى إذا سال ، ومنه الحوض لسيلان الماء إليه .

ثم أطلق الحيض على ما يقذفه رحم المرأة من دم فى أوقات مخصوصة على وجه مخصوص .

والأذى : الشىء الذى يتأذى منه الإنسان ويصيبه الضرر بسببه .

والسؤال كان من بعض الصحابة ، لأنه لقوة إيمانهم كانوا يحبون أن يعرفوا حكم الإسلام فى شئونهم الخاصة والعامة ، ولأنهم وجدوا أن اليهود وغيرهم يعاملون المرأة فى حال حيضها معاملة غير كريمة فسألوا رسول الله ﷺ عن هذا الأمر الذى يتصل بأدق العلاقات بين الرجل والمرأة وهو حكم مباشرة النساء فى حال الحيض ، فأجابهم الله - تعالى - جوابًا شافيًا .

والمعنى : ويسألك أصحابك يا محمد عن حكم مباشرة النساء فى حال الحيض فقل لهم معلمًا وموجهًا إن الحيض أى الدم الذى يلفظه رحم المرأة فى وقت معين أذى يتأذى به الإنسان تأذيًا حسيًا جسيمًا ، فرائحته يتأذى منها من يشمها ، وهو فى ذاته شئ متقذر تعافه النفوس ، وتنفر منه الطباع .

وقوله : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ بيان للحكم المتفرع على تلك الحالة التى يتأذى منها وهى حالة الحيض .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الحيض جـ ١ صفحة ١٦٩ .

والاعتزال : التباعد ، وهو هنا كناية عن ترك الجماع والمباشرة ، كما أن النهى عن قربهن كناية عن النهى عن جماعهن ، يقال : قرب الرجل امرأته إذا جامعها .

و﴿ يَطْهُرْنَ ﴾ من الطهر - بضم الطاء - بمعنى النقاء من الوسخ والقذر .

والمعنى : عليكم أيها المؤمنون أن تمتنعوا عن مباشرة النساء فى زمن حيضهن ، ولا تجامعوهن حتى يطهرن من ذلك ، لأن غشيانهن فى هذه الحالة يؤذيكم بسبب عدم نقاء المحل الذى يكون فيه الغشيان للمرأة ، والمرأة أيضا تتأذى من مباشرتها فى زمن الحيض لأنها لا تكون فى حالة تستسيغ معها المباشرة ، فجهازها التناسلى فى حالة اضطراب ، وهيئتها العامة فى حالة تجعلها من شأنها أن تنفر من الجماع ، والولد الذى عن طريق الجماع فى حالة الحيض - على فرض إتيانه فى هذه الحالة - كثيرًا ما يأتي مشوها ضعيفًا ، لأن النطفة إذا اختلطت بدم الحيض ، أخذت البويضات فى التخلق قبل وقت صلاحيتها للتخلق النافع الذى يكون وقته بعد انتهاء فترة الحيض . وقد قال بذلك الأطباء الثقاة[1] . وعرفه العرب القدامى بالتجربة ، قال أبو كبير الهزلى :

ومبرأ من كل غُبَّرِ حَيْضةٍ وفساد مرضعه وداءٍ معضلِ[2]

وقد أجمع العلماء - كما بينا - على أن المراد بالاعتزال هو اجتناب المباشرة ، إلا أنهم اختلفوا فيما يجب اعتزاله من المرأة بعد ذلك .

فبعضهم يرى اعتزال جميع بدن المرأة ، وحجتهم أن الله أمر باعتزال النساء ولم يخصص من ذلك شيئا دون شيء .

وبعضهم يرى اعتزال موضع الأذى - أى مكان خروج الدم - لقول النبى ﷺ «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» .

وبعضهم يرى اعتزال ما بين السرة والركبة من المرأة وله ما سوى ذلك ، لقول عائشة كانت إحدانا إذا كانت حائضة أمرها النبى ﷺ أن تأتزر ثم يباشرها . وقوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ تأكيد لحكم الاعتزال وتقرير له ، وتنبيه على أن المراد به عدم جماعهن لا عدم القرب منهم أو مخالطتهن أو الأكل معهن كما كان يفعل اليهود وبعض العرب .

(١) راجع تفسير «التحرير والتنوير» جـ ٢ ص ٣٥٠ للشيخ محمد بن عاشور .

(٢) غبر الحيضة : جمع غبرة وهي آخر الشيء . يريد أن يقول : إن أم هذا الممدوح لم تحمل به فى آخر مدة الحيض لذا جاء مستقيم الخلقة .

والدليل على ذلك ما جاء فى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : «كنت أُرَجِّل رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض» .

وروى البخارى عن عائشة - أيضًا - قالت : كان رسول الله ﷺ يتكئ فى حجرى وأنا حائض ثم يقرأ القرآن[1] .

وروى مسلم عنها أيضا قالت : كنت أشرب وأنا حائض ، ثم أناوله النبى ﷺ فيضع فاه على موضوع فىَّ فيشرب .

وقوله ﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ بيان لغاية الاعتزال . وقرأ حمزة الكسائى ﴿ حَتَّىٰ يطَّهَّرْنَ ﴾ بفتح الطاء والهاء مع التشديد .

ومعناه عند جمهور الفقهاء ولا تجامعوهن حتى يغتسلن ، لأن القراءتين معناهما واحد ، ولأن الله - تعالى - قد علق الإتيان على التطهر فقال : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ ﴾ والتطهر هو الاغتسال . فالمرأة إذا انقطع حيضها لا يحل للزوج مجامعتها إلا بعد الاغتسال .

وفى هاتين الجملتين الكريمتين ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ من سمو التعبير وبديع الكناية ما يغرس فى نفس السامع حسن الأدب ، ويصون سمعه عن الألفاظ التى يجافى سماعها الأذواق السليمة وما أحوج المسلمين إلى التأسى بهذا الأدب الذى يحفظ عليهم مروءتهم وكرامتهم .

ثم قال تعالى - : ﴿ فَأْتُوهُنَّ ﴾ أى : فإذا تطهرن من المحيض فجامعوهن فى المكان الذى أمركم الله بتجنبه فى الحيض وهو القبل ولا تتعدوه إلى غيره .

والأمر فى قوله - تعالى ـ : ﴿ فَأْتُوهُنَّ ﴾ المراد به إباحة المباشرة ، لأن من المقرر عند العلماء أن الأمر بعد النهى يكون للإباحة ، خصوصًا إذا كان الموضع موضع حل وإباحة لا موضع تكليف وإلزام ، وليس المراد به هنا الحتم واللزوم ، لأن الإتيان مبنى على الرغبة والطاقة وشبيه بهذا التعبير قوله - تعالى - : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ﴾ وقوله : ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ والتواب صيغة مبالغة من تائب بمعنى راجع إلى ربه إذا زل وهفا .

(١) صحيح البخارى : كتاب الحيض جـ ١ ص ٨٢ .

والمتطهر : هو الإنسان المتنزه عن الفواحش والأقذار .

أى : إن الله – تعالى– يحب عباده الذين يكثرون الرجوع إليه إذا ما ظلموا أنفسهم بسيئة من السيئات ، والذين يصونون أنفسهم وينزهونها عن المعاصى والآثام ، ويرضى عنهم فى الدنيا والآخرة .

قال الألوسى : «﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ مما عسى يبدر منهم من ارتكاب بعض الذنوب كالإتيان فى الحيض المستدعى لعقاب الله – تعالى – فقد أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «من أتى حائضًا فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » وهو جار مجرى الترهيب فلا يعارض ما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصبت امرأتى وهى حائض فأمره رسول الله ﷺ أن يعتق نسمة» وهذا إذا كان الإتيان فى أول الحيض والدم الأحمر ، أما إذا كان فى آخره والدم أصفر فينبغى أن يتصدق بنصف دينار كما دلت عليه الآثار»(١) .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد رسمت للمؤمنين ألوان الأدب والعفاف والطهر للعلاقة التى تكون بين الأزواج والزوجات ، وأبطلت ما كان يفعله اليهود مع نسائهم .

وبعد : فهذه بضعة عشر سؤالا ، وجه جانبا منها بعض المسلمين إلى النبى ﷺ لكى يعرفوا أحكاما شرعية خفيت عليهم ، ووجه بعض المشركين وأهل الكتاب جانبا آخر منها إليه ﷺ بقصد التعنت أو العناد أو التباهى والتفاخر .

والذى يلاحظ على الإجابة على هذه الأسئلة وتلك المحاورات ، أنها جاءت بلفظ «قل» فى معظمها ، وأنها جاءت مفصلة وجامعة وشافية لكل ذى قلب سليم ، وأنها جاءت بأسلوب منطقى حكيم يقنع كل ذى عقل مستنير يعشق الحق ، وينفر من الباطل ، لذا استقبل أصحاب النبى ﷺ هذه الإجابات الشافية بكل فرح وسرور ، وبكل قبول وتصديق ، وبكل محبة وطاعة لرسولهم ﷺ .

أما الذين فى قلوبهم مرض ، فقد أخرست هذه الإجابات ألسنتهم ، وفضحت أكاذيبهم ، وأزالت شبهاتهم ، وشهدت بأن الرسول ﷺ صادق فيما يبلغه عن ربه ، لما اشتملت عليه من حجج دامغة ، ومن بينات واضحة ، ومن إحقاق للحق ومن إبطال للباطل «ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم » .

(١) تفسير الألوسى جـ ٢ صفحة ١٢٤ وبتلخيص قليل .



الفصل الثامن

حوار بين العقلاء والسفهاء.
أو بين الأخيار والأشرار

الحوار بين العقلاء والسفهاء أو بين الأخيار والأشرار ، تعددت صوره ، وتنوعت أساليبه فى القرآن الكريم ، ومن الأدلة على ذلك ما دار بين الرسل وبين المكذبين من أقوامهم من محاورات كثيرة حكاها القرآن الكريم ، وزخرت بها السنة النبوية المطهرة .

ولقد كان من وسائل التسلية التى ساقها الخالق - عز وجل - لرسوله ﷺ أن ذكّره بأن كل رسول من قبله قد لقى من قومه الجاحدين ما لقى من الأذى قال - تعالى - : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ [الذاريات : ٥٢ - ٥٥] .

ومن صور المحاورات التى حدثت بين الأخيار والأشرار ، ما قصه القرآن علينا فى قوله -تعالى- : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) ﴾ [المائدة : ٢٧ - ٣٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَاتْلُ ﴾ من التلاوة . وأصل التلاوة القراءة المتتابعة الواضحة فى مخارج حروفها وفى النطق بها .

والمراد بابنىّ أدم : هابيل وقابيل اللذان قص علينا القرآن جانبًا من حياتهما والقربان : اسم يتقرب به إلى الله - تعالى - من صدقة أو غيرها . ويطلق فى أكثر الأحوال على الذبائح التى يتقرب إلى الله بذبحها .

والمعنى : واتل - يا محمد - على الناس جميعا قصة قابيل وهابيل ، وقت أن قربا قربانًا لله - تعالى - فتقبل الله - عز وجل - قربان أحدهما - وهو هابيل - لصدقه وإخلاصه ، ولم يتقبل من الآخر - وهو قابيل - لسوء نيته وعدم تقواه .

ثم حكى - سبحانه - ما دار بين الأخوين من حوار فقال : ﴿ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾ أى : قال قابيل متوعدا أخاه هابيل : لأقتلنك بسبب قبول قربانك ، دون قرباني .

فأنت ترى أن هذا الأخ الظالم قد توعد أخاه بالقتل ، وهو من أكبر الكبائر . دون أن يقيم للأخوة التى بينهما وزنا ودون أن يهتم بحرمة الدماء وبحق غيره فى الحياة . والذى حمله على ذلك الحسد له على مزية القبول .

وقد أكد تصميمه على قتله لأخيه بالقسم المطوى فى الكلام ، والذى تدل عليه اللام ونون التوكيد الثقيلة . أى : والله لأقتلنك بسبب قبول قربانك .

وهنا يحكى القرآن الكريم مارد به الأخ البار التقى هابيل على أخيه الظالم الحاسد قابيل فيقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

أى : قال هابيل لقابيل ناصحا ومرشدًا : إنما يتقبل الله الأعمال والصدقات من عباده المتقين الذين يخشونه فى السر والعلن ، وليس من سواهم من الظالمين الحاسدين لغيرهم على ما آتاهم الله من نعم ، فعليك أن تكون من المتقين لكى يقبل منك الله .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف كان قوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ جوابا لقوله : ﴿ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾ ؟ قلت : لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذى حمله على توعده بالقتل قال له : إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى ، لا من قبلى ، فلم تقتلنى ؟ وما لك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التى هى السبب فى القبول ؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان . وفيه دليل على أن الله - تعالى - لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق[1] .

ثم انتقل الأخ التقى من وعظ أخيه بتطهير قلبه ، إلى تذكيره بحقوق الأخوة وما تقتضيه من بر وتسامح فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ وبسط اليد : مدها والمراد هنا : مدها بالاعتداء .

(1) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٢ ص ٤٦١ .

والمعنى : لئن مددت إلىّ - يا أخى - يدك لتقتلنى ظلما وحسدًا ﴿ مَا أَنَا بِبَاسِط
يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ﴾ فإن القتل - وخصوصا بين الإخوة جريمة منكرة ، تأباها شرائع الله
- تعالى - وتنفر منها العقول السليمة .

وإذا كان الأخ الظالم قابيل قد أكد تصميمه على قتل أخيه هابيل بجملة قسمية
وهى ﴿ لأَقْتُلَنكَ ﴾ فإن هابيل قد أكد عدم قتله له بجملة قسمية - أيضا -وهى : ﴿ لئن
بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ﴾ .

فأنت ترى أن الجملة الكريمة تصور أكمل تصوير ما بين الأخيار والأشرار من تضاد

قال الألوسى : «قيل كان هابيل أقوى من قابيل ولكنه تحرج عن قتله واستسلم ل
خوفًا من الله - تعالى - لأن المدافعة لم تكن جائزة فى ذلك الوقت ، وفى تلك
الشريعة ، أو تحريا لما هو الأفضل والأكثر ثوابا وهو كونه مقتولا ، لا قاتلا»[1] .

وقوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ جملة تعليلية مسوقة لبيان سبب امتنا
هابيل عن بسط يده إلى أخيه قابيل .

أى : إنى أخاف الله رب العالمين أن يرانى باسطًا يدى إليك بالقتل . وقد أك
خوفه من الله - تعالى - بأن المؤكدة للقول ، وبذكره له - سبحانه - بلفظ الجلالة
المشعر بأنه هو وحده صاحب السلطان وبوصفه له عز وجل بأنه رب العالمين ، أ
منشئ الكون ومن وما فيه ، وصاحب النعم التى لا تحصى على خلقه .

ثم انتقل هابيل من وعظ أخيه بتطهير قلبه وبتذكيره بما تقتضيه الأخوة من
وتسامح إلى تخويفه من عقاب الآخرة فقال : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُو
مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾

وقوله : ﴿ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ ، أى ترجع وتعود .

والآية الكريمة تعليل آخر لامتناعه عن بسط يده إلى أخيه ، ولم تعطف على م
قبلها للإيذان باستقلالها فى العلية ، ولدفع توهم أن تكون جزء علة لا علة تامة .

والمعنى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ ﴾ بامتناعى عن التعرض لك ببسط يدى ﴿ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِ
وَإِثْمِكَ ﴾ أى : ترجع إلىّ بإثم قتلك إياى ، وبإثمك الذى قد كان منك قبل قتلى

(١) تفسير الألوسى جـ ٦ ص ١١٢ .

والذى بسببه لم يتقبل قربانك ﴿فَتَكُونَ﴾ بسبب الإثمين ﴿مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فى الآخرة ﴿وَذَلِكَ﴾ أى : كينونتك من أصحاب النار ﴿جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم .

قال الإمام الرازى : «فإن قيل : كما لا يجوز للإنسان أن يريد من نفسه أن يعصى الله ، فكذلك لا يجوز له أن يريد من غيره أن يعصى الله ، فلم قال : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ ؟ .

فالجواب : أن هذا الكلام إنما دار بينهما عندما غلب على ظن المقتول أنه يريد قتله ، وكان ذلك قبل إقدام القاتل على إيقاع القتل به ، وكأنه لما وعظه ونصحه قال له : وإن كنت لا تنزجر عن هذه الكبيرة بسبب هذه النصيحة فلابد وأن تترصد قتلى فى وقت أكون غافلا عنك وعاجزا عن دفعك فحينئذ لا يمكننى أن أدفعك عن قتلى إلا إذا قتلتك ابتداء بمجرد الظن والحسبان . وهذا منى كبيرة ومعصية ، وإذا دار الأمر بين أن يكون فاعل هذه المعصية أنا ، وبين أن يكون أنت ، فأنا أحب أن تحصل هذه الكبيرة لك لا لى .

ومن المعلوم أن إرادة صدور الذنب من الغير فى هذه الحالة ، وعلى هذا الشرط لا يكون حراما . ويجوز أن يكون المراد : إنى أريد أن تبوء بعقوبة قتلى . ولا شك أنه يجوز للمظلوم أن يريد من الله عقاب ظالمه»[1] .

وقال صاحب الانتصاف : «فأما إرادته - أى إرادة هابيل - لإثم أخيه وعقوبته فى قوله - تعالى- : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ فمعناه : إنى لا أريد أن أقتلك فأعاقب . ولما لم يكن بد من إرادة أحد الأمرين إما إثمه بتقدير أن يدفع عن نفسه فيقتل أخاه ، وإما إثم أخيه بتقدير أن يستسلم وكان غير مريد للأول . اضطر إلى الثانى .

فهو لم يرد إذًا إثم أخيه لعينه ، وإنما أراد أن الإثم هو بالمدافعة إلى القتل - ولم تكن حينئذ مشروعة - فلزم من ذلك إرادة إثم أخيه . وهذا كما يتمنى الإنسان الشهادة . ومعناه أن يبوء الكافر بقتله وبما عليه فى ذلك من الإثم ، ولكن لم يقصد هو إثم الكافر لعينه ، وإنما أراد أن يبذل نفسه فى سبيل الله»[2] .

(1) تفسير الفخر الرازى جـ ١١ ص ٢٠٧ - بتصرف وتلخيص .
(2) حاشية تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٥ .

وإلى هنا نرى . أن هابيل قد استعمل فى صرف أخيه عن جريمة القتل وسائل متنوعة فهو أولا أرشده إلى أن الله - تعالى - إنما يتقبل الأعمال من المتقين ، فإذا أراد أن يتقبل قربانه فعليه أن يكون منهم .

وأرشده ثانيا إلى حقوق الأخوة وما تقتضيه من محبة ومودة وتسامح .

وأرشده ثالثا إلى أنه لا يمنعه من بسط يده إليه إلا الخوف من الله رب العالمين .

وأرشده رابعاً إلى أن ارتكابه لجريمة القتل سيؤدى به إلى عذاب النار يوم القيامة بسبب قتله لأخيه ظلما وحسدًا .

فماذا كان وَقْعُ هذا النصح الحكيم ، والإرشاد القويم فى نفس ذلك الإنسان الحاسد الظالم ؟

لقد بين الله ذلك بقوله :﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

قال القرطبى : «قوله : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ ﴾ أى : سولت وسهلت نفسه له الأمر وشجعته وصورت له أن قتل أخيه طوع سهل . يقال : طاع الشىء يطوع أى : سهل وانقاد . «وطوعه فلان له أى سهله»[1] .

والمعنى : أن قابيل سهلت له نفسه وزينت له - بعد هذه المواعظ - ﴿ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ فى دنياه وفى أخراه .

أصبح من الخاسرين فى دنياه لأنه قتل أخاه ، والأخ سند لأخيه وعون له ، لما بينهما من رحم قوية ورابطة متينة .

وأصبح من الخاسرين فى آخرته ، لأنه ارتكب جريمة من أكبر الجرائم وأشنعها وقد توعد الله مرتكبها بالغضب واللعنة والعذاب العظيم .

والتعبير بقوله - تعالى ﴿ فَطَوَّعَتْ ﴾ تعبير دقيق بليغ ، فإن هذه الصيغة - صيغة التفعيل - تشير إلى أنه كانت هناك بواعث متعددة تتجاذب نفسه ، كانت هناك بواعث الشر التى تدعوه إلى الإقدام على قتله ، ودوافع الخير التى تمنعه من الإقدام على قتل أخيه ، وأخيرا تغلبت دوافع الشر على دوافع الخير فقتل أخاه .

وقد صور الإمام الرازى هذا المعنى تصويرا حسنا فقال :

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ١٣٨ .

«قال المفسرون : فطوعت ، أى : سهلت له نفسه قتل أخيه ، وتحقيق الكلام أن الإنسان إذا تصور القتل العمد وكونه من أعظم الكبائر فهذا الاعتقاد يصير صارفا له عن فعله ، فيكون هذا الفعل كالشيء العاصى المتمرد عليه الذى لا يطيعه بوجه ألبته . فإذا أوردت النفس أنواع وساوسها ، صار هذا الفعل سهلا عليه ، فكأن النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له ، بعد أن كان كالعاصى المتمرد عليه ، فهذا هو المراد بقوله : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾»(1) .

هذا ، والآية الكريمة بعد ذلك ، تشير إلى شناعة الجريمة فى ذاتها من حيث الباعث عليها ، إذ الباعث عليها هو الحسد ومن حيث الصلة بين القاتل والمقتول إذ هى صلة أخوة تقتضى المحبة والمودة والتراحم ومن حيث ذات الفعل فإنه أكبر جريمة بعد الإشراك بالله - تعالى - .

قال الألوسى : «أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - «لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها . لأنه أول من سن القتل » . وأخرج ابن جرير والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر- رضي الله عنه - قال : «إنا لنجد ابن آدم القاتل ، يقاسم أهل النار العذاب . عليه شطر عذابهم»(2) .

ثم حكى القرآن بعض ما حدث بعد قتل الأخ أخاه فقال : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَبَعَثَ ﴾ من البعث بمعنى الإرسال .

والغراب : طائر معروف . قالوا : والحكمة فى كونه المبعوث دون غيره من الطيور أو الحيوان لأنه يتشاءم به فى الفراق والاغتراب . أو لأن من عادة الغراب دفن الأشياء

وقوله : ﴿ يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ ﴾ أى : ينبش التراب بمنقاره ورجليه بحيث يستخرجه من الأرض ، ليعمل ما يشبه الحفرة .

والتعبير بالمضارع ، للإشارة إلى أن البحث قد مكث وقتا ، وكان مجال استمرار .

(1) تفسير الفخر الرازى قـ ١١ ص ٢٠٧ .
(2) تفسير الألوسى جـ ٦ ص ١١٥ .

قال القرطبى : « قال مجاهد : بعث الله غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما الآخر ثم حفر فدفنه - فتعلم قابيل ذلك من الغراب - وكان ابن آدم هذا أول من قتل . وقيل إن الغراب بحث الأرض على طعمه - أى : أكله - ليخفيه إلى وقت الحاجة إليه ، لأن عادة الغراب فعل ذلك ، فتنبه قابيل بذلك على مواراة أخيه »[1] .

«والسوءة» ما تسوء رؤيته من الجسد ، والمراد بها هنا : جميع جسد الميت وقيل : المراد بها العورة ، لأنها تسوء ناظرها . وخصت بالذكر مع أن المراد مواراة جميع الجسد للاهتمام بها ، لأن سترها آكد .

وهذه الآية الكريمة مرتبطة بكلام يسبقها لم يذكره القرآن الكريم لفهمه من السياق . والتقدير : أن القاتل بعد أن ارتكب جريمته . ورأى جثة أخيه أمامه ملقاة فى العراء . تخير ماذا يفعل فيها حتى لا يتركها عرضة لنهش السباع والطيور . ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ﴾ أى : يحفر وينبش بمنقاره ورجليه متعمقا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿لِيُرِيَهُ﴾ أى : ليعلم ذلك القاتل ويعرفه ﴿كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أى : كيف يستر فى التراب جسم أخيه بعد أن فارقته الحياة وأصبح عرضة للتغير والتعفن .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ بيان لما اعترى هذا القاتل من تحسر وندم .

وكلمة ﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾ أصلها : ياويلتى . وهى كلمة جزع وتحسر . تستعمل عند وقوع المصيبة العظيمة كأن المتحسر ينادى ويلته ويطلب حضورها ، بعد تنزيلها منزلة من ينادى . ولا يكون ذلك إلا فى أشد الأحوال ألما ، والويلة كالويل : ومعناهما الفضيحة والبلية والهلاك .

أى : قال القاتل لأخيه ظلما وحسدا بجزع وحسرة - بعد أن أرى غرابا يحفر ليدفن فيها شيئا - قال - : ﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾ أى : يا فضيحتى وبليتى أقبلى فهذا وقتك ، لأنى قد نزلت بى أسبابك .

وقوله : ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ أى : أضعفت

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ١٢٥ .

عن الحيلة التى تجعلنى مثل هذا الغراب فأستر جسد أخى فى التراب كما دفن الغراب بمنقاره ورجليه فى الأرض ما أراد دفنه ؟! والاستفهام فى ﴿ أَعَجَزْتُ ﴾ للتعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب ، مع أنه إنسان فيه عقل ، والغراب طائر من أخس الطيور .

وقوله : ﴿ فَأُوَارِيَ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أَنْ أَكُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ ، تذييل قصد به بيان ما أصاب قابيل بعد أن قتل أخاه عدوانا وحسدا ، ولم يعرف كيف يستر جثته إلا من الغراب .

والندم : أسف الفاعل على فعل صدر منه .

قال الراغب : «الندم والندامة : التحسر من تغير رأى فى أمر فائت . قال - تعالى - : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ . وأصله من منادمة الحزن له وملازمته إياه»[1] .

والمعنى : فأصبح قابيل الذى قتل أخاه هابيل بغيا وحسدا من النادمين على ما اقترف من فواحش تدل على جهله ، وبغيه ، وتمكن الحقد من نفسه .

قال صاحب المنار : «والندم الذى ندمه - قابيل - هو ما يعرض لكل إنسان عقب ما يصدر عنه من الخطأ فى فعل فعله إذا ظهر له أن فعله كان شرا له لا خيرا . وقد يكون الندم توبة إذا كان سببه الخوف من الله ، والتألم من تعدى حدوده ، وهذا هو المراد بحديث «الندم توبة» - رواه أحمد والبخارى فى تاريخه والحاكم والبيهقى .

وأما الندم الطبيعى الذى أشرنا إليه فلا يعد وحده توبة . وفى حديث ابن مسعود فى الصحيحين مرفوعا : «لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم كفل - أى نصيب - من دمها ، لأنه أول من سن القتل»[2] .

ثم بين - سبحانه - بعد أن ساق ما جرى بين ابنى آدم - ما شرعه من شرائع تردع المعتدى ، وتبشر التقى فقال - تعالى- : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ .

والمعنى : بسبب قتل قابيل لأخيه هابيل حسدًا وظلما ، ومن أجل ما يترتب على القتل بغير حق من مفاسد ﴿ كَتَبْنَا ﴾ أى فرضنا وأوجبنا ﴿ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فى التوراة ما يردع المعتدى وما يبشر المتقى .

---

(١) مفردات القرآن للراغب الاصفهانى جـ ٤٨٦ .

(٢) تفسير المنار جـ ٦ ص ٣٤٧ .

و ﴿ مَن ﴾ هنا للسببية . أى : بسبب هذه الجناية شرعنا ما شرعنا من أحكام لدفع الشر وإشاعة الخير .

وعبر - سبحانه - عن السببية بمن لبيان الابتداء فى الحكم . وأنه اقترن بوقوع تلك الجريمة النكراء التى ستكون آثارها سيئة إذا لم تشرع الأحكام لمنعها .

وعبر - سبحانه - بقوله : ﴿ كَتَبْنَا ﴾ للإشارة إلى أن الأحكام التى كتبها ، قد سجلت بحيث لا تقبل المحو أو التبديل ، بل من الواجب على الناس أن يلتزموا بها ، ولا يفرطوا فى شىء منها .

وخص بنو إسرائيل بالذكر مع أن الحكم عام لأنهم أكثر الناس سفكا للدماء ، وقتلا للمصلحين ، فقد قتلوا كثيرا من الأنبياء ، كما قتلوا أكثر المرشدين والناصحين ، ولأن الأسباب التى أدت إلى قتل قابيل لهابيل من أهمها الحسد ، وهو رذيلة معروفة فيهم ، فقد حملهم حسدهم للنبى ﷺ على الكفر به مع أنهم يعرفون صدقه كما يعرفون أبناءهم ، كما حملهم على محاولة قتله ولكن الله - تعالى- نجاه من شرورهم .

وما أشبههم فى قتلهم للذين يأمرونهم بالخير بقابيل الذى قتل أخاه هابيل ، لأنه أرشده إلى ما يصلحه .

وقوله - تعالى - : ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ بيان لما كتبه - سبحانه - من أحكام تسعد الناس متى اتبعوها .

والمعنى بسبب قتل قابيل لأخيه هابيل ظلما وعدوانا ، كتبنا فى التوراة على بني إسرائيل ﴿ أَنَّهُ ﴾ أى : الحال والشأن ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا ﴾ واحدة من النفوس الإنسانية ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أى : بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص منه ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ ﴾ أى : أو بغير فساد فى الأرض يوجب إهدار الدم - كالردة وزنا المحصن - ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ لأن الذى يقتل نفسا بغير حق ، يكون قد استباح دما مصونا قد حماه الإسلام بشرائعه وأحكامه ، ومن استباح هذا الدم فى نفس واحدة ، فكأنه قد استباحه فى نفوس الناس جميعا ، إذ النفس الواحدة تمثل النوع الإنسانى كله . ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أى : ومن تسبب فى إحيائها وصيانتها من العدوان عليها ، كأن استنقذها مما يؤدى بها إلى الهلاك والأذى الشديد ، أو مكن

الحاكم من إقامة الحد على قاتلها بغير حق ، من فعل ذلك فكأنما تسبب فى إحياء الناس جميعا .

وفى هذه الجملة الكريمة أسمى ألوان الترغيب فى صيانة الدماء ، وحفظ النفوس من العدوان عليها ، حيث شبه - سبحانه - قتل النفس الواحدة بقتل الناس جميعا ، وإحياءها بإحياء الناس جميعا .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : كيف شبه الواحد بالجميع ، وجعل حكمه كحكمهم ؟ قلت : لأن كل إنسان يدلى بما يدلى به الآخر من الكرامة على الله ، وثبوت الحرمة . فإذا قتل فقد أهين ما كرم على الله وهتكت حرمته ، وعلى العكس . فلا فرق إذًا بين الواحد والجميع فى ذلك .

فإن قلت : فما الفائدة فى ذكر ذلك ؟ قلت : تعظيم قتل النفس وإحيائها فى القلوب وليشمئز الناس عن الجسارة عليها ، ويتراغبوا فى المحاماة على حرمتها ، لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور قتلها بصورة قتل الناس جميعا ، عظم ذلك عليه فثبطه - عن القتل - وكذلك الذى أراد إحياءها »[1]

وقال الإمام ابن كثير : «قال الحسن وقتادة فى قوله - تعالى - : ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً ﴾ . . إلخ هذا تعظيم لتعاطى القتل . قال قتادة : عظيم والله وزرها ، وعظيم والله أجرها . وقيل للحسن : هذه الآية لنا كما كانت لبنى اسرائيل ؟ فقال : أى والذى لا إله غيره - هى لنا - كما كانت لهم . وما جعل - سبحانه - دماءهم أكرم من دمائنا»[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ بيان لموقف بنى إسرائيل القبيح مما جاءهم من هدايات على أيدى أنبيائهم ومرشديهم .

أى : ولقد جاءت رسلنا لبنى إسرائيل بالآيات البينات ، والمعجزات الواضحات ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أى : بعد الذى كتبناه عليهم من شرائع ، وبعد مجىء الرسل إليهم بالبينات ﴿ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ أى : لمجاوزون الحد فى ارتكاب المعاصى والآثام ، إذ الإسراف مجاوزة حدود الحق والعدل بدون مبالاة أو اهتمام بهما .

وأكد - سبحانه - جملة ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا ﴾ بالقسم ، لكمال العناية

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٦١٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥١ .

بمضمونها ، ولبيان أن الرسل - عليهم السلام - ما قصروا فى إرشاد بنى إسرائيل إلى ما يسعدهم ويهديهم ، فقد جاءوهم بالشرائع البينة الواضحة التى تحمل فى نفسها دليل صلاحها . والتعبير بـ«جاءتهم» يشير إلى أن الرسل - عليهم السلام - وصلوا إليهم ، وصاروا قريبين منهم ، بحيث يرونهم ويخاطبونهم ولا يتركون أمرًا يهمهم إلا بينوه لهم .

وجملة ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم﴾ معطوفة على جملة ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ﴾ .

وكان العطف بـ«ثم» المفيدة هنا للتراخى فى الرتبة ، للإرشاد إلى الفرق الشاسع بين ما جاءتهم به الرسل من بينات وهدايات ، وبين ما كان عليه بنو إسرائيل من جحود وعناد وإفساد فى الأرض .

واسم الإشارة «ذلك» يعود إلى المذكور من مجيء الرسل إليهم بالبينات ومن كتابة الشرائع عليهم . وفى وصف الكثيرين من بنى إسرائيل بالإسراف احتراس فى الحكم ، وإنصاف للقلة التى آمنت منهم ، وهذا من عدالة القرآن الكريم فى أحكامه ، ودقته فى تعبيراته .

وذكر - سبحانه - أن إسراف الكثيرين منهم ﴿فِي الأَرْضِ﴾ مع أنه لا يكون إلا فيها ، للإيذان بأن فسادهم وإسرافهم فى القتل والمعاصى لم يكن فيما بينهم فحسب ، بل انتشر شره فى الأرض ، وسرى إلى غيرهم من سكانها المنتشرين فيها .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكت لنا ما دار بين ابنى آدم من محاورات أدت إلى قتل أحدهما للآخر ظلما وحسدا ، إذ الحسد يأكل القلوب ، ويشعلها بالشر كما تشتعل النار فى الحطب ، وبسببه ارتكبت أول جريمة قتل على ظهر الأرض ، وبسببه كانت أكثر الجرائم فى كل زمان ومكان .

* * *

كذلك من المحاورات التى حكاها القرآن الكريم بين العقلاء والسفهاء ، أو بين الأخيار والأشرار ، تلك المحاورة التى دارت بين قارون وبين الناصحين له ، واستمع إلى القرآن الكريم وهو يقص علينا ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ

يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾ [القصص: ٧٦ - ٨٣]

وقارون : هو واحد من الطغاة البغاة الذين أعطاهم الله - تعالى - النعم الوفيرة فلم يشكروه عليها ، بل استعملوها فى المعاصى والسيئات . قيل إنه كان من أقارب موسى - عليه السلام - .

والبغى : مجاوزة الحد فى كل شىء ، وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد .

والكنوز : جمع كنز وهو المال الكثير المدخر .

والمعنى : إن قارون كان من بنى إسرائيل الذين أرسل الله - تعالى - إليهم رسوله موسى - عليه السلام - لكى يأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، فما كان من قارون إلا أن تطاول عليهم ، وتجاوز الحدود فى ظلمهم .

ولم يحدد القرآن الكريم كيفية بغيه ، أو الأشياء التى بغى عليهم فيها ، للإشارة إلى أن بغيه قد شمل كل ما من شأنه أن يسمى بغيا من أقوال أو أفعال . .

وكان بغيه هذا وظلمه بعد أن أعطاه الله - تعالى - من الأموال الكثيرة ، ما يجعل الرجال الأقوياء ، يثقل عليهم حمل مفاتيح خزائين تلك الأموال التى لا تكاد تقع تحت حصر . . .

والمراد بالفرح فى قوله - تعالى- : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ ﴾ : البطر والغرور والتفاخر والظلم .

وجملة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ تعليل للنهى عن الفرح المذموم .

أى : لقد أعطى الله - تعالى - قارون نعما عظيمة ، فلم يشكر الله عليها ، بل طغى وبغى ، فقال له العقلاء من قومه : لا تفرح بهذا المال الذى بين يديك فرح البطر الفخور ، المستعمل لنعم الله فى الفسوق والمعاصى ، فإن الله - تعالى - لا يحب من كان كذلك .

ثم قالوا له - أيضا - على سبيل النصح والإرشاد : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ أى : واطلب فيما أعطاك الله - تعالى - من أموال عظيمة ، ثواب الدار الآخرة ، عن طريق إنفاق جزء من مالك فى وجوه الخير ، كالإحسان إلى الفقراء والمحتاجين .

﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ أى : اجعل مالك زادا لآخرتك ، ولا تترك التنعم بنعم الله فى دنياك ، فإن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، ولضيفك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه .

﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أى : وأحسن إلى عباد الله بأن تترك البغى عليهم وتعطيهم حقوقهم . مثل ما أحسن الله إليك بنعم كثيرة .

﴿ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ﴾ أى : ولا تطلب الفساد فى الأرض عن طريق البغى والظلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ كما أنه - سبحانه - لا يحب الفرحين المختالين .

وهكذا ساق العقلاء من قوم قارون النصائح الحكيمة له ، والتى من شأن من اتبعها أن ينال السعادة فى دنياه وأخراه .

ولكن قارون قابل هذه النصائح بالغرور والإصرار على الفساد والجحود ، فقال كما حكى القرآن عنه ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ .

أى : قال قارون فى الرد على ناصحية : إن هذا المال الكثير الذى تحت يدى ، إنما أوتيته بسبب علمى وجدى واجتهادى . . فكيف تطلبون منى أن أتصرف بمقتضى نصائحكم ؟ لا . لن أتبع تلك النصائح التى وجهتموها إلىّ ، فإن هذا المال مالى ولا شأن لكم بتصرفى فيه ، كما أنه لا شأن لكم بتصرفاتى الخاصة ، ولا بسلوكى فى حياتى التى أملكها .

وهذا القول يدل على أن قارون ، كان قد بلغ الذروة فى الغرور والطغيان وجحود النعمة .

ولذا جاءه التهديد المصحوب بالسخرية منه ومن كنوزه ، فى قوله - تعالى - : ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ .

والمقصود بهذا الاستفهام التعجيب من حاله ، والتأنيب له على جهله وغروره .

أى : أبلغ الغرور والجهل بقارون أنه يزعم أن هذا المال الذى بين يديه جمعه بمعرفته واجتهاده ، مع أنه يعلم حق العلم عن طريق التوراة وغيرها ، أن الله - تعالى - قد أهلك من قبله . من أهل القرون السابقة عليه من هو أشد منه فى القوة ، وأكثر منه فى جمع المال واكتنازه .

فالمقصود بالجملة الكريمة تهديده وتوبيخه على غروره وبطره .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ جملة حالية . أى : والحال أنه لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون سؤال استعتاب واستعلام ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء . وإنما يسألون - كما جاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ سؤال توبيخ وإفصاح .

فالمراد بالنفى فى قوله - سبحانه - : ﴿ وَلا يُسْأَلُ ﴾ سؤال الاستعلام والاستعتاب ، والمراد بالإثبات فى قوله : ﴿ فلنسألن ﴾ أو فى قوله : ﴿ فوربك لنسألنهم ﴾ سؤال التقريع والتوبيخ .

أو نقول : إن فى يوم القيامة مواقف ، فالمجرمون قد يسألون فى موقف ، ولا يسألون فى موقف آخر ، وبذلك يمكن الجمع بين الآيات التى تنفى السؤال والآيات التى تثبته .

ثم حكى القرآن بعد ذلك مظهرًا آخر من مظاهر غرور قارون وبطره فقال : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ والجملة الكريمة معطوفة على قوله قبل ذلك : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ وما بينهما اعتراض . والزينة : اسم ما يتزين به الإنسان من حلى أو ثياب أو ما يشبههما .

أى : قال ما قال قارون على سبيل الفخر والخيلاء ، ولم يكتف بهذا القول بل خرج على قومه فى زينة عظيمة . وأبهة فخمة ، فيها ما فيها من ألوان الرياش والخدم .

وقد ذكر بعض المفسرين روايات متعددة ، فى زينته التى خرج فيها ، رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها ، ويكفى أن نعلم أنها زينة فخمة ، لأنه لم يرد نص فى تفاصيلها .

وأمام هذه الزينة الفخمة التى خرج فيها قارون ، انقسم الناس إلى فريقين ، فريق استهوته هذه الزينة ، وتمنى أن يكون له مثلها ، وقد عبر القرآن عن هذا الفريق بقوله : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ .

أى خرج قارون على قومه فى زينته ، فما كان من الذين يريدون الحياة الدنيا وزخارفها من قومه ، إلا أن قالوا على سبيل التمنى والانبهار . . ياليت لنا مثل ما أوتى قارون من مال وزينة ورياش ، إنه لذو حظ عظيم ، ونصيب ضخم ، من متاع الدنيا وزينتها .

هكذا قال الذين يريدون الحياة الدنيا . وهم الفريق الأول من قوم قارون . أما الفريق الثانى المتمثل فى أصحاب الإيمان القوى ، والعلم النافع ، فقد قابلوا أصحاب هذا القول بالزجر والتعنيف ، وقد حكى القرآن ذلك عنهم فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ .

وكلمة ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ أصلها الدعاء بالهلاك . وهى منصوبة بمقدر . أى : ألزمكم الله الويل .

ثم استعملت فى الزجر والتعنيف والحض على ترك ما هو قبيح ، وهذا الاستعمال هو المراد هنا .

أى : وقال الذين أوتوا العلم النافع من قوم قارون ؛ لمن يريدون الحياة الدنيا : كفوا عن قولكم هذا ، واتركوا الرغبة فى أن تكونوا مثله ، فإن ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ ﴾ فى الآخرة ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما تمنيتموه . وهذا الثواب إنما هو ﴿ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ فلا تتمنوا عرض الدنيا الزائل .

وهذه المثوبة العظمى التى أعدها الله – تعالى – لمن آمن وعمل صالحا ﴿ وَلا يُلَقَّاهَا ﴾ أى : لا يظفر بها ، ولا يوفق للعمل لها ﴿ إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ على طاعة الله – تعالى – وعلى ترك المعاصى والشهوات .

ثم جاءت بعد ذلك العقوبة لقارون ، بعد أن تجاوز الحدود فى البغى والفخر والإفساد فى الأرض . وقد حكى سبحانه - هذه العقوبة فى قوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَخَسَفْنَا ﴾ من الخسف وهو النزول فى الأرض ، يقال : خسف المكان خسفا - من باب ضرب - إذا غار فى الأرض . ويقال : خسف القمر ، إذا ذهب ضوؤه ، وخسف الله بفلان الأرض ، إذا غيبه فيها .

قال ابن كثير : « لما ذكر الله - تعالى - اختيال قارون فى زينته ، وفخره على قومه وبغيه عليهم ، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما ثبت فى الصحيح - عند البخارى من حديث الزهرى عن سالم - أن أباه حدثه : أن رسول الله ﷺ قال : «بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة»[(١)] .

أى . تمادى قارون فى بغيه ، ولم يستمع لنصح الناصحين ، فغيبناه فى الأرض هو وداره وأذهبناهما فيها إذهابا تاما .

﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : فما كان لقارون من جماعة أو عصبة تنصره من عذاب الله ، بأن تدفعه عنه ، أو ترحمه منه .

﴿ وَمَا كَانَ ﴾ قارون ﴿ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ بل كان من الأذلين الذين تلقوا عقوبة الله- تعالى - باستسلام وخضوع وخنوع ، دون أن يستطيع هو أو قومه رد عقوبة الله - تعالى- .

ثم - بين - سبحانه - ما قاله الذين كانوا يتمنون أن يكونوا مثل قارون فقال - تعالى - : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

ولفظ «وى» اسم فعل بمعنى أعجب ، ويكون - أيضا - للتحسر والتندم ، وكان الرجل من العرب إذا أراد أن يظهر ندمه وحسرته على أمر فائت يقول : وى .

والمعنى : وبعد أن خسف الله - تعالى - الأرض بقارون ومعه داره ، أصبح الذين تمنوا أن يكونوا مثله ﴿ بالأمس ﴾ أى : منذ زمان قريب ، عندما خرج عليهم فى زينته ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٦٦ .

أصبحوا يقولون بعد أن رأوا هلاكه : ﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : صاروا يقولون ما أعجب قدرة الله – تعالى – في إعطائه الرزق لمن يشاء من عباده وفى منعه عمن يشاء منهم ، وما أحكمها فى تصريف الأمور ، وما أشد غفلتنا عندما تمنينا أن نكون مثل قارون ، وما أكثر ندمنا على ذلك .

لولا أن الله – تعالى – قد مَّن علينا ، بفضله وكرمه لخسف بنا الأرض كما خسفها بقارون وبداره .

﴿ وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ أى : ما أعظم حكمة الله – تعالى – فى إهلاكه للقوم الكافرين ، وفى إمهاله لهم ثم يأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر .

ثم ختم – سبحانه – قصة قارون ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا ﴾ .

واسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ مبتدأ ، والدار الآخرة صفة له ، ونجعلها . . خبره ، وجاءت الإشارة بهذه الصيغة المفيدة للبعد ، للإشعار بعظم هذه الدار وعلو شأنها .

أى : تلك الدار الآخرة وما فيها من جنات ونعيم ، نجعلها خالصة لعبادنا الذين لا يريدون بأقوالهم ولا بأفعالهم ﴿ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ ﴾ أى : تطاولا وتعاليا فيها ﴿ وَلا فَسَادًا ﴾ أى : ظلما أو بغيا أو عدوانا على أحد .

﴿ وَالْعَاقِبَةُ ﴾ الطيبة الحسنة ، إنما هى ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين صانوا أنفسهم عن كل سوء وقبيح .

وهكذا يسوق لنا القرآن فى قصصه العبر والعظات ، لقوم يتذكرون ، فمن قصة قارون نرى أن كفران النعم يؤدى إلى زوالها ، وأن الغرور والبغى والتفاخر كل ذلك يؤدى إلى الهلاك ، وأن خير الناس من يبتغى فيما آتاه الله من نعم ثواب الآخرة ، دون أن يهمل نصيبه من الدنيا ، وأن العاقل هو من يستجيب لنصح الناصحين ، وأن الناس فى كل زمان ومكان ، منهم الذين يريدون زينة الحياة الدنيا ، ومنهم الأخيار الأبرار الذين يفضلون ثواب الآخرة ، على متع الحياة الدنيا ، وأن الحوار الحكيم النافع إنما يصدر عن العقلاء ، أما الحوار العقيم الباطل فإنه لا يصدر إلا عن الجهلاء السفهاء .

ومن أحكم المحاورات التى يتجلى فيها الإيمان الصادق والعقل الراجح والأدب الرفيع من جانب ، كما يتجلى فيها الجهل الفاضح ، والجحود الواضح ، من جانب آخر ، تلك المحاورات التى دارت بين سيدنا إبراهيم – عليه السلام– ، وبين أبيه الذى وصفه – سبحانه – بأنه عدو الله – تعالى – .

وقد حكى القرآن ما قاله سيدنا إبراهيم لأبيه ، وما رد به الأب على ابنه فقال عز وجل : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) ﴾ [مريم : ٤١ – ٤٧] .

والمعنى : واذكر – أيها الرسول الكريم – لأمتك جانبًا من ذلك الحوار الحكيم الذى استعمله أبو الأنبياء إبراهيم – عليه السلام – مع أبيه وهو يدعوه إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

اذكر ذلك لهم لكى يعتبروا ويتعظوا ، ويقتدوا بالأخيار فى أقوالهم وفى أفعالهم وفى خطابهم مع غيرهم ، وفى دعوتهم إلى الخير والبر بالحكمة والموعظة الحسنة . لقد قال إبراهيم لأبيه وهو يحاوره : يا أبت لماذا تعبد شيئا لا يسمع من يناديه ولا يبصر من يقف أمامه ، ولا يغنى عنك شيئا من الإغناء ، لأنه لا يملك لنفسه – فضلا عن غيره – نفعا ولا ضرا .

ثم دعاه إلى اعتناق الحق بألطف أسلوب فقال له : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ﴾ النافع الذى علمنى الله إياه ﴿ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ أنت ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ﴿ فَاتَّبِعْنِي ﴾ فيما أدعو إليه ﴿ أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ أى : أهدك إلى الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه ولا اضطراب .

ثم نهاه عن عبادة الشيطان ، لأنه جهل وانحطاط فى التفكير فقال له : ﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ فإن عبادتك لهذه الأصنام هى عبادة وطاعة للشيطان الذى هو عدو الإنسان .

ثم علل هذا النهى بقوله : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ أى : إن الشيطان الذى أغراك بعبادة هذه الأصنام كان للرحمن عصيا ، أى : كثير العصيان ، لا يهدى الناس إلى طاعة الله ، وإنما يهديهم إلى مخالفته ومعصيته وموجبات غضبه .

ثم ختم هذا النداء بما يدل على حبه له ، وشفقته عليه فقال : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ .

أى : يا أبت إنى أشفق عليك من أن ينزل بك عذاب من الرحمن بسبب إصرارك على عبادة غيره ، وبذلك تصبح قرينًا للشيطان فى العذاب بالنار ، لأنك انقدت له ، وخالفت طريق الحق .

بهذا الأسلوب الحكيم الهادئ الرقيق وبهذا الحوار الحكيم . . . خاطب إبراهيم أباه ، وهو يدعوه إلى عبادته – تعالى – وحده – .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال ما ملخصه : «انظر كيف رتب إبراهيم الكلام مع أبيه فى أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق ، مع استعماله المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن .

وذلك أنه طلب منه – أولاً – العلة فى خطئه . طلب مُنَبِهٍ على تماديه ، موقظ لإفراطه وتناهيه . . . حيث عبد ما ليس به حس ولا شعور .

ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقًا به متلطفًا ، فلم يصف أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق . ولكنه قال : إن معى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك . . ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه ، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل . . ثم ربّع بتخويفه سوء العاقبة ، وما يجره ما هو فيه من الوبال .

ولم يخلُ ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له ، وأن العذاب لاصق به ، ولكنه قال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ ... ﴾ .

وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ توسلا واستعطافاً . . .»[1] .

ولكن هذه النصائح الحكمية الغالية من إبراهيم لأبيه . لم تصادف أذنًا واعية ولم تحظ من أبيه بالقبول بل قوبلت بالاستنكار والتهديد ، فقد قال الأب الكافر لابنه المؤمن : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ .

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ١٩ .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أَرَاغِبٌ ﴾ للإنكار والتهديد ، والرغبة عن الشىء : تركه عمدًا زهدا فيه لعدم الحاجة إليه .

والمعنى : قال والد إبراهيم له على سبيل التهديد والوعيد ، أتارك أنت يا إبراهيم عبادة آلهتى . وكاره لتقرب الناس إليها ، ومنفرهم منها لئن لم تنته عن هذا المسلك . ﴿ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ بالحجارة وبالكلام القبيح ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ بأن تغرب عن وجهى زمنا طويلا لا أحب أن أراك فيه .

وهكذا قابل الأب الكافر أدب ابنه المؤمن ، بالفظاظة والغلظة والتهديد والعناد والجهالة . . شأن القلب الذى أفسده الكفر .

ولكن إبراهيم - عليه السلام - لم يقابل فظاظة أبيه وتهديده بالغضب والضيق ، بل قابل ذلك بسعة الصدر . وجميل المنطق ، حيث قال له : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ .

أى : لك منى - يا أبت - السلام الذى لا يخالطة جدال أو أذى ، والوداع الذى أقابل فيه إساءتك إلىّ بالإحسان إليك . وفضلاً عن ذلك فإنى ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ أى : باراً بى ، كثير الإحسان إلىّ .

يقال : فلان حفى بفلان حفاوة ، إذا بالغ فى إكرامه ، واهتم بشأنه .

وقد وفى إبراهيم بوعده ، حيث استمر على استغفاره لأبيه إلى أن تبين له أنه عدو لله - تعالى - فتبرأ منه كما قال - تعالى- : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾(١)

وهكذا نرى فى هذه المحاورة التى دارت بين إبراهيم وأبيه ، أسمى ألوان العقل الراجح من إبراهيم ، وأحط ألوان الفظاظة والجهل من أبيه .

* * *

كذلك من صور المحاورات بين الأخيار والأشرار ، ماحكاه القرآن من مراجعات ومجادلات وتساؤلات تدور بين أهل الجنة وأهل النار ، قص علينا القرآن منها قوله - تعالى - : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٤ .

وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) ﴾ [الأعراف : ٤٤ - ٥١]

وفى هذه الآيات الكريمة نرى حوارًا يدور بين أهل الجنة وأهل النار ، كما نرى حوارا ثانيا يدور بين أصحاب الأعراف وبين أهل الجنة وأهل النار ، كما نرى حوارا ثالثا يدور بين أهل النار وأهل الجنة .

وفى الحوار الأول الذى بين أهل الجنة وأهل النار نشاهد أن أهل الجنة سوف يسألون أهل النار سؤال تعيير وتوبيخ يوم القيامة فيقولون لهم : إننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا من ثواب وعطاء جزيل قد تحقق ووقع ، فهل وجدتم يا أهل النار ما توعدكم به ربكم من عقاب وسوء مصير قد تحقق - أيضا - ووقع ؟

وهنا لم يستطع أهل النار أن ينكروا ما حاق بهم من خزى وهوان فيقولون لأهل الجنة : نعم قد وجدنا ما توعدنا به خالقنا على ألسنة رسله قد تحقق ووقع .

وهذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار .

والظاهر أن هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار ، لأن الجمع إذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد ، فكل فريق من أهل الجنة ينادى من كان يعرفه من أهل النار فى دار الدنيا .

وعبر - سبحانه - بالفعل الماضى﴿ ونادى ﴾ مع أن هذا النداء يكون يوم القيامة بعد استقرار كل فريق فى مكانه ، لتحقق الوقوع وتأكده .

ثم بين - سبحانه - ما جرى بعد ذلك فقال : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ .

والمعنى : بعد أن قامت الحجة على الكافرين وثبت الفوز للمؤمنين . نادى مناد بين الفريقين بقوله : لعنة الله على الظالمين لأنفسهم ، ولغيرهم ، الذين من صفاتهم أنهم يمنعون الناس عن اتباع شريعة الله ، ويريدون لها أن تكون معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها الناس ، وهم بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب جاحدون مكذبون .

وفى قوله : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ . نكر المؤذن . لأن معرفته غير مقصودة بل المقصود الإعلام بما يكون هناك من الأحكام ولم يرو عن رسول الله ﷺ فيه شىء ، فهو من أمور الغيب التى لا تعلم علما صحيحا إلا بالتوقيف المستند إلى الوحى ، وما ورد فى ذلك فهو من الآثار التى لا يعتمد عليها .

قال بعض العلماء : «وفى هاتين الآيتين تعرض السورة لمرحلة أخرى من مراحل العذاب ، وهى نداء أصحاب الجنة لأصحاب النار نداء يسجل عليهم الخزى والنكال ، ويشعرهم بالحسرة والندامة ، إذ كذبوا بما يرونه الآن واقعا فى مقابلة النعيم الذى صار إليه أهل الإيمان ، وأحسوا به كذلك واقعا .

وفى هذا نرى صورة من الحوار الذى يمثل الرضا والاطمئنان واللذة من جانب . ويمثل الحسرة والذلة والقلق من جانب آخر . ويصور الحكم النافذ الذى لا مرد له ولا محيص عنه يؤذن به مؤذن لا يدرك كنهه ولا يعلم من هو ولا ما صوته ولا كيف يلقى أذانه ، ولا كيف يكون أثر هذا فى نفوس سامعيه .

وإنه لتصوير قوى بارع ، يحرك إليه النفوس ، ويهز المشاعر ، ويبين أن النهاية الأليمة المتوقعة لهؤلاء المكذبين ، إنما هى تسجيل اللعنة عليهم ، والطرد والحرمان من رحمة الله ، مشيرا إلى أسباب ذلك الحرمان الماثلة فى ظلمهم الذى كونه صدهم عن سبيل الله ، وبغيهم إياها عوجا وانحرافا وكفرهم بدار الجزاء»[١] .

ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة ، يحدثنا فيه عن أصحاب الأعراف وما يدور بينهم وبين أهل الجنة وأهل النار من حوار فيقول :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ أى : بين أهل الجنة وأهل النار حجاب يفصل بينهما ، ويمنع وصول أحد الفريقين إلى الآخر .

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٥٠١ لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتون - رحمه الله -

ثم قال – تعالى – : ﴿ وَعَلَى الأَعْرَاف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾

الأعراف : جمع عرف ، وهو المكان المرتفع من الأرض وغيرها . ومنه عرف الديك وعرف الفرس وهو الشعر الذى يكون فى أعلى الرقبة .

والمعنى : وبين الجنة والنار حاجز يفصل بينهما وعلى أعراف هذا الحاجز – أى فى أعلاه – رجال يرون أهل الجنة وأهل النار فيعرفون كلا منهم بسيماهم وعلاماتهم التى وصفهم الله بها فى كتابه كبياض الوجوه بالنسبة لأهل الجنة ، وسوادها لأهل النار ، ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة عند رؤيتهم لهم بقولهم : سلام عليكم وتحية لكم ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ .

هذا ، وللعلماء أقوال فى أصحاب الأعراف أوصلها بعض المفسرين إلى اثنى عشر قولا من أشهرها قولان :

أولهما : أن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقد روى هذا القول عن حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف .

وقد استشهد أصحاب هذا القول بما رواه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناتهم وسيئاتهم فقال : «أولئك أصحاب الأعراف ، لم يدخلوها وهم يطمعون» .

وعن الشعبى عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وخلفت بهم حسناتهم عن النار . قال فوقفوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم»[1] .

وهناك آثار أخرى تقوى هذا الرأى ذكرها الإمام ابن كثير فى تفسيره»[2] .

أما الرأى الثانى : فيرى أصحابه أن أصحاب الأعراف قوم من أشرف الخلق وعدولهم كالأنبياء والصديقين والشهداء . وينسب هذا القول إلى مجاهد وإلى أبى مجلز فقد قال مجاهد «أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء» وقال أبو مجلز : أصحاب الأعراف هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار . ومعنى كونهم رجالا – فى قول أبى مجلز أى : فى صورتهم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢١٦ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢١٦ وما بعدها .

وقد رجح بعض العلماء الرأى الثانى فقال : «وليس أصحاب الأعراف ممن تساوت حسناتهم وسيئاتهم كما جاء فى بعض الروايات ، لأن ما نسب إليهم من أقوال لا يتفق مع انحطاط منزلتهم عن أهل الجنة ، انظر قولهم للمستكبرين .

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ فإن هذا الكلام لا يصدر إلا من أرباب المعرفة الذين اطمأنوا إلى مكانتهم . ولذا أرجح أن رجال الأعراف هم عدول الأمم والشهداء على الناس ، وفى مقدمتهم الأنبياء والرسل»[1] .

والذى نراه : أن هناك حجابًا بين الجنة والنار ، الله أعلم بحقيقته ، وأن هذا الحجاب لا يمنع وصول الأصوات عن طريق المناداة ، وأن هذا الحجاب من فوقه رجال يرون أهل الجنة وأهل النار فينادون كل فريق بما يناسبه ، يحيون أهل الجنة ويقرّعون أهل النار ، وأن هؤلاء الرجال - يغلب على ظننا - أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم . لأن هذا القول هو قول جمهور العلماء من السلف والخلف ، ولأن الآثار تؤكده ، ولذا قال ابن كثير : «واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم . نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله»[2] .

وقوله : ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه فى أصحاب الأعراف ، أى أن أصحاب الأعراف عندما رأوا أهل الجنة سلموا عليهم حال كونهم - أى أصحاب الأعراف - لم يدخلوها معهم وهم طامعون فى دخولها مترقبون له .

وثانيهما : أنه فى أصحاب الجنة : أى : أنهم لم يدخلوها بعد ، وهم طامعون فى دخولها لما ظهر لهم من يسر الحساب . وكريم اللقاء .

ثم قال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أى : وإذا ما اتجهت أبصار أصحاب الأعراف إلى جهة النار قالوا مستعيذين بالله

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٥٠٣ لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢١٦ .

من سوء ما رأوا من أحوالهم : يا ربنا لا تجعلنا مع هؤلاء القوم الظالمين ، ولا تجعلنا وإياهم فى هذا المكان المهين .

قال صاحب المنار : «وقد أفاد هذا التعبير بالفعل المبنى للمجهول أنهم يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنة بالقصد والرغبة ويلقون إليهم السلام ، وأنهم يكرهون رؤية أصحاب النار ، فإذا صرفت أبصارهم تلقاءهم من غير قصد ولا رغبة ، بل بصارف يصرفهم إليها قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

ثم قال : والإنصاف أن هذا الدعاء أليق بحال من استوت حسناتهم وسيئاتهم وكانوا موقوفين مجهولا مصيرهم»(1) .

ثم بين - سبحانه - ما يقوله أهل الأعراف لرءوس الكفر فى هذا الموقف العصيب فقال : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُم قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

أى : ونادى أصحاب الأعراف رجالا من أهل النار وكانوا أصحاب وجاهة وغنى فى الدنيا ، فيقولون لهم على سبيل التوبيخ والتقريع ما أغنى عنكم جمعكم وكثرتكم واستكباركم فى الأرض بغير الحق . فقد صرتم فى الآخرة بسبب كفركم وعنادكم إلى هذا الوضع المهين .

وقد كرر - سبحانه - ذكرهم مع قرب العهد بهم ، فلم يقل «ونادوا» لزيادة التقرير ، وكون هذا النداء خاصًا فى موضوع خاص فكان مستقلا .

وقوله : ﴿ يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُم ﴾ أى : بعلاماتهم الدالة على سوء حالهم يومئذ كسواد الوجوه ، وظهور الذلة على وجوههم . أو يعرفونهم بصورهم التى كانوا يعرفونهم بها فى الدنيا .

ثم يزيدون توبيخهم وتبكيتهم فيقولون لهم : ﴿ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .

أى : إن أصحاب الأعراف يشيرون إلى أهل الجنة من الفقراء والذين كانوا مستضعفين فى الأرض ثم يقولون لرءوس الكفر الذين كانوا يعذبونهم : أهؤلاء

---

(1) تفسير المنار جـ ٨ ص ٤٣٤ .

أقسمتم فى الدنيا أن الله - تعالى - لا ينالهم برحمته فى الآخرة لأنه لم يعطهم فى الدنيا مثل ما أعطاكم من مال وبنين وسلطان .

وهنا ينادى مناد من قبل الله - تعالى - على هؤلاء الفقراء فيقول لهم : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .

أى : ادخلوا الجنة لا خوف عليكم مما يكون فى المستقبل ، ولا أنتم تحزنون على ما خلفتموه فى الدنيا .

وقيل : إن قوله - تعالى - : ﴿ ادْخُلُوا ﴾ . من كلام أصحاب الأعراف - أيضا ، فكأنهم التفتوا إلى أولئك المشار إليهم من أهل الجنة وقالوا لهم : امكثوا فى الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة .

ثم تسوق لنا السورة الكريمة بعد ذلك مشهدًا ختاميا من مشاهد يوم القيامة تدور محاوراته بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فتقول :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) ﴾ .

إفاضة الماء : صبه ، ومادة الفيض فيها معنى الكثرة .

والمعنى : أن أهل النار - بعد أن أحاط بهم العذاب المهين - أخذوا يطلبون من أهل الجنة بذلة وانكسار فيقولون لهم : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله من طعام ، لكى نستعين بهما على ما نحن فيه من سموم وحميم .

وهنا يرد عليهم أهل الجنة بما يقطع آمالهم بسبب أعمالهم فيقولون لهم : إن الله منع كلا منهما على الكافرين ، الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، أى الذين اتخذوا دينهم - الذى أمرهم الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه - مادة للسخرية والتلهى ، وصرف الوقت فيما لا يفيد ، فأصبح الدين - فى زعمهم - صورة ورسوما لا تزكى نفسًا ، ولا تطهر قلباً ، ولا تهذب خلقا ، وهم فوق ذلك قد غرتهم الحياة الدنيا - أي شغلتهم بمتعها ولذائذها وزينتها عن كل ما يقربهم إلى الله ، ويهديهم إلى طريقه القويم .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ معناه فاليوم نفعل

بهم فعل الناسى من عدم الاعتناء بهم وتركهم فى النار تركا كليا بسبب تركهم الاستعداد لهذا اليوم ، وبسبب جحودهم لآياتنا التى جاءتهم بها أنبياؤهم .

فالنسيان فى حق الله - تعالى - مستعمل فى لازمه ، بمعنى أن الله - تعالى - لا يجيب دعاءهم ، ولا يرحم ضعفهم وذلهم ، بل يتركهم فى النار كما تركوا فى الدنيا الإيمان والعمل الصالح .

وهكذا نرى فى هذه الآيات الكريمة صورا من المحاورات التى تدور بين العقلاء والسفهاء ، أو بين الأخيار والأشرار . وهى محاورات فيها ما فيها من التوجيهات الحكيمة ، والإرشادات القويمة ، والعظات الجليلة لقوم يعقلون .

* * *

هذا . وشبيه بهذه المحاورات التى وردت فى هذه الآيات ، قوله - تعالى - : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ [الحديد : ١٢ - ١٥] .

ففى هذه الآيات الكريمة نشاهد حوارًا واضحا يدور فى الآخرة بين المؤمنين الصادقين ، وبين المنافقين الكاذبين .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، يوم تبصر المؤمنين والمؤمنات ، يسعى نورهم ويتحرك من أمامهم ومن جهة يمينهم على سبيل التشريف والتكريم لهم .

وتقول لهم الملائكة على سبيل التحية : نبشركم اليوم بجنات عظيمة ، تجرى من تحت ثمارها وأشجارها الأنهار العذبة ، حالة كونكم خالدين فيها خلودًا أبديا ، وذلك الذى أنتم فيه من نور يسعى بين أيديكم ومن جنات أنتم خالدون فيها ، هو الفوز العظيم الذى لا يعادله فوز أو فلاح .

واذكر - أيضا - يوم يقول المنافقون والمنافقات ، الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، يقولون للمؤمنين الصادقين يوم الحساب على سبيل التذلل والتحسر : انتظرونا وتريثوا فى سيركم ، لكى نلحق بكم ، فنستنير بنوركم الذى حرمنا منه ، وننتفع بالاقتباس من نوركم الذى أكرمكم الله - تعالى - به .

وهنا يرد عليهم المؤمنون الصادقون بقولهم : ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نورًا عن طريق سببه وهو الإيمان والعمل الصالح .

وهذا القول من المؤمنين للمنافقين إنما هو على سبيل التهكم بهم ، إذ لا نور فى الحقيقة وراء المنافقين .

ثم بين سبحانه - ما حدث للمنافقين بعد ذلك فقال : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ .

أى : فضرب بين المؤمنين وبين المنافقين بحاجز عظيم ، هذا الحاجز العظيم والسور الكبير ، له باب باطن هذا الباطن مما يلى المؤمنين فيه الجنة ، وظاهر هذا الباب مما يلى المنافقين ، يأتى من جهته العذاب .

والمقصود من هذه الآية الكريمة : بيان أن المؤمنين فى مكان آمن تحيط به الجنة ، أما المنافقون ففى مكان مظلم يؤدى بهم إلى النار وبئس القرار .

ثم حكى القرآن الكريم أن المنافقين لم يكتفوا بهذا الرجاء للمؤمنين ، بل أخذوا ينادونهم فى تحسر وتذليل فيقولون لهم - كما حكى القرآن عنهم - :﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ ؟

أى : ينادى المنافقون المؤمنين نداء كله حسرة وندامة ومهانة قائلين لهم : ألم نكن معكم فى الدنيا ننطق بالشهادتين كما تنطقون ، ونصلى كما تصلون ؟

فيرد عليهم المؤمنون : بلى كنتم معنا فى الدنيا تصلون كما نصلى وتنطقون بالشهادتين كما ننطق ولكنكم فى الدنيا أضللتم أنفسكم بالنفاق الذى هو كفر باطن وإسلام ظاهر ، وانتظرتم وقوع المصائب بنا لأنكم تحبون لنا الشر وتكرهون لنا الخير ، وشككتم فى الحق الذى جاءكم به الرسول ﷺ من عند ربه ، وخدعتكم الأمانى الكاذبة والآمال الفاسدة ، وبقيتم على هذا النفاق وإذكاء روح الفتن والارتياب والتربص السيئ والاغترار بالباطل ، حتى نزل بكم الموت وأنتم على ذلك ، وخدعكم

فى سعة رحمة الله - تعالى - الشيطان ، فأطمعكم فى غير مطمع ، وهنا أنتم الآن ترون سوء عاقبتكم .

فاليوم - أيها المنافقون - لا يقبل منكم فداء ولا من الذين كفروا ، ومصيركم جميعا النار وهى أولى بكم من غيرها ، وبئس المصير مصيركم .

ومن هذه الآيات الكريمة يتبين لنا كيف حاور المؤمنون المنافقين حوارا منطقيا مقنعا ، بدليل أنهم وافقوهم على أنهم كانوا معهم فى الدنيا ، ولكن الذى أدى بهؤلاء المنافقين إلى هذا المصير الأليم هو نفاقهم وخداعهم وكذبهم وظنهم السوء وارتيابهم فى صدق الرسول ﷺ واستحواذ الشيطان عليهم حتى أنساهم كل طاعة ، وسخرهم لكل معصية .

وبعد : فهذه نماذج محدودة من المحاورات التى دارت بين الأخيار والأشرار ، أو بين العقلاء والسفهاء .

ولا شك أن القرآن الكريم زاخر بأمثال هذه المحاورات التى حدثت بين الرسل وأقوامهم المكذبين ، وأن السنة النبوية كذلك فيها الكثير من أمثال هذه المحاورات ، ولكن المقام لا يتسع لسرد كل ما ورد فى ذلك ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

* * *

الفصل التاسع

حوار الأشرار فيما بينهم

ذكرنا فى الفصل السابق جانبا من حوار الأخيار مع الأشرار ، أو من حوار العقلاء مع السفهاء ، ونريد فى هذا الفصل أن نذكر نماذج من حوار الأشرار أو السفهاء فيما بينهم . . .

وفى القرآن الكريم صور متنوعة ومتعددة من هذا الحوار الذى يدور يوم القيامة مع هؤلاء الأشرار فيما بينهم ، وجميعه يدل على أن هؤلاء الأشرار سيندمون فى وقت لا ينفع فيه الندم ، وسيلقى بعض المسئولية على بعض ، وسيلعن بعضهم بعضا لعنا كبيرا ، وهاك بعض النماذج لذلك .

(ا) فى سورة البقرة نرى الزعماء يتبرأون من الدهماء ، ويتبرأون من المتبوعين ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾ [البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧]

وقوله - تعالى - : ﴿ تبرأ ﴾ من التبرؤ بمعنى التخلص والتنصل والتباعد ، ومنه برئت من الدَّين أى : تخلصت منه . وبرئ المريض من مرضه أى : تخلص منه .

والمراد بالذين اتُّبعوا : أئمة الكفر الذين يحلون ويحرمون مالم يأذن به الله - تعالى- والذين يدعون غيرهم إلى البقاء على الباطل والانصراف عن الحق .

والمراد بالذين اتَّبعوا : أتباعهم الذين تلقوا جميع أقوال رؤسائهم بالطاعة والخضوع دون تدبر أو تعقل .

والأسباب : جمع سبب . وهو فى الأصل الذى يرتقى به المرتقى للشجر ونحوه ، ثم أطلق على كل شىء يتوصل به إلى غيره ، فيقال للطريق سبب ، لأنه بسلوكك فيها تصل إلى الموضوع الذى تريده . يقال للمودة سبب لأنك تتواصل بها إلى غيرك . والمراد بها هنا : الوشائج والصلات التى كانت بين الأتباع والمتبوعين في الدنيا ، من القرابات والصداقات والمنافع المتنوعة .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - أنه فى ذلك اليوم الهائل الشديد وهو يوم القيامة ، سوف يتبرأ المتبوعون من الأتباع عندما يرى الجميع العذاب وقد أوشك أن يعمهم جميعا ، وقد ترتب على ذلك أن تقطعت الروابط التى كانت تربط بين هؤلاء الأشقياء ، وصار كل فريق يلعن الآخر ، ويتمنى عدم رؤية وجهه .

ثم بين - سبحانه - ماقاله الأتباع على سبيل الحسرة والندم فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾ .

الكرة : الرجعة والعودة . يقال : كر يكر كرًا : أى : رجع . و (لو) للتمنى .

والمعنى : وقال الذين كانوا تابعين لغيرهم فى الباطل بدون تعقل أو تدبر ليت لنا رجعة إلى الحياة الدنيا فنتبرأ من هؤلاء الذين اتبعناهم وأضلونا السبيل كما تبرأوا منا فى هذا اليوم العصيب ، ولنشفى غيظنا منهم لأنهم خذلونا وأوردونا موارد التهلكة والعذاب الأليم .

وقوله - تعالى - : ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ تذليل لتأكيد الوعيد ، وبيان لحال المشركين فى الآخرة .

والمراد بأعمالهم : المعاصى التى ارتكبوها وفي مقدمتها اتباعهم لمن أضلوهم .

و ﴿ حسرات ﴾ جمع حسرة ، وهى أشد درجات الندم والغم على ما فات . يقال : حسر يحسر حسرًا فهو حسير ، إذ اشتدت ندامته على أمر فاته .

قال الرازى : «وأصل الحسر الكشف . يقال حسر ذراعيه أى : كشف ، والحسرة انكشاف هم حال الندامة . والحسور الإعياء لأنه انكشاف الحال عما أوجبه طول السفر . قال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ »[1] .

والمعنى : كما أرى الله - تعالى - المشركين العذاب وما صاحبه من التبرؤ وتقطع الأسباب بينهم ، يريهم - سبحانه - أعمالهم السيئة يوم القيامة فتكون حسرات تتردد فى صدورهم كأنها شرر الجحيم .

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان عاقبة أمرهم فقال :

أى : وماهم بخارجين من تلك النار التى عوقبوا بها بسبب شركهم ، بل هم مستقرون فيها استقرارًا أبديًا ، وقد جاءت الجملة اسمية لتأكيد نفى خروجهم من النار ، وبيان أنهم مخلدون فيها كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٢٣٨ .

وهكذا يسوق لنا القرآن ما يدور بين التابعين والمتبوعين يوم القيامة من حوار ومن تنصل وتحسر وتخاصم بتلك الطريقة المؤثرة ، حتى لكأنك أمام مشهد مجسم ، ترى فيه الصور الشاخصة حاضرة . وذلك لون من ألوان بلاغة القرآن فى عرضه للحقائق ، حتى تأخذ سبيلها إلى النفوس الكريمة ، وتؤتى ثمارها الطيبة فى القلوب السليمة .

(ب) وفى سورة « الأعراف » آيات كريمة تحكى لنا أن كل فريق من الضالين والكافرين يلعن الآخر ، ويلقى بالتبعة على غيره ، وتأمل قوله - تعالى - : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) ﴾ [الأعراف : ٣٧ - ٣٩]

أى : لا أحد أشد ظلما ممن افترى الكذب على الله - تعالى - بأن عبد غيره ، وأحل ماحرمه الله - تعالى - ، وحرم ما أحله ، أولئك الذين فعلوا ذلك يصيبهم نصيبهم الذى كتب عليهم من العذاب بسبب إيثارهم الكفر على الإيمان والغى على الرشد ، حتى إذا ما انتهت آجالهم وجاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم ، سألتهم سؤال توبيخ وتقريع : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدنيا ، وتزعمون أنها شفعاؤكم عند الله لكى تنقذكم من هذا الموقف العصيب ؟

وهنا يرد المكذبون للحق بكل حسرة وندامة فيقولون : هؤلاء الذين كنا نسميهم فى الدنيا آلهة قد غابوا عنا وصرنا لاندرى أين مكانهم ، ولا نرجو منهم خيرا أونفعا ، وشهد هؤلاء المكذبون على أنفسهم ، أنهم كانوا فى الدنيا كافرين بعبادة الله - تعالى - وحده .

وهنا يصدر قضاء الله العادل فيهم الذى قصه القرآن الكريم علينا فى قوله - تعالى- : ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ .. ﴾

أى : قال الله - تعالى - لأولئك الذين افتروا الكذب فى حياتهم : ادخلوا فى

ضمن أمم من الجن والإنس قد سبقتكم فى الكفر ، وشاركتكم فى الضلال ثم بين - سبحانه - بعض أحوالهم فقال : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾

أى : كلما دخلت أمة من أمم الكفر النار لعنت أختها فى الدين والملة . فالأمة المتبوعة تلعن الأمة التابعة ، لأنها زادتها ضلالا ، والأمة التابعة تلعن الأمة المتبوعة لأنها كانت سببا فى كفرها وفى عذابها .

ثم قال - تعالى - : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا ﴾ أى : حتى إذا ما اجتمعوا جميعا فى النار الرؤساء والأتباع ، والأغنياء والفقراء ، قالت أخراهم دخولا أو منزلة وهم الأتباع ، لأولاهم دخولا أو منزلة وهم الزعماء والمتبوعون : ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴾

أى : قال الأتباع : ياربنا هؤلاء الرؤساء هم السبب فى ضلالنا وهلاكنا ، فأذقهم ضعفا من عذاب النار لإضلالهم إيانا فضلا عن أنفسهم .

وهنا يأتيهم الجواب الذى يحمل لهم التهكم والسخرية ، فيقول الله لهم : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : لكل منكم ومنهم عذاب مضاعف من النار . أما أنتم فبسبب تقليدكم الأعمى ، وأما هم فبسبب إضلالهم لكم ولغيركم ، ولكنكم يا معشر المقلدين لا تعلمون ذلك لجهلكم وانطماس بصيرتكم .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله المتبوعون للتابعين فقال : ﴿ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

أى : وقال الزعماء لأتباعهم بعد أن سمعوا رد الله عليهم : إنا وإياكم متساوون فى استحقاق العذاب ، وكلنا فيه سواء ، لأنا لم نجبركم على الكفر ، ولكنكم أنتم الذين كفرتم باختياركم ، وضللتم بسبب جهلكم ، فذوقوا العذاب المضاعف مثلنا بسبب ما اكتسبتموه فى الدنيا من قبائح ومنكرات :

فقوله - تعالى - : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ بيان لأسباب الحكم عليهم .

وأنهم ما وردوا هذا المصير الأليم إلا بسبب ، ما اكتسبوه من آثام : و اجترحوه من سيئات .

(جـ) وفى سورة «إبراهيم» نجد حوارًا بين الضعفاء والزعماء من الكافرين ، كما نجد حوارًا بين الشيطان وبين هؤلاء الذين استحوذ عليهم فجعلهم يصرون على الكفر والفسوق والعصيان ، وينفرون من الإيمان والإحسان .

استمع إلى قوله – تعالى – : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [إبراهيم : ٢١ ، ٢٢]

وقوله – تعالى – : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ : من البروز بمعنى الظهور الذى لاخفاء معه ولا استتار أى : وخرج الكافرون جميعا من قبورهم يوم القيامة ، وظهروا ظهورا لاخفاء معه ، لكى يحاسبهم الله – تعالى – على أعمالهم فى الدنيا .

وقال – سبحانه – : ﴿ وبرزوا ﴾ بلفظ الفعل الماضى مع أن الحديث عن يوم القيامة ، للتنبيه على تحقق وقوع هذا الخروج ، وأنه كائن لا محالة .

وعبر – سبحانه – بهذا التعبير ، مع أنهم لا يخفون عليه سواء أبرزوا أم لم يبرزوا ، لأنهم كانوا فى الدنيا يستترون عن العيون عند اجتراحهم السيئات ويظنون أن ذلك يخفى على الله – عز وجل– .

ثم بين – سبحانه – ما يقوله الضعفاء للمستكبرين فى هذا الموقف العصيب فقال :

﴿ فقال الضعفاء ﴾ وهم العوام والأتباع الذين فقدوا نعمة التفكير ، ونعمة حرية الإرادة ، فهانوا وذلوا . .

قال هؤلاء الضعفاء ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم السادة المتبوعون الذين كانوا يقودون أتباعهم إلى طريق الغى والضلال .

﴿ إنا كنا لكم ﴾ – أيها السادة – ﴿ تبعا ﴾ جمع تابع كخادم وخدم .

أى : إنا كنا فى الدنيا تابعين لكم ، ومنقادين لأمركم ، فى تكذيب الرسل ، وفى كل ما تريدونه منا .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ للتقريع والتفجع . ومغنون من الإغناء بمعنى الدفاع والنصرة .

أى : فهل أنتم - أيها المستكبرون - دافعون عنا شيئا من عذاب الله النازل بنا ، حتى ولو كان هذا الشىء المدفوع قليلا ؟ إن كان فى إمكانكم ذلك فأظهروه لنا ، فقد كنتم فى الدنيا سادتنا وكبراءنا ، وكنتم تزعمون أنكم أصحاب الحظوة يوم القيامة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : أى فرق بين « من » فى « من عذاب الله » وبينه فى « شىء » ؟

قلت : الأولى للتبيين ، والثانية للتبعيض ، كأنه قيل : هل أنتم مغنون عنا بعض الشىء الذى هو عذاب الله ؟ ويجوز أن يكونا للتبعيض معا بمعنى : هل أنتم مغنون عنا بعض شىء هو بعض عذاب الله ؟ أى : بعض بعض عذاب الله »[1] .

ثم حكى - سبحانه - رد المستكبرين على المستضعفين فقال : ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾

أى : قال المستكبرون - بضيق وتحسر - فى ردهم على المستضعفين : لو هدانا الله - تعالى - إلى الإيمان الموصل إلى النجاة من هذا العذاب الأليم « لهديناكم » إليه ، ولكن ضللنا عنه وأضللناكم معنا ، واخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، ولو كنا نستطيع النفع لنفعنا أنفسنا .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾

والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده لشدة اضطرابه وذهوله .

يقال : جزع فلان يجزع جزعا وجزوعا ، إذا ضعف عن حمل ما نزل به ولم يجد صبرا .

والمحيص : المهرب والمنجى من العذاب . يقال : حاص فلان عن الشىء يحيص حيصا ومحيصا ، إذا عدل عنه على جهة الهرب والفرار .

أى : مستو عندنا الجزع مما نحن فيه من عذاب ، أو الصبر على ذلك ، وليس لنا من مهرب أو منجى من هذا المصير الأليم .

فالآية الكريمة تحكى أقوال الضعفاء يوم القيامة ، وهى أقوال يبدو فيها طابع الذلة

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٧٣ .

والمهانة كما هو شأنهم فى الدنيا ، كما تحكى رد المستكبرين عليهم ، وهو رد يبدو فيه التبرم والتفجع والتأنيب من طرف خفى لهؤلاء الضعفاء ، والتسليم بالواقع الأليم الذى لا محيص لهم عنه .

قال الإمام ابن كثير : « قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالوا ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله - تعالى - ، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله ، فبكوا وتضرعوا ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا : تعالوا ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر ، تعالوا حتى نصبر ، فصبروا صبرا لم ير مثله ، فلم ينفعهم ذلك . فعند ذلك قالوا : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ »(1)

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما يقوله الشيطان لأتباعه يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ .. ﴾ والمراد بالشيطان هنا : إبليس - لعنه الله - .

قال الفخر الرازى : «وأما الشيطان فالمراد به إبليس لأن لفظ الشيطان مفرد فيتناول الواحد ، وإبليس رأس الشياطين ورئيسهم ، فحمل اللفظ عليه أولى . ولا سيما وقد قال رسول الله ﷺ : «إذا جمع الله الخلق وقضى بينهم ، يقول الكافر : قد وجد المسلمون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ، ماهو إلا إبليس ، فهو الذى أضلنا ، فيأتونه ويسألونه فعند ذلك يقول هذا القول ..» (2) .

والمراد بقوله - سبحانه - ﴿ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ ﴾ أى : حين تم الحساب ، وعرف أهل الجنة ثوابهم ، وعرف أهل النار مصيرهم ، كل فريق فى المكان الذى أعده الله تعالى له . والمقصود من حكاية ما يقوله الشيطان للكافرين فى هذا اليوم . تحذير المؤمنين من وسوسته وإغوائه ، حتى ينجوا من العذاب الذى يحل بأتباعه يوم القيامة .

والمراد بالحق فى قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ : الصدق والوفاء بما وعدكم به على ألسنة رسله .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٠٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ١١٠ .

والمراد بالإخلاف فى قوله ﴿ ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ الكذب والغدر وعدم الوفاء بما مناهم به ، من أمانى باطلة .

قال - تعالى - : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [1] . وإضافة الوعد إلى الحق من إضافة الموصوف إلى الصفة أى إن الله - تعالى - وعدكم الوعد الحق الذى لا نقض له ، وهو أن الجزاء حق ، والبعث حق ، والجنة حق ، والنار حق ، ووعدتكم وعدا باطلا بأنه لا بعث ولا حساب . . فأخلفتكم ما وعدتكم به ، وظهر كذبى فيما قلته لكم . ثم أضاف إلى ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ . .

والسلطان : اسم مصدر بمعنى التسلط والقهر والغلبة .

أى : وما كان لى فيما وعدتكم به من تسلط عليكم ، أو إجبار لكم ، لكنى دعوتكم إلى ما دعوتكم إليه من باطل وغواية ، فانقدتم لدعوتى واستجبتم لوسوستى عن طواعية واختيار .

وقوله : ﴿ فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ زيادة فى تأنيبهم وفى حسراتهم على انقيادهم له .

أى : فلا تلومونى بسبب وعودى إياكم . ولوموا أنفسكم ، لأنكم تقبلتم هذه الوعود الكاذبة بدون تفكر أو تأمل ، وأعرضتم عن الحق الواضح الذى جاءكم من عند ربكم ، ومالك أمركم .

ثم ينفض يده منهم ، ويخلى بينهم وبين مصيرهم السيىء فيقول : ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ . أى : ما أنا بمغيثكم ومنقذكم مما أنتم فيه من عذاب ، وما أنتم بمغيثى مما أنا فيه من عذاب - أيضا - فقد انقطعت بيننا الأواصر والصلات . .

قال القرطبى ما ملخصه : « والصارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النصرة والمعاونة ، والمصرخ هو المغيث لغيره . . قال أمية بن أبى الصلت :

ولا تجزعا إنى لكم غير مصرخ ... وليس لكم عندى غناء ولا نصر

ويقال : صرخ فلان أى استغاث يصرخ صرخا وصرخة . .

ومنه : استصرخنى فلان فأصرخته ، أى استغاث بى فأغثته . . »[2] .

---

(1) سورة النساء الآية ١٢٠ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٣٥٧ .

وجملة ﴿ إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ مستأنفة ، لإظهار المزيد من التنصل والتبرى من كل علاقة بينه وبينهم . أى إنى كفرت بأفعالكم التى كنتم تفعلونها فى الدنيا ؛ وأولها عبادة غير الله - تعالى - .

وجملة ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فى موقع التعليل لما تقدم ، والظاهر أنها ابتداء كلام من جهته - تعالى - : لبيان سوء عاقبة الظالمين .

ويجوز أن تكون من تتمة كلام إبليس - الذى حكاه القرآن عنه - ، ويكون الغرض منها قطع أطماعهم فى الإغاثة أو النصر ، وتنبيه المؤمنين فى كل زمان ومكان إلى عداوة الشيطان لهم وتحذيرهم من اتباع خطواته .

قال الشيخ الشوكانى - رحمه الله - ما ملخصه : «لقد قام الشيطان للكافرين فى هذا اليوم مقاما يقصم ظهورهم ، ويقطع قلوبهم ، فأوضح لهم أولا : أن مواعيده التى كان يعدهم بها فى الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله - تعالى - وأنه أخلفهم ما وعدهم به . .

ثم أوضح لهم ثانيا : بأنهم قبلوا قوله بما لا يتفق مع العقل ، لعدم الحجة التى لا بد للعاقل منها فى قبول قول غيره .

ثم أوضح لهم ثالثا : بأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان ، الخالية عن أيسر شىء مما يتمسك به العقلاء .

ثم نعى عليهم رابعا : ما وقعوا فيه ، ودفع لومهم له ، وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم ، لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذى لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل .

ثم أوضح لهم خامسا : بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة . . بل هو مثلهم فى الوقوع فى البلية . .

ثم صرح لهم سادسا : بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له ، وهو إشراكه مع الله - تعالى - فتضاعفت عليهم الحسرات ، وتوالت عليهم المصائب .

وإذا كانت جملة ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ من تتمة كلامه - كما ذهب إليه البعض - فهو نوع سابع من كلامه الذى خاطبهم به ، فيكون قد أثبت لهم الظلم ، وذكر لهم جزاءه »[1] .

---

(١) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ١٠٤ .

هذا ، والمتأمل فى هاتين الآيتين الكريمتين يرى كيف يكون الحوار المؤلم والمخزى بين الأشرار .

(د) وفى سورة «القصص» آيات كريمة حكت لنا لونا آخر من حوار الأشرار فيما بينهم ، ومن حيرة الجميع عندما يسألون لماذا أعرضتم عن دعوة الحق التى جاءكم بها الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وانقدتم للباطل انقيادا لا تفكير معه ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى- :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) ﴾ [القصص: ٦٢ - ٦٦]

أى : واذكر - أيها المخاطب - حال أولئك الظالمين ، يوم يناديهم الله - تعالى - فيقول لهم : أين شركائى الذين كنتم فى الدنيا تزعمون أنهم شركائى فى العبادة ، لكى ينصروكم أو يدافعوا عنكم .

والمقصود بالاستفهام فى قوله - تعالى- ﴿ أين شركائى ﴾ الخزى والفضيحة ، إذ من المعلوم أنه لا شركاء لله - تعالى - لا فى ذاته ولا فى صفاته .

والمراد بالذين حق عليهم القول : رؤساء المشركين فى الشرك ، ودعاتهم إليه كالشياطين ومن يشبهونهم فى التحريض على الكفر والفسوق والعصيان .

أى : قال الرؤساء فى الكفر يا ربنا هؤلاء هم أتباعنا الذين أضللناهم ، نحن دعوناهم إلى الضلالة التى كنا عليها فأطاعونا فيما دعوناهم إليه ، وإنا قد تبرأنا إليك منهم ومن زعمهم أننا أجبرناهم على ذلك ، والحق أنهم ما كانوا يعبدوننا ، بل كانوا يعبدون ماسولته لهم أهواؤهم وشهواتهم الباطلة ، وقد وجه الله - تعالى - إليهم توبيخا آخر بأن قال لهم : اطلبوا من شركائكم الذين توهمتم فيهم النفع أن يشفعوا لكم ، فطلبوا منهم ذلك لشدة حيرتهم وذلتهم فلم يلتفتوا إليهم ، ورأى الأتباع والمتبوعون العذاب ، فتمنوا أن لو كانوا ممن هداهم الله - تعالى - إلى الصراط المستقيم فى الدنيا ، ولكن هذه الأمانى ذهبت سدى ، لأنهم حين زاغوا عن الحق أزاغ الله قلوبهم .

ثم وجه - سبحانه - إلى الجميع نداء آخر لا يقل عن سابقه فى الفضيحة والتقريع فقال :﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ؟

أى : فيقول لهم المنادى أيها الكافرون من الأتباع والمتبوعين بأى شىء أجبتم رسلكم حين أمروكم بإخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وحين نهوكم عن عبادة غيره؟

وهنا يحكى لنا القرآن أن هؤلاء الأشقياء قد وقفوا من الإجابة على هذه الأسئلة موقف الحائر المذهول المكروب ، كما قال - تعالى - : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴾

أى : فخفيت عليهم الحجج التى يجيبون بها على هذه الأسئلة ، وصاروا لشدة دهشتهم وذهولهم عاجزين عن أن يسأل بعضهم بعضا عن الإجابة .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد صورت لنا لونا آخر من الحوار السيئ المخزى الذى يجريه الأشرار فيما بينهم .

(هـ) وفى سورة «سبأ» نرى حوارا عنيفا يدور بين الضعفاء والكبراء ، إذ كل فريق منهم يلقى بالتهم على الآخر بذلة وحسرة ، حيث يقول الضعفاء للكبراء أنتم السبب فى هذا المصير المهين الذى وصلنا إليه ، فيرد الكبراء نحن لم نمنعكم من الإيمان ولكنكم أنتم الذين آثرتم الغى على الرشد .

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى لنا كل ذلك بأسلوبه المعجز فيقول :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ [سبأ : ٣١ - ٣٣]

والمراد بالذى بين يديه فى قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ : الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل .

قالوا : وذلك لأن المشركين سألوا بعض أهل الكتاب ، عن الرسول ﷺ فأخبروهم بأن صفاته فى التوراة والإنجيل فغضبوا وقالوا ما قالوا . .» (1) .

أى : وقال الذين كفروا بإصرار وعناد وجحود لكل ما هو حق : قالوا لن نؤمن بهذا القرآن الذى جئت به يا محمد ﷺ من عند ربك ، ولا نؤمن - أيضا - بالكتب السماوية الأخرى التى تؤيد أنك رسول من عند الله - تعالى - فالآية الكريمة تحكى ما جبل عليه هؤلاء الكافرون من تصميم على الباطل ، ومن نبذ للحق مهما تعددت مصادره .

قال الإمام الرازى : «لما بين - سبحانه - الأمور الثلاثة ، من التوحيد والرسالة والحشر ، وكانوا بالكل كافرين ، بيّن كفرهم العام بقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وقوله : ﴿ ولا بالذى بين يديه ﴾ المشهور أنه التوارة والإنجيل ، وعلى هذا فالمراد بالذين كفروا ، المشركون المنكرون للنبوات والحشر .

ويحتمل أن يكون المعنى : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بما فيه من الأخبار والآيات والدلائل ، فيكون المراد بالذى بين يديه ما اشتمل عليه من أخبار وأحكام - ويكون المراد بالذين كفروا عموم الكافرين بمن فيهم من أهل الكتاب ، لأن الجميع لا يؤمن بالقرآن ولا بما اشتمل عليه»(2) .

وقوله - تعالى - :﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ بيان لأحوالهم السيئة يوم القيامة ، ولإصرارهم على الكفر .

و ﴿ لو ﴾ شرطية ، وجوابها محذوف كما أن مفعول ﴿ ترى ﴾ محذوف أيضا و ﴿ موقوفون ﴾ أى محبوسون للحساب يوم القيامة .

يقال : وقفت الرجل عن فعل هذا الشىء ، إذا منعته وحجزته عن فعله .

أى : ولو ترى - أيها المخاطب - حال الظالمين وقت احتباسهم عند ربهم يوم القيامة ، وهم يتحاورون ويتجادلون فيما بينهم بالأقوال السيئة وكل فريق ، يلقى التبعة على غيره .

لو ترى ذلك لرأيت أمرا عجيبا ، وحالا فظيعة ، تنفطر لها القلوب ، وترتعد من هولها النفوس .

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ موقوفون ﴾ يشعر بذلتهم وبؤسهم ، فهم محبوسون للحساب على غير إرادة منهم ، كما يحبس المجرم فى سجنه انتظارا لمصيره السيئ .

---

(1) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٤٤ . (2) تفسير الفخر الرازى - بتصرف وتلخيص جـ ٧ ص ١٨ .

وقوله : ﴿عند ربهم﴾ تبكيت وتوبيخ لهم ، على ما كانوا يفعلونه فى الدنيا من إنكار لليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وحساب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ تفصيل لجانب من محاوراتهم فيما بينهم ، ولما كانوا يراجعون فيه القول بعضهم مع بعض .

والمراد بالذين استضعفوا : الأتباع والعامة من الناس ، والمراد بالذين استكبروا : الزعماء والقادة والرؤساء .

أى : يقول الأتباع من الكافرين لقادتهم ورؤسائهم بغيظ وحسرة : لولا أنتم منعتمونا عن اتباع الحق لكنا مؤمنين به ، ومتبعين لما جاء به الرسول ﷺ .

إنهم يقولون لهم فى موقف الحساب يوم القيامة ، ما كانوا عاجزين عن قوله فى الدنيا عندما كانوا مستذلين لهم ، وخاضعين لسلطانهم .

وهنا يرد الزعماء باستنكار وضيق ، ويحكى ذلك القرآن فيقول : ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾ كلا ، إننا ما فعلنا ذلك ، ولسنا نحن الذين حلنا بينكم وبين اتباع الحق .

﴿ بل﴾ أنتم الذين ﴿ كنتم مجرمين﴾ فى حق أنفسكم ، حيث اتبعتمونا باختياركم ، ورضيتم عن طواعية منكم أن تتبعوا غيركم بدون تفكر أو تدبر للأمور .

ولم يقتنع الأتباع بما رد به عليهم السادة والكبراء ، بل حكى القرآن للمرة الثانية ردهم عليهم فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ فى الرد عليهم بحسرة وألم : ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى قالوا لهم أنتم لستم صادقين فى قولكم لنا : إنكم لم تصدونا عن اتباع الهدى بعد إذ جاءنا بل إن مكركم بنا الليل والنهار وإغراءكم لنا بالبقاء على الكفر . وتهديدكم إيانا بالقتل أو التعذيب إذا ما خالفناكم وأمركم لنا بأن نكفر بالله - تعالى - ونجعل له أندادا ، أى شركاء فى العبادة والطاعة كل ذلك هو الذى حال بيننا وبين اتباع الحق الذي جاءنا به الرسول ﷺ .

والمكر : هو الاحتيال والخديعة . يقال مكر فلان بفلان ، إذا خدعه وأراد به شرا . وهو هنا فاعل لفعل محذوف والتقدير : بل الذى صدنا عن الإيمان مكركم بنا فى الليل والنهار ، فحذف المضاف إليه وأقيم مقامه الظرف اتساعا .

وقوله : ﴿ إذ تأمروننا . . ﴾ ظرف للمكر . أى : بل مكركم الدائم بنا وقت أمركم لنا بأن نكفر بالله ونجعل له أشباها ونظراء نعبدها من دونه - تعالى - هو الذى حال بيننا وبين اتباع الحق والهدى .

والضمير المرفوع فى قوله - سبحانه - : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ يعود إلى الأتباع والزعماء . وأسروا من الإسرار بمعنى الكتمان والإخفاء .

أى : وأضمر الذين استضعفوا والمستكبرون الندامة والحسرة حين شاهدوا العذاب المعد لهم جميعا ، وذلك لأنهم بهتوا وشدهوا حين عاينوه ، ودفنت الكلمات فى صدورهم فلم يتمكنوا من النطق بها وأصابهم ما أصابهم من الكمد الذى يجعل الشفاه لا تتحرك ، والألسنة لا تنطق .

فالمقصود من إسرار الندامة : بيان عجزهم الشديد عن النطق بما يريدون النطق به لفظاعة ما شهدوه من عذاب غليظ قد أعد لهم .

ثم بين - سبحانه - ما حل بهم من عذاب بسبب كفرهم فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

والأغلال . جمع غل وهى القيود التى يقيد بها المجرمون .

أى : وجعلنا القيود فى أعناق الذين كفروا جميعا ، سواء منهم من كان تابعا أم متبوعا . وما جزيناهم بهذا الجزاء المهين الأليم ، إلا بسبب أعمالهم السيئة . وأقوالهم القبيحة .

وهكذا نرى الآيات الكريمة تصور لنا تصويرا مؤثرا بديعا ، ما يكون عليه الكافرون يوم القيامة من حسرة وندم ، ومن عداوة وبغضاء ، ومن تهم يلقيها كل فريق على الآخر ، بدون احترام من المستضعفين لزعمائهم الذين كانوا يذلونهم فى الدنيا ، بعد أن سقطت وزالت الهيبة الزائفة التى كان الزعماء يحيطون بها أنفسهم فى الحياة الدنيا ، وأصبح الجميع يوم الحساب فى الذلة سواء ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ولايظلم ربك أحدا ﴾ .

(و) وفى سورة «الصافات» بضع عشرة آية قصت علينا جانبا من المحاورات التى تدور بين الأشرار عندما يساقون للحساب ، وعندما يرون سوء مصيرهم أمام أعينهم .

قال - تعالى - : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) ﴾ [الصافات : ٢٧ - ٣٩]

والضمير فى قوله - تعالى - :﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يعود إلى المشركين جميعا .

أى : وأقبل بعض الضعفاء ومعهم بعض الزعماء يتحاورون ويتساءلون ويتجادلون بعد أن رأوا جميعا مصيرهم الأليم .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله الضعفاء للزعماء فقال : ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ . وللمفسرين فى تأويل معنى اليمين هنا اتجاهات منها :

أن المراد باليمين هنا : الجهة التى هى جهة الخير واليمن : أى : قال الضعفاء للرؤساء : إنكم كنتم فى الدنيا توهموننا وتخدعوننا بالبقاء على ما نحن عليه من عبادة الأصنام والأوثان ، لأن بقاءنا على ذلك فيه الخير واليمن والسلامة . فأين مصداق ما قلتموه لنا وقد نزل بنا ما نزل من أهوال وآلام ؟

فالمقصود بالآية الكريمة بيان ما يقوله الأتباع للمتبوعين على سبيل الحسرة والندامة ، لأنهم خُدِعوا بوسوستهم ، وأصيبوا بالخيبة بسبب اتباعهم لهم .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : «اليمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما ، وكانوا يتيمنون بها ، فبها يصافحون ، ويماسحون ، ويناولون ويتناولون ، ويزاولون أكثر الأمور .

لما كانت كذلك استعيرت لجهة الخير وجانبه ، فقيل : أتاه عن اليمين ، أى من الخير وناحيته . .»[1] .

ومنهم من يرى أن المراد باليمين هنا : اليمين الشرعية التى هى القسم ، وعن بمعنى الباء .

أى : قالوا لهم : إنكم كنتم فى الدنيا تأتوننا بالأيمان المغلظة على أننا وأنتم على الحق فصدقناكم ، فأين نحن وأنتم الآن من هذه الأيمان المغلظة ؟ لقد ظهر كذبها وبطلانها ، وأنتم اليوم مسئولون عما نحن فيه من كرب .

ومنهم من يرى أن المراد باليمين هنا : القوة والغلبة . أى : أنكم كنتم فى الدنيا تجبروننا وتقسروننا على اتباعكم لأننا كنا ضعفاء وكنتم أقوياء .

والذى نراه أن الآية الكريمة تسع كل هذه الأقوال ، لأن الرؤساء أوهموا الضعفاء بأنهم على الحق ، وأقسموا لهم على ذلك ، وهددوهم بالقتل أو الطرد إن هم اتبعوا ما جاءهم به الرسول ﷺ .

ومقصود الضعفاء من هذا القول ، إلقاء المسئولية كاملة على الرؤساء ، توهما منهم أن هذا الإلقاء سيخفف عنهم شيئًا من العذاب .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك : أن الرؤساء قد ردوا عليهم بخمسة أجوبة .

أولها : ﴿ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : قال الرؤساء للأتباع : نحن لم نتسبب فى كفركم فى الدنيا ، بل أنتم الذين أبيتم الإيمان باختياركم ، وآثرتم عليه الكفر باختياركم - أيضا - فكفركم نابع من ذواتكم ، وليس من شىء خارج عنكم ، ولم يدخل الإيمان قلوبكم فى وقت من الأوقات .

فالجملة الكريمة إضراب إبطالى من المتبوعين ، عما ادعاه التابعون .

وثانيها : يتجلى فى قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أى : وما كان لنا عليكم من قوة أو غلبة تجبركم على البقاء فى الكفر والضلال ، ولكنكم أنتم الذين رضيتم بالكفر عن اختيار واقتناع منكم به .

وثالثها قوله - تعالى - : ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾ أى : نحن لم يكن لنا سلطان

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٩ .

عليكم ، بل أنتم الذين كنتم فى الدنيا قوما طاغين وضالين مثلنا . والطغيان مجاوزة الحد في كل شىء .

ورابعها : نراه فى قوله - سبحانه - : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ والفاء للتفريع على ما تقدم ، من كون الرؤساء لم يجبروا الضعفاء على البقاء فى الكفر .

أى : نحن وأنتم جميعا لم نكن مؤمنين أصلا . فكانت نتيجتنا جميعا ، أن استحققنا العذاب ، وأن لزمنا ما توعدنا به خالقنا من ذوق العذاب ، جزاء كفرنا وشركنا به -تعالى- .

وخامس هذا الأجوبة : بينه - سبحانه - فى قوله - حكاية عنهم - : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ .

أى : فدعوناكم للغواية والضلالة دعوة غير ملجئة ، فاستجبتم لنا باختياركم الغى على الرشد ﴿ إنا كنا غاوين ﴾ مثلكم ، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم فنحن ما أجبرناكم على اتباعنا ولكن أنتم الذين اتبعتمونا باختياركم .

وهكذا رد الرؤساء على الضعفاء فيما اتهموهم به من أنهم السبب فيما حل بهم من عذاب أليم يوم القيامة .

وهنا يبين - سبحانه - حكمه العادل فى الجميع ، فى الرؤساء والأتباع فيقول ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ .

أى : كما كانوا متشاركين فى الدنيا فى الغواية والضلالة ، فإنهم فى الآخرة مشتركون جميعا . فى حلول العذاب بهم ، وذوقهم لآلامه وسعيره .

فالضمير فى قوله ﴿ فإنهم ﴾ يعود للتابعين والمتبوعين ، لأنهم جميعا مستحقون للعذاب .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بالكافرين جميعا إلى هذا المصير السيئ فقال : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : مثل هذا العذاب الأليم نفعل بالمجرمين ، لأنهم أشركوا معنا غيرنا فى العبادة ، وآذوا رسلنا الذين جاءوا لهدايتهم وإرشادهم .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا ﴾ فى الدنيا ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ على سبيل النصيحة والدعوة إلى الحق ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن قبول هذه النصيحة ، ويعرضون عنها ، ويصرون على كفرهم وجحودهم للحق ، ويستكبرون عن النطق بكلمة الإيمان .

﴿ ويقولون ﴾ لمن نصحهم : ﴿ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ .

أى : ويقولون باستهزاء وغرور لمن دعاهم إلى الإيمان وإلى قول لا إله إلا الله ، يقولون له أتدعونا إلى أن نترك ما عليه آباؤنا وأجدادنا من عقائد وأفعال ، وإلى أن نتبع ما جاءنا به هذا الشاعر المجنون .

ويعنون بالشاعر المجنون - قبحهم الله - رسول الله ﷺ الذى أرسله الله - تعالى - لهدايتهم .

ولذا رد الله - تعالى - عليهم بقوله : ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

أى : ليس الرسول ﷺ شاعرا أو مجنونا ، كما زعمتم - أيها الجاهلون - ، بل هو رسول صادق فيما يبلغه عن ربه ، وقد جاءكم بالحق وهو دين التوحيد الذى دعا إليه جميع الرسل ، فكان مصدقا لهم فى الدعوة إليه . فكيف تزعمون أنه شاعر مجنون ؟

﴿ إنكم ﴾ . . أيها المشركون بسبب هذه المزاعم ﴿ لذائقو ﴾ فى هذا اليوم ﴿ العذاب الأليم ﴾ الذى يذلكم ويخزيكم ويجعلكم فى حزن دائم .

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : وما نجازيكم بهذا الجزاء الموجع المؤلم . إلا بسبب أعمالكم القبيحة في الدنيا .

وهكذا نجد الآيات الكريمة قد بينت لنا بأسلوب مؤثر بديع ، جانبا من المحاورات التى تدور بين الضعفاء والمستكبرين من المشركين يوم القيامة ، كما بينت لنا سوء مصير الجميع فى هذا اليوم الذى لا ينفع فيه إلا الإيمان والعمل الصالح .

(ز) وفى سورة «ص» نجد تصويرا بديعا لجانب من المحاورات والأقوال التى يتراشق بها الأشرار فيما بينهم ، وكيف أن كل جماعة منهم تسب الأخرى وتطلب لها المضاعفة من العذاب ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) ﴾ [ص : ٥٩ - ٦٤]

وقوله - تعالى - : ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ . . . ﴾ : حكاية لما يقوله أهل النار بعضهم لبعض على سبيل الندم والتحسر والتقريع .

والفوج : الجمع الكثير من الناس . والاقتحام : ركوب الشدة والدخول فيها . يقال : قحم فلان نفسه فى الأمر ، إذا رمى نفسه فيه من غير روية .

أى : قال الكفار بعضهم لبعض بعد أن رأوا غيرهم يلقى فى النار معهم على سبيل التأنيب والتفجع : هذا جمع كبير من أتباعكم وإخوانكم فى الضلال . ﴿ مقتحم معكم ﴾ أى داخل معكم النار وعلى غير اختيار منه . وإنما يساق إليها سوقا فى ذلة ومهانة .

وهنا يقول زعماء الكفر : ﴿ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُواْ النَّارِ ﴾أى : لا مرحبًا ولا أهلاً بهؤلاء الداخلين فى النار معنا ، لأنهم سيصلون سعيرها مثلنا ، ولن يستطيعوا أن يدفعوا شيئًا من حرها عنا . . .

فقوله ﴿ مرحبًا ﴾ مفعول به لفعل محذوف وجوبًا ، والتقدير : أتوا معنا لا مرحبًا بهم . والجملة دعائية لا محل لها من الإعراب أى : لا أتوا مكانا رحبًا بل ضيقًا .

وهنا يحكى القرآن رد الفوج المقتحم للنار معهم فيقول : ﴿ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ . . ﴾ .

أى : قال الداخلون فى النار وهم الأتباع لرؤسائهم : بل أنتم الذين لا مرحبًا بكم ، وإنما الضيق والهلاك لكم .

﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أى : لا مرحبًا بكم لأنكم أنتم أيها الزعماء الذين تسببتم لنا فى دخول النار معكم ، إذ دعوتمونا فى الدنيا إلى الكفر فاتبعناكم ، فبئس القرار والمنزل لنا ولكم جهنم .

فالجملة الكريمة تعليل لأحقية الرؤساء بدخول النار ، ويقولها الأتباع على سبيل التشفى منهم . ثم يضيفون إلى ذلك قولهم : ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ .

أى : يارينا من كان سببا فى نزول هذا العذاب بنا ، فزده عذابا مضاعفًا فى النار ، لأننا لولا هؤلاء الرؤساء وإضلالهم لنا ، لما صرنا إلى هذا المصير الأليم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - حكاية عنهم : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[1] .

---

(١)سورة الأحزاب الآيتان ٦٧ ، ٦٨

ثم حكى - سبحانه - ما يقوله أئمة الكفر، عندما يدورون بأعينهم فى النار ، فلا يرون المؤمنين الذين كانوا يستهزئون بهم فى الدنيا فقال : ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ ﴾ . أى : وقال رؤساء الكفر على سبيل التحسر والتعجب وهم ملقون فى النار ما لنا لا نرى معنا فى جهنم رجالاً من فقراء المؤمنين ، كنا نعدهم فى الدنيا من الأراذل الأخساء ، لسوء حالهم ، وقلة ذات يدهم .

ثم حكى القرآن ما سأله هؤلاء المشركون لأنفسهم عندما تلفتوا فى النار ، فلم يجدوا أحدًا من المؤمنين الذين كانوا يصفونهم بأنهم من الأشرار فقال : ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ ﴾ .

أى : إنهم بعد أن دخلوا النار أخذوا يدورون بأعينهم فيها فلم يروا المؤمنين الذين كانوا يستهزئون بهم فى الدنيا ، فقالوا فيما بينهم : ما بالنا لا نرى الرجال الذين كنا نسخر منهم فى الدنيا ، ألم يدخلوا معنا النار ؟ أم دخلوها ولكن أبصارنا لا تراهم وزاغت عنهم ؟ .

فهم يتحسرون على أحوالهم البائسة بعد أن وجدوا أنفسهم فى النار ، وليس معهم من كانوا يسخرون منهم فى الدنيا وهم فقراء المؤمنين .

أى : إن ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - من تخاصم أهل النار فيما بينهم وتلاعنهم . . حق لا شك فيه ، وثابت ثبوتًا لا يختلف عليه عاقلان .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ساقت بأبلغ بيان جانبا من تخاصم أهل النار فيما بينهم .

(ح) وفى سورة «غافر» جانب مما يدور بين أهل النار من مجادلات ومحاورات ، وكيف أن كل فريق منهم يتهم الآخر ، ويلتمس من الملائكة تخفيف العذاب عنه ، ولكنه لا يُلتفت إلى رجائه ، ولا تقبل معذرته ، واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك بأسلوبه المعجز فيقول : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [غافر: ٤٧ - ٥٠]

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - للناس لكى يعتبروا ويتعظوا ، وقت أن يتخاصم أهل النار فيما بينهم فيقول الضعفاء منهم للذين استكبروا فى الدنيا وكانوا رؤساء وقادة : إنا كنا لكم فى الدنيا تابعين ومنقادين لهواكم ، ومسخرين لخدمتكم .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ : للطلب المصحوب بالرجاء والاستجداء .

أى : فهل أنتم - أيها الزعماء تستطيعون أن تدفعوا عنا شيئا ولو قليلا من العذاب المهين الذى نزل بنا ، لأننا طالما دافعنا عنكم فى الدنيا وسرنا وراءكم دون تفكير أو معارضة ، فعليكم أن تستجيبوا لنا وأن تدافعوا عنا .

وهنا يرد عليهم المستكبرون ، بضيق وملل . ويحكى القرآن ذلك فيقول : ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ أى : للضعفاء .

﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ أى : إنا نحن وأنتم جميعا فى جهنم ، فكيف ندفع عنكم شيئا من العذاب ، وإننا لو كانت عندنا القدرة على دفع شىء من العذاب ، لدفعناه عن أنفسنا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ أى : إن الله - تعالى - قد حكم بين العباد بحكمه العادل ، فجعل للمؤمنين الجنة ، وجعل للكافرين النار وقدر لكل منا ومنكم عذابا لا تغنى فيه نفس عن نفس شيئا .

وبعد أن يئس الكل من نصرة بعضهم لبعض ، اتجهوا جميعا نحو خزنة جهنم لعلهم يشفعون لهم عند ربهم ، ويحكى القرآن : ذلك فيقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ وهم الملائكة المكلفون بتعذيب الكافرين .

قالوا لهم : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ أى : ادعوا ربكم أن يخفف عنا يوما واحدا من الأيام الكثيرة التى ينزل علينا العذاب فيها بدون انقطاع ، لعلنا فى هذا اليوم نستطيع أن نلتقط أنفاسنا التى مزقها العذاب الدائم .

وهنا يرد عليهم خزنة جهنم بقولهم : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى : قالوا لهم على سبيل التوبيخ والتأنيب : أو لم تك رسلكم في الدنيا تنذركم بسوء مصير الكافرين . وتأتيكم بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقهم .

﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أى : قال الكافرون لخزنة جهنم : بلى أتونا بكل ذلك فكذبناهم .

وهنا رد عليهم الخزنة بقولهم : مادام الأمر كما ذكرتم من أن الرسل قد نصحوكم ولكنكم أعرضتم عنهم ﴿ فادعوا ﴾ ماشئتم فإن الدعاء والطلب والرجاء لن ينفعكم شيئا .

﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾ أى : وما دعاء الكافرين وتضرعهم إلا فى ضياع وخسران .

وبعد : فهذه نماذج وصور للمحاورات والمجالات والمناقشات التى تدور بين الأشرار يوم القيامة ، وكلها تدل على أنهم يعضون بنان الندم على إجرامهم فى حق أنفسهم ، وعلى تكذيبهم لرسلهم ، وعلى استماعهم ، وانقيادهم للهوى وللشيطان ، كما تدل على أن الله - تعالى - لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون . .

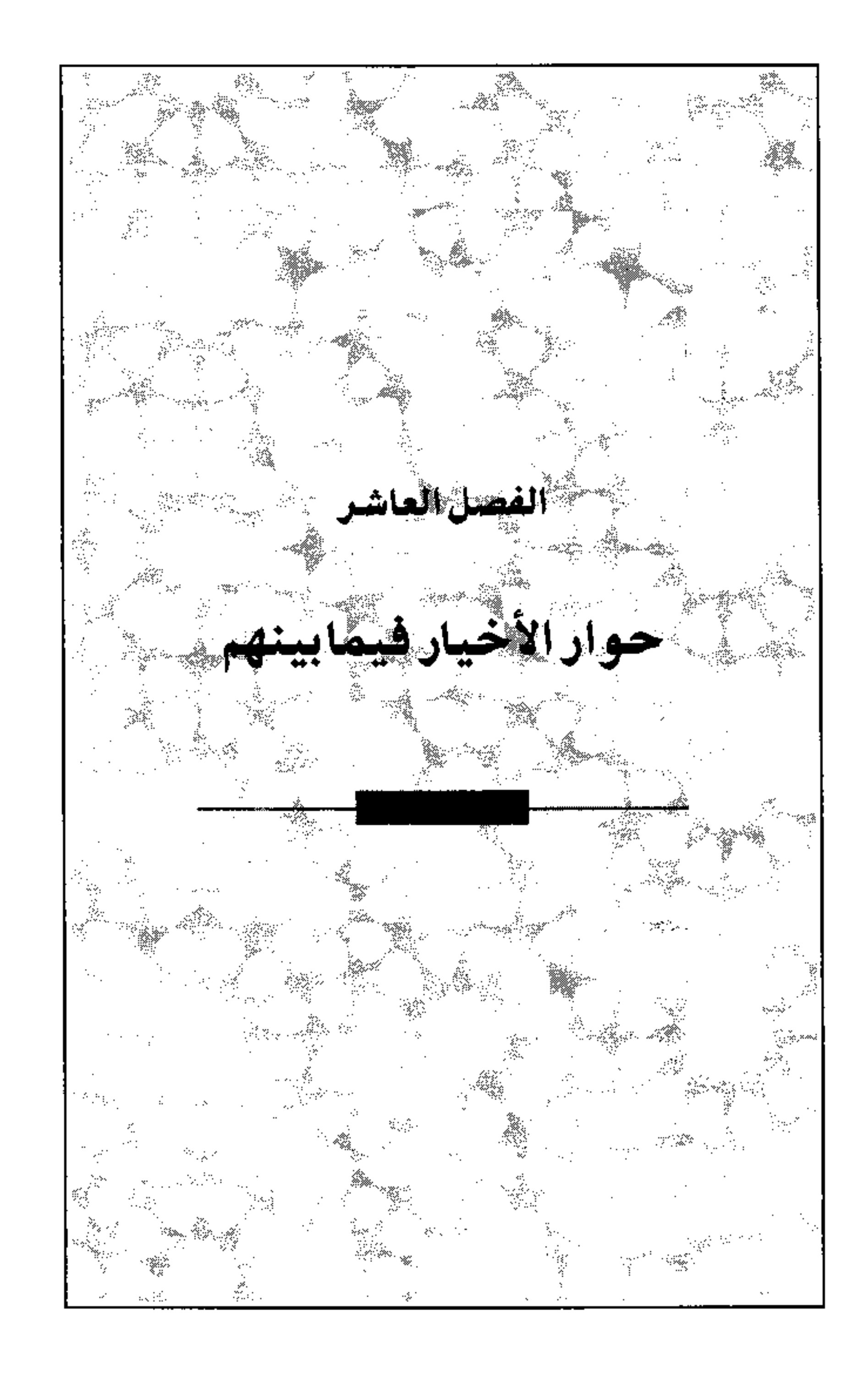
والمقصود الأكبر من إيراد هذه المحاورات الكثيرة فى القرآن الكريم : تذكير الناس بأن ما ينفعهم يوم القيامة هو إيمانهم وعملهم الصالح ، أما الأحساب والأنساب والأموال والمناصب فلا وزن لها فى هذا اليوم العصيب

وبهذا التذكير والتوجيه والإرشاد يزداد العقلاء إيمانا على إيمانهم ، وصلاحا على صلاحهم ، وإحسانا على إحسانهم ، وطاعة على طاعتهم . .

أما الأشرار والسفهاء والجهلاء الذين انقادوا للهوى والشيطان ، فستكون عاقبتهم الخسران ، إلا إذا تابوا وأصلحوا وبينوا ، فالله تعالى - برحمته الواسعة عسى أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا .

* * *





الفصل العاشر

حوار الأخيار فيما بينهم

كما ساق القرآن الكريم نماذج للمحاورات التى دارت بين العقلاء والسفهاء ، أو بين الأشرار فيما بينهم - كما سبق أن ذكرنا ، ساق - أيضا - نماذج متنوعة للمحاورات التى دارت بين الأخيار العقلاء فيما بينهم ، مما يدل على رجاحة عقولهم ، وسمو أخلاقهم ، وطهارة قلوبهم ، وصدق إيمانهم ، واستقامة أخلاقهم ، وشكرهم لخالقهم - عز وجل - على ما منحهم من نعم لا تحصى .

(ا) ومن صور المحاورات التى حكاها القرآن الكريم ، والتى دارت بين العقلاء الأخيار فيما بينهم ، ما قاله إبراهيم لابنه إسماعيل - عليهما السلام - وما رد به هذا الإبن البار الوفى على أبيه . .

لقد حكى لنا القرآن الكريم فى سور متعددة ما دار بين إبراهيم وبين قومه من مجادلات ومحاورات ومناقشات انتهت إلى الإلقاء به فى النار بعد أن بين لهم بالدليل الواضح والبرهان الساطع أن تلك الأصنام التى يعبدونها من دون الله لا تنفع ولا تضر بل هى تستحق التحطيم والتحقير ، وقد نفذ ذلك فعلا فى تلك الأوثان كما فى قوله- تعالى - : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) ﴾ [الصافات : ٩١ - ١١١]

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يرى أن إبراهيم - عليه السلام - قد حاور قومه محاورة حكيمة فيها البراهين الساطعة على أن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - ، وأنه - عليه السلام - بعد أن نجاه الله تعالى - من مكر أعدائه ، توجه إلى خالقه - عز وجل - بالدعاء ، ملتمسا منه - سبحانه - الذرية الصالحة فماذا قال ؟

قال - عليه السلام - ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ : أى وأسألك ياربى بجانب هدايتك لى الى الخير والحق ، أن تهب لى ولدا هو من عبادك الصالحين ، الذين أستعين بهم على نشر دعوتك ، وعلى إعلاء كلمتك .

وأجاب الله - تعالى - دعاء عبده إبراهيم ، كما حكى ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ أى : فاستجبنا لإبراهيم دعاءه فبشرناه على لسان ملائكتنا بغلام موصوف بالحلم ولمكارم الأخلاق .

وأجاب الله - تعالى - دعاء إبراهيم ، كما حكى ذلك فى قوله : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ .

أى : فاستجبنا لإبراهيم دعاءه فبشرناه على لسان ملائكتنا بغلام موصوف بالحلم وبمكارم الأخلاق .

قال صاحب الكشاف : «وقد انطوت البشارة على ثلاثة : على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ أوان الحلُم ، وأنه يكون حليما»[1] .

وهذا الغلام الذى بشره الله - تعالى - به . المقصود به هنا إسماعيل - عليه السلام- والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ فصيحة ، أى : بشرناه بهذا الغلام الحليم ، ثم عاش هذا الغلام حتى بلغ السن التى فى إمكانه أن يسعى معه فيها ، ليساعده فى قضاء مصالحه .

قيل : كانت سن إسماعيل في ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ .

أى : فلما بلغ الغلام مع أبيه هذه السن ، قال الأب لابنه : يابنى إنى رأيت فى منامى أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى فى شأن نفسك .

قال الآلوسى ما ملخصه : «يحتمل أنه - عليه السلام - رأى فى منامه أنه فعل ذلك . . ويحتمل أنه رأى ما تأويله ذلك ، ولكنه لم يذكره وذكر التأويل ، كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب سفينة : رأيت فى المنام أنى ناج من هذه المحنة .

ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة ، وفى رواية أنه رأى ذلك فى ليلة التروية

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٣ .

فأخذ يفكر فى أمره ، فسميت بذلك ، فلما رأى ما رآه سابقا عرف أن هذه الرؤيا من الله ، فسمى بيوم عرفة ، ثم رأى مثل ذلك فى الليلة الثالثة فهمّ بنحره فسمى بيوم النحر .

ولعل السر فى كونه مناما لا يقظة ، أن تكون المبادرة إلى الامتثال ، أدل على كمال الانقياد والإخلاص . .»[1] .

وإنما شاوره بقوله : ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ مع أنه سينفذ ما أمره الله - تعالى - به فى منامه سواء أرضى إسماعيل أم لم يرض ، لأن فى هذه المشاورة إعلاما له بما رآه ، لكى يتقبله بثبات وصبر ، وليكون نزول هذا الأمر عليه أهون ، وليختبر عزمه وجلده .

وقوله : ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ حكاية لما رد به إسماعيل على أبيه إبراهيم - عليهما السلام - وهو رد يدل على علو كعبه في الثبات ، وفى احتمال البلاء ، وفى الاستسلام لقضاء الله وقدره .

أى : قال الابن لأبيه : يا أبت افعل ما تؤمر به من قبل الله - تعالى - ولا تتردد فى ذلك وستجدنى إن شاء الله من الصابرين على قضائه .

وفى هذا الرد ما فيه من سمو الأدب ، حيث قدم مشيئة الله - تعالى - ، ونسب الفضل إليه ، واستعان به - سبحانه - فى أن يجعله من الصابرين على البلاء .

وهكذا الأنبياء - عليهم السلام - يلهمهم الله - تعالى - فى جميع مراحل حياتهم ما يجعلهم فى أعلى درجات السمو النفسى ، واليقين القلبى . والكمال الخلقى .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما كان من الابن وأبيه فقال : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ وأسلما : بمعنى استسلما وانقادا لأمر الله ، فالفعل لازم ، أو بمعنى : سلّم الذبيح نفسه وسلم الأب ابنه ، فيكون متعديا والمفعول محذوف .

وقوله ﴿ وتلّه ﴾ أى : صرعه وأسقطه ، وأصل التل : الرمى على التّل وهو الرمل الكثيف المرتفع ، ثم عمم فى كل رمى ودفع ، يقال : تلّ فلان فلانا إذا صرعه وألقاه على الأرض .

والجبين : أحد جانبى الجبهة ، وللوجه جبينان ، والجبهة بينهما .

أى : فلما استسلم الأب والابن لأمر الله - تعالى - وصرع الأب ابنه على شقه ،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ١٢٩ .

وجعل جبينه على الأرض ، واستعد الأب لذبح ابنه .. كان ما كان منا من رحمة بهما . ومن إكرام لهما ، ومن إعلاء لقدرهما .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : أين جواب لما ؟ قلت : هو محذوف تقديره : فلما أسلما وتله للجبين ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ﴾ كان ما كان مما تنطق به الحال ، ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما ، وحمدهما لله ، وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، وما اكتسبا فى تضاعيفه من الثواب ، ورضوان الله الذى ليس وراءه مطلوب ..»[١] .

وقد ذكروا هنا آثارا منها «أن إسماعيل – عليه السلام – لما هم أبوه بذبحه قال له : يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب ، واكفف عنى ثيابك حتى لا يتناثر عليها شيء من دمى فتراه أمى فتحزن ، وأسرع مرّ السكين على حلقى ليكون أهون للموت علىّ ، فإذا أتيت أمى فاقرأ عليها السلام منى .. وكان ذلك عند الصخرة التى بمنى ..»[٢] .

وقوله – سبحانه – : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ﴾ أى : وعندما صرع إبراهيم ابنه ليذبحه ، واستسلما لأمرنا .. نادينا إبراهيم بقولنا ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ﴾ أى : قد فعلت ما أمرناك به ، ونفذت ما رأيته فى رؤياك تنفيذا كاملا ، يدل على صدقك فى إيمانك ، وعلى قوة إخلاصك .

قال الجمل : «فإن قلت : كيف قال الله – تعالى – لإبراهيم : قد صدقت الرؤيا وهو إنما رأى أن يذبح ابنه ، وما كان تصديقها إلا لو حصل منه الذبح ؟

قلت : جعله الله مصدقا لأنه بذل جهده ووسعه ، وأتى بما أمكنه ، وفعل ما يفعله الذابح ، فأتى بالمطلوب ، وهو انقيادهما لأمر الله»[٣] .

وجملة ﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ تعليل لما قبلها . أى : فعلنا ما فعلنا من تفريج الكرب عن إبراهيم وإسماعيل ، لأن سنتنا قد اقتضت أن نجازى المحسنين الجزاء الذى يرفع درجاتهم ، ويفرج كرباتهم ، ويكشف الهم والغم عنهم .

واسم الإشارة في قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴾ يعود إلى ما ابتلى الله – تعالى – به نبيه إبراهيم وإسماعيل .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٥ . (٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ١٣٠ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٤٨ .

أى : إن هذا الذى ابتلينا به هذين النبيين الكريمين ، لهو البلاء الواضح ، والاختيار الظاهر ، الذى به يتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، والذى لا يحتمله إلا أصحاب العزائم العالية ، والقلوب السليمة ، والنفوس المخلصة لله رب العالمين ،

ثم بين – سبحانه – مظاهر فضله على هذين النبيين الكريمين فقال : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ والذبح بمعنى المذبوح فهو مصدر بمعنى اسم المفعول كالطحن بمعنى المطحون .

أى : وفدينا إسماعيل –عليه السلام – بمذبوح عظيم فى هيئته ، وفى قدره ، لأنه من عندنا ، وليس من عند غيرنا .

قيل : افتداه الله – تعالى – بكبش أبيض ، أقرن ، عظيم القدر .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) ﴾ .

أى : ومن مظاهر فضلنا وإحساننا وتكريمنا لنبينا إبراهيم – أننا أبقينا ذكره الحسن فى الأمم التى تأتى من بعده ، . وجعلنا التحية والسلام منا ومن المؤمنين عليه إلى يوم الدين ، ومثل هذا الجزاء نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا الصادقين فى إيمانهم ، وهكذا يتحاور العقلاء بالكلام الطيب ، وبالوفاء العظيم .

(ب) كذلك من صور المحاورات التى قصها علينا القرآن الكريم ، والتى تمت بين العقلاء الأخيار فيما بينهم : تلك المحاورات التى دارت بين موسى – عليه السلام – وبين الرجل الصالح الذى آتاه الله – تعالى – علما من لدنه وهو الخضر – رحمه الله .

ففى الصحيحين عن أبى بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن موسى – عليه السلام – قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعاتبه الله – تعالى – على ما قاله ، لأنه لم يُرجع العلم إليه –سبحانه– ، فأوحى الله إليه : إن لى عبدا بمجمع البحرين أكثر منك علما »

وفى رواية أخرى عن أبى كعب – أيضا – عن رسول الله ﷺ أن موسى – عليه السلام – سأل ربه فقال : يارب إن كان فى عبادك أحد هو أعلم منى فدلنى عليه . فقال له – سبحانه – : نعم فى عبادى من هو أعلم منك . ثم وصف له مكانه وأذن له فى لقائه .

وأعد موسى – عليه السلام – عدته للسفر إلى المكان الذى فيه الخضر ، وأخذ معه فى سفره صاحبه يوشع بن نون ، الذى كان ملازما له ليأخذ عنه العلم ، وبعد رحلة شاقة وصل موسى وفتاه إلى العبد الصالح الخضر «فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما» .

وهنا دارت محاورات حكيمة بين موسى – عليه السلام – وبين الخضر ، وقد حكى القرآن ما دار بينهما فى قوله – تعالى – : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾ [الكهف : ٦٦ – ٨٢]

أى : قال موسى للخضر - عليهما السلام - بعد أن التقيا «هل أتبعك» أى : هل تأذن لى فى مصاحبتك واتباعك . بشرط أن تعلمنى من العلم الذى علمك الله إياه : شيئا أسترشد به فى حياتى ، وأصيب به الخير فى دينى .

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد راعى فى مخاطبته للخضر أسمى ألوان الأدب اللائق بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - حيث خاطبه بصيغة الاستفهام الدالة على التلطف ، وحيث أنزل نفسه منه منزلة المتعلم من المعلم ، وحيث استأذنه فى أن يكون تابعا له ، ليتعلم منه الرشد والخير .

قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم ، وإن تفاوتت المراتب ، ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل ، وقد يأخذ الفاضل عن المفضول ، إذا اختص الله - تعالى - أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر ، فقد كان علم موسى يتعلق بالأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر يتعلق ببعض الغيب ومعرفة البواطن ..[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به الخضر على موسى فقال : ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ .

أى : قال الخضر لموسى إنك يا موسى إذا اتبعتنى ورافقتنى ، فلن تستطيع معى صبرا ، بأى وجه من الوجوه .

قال ابن كثير : «أى أنك لا تقدر يا موسى أن تصاحبنى ، لما ترى من الأفعال التى تخالف شريعتك ، لأنى على علم من علم الله - تعالى - ما علمك إياه ، وأنت على علم من علم الله - تعالى - ما علمنى إياه ، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه ، وأنت لا تقدر على صحبتى»[2] .

وقوله : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ تعليل لعدم استطاعة الصبر معه .

أى : وكيف تصبر يا موسى على أمور ستراها منى . هذه الأمور ظاهرها أنها منكرات لا يصح السكوت عليها ، وباطنها لا تعلمه لأن الله لم يطلعك عليه ؟

فالخبر بمعنى العلم . يقال : خبر فلان الأمر يخبره : أى : علمه . والاسم الخبر ، وهو العلم بالشىء ، ومنه الخبير ، أى : العالم .

---

(١) تفسير فتح البيان جـ ٥ ص ٤٧٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٧٨ .

وكأن الخضر يريد بهذه الجملة الكريمة أن يقول لموسى : إنى واثق من أنك لن تستطيع معى صبرا ، لأن ما أفعله سيصطدم بالأحكام الظاهرة ، وبالمنطق العقلى ، وبغيرتك المعهودة فيك ، وأنا مكلف أن أفعل ما أفعل ، لأن المصلحة الباطنة فى ذلك ، وهى تخفى عليك .

ولكن موسى - عليه السلام - الحريص على تعلم العلم النافع ، يصر على مصاحبة الرجل الصالح ، فيقول له فى لطف وأدب ، مع تقديم مشيئة الله - تعالى - :

﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ .

أى : قال موسى للخضر : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ معك ، غير معترض عليك ، ولا أعصى لك أمرا من الأمور التى تكلفنى بها .

وقدم موسى - عليه السلام - المشيئة ، أدبا مع خالقه - عز وجل - واستعانة به - سبحانه - على الصبر وعدم المخالفة .

وهنا يحكى القرآن الكريم أن الخضر ، قد أكد ما سبق أن قاله لموسى ، وبين له شروطه إذا أراد مصاحبته ، فقال : ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

أى : قال الخضر لموسى على سبيل التأكيد والتوثيق : يا موسى إن رافقتنى وصاحبتنى ، ورأيت منى أفعالا لا تعجبك ، لأن ظاهرها يتنافى مع الحق ، فلا تعترض عليها ، ولا تناقشنى فيها ، بل اتركنى وشأنى ، حتى أبين لك فى الوقت المناسب السبب فى قيامى بتلك الأفعال ، وحتى أكون أنا الذى أفسره لك .

قالوا : «وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضى دوام الصحبة ، فلو صبر موسى ودأب لرأى العجب»[1] .

ثم تحكى السورة بعد ذلك ثلاثة أحداث فعلها الخضر ولكن موسى لم يصبر عليها ، بل اعترض وناقش ، أما الحادث الأول فقد بينه - سبحانه - بقوله : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١٨ .

أى : فانطلق موسى والخضر - عليهما السلام - على ساحل البحر ، ومعهما يوشع ابن نون ، ولم يذكر فى الآية لأنه تابع لموسى .

ويرى بعضهم أن موسى - عليه السلام - صرف فتاه بعد أن التقى بالخضر .

أخرج الشيخان عن ابن عباس : أنهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نَوْلٍ : أى أجر[1] .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ بيان لما فعله الخضر بالسفينة .

أى : فانطلقا يبحثان عن سفينة ، فلما وجداها واستقرا فيها ، ما كان من الخضر إلا أن خرقها . قيل : بأن قلع لوحا من ألواحها .

وهنا ما كان من موسى إلا قال له على سبيل الاستنكار والتعجب مما فعله : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ . أى : أفعلت ما فعلت لتكون عاقبة الراكبين فيها الغرق والموت بهذه الصورة المؤلمة ؟

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ ، والإمر : الداهية . وأصله كل شىء شديد كبير ، ومنه قولهم : إن القوم قد أَمِرُوا . أى : كثُروا واشتد شأنهم . ويقال : هذا أَمْرٌ إِمْرٌ ، أى : منكر غريب .

أى : قال موسى للخضر بعد خرقه للسفينة : لقد جئت شيئا عظيما ، وارتكبت أمرا بالغا فى الشناعة ، حيث عرضت ركاب السفينة لخطر الغرق .

وهنا أجابه الخضر بقوله : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أى : ألم أقل لك سابقا إنك لن تستطيع مصاحبتى ، ولا قدرة لك على السكوت على تصرفاتى التى لا تعرف الحكمة من ورائها ؟

ولكن موسى - عليه السلام - رد معتذرا لما فرط منه وقال : ﴿ لا تؤاخذنى ﴾ أيها العبد الصالح ، بما نسيت ، أى : بسبب نسيانى لوصيتك فى ترك السؤال والاعتراض حتى يكون لى منك البيان ، ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ . أى : ولا تكلفنى من أمرى مشقة فى صحبتى إياك .

يقال : أرهق فلان فلانا . إذا أتعبه وأثقل عليه وحمله ما لا يطيقه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٣٣٥ .

والمراد : التمس لى عذرا بسبب النسيان ، ولا تضيق علىّ الأمر ، فإن فى هذا التضييق ما يحول بينى وبين الانتفاع بعلمك .

وكأن موسى - عليه السلام - الذى اعتزم الصبر وقدم المشيئة ، ورضى بشروط الخضر فى المصاحبة . . كأنه قد نسي كل ذلك أمام المشاهدة العملية ، وأمام التصرف الغريب الذى صدر من الخضر دون أن يعرف له سببا .

وهكذا الطبيعة البشرية تلتقى فى أنها تجد للتجربة العملية وقعا وطعما ، يختلف عن الواقع والطعم الذى تجده عند التصور النظرى .

فموسى - عليه السلام - وعد الخضر بأنه سيصبر . . إلا أنه بعد أن شاهد ما لا يرضيه اندفع مستنكرا .

أما الحادث الثانى الذى لم يستطع موسى أن يقف أمامه صامتا ، فقد حكاه القرآن فى قوله : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ ﴾ .

أى : فانطلق موسى والخضر للمرة الثانية بعد خروجهما من السفينة ، وبعد أن قبل الخضر اعتذار موسى .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا ﴾ فى طريقهما ، ما كان من الخضر إلا أن أخذه ﴿ فقتله ﴾ .

وهنا لم يستطع موسى - عليه السلام - أن يصبر على ما رأى ، أو أن يكظم غيظه ، فقال باستنكار وغضب : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ أى : طاهرة بريئة من الذنوب ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أى : بغير أن ترتكب ما يوجب قتلها ، لأنها لم تقتل غيرها حتى تقتص منها . أى : إن قتلك لهذا الغلام كان بغير حق .

﴿ لَّقَدْ جِئْتَ ﴾ أيها الرجل ﴿شيئا نكرا﴾ أى : منكرًا عظيمًا . يقال : نكر الأمر ، أى : صعب واشتد . والمقصود : لقد جئت شيئا أشد من الأول فى فظاعته واستنكار العقول له .

ومرة أخرى يذكره الخضر بالشرط الذى اشترطه عليه . وبالوعد الذى قطعه على نفسه فيقول له : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ .

وفى هذه المرة لا يكتفى الخضر بقوله : ﴿ أَلَمْ أَقُل إِنَّكَ . . ﴾ بل يضيف لفظ «لك» ، زيادة فى التحديد والتعيين والتذكير .

أى : ألم أقل لك أنت يا موسى لا لغيرك على سبيل التأكيد والتوثيق : إنك لن تستطيع معى صبرا ، لأنك لم تحط علما بما أفعله .

ويراجع موسى نفسه . فيجد أنه قد خالف ما اتفق عليه مع الرجل الصالح مرتين ، فيبادر بإخبار صاحبه أن يترك له فرصة أخيرة فيقول : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ ﴾ أيها الصديق ﴿ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أى : بعد هذه المرة الثانية ﴿ فَلا تُصَاحِبْنِي ﴾أى : فلا تجعلنى صاحبا أو رفيقا لك ﴿ فإنك قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ أى : فإنك قد بلغت الغاية التى تكون معذورا بعدها فى فراقى ، لأنى أكون قد خالفتك مرارًا .

وهذا الكلام من موسى - عليه السلام - يدلك على اعتذاره الشديد للخضر ، وعلى شدة ندمه على ما فرط منه ، وعلى الاعتراف له بخطئه .

قال القرطبى : «كان رسول الله ﷺ إذا دعا لأحد بدأ بنفسه فقال يوما : «رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب ، ولكنه قال : ﴿ إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى . . ﴾»[1] .

ثم تسوق لنا السورة الكريمة الحادث الثالث والأخير فى تلك القصة الزاخرة بالمفاجآت والعجائب فتقول : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا . . . ﴾ .

أى : فانطلق موسى والخضر - عليهما السلام - يتابعان سيرهما . حتى إذا أتيا أهل قرية قيل هى «أنطاكيه» ، وقيل : هى قرية بأرض الروم .

﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ ، والاستطعام : سؤال الطعام . والمراد به هنا سؤال الضيافة لأنه هو المناسب لمقام موسى والخضر - عليهما السلام - ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ يشهد له .

أى : فأبى وامتنع أهل تلك القرية عن قبول ضيافتهما بخلا منهم وشحا .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ معطوف على ﴿ أتيا ﴾ أى : وبعد أن امتنع أهل القرية عن استضافتهما ، تجولا فيها ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا ﴾ أى : بناء مرتفعا ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ أى : ينهدم ويسقط ﴿ فأقامه ﴾ أى : الخضر بأن سواه وأعاد إليه اعتداله ، أو بأن نقضه وأخذ فى بنائه من جديد .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٣ .

وهنا لم يتمالك موسى – عليه السلام – مشاعره ، لأنه وجد نفسه أمام حالة متناقضة ، قوم بخلاء أشحاء لا يستحقون العون . . ورجل يتعب نفسه فى إقامة حائط مائل لهم . . هلا طلب منهم أجرا على هذا العمل الشاق ، خصوصا وهما جائعان لا يجدان مأوى لهما فى تلك القرية !

لذا بادر موسى – عليه السلام – ليقول للخضر : ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ . أى : هلا طلبت أجرا من هؤلاء البخلاء على هذا العمل ، حتى تنتفع به ، وأنت تعلم أننا جائعان وهم لم يقدموا لنا حق الضيافة .

فالجملة الكريمة تحريض من موسى للخضر على أخذ الأجر على عمله ، ولوم له على ترك هذا الأجر مع أنهما فى أشد الحاجة إليه .

وكان هذا التحريض من موسى للخضر – عليهما السلام – هو نهاية المرافقة والمصاحبة بينهما ، ولذا قال الخضر لموسى : ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أى : هذا الذى قلته لى يجعلنا نفترق ، لأنك قد قلت لى قبل ذلك : ﴿إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى﴾ وها أنت تسألنى وتحرضنى على أخذ الأجر .

ومع ذلك فانتظر : سأنبئك ، قبل مفارقتى لك ﴿بتأويل﴾ أى : بتفسير وبيان ما خفى عليك من الأمور الثلاثة التى لم تستطع عليها صبرا ، لأنك لم يكن عندك ما عندى من العلم بأسرارها الباطنة التى أطلعنى الله – تعالى – عليها .

ثم حكى القرآن الكريم ما قاله الخضر لموسى – عليهما السلام – فى هذا الشأن فقال – تعالى – : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ . .﴾ .

أى : قال الخضر لموسى : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التى خرقتها ولم ترض عنه ، ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ أى : لضعفاء من الناس لا يستطيعون دفع الظلم عنهم ، ولم يكن لهم مال يتعيشون منه سواها ، فكان الناس يركبون فيها ويدفعون لهؤلاء المساكين الأجر الذين ينتفعون به .

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أى : أن أجعلها ذات عيب بالخرق الذى خرقتها فيه ، ولم أرد أن أغرق أهلها كما ظننت ياموسى ، والسبب فى ذلك : أنه ﴿كَانَ وَرَاءَهُم

مَّلِكٌ ﴾ ، ظالم ، من دأبه أن يتعقب السفن الصالحة الصحيحة ، ويستولى عليها ، ويأخذها اغتصابا وقسرا من أصحابها .

فهذا العيب الذى أحدثته فى السفينة ، كان سببا فى نجاتها من يد الملك الظالم ، وكان سببا فى بقائها فى أيدى أصحابها المساكين .

فالضرر الكبير الذى أحدثته بها ، كان دفعا لضرر أكبر كان ينتظر أصحابها المساكين لو بقيت سليمة .

وظاهر قوله – تعالى – : ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ ، يفيد أن هذا الملك كان يأخذ كل سفينة سواء أكانت صحيحة أم معيبة ، ولكن هذا الظاهر غير مراد . وإنما المراد : يأخذ كل سفينة سليمة . بدليل : فأردت أن أعيبها ، أى : لكى لا يأخذها ، ومن هنا قالوا : إن لفظ « سفينة » هنا موصوف لصفة محذوفة . أى : يأخذ كل سفينة صحيحة .

و ﴿ غصبا ﴾ منصوب على أنه مصدر مبين لنوع الأخذ . والغصب – من باب ضرب– : أخذ الشىء ظلما وقهرا .

ثم بين – سبحانه – ما رد به الخضر على موسى فى اعتراضه على الحادثة الثانية فقال – تعالى – : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ . . . ﴾ .

أى : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ ﴾ الذى سبق لى أن قتلته ، واعترضت علىَّ فى قتله يا موسى ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ ولم يكن هو كذلك فقد أعلمنى الله – تعالى – أنه طبع كافرا

﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ ، والخشية : الخوف الذى يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه .

و ﴿ يرهقهما ﴾ من الإرهاق وهو أن يحمّل الإنسان ما لا يطيقه .

أى : فخشينا لو بقى حيا هذا الغلام أن يوقع أبويه فى الطغيان والكفر ، لشدة محبتهما له ، وحرصهما على إرضائه .

﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ ﴾ والإبدال : رفع شىء . وإحلال آخر محله أى : ﴿ فأردنا ﴾ بقتله ﴿ أن يبدلهما ربهما ﴾ بدل هذا الغلام الكافر الطاغى ، ول

آخر «خيرا منه» أى من هذا الغلام ، ﴿ زكاة ﴾ أى : طهارة وصلاحا ﴿ وأقرب رحما ﴾ أى : وأقرب فى الرحمة بهما . والعطف عليهما ، والطاعة لهما .

ثم ختم – سبحانه – القصة ، ببيان ما قاله الخضر لموسى فى تأويل الحادثة الثالثة فقال – تعالى – : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ .. ﴾ .

أى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ ﴾ الذى أتعبت نفسى فى إقامته ، ولم يعجبك هذا منى .

﴿ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ ﴾مات أبوهما وهما صغيران ، وهذان الغلامان يسكنان فى تلك المدينة ، التى عبر عنها القرآن بالقرية سابقا فى قوله : ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ .

قالوا : ولعل التعبير عنها بالمدينة هنا ، لإظهار نوع اعتداد بها ، باعتداد مافيها من اليتيمين ، وما هو من أهلها وهو أبوهما الصالح[1] .

﴿ وكان تحته ﴾ أى : تحت هذا الجدار ﴿ كنز لهما ﴾ أى : مال مدفون من ذهب وفضة .. ولعل أباهما هو الذى دفنه لهما .

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ أى : رجلا من أصحاب الصلاح والتقوى ، فكان ذلك منه سببا فى رعاية ولديه ، وحفظ مالهما .

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ ومالك أمرك ؛ ومدبر شئونك ، والذى يجب عليك أن تستسلم وتنقاد لإرادته .

﴿ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ أى : كمال رشدهما ، وتمام نموهما وقوتهما .

ويستخرجا كنزهما من تحت هذا الجدار وهما قادران على حمايته ، ولولا أنى أقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظه وعلى حسن التصرف فيه .

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أى : وما أراده ربك – ياموسى – بهذين الغلامين ، هو الرحمة التى ليس بعدها رحمة ، والحكمة التى ليس بعدها حكمة .

فقوله «رحمة» مفعول لأجله .

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٢ .

ثم ينفض الخضر يده من أن يكون قد تصرف بغير أمر ربه فيقول : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

أى : وما فعلت ما فعلته عن اجتهاد منى ، أو عن رأيى الشخصى ، وإنما فعلت ما فعلت بأمر ربى ومالك أمرى ، وذلك الذى ذكرته لك من تأويل تلك الأحداث هو الذى لم تستطع عليه صبرا ، ولم تطق السكوت عليه ، لأنك لم يطلعك الله - تعالى- على خفايا تلك الأمور وبواطنها . . كما أطلعنى .

وحذفت التاء من ﴿ تسطع ﴾ تخفيفا . يقال : استطاع فلان هذا الشىء واسطاعه بمعنى أطاقه وقدر عليه .

وبذلك انكشف المستور لموسى - عليه السلام -وظهر ما كان خافيا عليه .

ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه القصة وما جرى فيها من محاورات : أن الانسان مهما أوتى من علم فعليه أن يطلب المزيد وأن يرحل من أجل طلب العلم ، وأن العلم على قسمين علم مكتسب يدركه الإنسان باجتهاده وتحصيله ، وعلم لدنى يهبه الله لمن يشاء من عباده ، وأن على المتعلم أن يكون متواضعا مع المعلم ، وأن التأنى فى الحكم على الأمور من مناقب الفضلاء كما أخذوا منها أن العقلاء الأخيار يلتزمون الأدب الرفيع ، والمنهج الرشيد ، والمنطق السديد فى محاوراتهم فيما بينهم . .

وهذا ما نراه واضحا جليا فى تلك المحاورات التى دارت بين موسى والخضر ، ولعل الذين يناقشون أو يحاورون غيرهم فى مسألة ما ، يلتزمون هذا المنهج الحكيم .

(ج) وصورة ثالثة يسوقها القرآن الكريم لأدب الحوار بين الأخيار العقلاء ، وهذه الصورة نراها فى حوار حدث بين موسى وأخيه هارون - عليهما السلام - وسبب هذا الحوار أن موسى - عليه السلام - أمره الله تعالى أن يأتى إلى جبل الطور لكى يتلقى التوراة التى فيها ما فيها من الهدايات والأحكام لقومه بنى إسرائيل . . . وامتثل موسى - عليه السلام - لأمر ربه ، واستخلف على بنى إسرائيل أخاه هارون ، وقال له - كما حكى القرآن - ﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ .

وانتهز بنو إسرائيل غياب موسى - عليه السلام - عنهم ، فعبدوا العجل الذى صنعه لهم السامرى ، وحاول هارون - عليه السلام - أن يمنعهم من ذلك فأبوا وأصروا على عبادة العجل وأساءوا إلى هارون القول . .

وعلم موسى - عليه السلام - بما فعله قومه بنو إسرائيل فى غيابه من عبادة للعجل ، فعاد مسرعا فحطم العجل وألقاه فى البحر ، ووبخ السامرى الذى هو أساس الفساد وقاله له : «فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس ، وإن لك موعدا لن تخلفه ، وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا . إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما » .

ثم دار بين موسى وبين هارون الحوار الحكيم الذى حكاه القرآن فى قوله - تعالى - :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) ﴾ [الأعراف : ١٥٠ ، ١٥١]

وقوله - عز وجل - : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ بيان للحالة النفسية الأليمة التى كان عليها موسى - عليه السلام - عند رجوعه من الطور ، وعند مشاهدته للعجل الذى عبده قومه فى غيبته ، فهو كان غاضبا عليهم لعبادتهم لغير الله - تعالى - ، وحزينا لجهلهم وغبائهم الذى جعلهم يعبدون عجلا جسدا له خوار وصوت قبيح .

وقد ترتب على هذا الغضب والحزن من موسى على قومه أن قال لهم : ﴿ . . بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ .

أى : قال موسى لقومه بغضب وحزن : بئس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابى عنكم إلى مناجاة ربى ، وبئس الفعل فعلكم بعد فراقى إياكم حيث عبدتم العجل ، وأحبته قلوبكم المريضة ، وعقولكم الفاسدة ، ونفوسكم الخبيثة . .

ثم أبلغ بكم الجهل والغباء أنكم لم تنتظروا حضورى ، بل سارعتم إلى عبادة غير الله - تعالى - وخالفتم وصيتى إياكم بعبادة الله - تعالى - وحده .

ثم بين - سبحانه - أن غضب موسى وأسفه قد ترتب عليه أمران يدلان على شدة الانفعال .

أولهما : قوله - تعالى - : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ أى : وطرح موسى - عليه السلام - الألواح التى كتبت فيها التوراة من يده ، غضبًا لله ، وغيرة على دينه ، وسخطا على قومه الذين عبدوا عجلا يضرب به المثل فى البلادة والغباوة .

فهو لم يطرح الألواح استخفافًا بها ، وإنما فعل ما فعل غضبا لربه ، وغيرة على دينه .

وثانيهما قوله - تعالى - : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ أى : وأخذ موسى بشعر أخيه هارون - عليهما السلام - يجره إليه غضبا منه ، لظنه أنه قد قصر فى نصحهم وزجرهم عن عبادة غير الله - تعالى - .

ولكن هارون - عليه السلام - أخذ يستجيش فى نفس موسى - عليه السلام - عاطفة الأخوة الرحيمة ، ليسكن من غضبه الشديد ، وليكشف له عن طبيعة الموقف ، وليبرئ ساحته من مغبة التقصير ، فقال لأخيه موسى وهو يحاوره : ﴿ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أى : قال هارون لموسى - عليهما السلام - وهو يحاول أن يخفف من غضبه : ياموسى يا ابن أمى ، لا تعجل بلومى وتعنيفى ، فإنى ما قصرت فى الإنكار عليهم ، ولكنهم لم يستمعوا إلىّ ، بل قهرونى واستضعفونى وأوشكوا أن يقتلونى عندما بذلت أقصى طاقتى لأخفف هياجهم واندفاعهم نحو العجل ، فلا تفعل بى ماهو أمنيتهم ومحل شماتتهم من الاستهانة بى والإساءة إلىّ ، فإن من شأن الأخوة التى بيننا أن تكون ناصرة معينة حين يكون هناك أعداء ، ولا تجعلنى فى زمرة القوم الظالمين ، فإنى برىء منهم ، ولقد نصحتهم ولكنهم قوم لا يحبون الناصحين .

وهنا اقتنع موسى - عليه السلام - ببراءة أخيه هارون من مغبة التقصير فقال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

أى : قال موسى ليرضى أخاه هارون بعد أن اقتنع بسلامة رأيه ، وبصدق كلامه : يارب اغفر لى ما فرط منى من قول أو فعل فيه غلظة على أخى ، واغفر له كذلك ما عسى أن يكون قد قصر فيه مما أنت أعلم به منى ، وأدخلنا فى رحمتك الواسعة ، فأنت أرحم بعبادك من كل راحم

وهكذا نرى أن الحوار بين العقلاء الأخيار ، القائم على المنطق السليم ، والتفكير القويم ، يؤدى إلى أفضل النتائج ، وإلى خير العواقب ، وإلى تقوية روابط الإخاء والمحبة .

هذا ، وشبيه بهذه المحاورة التى حكتها هاتان الآيتان بين موسى وهارون ، قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ

فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) ﴾ [طه : ٩٠ - ٩٤]

أى : ولقد قال هارون - عليه السلام - لبنى إسرائيل الذين عبدوا العجل فى غيبة أخيه موسى : ياقوم إن ضلالكم وكفركم إنما هو بسبب عبادتكم للعجل ، وإن ربكم الرحمن هو المستحق للعبادة والطاعة ، وما دام الأمر كذلك فاتبعونى وأطيعوا أمرى فى الثبات على الحق وفى نبذ عبادة العجل ، وفى المحافظة على ماعاهدكم عليه موسى - عليه السلام - .

ولكن هذه النصيحة الحكيمة من هارون لهم لم تجد أذنا صاغية ، بل قابلوا نصيحته لهم بالاستخفاف والتصميم على ماهم فيه من ضلال ، فقد قالوا فى الرد على نبيهم ومرشدهم : سنستمر على عبادة العجل ، وسنواظب على هذه العبادة مواظبة تامة حتى يرجع إلينا موسى فنرى ماذا يكون منه لنا .

وبعد أن عاد موسى - عليه السلام - إليهم ، ورأى عكوفهم على عبادة العجل ، غضب غضبا شديدا وقال لأخيه هارون : يا هارون أى شىء منعك من مقاومتهم وقت أن رأيتهم ضلوا بسبب عبادتهم للعجل ؟ أفعصيت أمرى حين كلفتك بنهيهم من عبادة سوى الله - تعالى-؟ وهنا رد هارون على أخيه موسى ردا فيه الرفق والاستعطاف والمناقشة الهادئة الحكيمة فقال : يا موسى يا من أنا وأنت من أم واحدة : لاتمسك بلحيتى ولا برأسى على سبيل التأنيب لى ، فإنى لست عاصيا لأمرك ، فإنى ما حملنى على البقاء معهم وعلى ترك مقاتلتهم ، بعد أن عبدوا العجل إلا خوفى من أن تقول لى لو قاتلتهم أو فارقتهم بمن معى من المؤمنين : إنك بعملك هذا قد جعلت بنى إسرائيل فرقتين متنازعتين ، ولم تتبع وتطع قولى .

وبهذا الحوار الهادئ الحكيم بين الأخيار العقلاء ، يعود الصفاء والنقاء إلى الصدور .

(د) كذلك من النماذج الحكيمة الطيبة للحوار بين الأخيار العقلاء : ذلك الحوار السديد الذى دار بين سليمان - عليه السلام - وبين ملكة سبأ ، بعد أن قال له الهدهد مدافعا عن نفسه بسبب غيابه عن مجلسه : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ... ﴾

وهنا قال سليمان - عليه السلام - للهدهد : ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾

أى : قال سليمان - عليه السلام - للهدهد بعد أن استمع إلى حجته : سننظر - أيها الهدهد - فى أقوالك ونرى إن كنت صادقا فيها أم أنت من الكاذبين .

ثم قال له : خذ هذا الكتاب فاذهب إلى هؤلاء القوم من أهل سبأ ، وألق بالكتاب إلى ملكتهم ، ثم انصرف عنهم إلى مكان قريب منهم ، فتأمل ماذا يقول بعضهم لبعض ، وبماذا يحاور بعضهم بعضا ، ثم أخبرنى بذلك .

ونفذ الهدهد ما كلفه به سليمان - عليه السلام - ووصلت رسالته إلى ملكة سبأ ، وبدأ الحوار بينها وبين وجوه مملكتها ، ثم بينها وبين سليمان - عليه السلام - وقد قص علينا القرآن الكريم ذلك بأسلوبه المعجز المؤثر الحكيم فقال - تعالى - : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦)

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٤) ﴾ [النمل: ٢٩ – ٤٤]

والمعنى : قالت ملكة سبأ لحاشيتها بعد أن قرأت كتاب سليمان وفهمته : يا أيها الأشراف من قومى إنه جاءنى كتاب كريم .

ووصفته بالكرم لاشتماله على الكلام الحكيم ، والأسلوب البديع ، والتوجيه الحسن ، ولجمال هيئته ، وعجيب أمره .

ثم أفصحت عن مصدره فقالت : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ وعن مضمونه فقالت : ﴿ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ وفى ذلك إشارة إلى وصفه بالكرم ، حيث اشتمل على اسم الله – تعالى – وعلى بعض صفاته ، وعلى ترك التكبر ، وعلى الدخول فى الدين الحق ، كما يدل عليه قوله – تعالى – : ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾ أى : ألا تتكبروا علىَّ كما يفعل الملوك الجبابرة ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين طائعين لشريعة الله وحده ، التى توجب عليكم إخلاص العبادة له ، دون أحد سواه ، إذ هو – سبحانه – الخالق لكل شىء ، وكل معبود سواه فهو باطل .

فالكتاب - مع إيجازه - متضمن لفنون البلاغة . ولمظاهر القوة الحكيمة العادلة ، التى اتبعها سليمان فى رسالته إلى ملكة سبأ وقومها .

وبعد أن بلغت حاشيتها بمصدر الكتاب ومضمونه ، استأنفت حديثها فقالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ والفتوى : الجواب على المستفتى فيما سأل عنه ، والمراد بها هنا : المشورة وإبداء الرأى .

أى : قالت يا أيها الأشراف والقادة من قومى ، أشيروا علىّ ماذا أفعل فى أمر هذا الكتاب الذى جاءنى من سليمان ، والذى يطلب منا فيه ما سمعتم ؟

ثم أضافت إلى ذلك قولها : ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ أى : أنتم تعلمون أنى لا أقطع أمرًا يتعلق بشئون المملكة إلا بعد استشارتكم ، وأخذ رأيكم .

وفى قولها هذا دليل على حسن سياستها ، ورجاحة عقلها ، حيث جمعت رءوس مملكتها ، واستشارتهم فى أمرها ، وأعلمتهم أن هذه عادة مطردة عندها . وبذلك طابت نفوسهم ، وزادت ثقتهم فيها .

فقد قالوا لها : ﴿ نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ ﴾ أى : أصحاب قوة فى الأجساد ، ﴿ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أى : وأصحاب بلاء شديد فى القتال .

﴿ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ أى : موكول إلى رأيك ، وإلى ما تطمئن إليه نفسك من قرار .

﴿ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ فتأملى وتفكرى فيما تأمريننا به بالنسبة لهذا الكتاب ، فنحن سنطيعك فى كل ما تطلبينه منا .

وهنا يحكى لنا القرآن الكريم ما كانت عليه تلك المرأة من دهاء وكياسة ، وإيثار للسلم على الحرب ، واللين على الشدة ، فقال - تعالى - : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ ﴾ من شأنهم أنهم ﴿ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً ﴾ من القرى . أو مدينة من المدن ، بعد تغلبهم على أهلها عن طريق الحرب والقتال . . ﴿ أَفْسَدُوهَا ﴾ أى : أشاعوا فيها الفساد والخراب والدمار .

وفوق كل ذلك : ﴿ وَجَعَلُوا أعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ أى : أهانوا أشرافها ورؤساءها ، وجعلوهم أذلة بعد أن كانوا أعزة . ليكونوا عبرة لغيرهم .

﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ أى : وهذه هى عادتهم التى يفعلونها عند دخولهم قرية من القرى ، عن طريق القهر والقسر والقتال .

والمقصود من قولها هذا : التلويح لقومها بأن السلم أجدى من الحرب ، وأن الملاينة مع سليمان - عليه السلام - أفضل من المجابهة والمواجهة بالقوة .

ثم صرحت لهم بما ستفعله معه فقالت : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فناظرة ﴾ معطوف على ﴿ مرسلة ﴾ وهو من الانتظار بمعنى الترقب .

أى : وإنى قد قررت أن أرسل إلى سليمان وجنوده هدية ثمينة تليق بالملوك أصحاب الجاه والقوة والسلطان ، وإنى لمنتظرة ماذا يقوله سليمان لرسلى عندما يرى تلك الهدية . وماذا يفعل معهم .

قال ابن عباس : قالت لقومها إن قَبِل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبى فاتبعوه .

وقال قتادة : رحمها الله ورضى عنها ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها !! لقد علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس[1] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما كان من سليمان عندما رأى الهدية ، فقال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ . . . ﴾ .

وفى الكلام حذف يفهم من السياق ، وتقتضيه بلاغة القرآن الكريم والتقدير : وهيأت ملكة سبأ الهدية الثمينة لسليمان - عليه السلام - ، وأرسلتها مع من اختارتهم من قومها لهذه المهمة ، فلما جاء سليمان ، أى : فلما وصل الرسل إلى سليمان ومعهم هدية ملكتهم إليه .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٠٠ .

فلما رآها قال – على سبيل الإنكار والاستخفاف بتلك الهدية – : ﴿ أتمدونن بمال﴾ أى : أتقدمون إلىّ هذا المال الزائل والمتمثل فى تلك الهدية لأكف عن دعوتكم إلى إتيانى وأنتم مخلصون العبادة لله – تعالى – وحده . وتاركون لعبادة غيره ؟

كلا لن ألتفت إلى هديتكم ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ ﴾ من النبوة والملك الواسع ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾ من أموال من جملتها تلك الهدية .

فالجملة الكريمة تعليل لإنكاره لهديتهم ، ولاستخفافه بها ، وسخريته منها .

وقوله – سبحانه – : ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ إضراب عما ذكره من إنكاره لتلك الهدية وتعليله لهذا الإنكار ، إلى بيان ما هم عليه من ضيق فى التفكير ، حيث توهموا أن هذه الهدية ، قد تفيد فى صرف سليمان عن دعوتهم إلى وحدانية الله – تعالى – ، وقد تحمله على تركهم وشأنهم .

أى : افهموا – أيها الرسل – وقولوا لمن أرسلكم بتلك الهدية : إن سليمان ما آتاه الله من خير ، أفضل مما آتاكم ، وإنه يقول لكم جميعا : انتفعوا أنتم بهديتكم وافرحوا بها ، لأنكم لا تفكرون إلا فى متع الحياة الدنيا ، أما أنا ففى غنى عن هداياكم ولا يهمنى إلا إيمانكم .

ثم أتبع سليمان – عليه السلام – هذا الاستنكار بالتهديد فقال : – كما حكى القرآن عنه – : ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ .

أى : قال سليمان لمن أرسلته بلقيس بالهدية : عد من حيث أتيت ومعك هديتك .

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أى : فوالله لنأتينهم بجنود لا قدرة لهم على مقاومتهم ، ولا طاقة لهم على قتالهم .

﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أى : ووالله لنخرجن هذه الملكة وقومها من بلاد سبأ ، حالة كونهم أذلة ، وحالة كونهم مهزومين مقهورين ، بعد أن كانوا فى عزة وقوة .

وعاد الرسل بهديتهم إلى الملكة ، دون أن يهتم القرآن بما جرى لهم بعد ذلك ، لأن القرآن لا يهتم إلا بالجوهر واللباب فيما يقصه من أحداث .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما طلبه سليمان - عليه السلام - من جنوده فيقول : ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

قال ابن كثير ما ملخصه : «فلما رجعت الرسل إلى ملكة سبأ بما قاله سليمان ، قالت : قد - والله - عرفت ماهذا بملك ، وما لنا به من طاقة . . وبعثت إليه : إنى قادمة إليك بملوك قومى ، لأنظر فى أمرك وما تدعونا إليه من دينك . . ثم شخصت إليه فى اثنى عشر ألف رجل من أشراف قومها - بعد أن أقفلت الأبواب على عرشها - فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من عنده من الإنس والجن ممن تحت يده فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ »[1] .

أى : قال سليمان لجنوده : أى واحد منكم يستطيع أن يحضر لى عرش هذه الملكة قبل أن تحضر إلىَّ هى وقومها مسلمين ، أى : منقادين طائعين مستسلمين لما أمرتهم به .

ولعل سليمان - عليه السلام - قد طلب إحضار عرشها - من بلاد اليمن إلى بيت المقدس حيث مقر مملكته ، ليطلعها على عظيم قدرة الله - تعالى - ، وعلى ما أعطاه - سبحانه - له من ملك عريض ، ومن نعم جليلة ، ومن قوة خارقة ، حيث سخر له من يحضر له عرشها من مكان بعيد فى زمن يسير .

ولعل كل ذلك يقودها هى وقومها إلى الإيمان بالله رب العالمين . .

وبعد أن قال سليمان لجنده أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . رد عليه عفريت من الجن بقوله : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ .

والعفريت : هو المارد القوى من الشياطين ، الذين سخرهم الله - تعالى - لخدمة سليمان ، وللقيام بأداء ما يكلفهم به . يقال له : عفريت ، وعفريتة - بكسر العين وسكون الفاء - .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص ٢٠١

أى : قال عفريت من الجن لسليمان : أنا آتيك بعرش هذه الملكة ، قبل أن تقوم من مقامك ، أى : قبل أن تقوم من مجلسك هذا الذى تجلس فيه للقضاء بين الناس . أو قبل أن تقف من جلوسك .

﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ أى : وإنى على حمله وإحضاره من تلك الأماكن البعيدة إليك ، لقوى على ذلك ، بحيث لا يثقل علىّ حمله ، ولأمين على إحضاره دون أن يضيع منه شيء .

وكأن سليمان قد استبطأ إحضاره عرش تلك الملكة فى هذه الفترة التى حددها ذلك العفريت القوى ، فنهض جندى آخر من جنوده ، ذكره القرآن بقوله : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ . قالوا : والمراد بهذا الذى عنده علم من الكتاب : آصف بن برخيا ، وهو رجل من صلحاء بنى إسرائيل ، آتاه الله – تعالى – من لدنه علما ، وكان وزيرا لسليمان .

قالوا : وكان يعلم اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعى به – سبحانه – أجاب الداعى ، وإذا سئل به – تعالى – أجاب السائل .

أى : وقال الرجل الذى عنده علم من كتاب الله – تعالى – يا سليمان أنا آتيك بعرش بلقيس ، قبل أن تغمض عينك وتفتحها ، وهو كناية عن السرعة الفائقة فى إحضاره .

وفى ذلك ما فيه من الدلالة على شرف العلم وفضله وشرف حامليه وفضلهم وأن هذه الكرامة التى وهبها الله – تعالى – لهذا الرجل ، كانت بسبب ما آتاه – سبحانه – من علم .

وجاء عرش الملكة لسليمان من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ، بتلك السرعة الفائقة ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾ أى : فلما رأى سليمان العرش المذكور حاضرا لديه ، وكائنا بين يديه . . . لم يغتر ولم يتكبر ، ولم يأخذه الزهو والعجب . بل قال – كما حكى القرآن عنه – : ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ .

أى : قال سليمان : هذا الذى أراه من إحضار العرش بتلك السرعة من فضل ربى وعطائه ، لكى يمتحننى أأشكره على نعمه أم أجحد هذه النعم .

﴿ وَمَن شَكَرَ ﴾ الله – تعالى – على نعمه ﴿ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ حيث يزيده – سبحانه – منها .

﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ نعم الله – تعالى – وجحدها ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ عن خلقه ﴿ كَرِيمٌ ﴾ فى معاملته لهم ، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل يعفو ويصفح عن كثير من ذنوبهم .

ثم ختم – سبحانه – هذه القصة البديعة ، ببيان ما فعله سليمان بالعرش ، وبما قاله للملكة سبأ بعد أن قدمت إليه ، وبما انتهى إليه أمرها ، فقال – تعالى – : ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ .

وقوله : ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ من التنكير الذى هو ضد التعريف ، وهو جعل الشىء على هيئة تخالف هيئته السابقة حتى لا يعرف .

أى قال سليمان لجنوده ، بعد أن استقر عنده عرش بلقيس : غيروا لهذه الملكة عرشها ، كأن تجعلوا مؤخرته فى مقدمته ، وأعلاه أسفله . .

وافعلوا ذلك لكى ﴿ نَنظُرْ ﴾ونعرف ﴿ أَتَهْتَدِي ﴾ إليه بعد هذا التغيير ، أو إلى الجواب اللائق بالمقام عندما تسأل ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى معرفة الشىء بعد تغيير معالمه المميزة له . أو إلى الجواب الصحيح عندما تسأل عنه .

فالمقصود هيئة عرشها : اختبار ذكائها وفطنتها ، وحسن تصرفها ، عند مفاجأتها بإطلاعها على عرشها الذى خلفته وراءها فى بلادها . وإيقافها على مظاهر قدرة الله – تعالى – وعلى ما وهبه لسليمان – عليه السلام – من معجزات .

وقوله – تعالى – : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ . . . ﴾ شروع فى بيان ما قالته عندما عرض عليها سليمان عرشها .

أى : فلما وصلت بلقيس إلى سليمان – عليه السلام – عرض عليها عرشها بعد تغيير معالمه . ثم قيل لها من جهته – عليه السلام – : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أى : مثل هذا العرش الذى ترينه الآن ، عرشك الذى خلفتيه وراءك فى بلادك .

ولم يقل لها : أهذا عرشك ، لئلا يكون إرشادا لها إلى الجواب ، فيفوت المقصود من اختيار ذكائها وحسن تصرفها .

ولا شك أن هذا القول يدعوها للدهشة والمفاجأة بما لم يكن فى حسبانها ، وإلا فأين هى من عرشها الذى تركته خلفها على مسافة بعيدة ، بينها وبين مملكة سليمان عشرات الآلاف من الأميال .

ولكن الملكة الأريبة العاقلة ، هداها تفكيرها إلى جواب ذكى ، فقالت - كما حكى القرآن عنها - : ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أى : هذا العرش - الذى غيرت هيئته - كأنه عرشى الذى تركته فى بلادى ، فهى لم تثبت أنه هو ، ولم تنف أنه غيره ، وإنما تركت الأمر مبنيا على الظن والتشبيه ، لكى يناسب الجواب السؤال .

وقوله - سبحانه - : ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ يرى بعض المفسرين أنه من تتمة كلام بلقيس ، وكأنها عندما استشعرت مما شاهدته اختبار عقلها قالت : وأوتينا العلم من قبلها ، أى : من قبل تلك الحالة التى شاهدناها ، بصحة نبوة سليمان وكنا مسلمين ، طائعين لأمره .

ومنهم من يرى أنه من سليمان ، وتكون الجملة معطوفة على كلام مقدر وجىء بها من قبيل التحدث بنعمة الله - تعالى - .

والمعنى : قال سليمان : لقد أصابت بلقيس فى الجواب ، وعرفت الحق ، ولكننا نحن الذين أوتينا العلم من قبلها - أى من قبل حضور ملكة سبأ - وكنا مسلمين لله - تعالى - وجوهنا .

ويبدو لنا أن كون هذه الجملة ، حكاها القرآن على أنها من تتمة كلامها أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من سياق الكلام .

قال الألوسى ما ملخصه : «قوله : ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ من تتمة كلامها على ما اختاره جمع من المفسرين . كأنها استشعرت مما شاهدته اختبارها ، وإظهار معجزة لها . ولما كان الظاهر من السؤال هو الأول ، سارعت إلى الجواب بما أنبأ عن كمال عقلها ، ولما كان إظهار المعجزة دون ذلك فى الظهور ، ذكرت ما يتعلق به آخرا وهو قولها : ﴿وأوتينا العلم﴾ وفيه دلالة على كمال عقلها - أيضا - .

والمعنى : وأوتينا العلم بكمال قدرة الله ، وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة أو من قبل هذه الحالة ، بما شاهدناه من أمر الهدهد . وما سمعناه من رسلنا إليك ، وكنا مؤمنين من ذلك الوقت ، فلا حاجة إلى إظهار هذه المعجزة»[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ... ﴾ بيان للأسباب التى منعتها من الدخول فى الإسلام قبل ذلك .

أى : وصدها ومنعها الذى كانت تعبده من دون الله - تعالى - وهو الشمس - عن عبادة الله - تعالى - وحده ، وعن المسارعة إلى الدخول فى الإسلام .

وجملة ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ تعليل لسببية عبادتها لغير الله - تعالى - .

أى : إن هذه المرأة كانت من قوم كافرين بالله - تعالى - ، جاحدين لنعمه ، عابدين لغيره ، منذ أزمان متطاولة ، فلم يكن فى مقدورها إظهار إسلامها بسرعة وهى بينهم .

فالجملة الكريمة كأنها اعتذار لها عن سبب تأخرها فى الدخول فى الإسلام .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان ما فاجأها به سليمان ، لتزداد يقينا بواحدانية الله - تعالى - ، وبعظم النعم التى أعطاها - سبحانه - له فقال : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ .

والصرح : القصر ، ويطلق على كل بناء مرتفع . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴾[2] .

وكان سليمان - عليه السلام - قد بنى هذا الصرح ، وجعل بلاطه من زجاج نقى صاف كالبلور . بحيث يرى الناظر ما يجرى تحته من ماء .

أى : قال سليمان لملكة سبأ بعد أن سألها : أهكذا عرشك ، وبعد أن أجابته بما سبق بيانه . قال لها : ادخلى هذا القصر ، فلما رأت هذا الصرح وما عليه من جمال وفخامة ، حسبته لجة . أى : ظنته ماء غزيرا كالبحر .

﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ لئلا تبتل بالماء أذيال ثيابها .

---

(١) تفسير الألوسى ١٩ ، ص ٢٠٧ .

(٢) سورة غافر الآية ٣٦ .

وهنا قال سليمان مزيلا لما اعتراها من دهشة : ﴿إِنَّهُ﴾ أى : ما حسبته لجة ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ أى : قصر مملس من زجاج لا يحجب ما وراءه .

فقوله ﴿مُّمَرَّدٌ﴾ بمعنى مملس ، مأخوذ من قولهم : شجرة مرداء إذا كانت عارية من الورق ، وغلام أمرد ، إذا لم يكن فى وجهه شعر والتمريد فى البناء ، معناه : التمليس والتسوية والنعومة .

والقوارير : جمع قارورة ، وهى إناء من زجاج ، وتطلق القارورة على المرأة ، لأن الولد يقر فى رحمها ، أو تشبيها لها بآنية الزجاج من حيث ضعفها ، ومنه الحديث الشريف : «رفقا بالقوارير» . والمراد بالقوارير هنا . المعنى الأول .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته بلقيس بعد أن رأت جانبا من عجائب صنع الله ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أى : بسبب عبادتى لغيرك قبل هذا الوقت . ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ طائعة مختارة ، وإسلامى إنما هو ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وليس لأحد سواه .

وبعد : فهل رأيت حوارًا فيه ما فيه من الحكمة ، والشجاعة ، وحرية الرأى واحترام اتجاه الغير ، والصراحة فى المقصد ، والشرف فى الغاية ، واللجوء إلى المشورة قبل اتخاذ القرار ، والتسليم للحق بعد أن قام الدليل عليه . .

أقول : هل رأيت حوارًا فيه هذه المعانى الشريفة كهذا الحوار الذى دار بين سليمان وبين ملكة سبأ ، وبينه وبين جنوده ، وبينها وبين مستشاريها وأعوانها؟

إن هذا الحوار الحكيم كان من نتيجته أن دخلت هذه الملكة العاقلة الحكيمة فى الإسلام ، وأن أخلصت عبادتها لله الواحد القهار ، وأن قالت - كما حكى القرآن عنها- : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

(هـ) ومن صور الحوار الحكيم الذى يدل على صدق الإيمان ، وعلى شكر الله - تعالى - على فضله ونعمه : ذلك الحوار الذى يدور بين عباد الله المخلصين ، بعد أن شاهدوا ما أعده - سبحانه - لهم من نعيم مقيم ، والذى حكاه القرآن الكريم فى قوله- تعالى - : ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي

قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾

[الصافات : ٥٠ - ٦١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أى : تطوف الملائكة على هؤلاء المؤمنين الصادقين وهم فى الجنة بكأس ملىء بما لذ وطاب من الشراب .

وهؤلاء المؤمنون الصادقون أقبل بعضهم على بعض يتساءلون فيما بينهم عن ذكرياتهم ، وإذا بواحد منهم يقول لإخوانه من باب التحدث بنعمة الله : ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ . أى : إنى فى الدنيا كان لى صديق ملازم لى ، ينهانى عن الإيمان بالبعث والحساب والثواب والعقاب ، وكان يقول لى بأسلوب التهكم والسخرية :

﴿ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ أى : أئنك - أيها الرجل - لمن المصدقين بأن هناك بعثا وثوابا وعقابا وجنة ونارا ؟

ثم يضيف على ذلك قوله : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ وانتهت حياتنا فى هذه الدنيا ، ووضعنا فى قبورنا ﴿ وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ﴾ أى : وصارت أجسادنا مثل التراب ومثل العظام البالية ﴿ أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أى : أئنا بعد كل ذلك لمبعوثون ومعادون على الحياة مرة أخرى ومجزيون بأعمالنا؟ والاستفهام هنا للاستبعاد والإنكار من ذلك القرين للبعث والحساب .

وهنا يعرض هذا المؤمن على إخوانه ، أن يشاركوه فى الاطلاع على مصير هذا القرين الكافر بالبعث فيقول لهم : ﴿ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ أى : هل أنتم مطلعون معى على أهل النار لنرى جميعا حال ذلك القرين الذى حكيت لكم حاله ؟ والاستفهام للتخصيص . أى : هيا صاحبونى فى الاطلاع على هذا القرين الكافر .

﴿ فَاطَّلَعَ ﴾ ذلك الرجل المؤمن ومعه إخوانه على أهل النار فرآه فى سواء الجحيم ، أى : فرأى ذلك الرجل الذى كان قرينه وصاحبه الملازم له فى الدنيا ، ملقى به فى ﴿ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ أى : فى وسط النار ، وسمى الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى باقى الجوانب .

قال الآلوسى : «واطلاع أهل الجنة على أهل النار ، ومعرفة من فيها ، مع ما بينهما من التباعد غير بعيد بأن يخلق الله – تعالى – فيهم حدة النظر ، ويعرفهم من أرادوا الاطلاع عليه .

ولعلهم – إن أرادوا ذلك – وقفوا على الأعراف . فاطلعوا على من أرادوا الاطلاع عليه من أهل النار . وقيل : إن لهم طاقات فى الجنة ينظرون منها من علو إلى أهل النار ، وعلم القائل بأن القرين من أهل النار ، لأنه كان منكرا للبعث»(1) .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما قاله ذلك الرجل المؤمن لقرينه فى الدنيا بعد أن رآه فى وسط الجحيم فيقول : ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ تَاللَّهِ ﴾ قسم فيه معنى التعجب ، و ﴿ إِن ﴾ مخففة من الثقيلة . واللام فى قوله : ﴿ لَتُرْدِينِ ﴾ وهى الفارقة بين إن المخففة والنافية ، والجملة جواب القسم ، وتردين : أى تهلكنى . يقال : أردى فلان فلانا إذا أهلكه . ورَدِىَ فلان – من باب رَضِىَ – إذا هلك .

و ﴿ الْمُحْضَرِينَ ﴾ من الإحضار ، يقال : أَحْضِر المجرم ليلقى جزاءه ، وهذا اللفظ يستعمل عند الإطلاق فى الشر ، إذ يدل على السوق مع الإكراه والقسر .

أى : قال الرجل المؤمن لقرينه الملقى فى وسط جهنم . وحق الله – تعالى – لقد كدت أيها القرين أن تهلكنى بصدك إياى عن الإيمان بالبعث والحساب ولولا نعمة ربى حيث عصمنى من طاعتك ، ووفقنى للإيمان .. لكنت اليوم من الذين أحضروا للعذاب مثلك ومثل أشباهك ، ولساقنى ملائكة العذاب إلى هذا المصير الأليم الذى أنت فيه اليوم ، فحمدا لله – تعالى – على الإيمان والهداية .

(1) تفسير الآلوسى جـ 23 ص 92 .

وقوله – تعالى – : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ بيان لما يقوله هذا الرجل المؤمن لأصحابه الذين معه فى الجنة ، وبعد أن انتهى من كلامه مع قرينه .

وهذا الكلام يقوله على سبيل التلذذ والتحدث بنعمة الله عليهم .

والاستفهام للتقرير ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام ، والمعطوف عليه محذوف .

والمعنى : أنحن مخلدون فى هذا النعيم ، ولن يلحقنا موت مرة أخرى بعد موتتنا الأولى التى لحقتنا فى الدنيا ، ولن يصيبنا شىء من العذاب كما أصاب غيرنا ؟

إننا لنشعر جميعا بأننا لن نموت مرة أخرى ، وسنبقى فى هذا النعيم الدائم بفضل الله ورحمته .

والإشارة فى قوله – تعالى – : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ لما سبق الإخبار به من نفى الموت والعذاب عن أهل الجنة . وهذا القول – أيضا – حكاية لما يقوله ذلك المؤمن لمن معه فى الجنة ، أى : إن هذا النعيم الدائم الذى نحن فيه – يا أهل الجنة – لهو الفوز العظيم ، الذى لا يدانيه فوز ، ولا يقاربه فلاح .

ثم يقول لهم – أيضا – : ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ أى : لمثل هذا العطاء الجزيل ، والنعيم المقيم ، فليعمل العاملون ، لا لغير ذلك من الأعمال الدنيوية الزائلة الفانية .

وهكذا يتحاور الأخيار فيما بينهم حوارا يدل على شكرهم لله – تعالى – حيث رزقهم جنة النعيم .

(و) هذه نماذج لبعض المحاورات التى دارت بين العقلاء والأخيار كما حكاها القرآن الكريم . فإذا ما اتجهنا إلى السّنة النبوية المطهرة وجدنا ألوانا أخرى من تلك المحاورات التى حدثت بين هؤلاء الأخيار ، والتى تدل على العقلاء دائما حتى ولو اختلفت عقائدهم يبنون محاوراتهم على المنطق السليم ، وعلى المنهج القويم ، وعلى الصدق فى الأقوال ، ومن النماذج التى تدل على ذلك تلك المحاورة التى حدثت بين هرقل ملك الروم ، وبين أبى سفيان بن حرب ، والتى جاءت فى كتب السنة الصحيحة .

فقد جاء فى صحيح البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل - ملك الروم - أرسل إليه فى ركب من قريش كانوا تجارا بالشام فى المدة التى كان رسول ﷺ مادٌ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، أى : بعد صلح الحديبية فى السنة السادسة بعد الهجرة ، وكان الرسول ﷺ قد انتهز فرصة الهدنة التى كانت بين المسلمين وبين قريش ، فأرسل رسائل إلى ملوك ورؤساء الأمم ، وكان من بين من أرسل إليه هرقل ملك الروم ، وجاء فى هذه الرسالة : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الإريسيين - أى : الفلاحين- . و«ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

فلما وصلت هذه الرسالة إلى هرقل وقرأها ، أمر جنوده أن يبحثوا له عن رجل يكون من أهل مكة لكى يسأله عن أحوال النبى ﷺ . وتصادف أن كان أبو سفيان ومعه بعض مشركى مكة فى تجارة لهم بالشام ففوجئوا بجنود الروم يحيطون بهم وأخذوهم إلى هرقل ، وكان بإيلياء - أى : ببيت المقدس - ، فدعاهم وحوله عظماء الروم ، ثم قال لترجمانه : اسألهم أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : - وكان مازال كافرا - أنا أقربهم . فقال هرقل : أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره . ثم قال لترجمانه : قل لهم : إنى سائل هذا - أى : أبا سفيان- عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى فإن كذبنى فكذبوه . . .

قال أبو سفيان : ثم كان أول ماسألنى عنه أن قال :

كيف نسبه فيكم ؟ قلت هو فينا ذو نسب

ثم قال : هل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا .

فقال : هل كان من آبائه من ملك - أى : من كان ملكا ؟ قلت : لا .

فقال : أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : ضعفاؤهم .

فقال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت بل يزيدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه - أى : كراهة لدينه - بعد أن دخل فيه ؟

قلت : لا

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا . ونحن منه فى مدة – أى : فى مدة صلح الحديبية – لا أدرى ما هو فاعل فيها .

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم .

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه .

قال : فبماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم . ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان قل له – أى : قل لأبى سفيان ومن معه – :

إنى سألتك عن نسبه فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها . وسألتك هل قال هذا القول أحد منكم قبله ، فذكرت أن لا .فقلتُ : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلتُ : رجل يتأسى بقول قيل من قبله .

وسألتك : هل كان فى آبائه من كان ملكا ، فذكرتَ أن لا . وأقول : لو كان من آبائه من كان ملكا ، لقلت رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا . فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله – تعالى – .

وسألتك : أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه . وهم أتباع الرسل – أى : أن الغالب فى أتباع الرسل أن يكونوا كذلك .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون . وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك : أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا . وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل يغدر فذكرتَ أن لا . وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك : بماذا يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

ثم قال هرقل : فإن كان ما تقول حقا يا أبا سفيان : فإن محمداً ﷺ سيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج – أى : وقد كنت أعلم عن طريق الكتب الدينية أن نبيا سيظهر – ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه – أى لأطعته طاعة تامة . .»

وبعد فإن أبطال هذه المحاورة لم يكونوا مسلمين ، ولكنهم كانوا عقلاء ، حيث بنوا محاوراتهم على الصدق وعلى الموضوعية وعلى الوصول إلى الحقيقة دون ميل أو هوى أو تعصب مقيت أو تقليد أعمى ، ولذا كانت ثمارها طيبة ، وعاقبتها حميدة ، حيث أيقن الجميع أن الرسول ﷺ صادق فيما يبلغه عن ربه .

(ز) ومن صور المكاتبات والمحاورات التى تمثل أسمى ألوان الحكمة والأناة والاستجابة للحق ، تلك الكتب التى أرسلها النبى ﷺ إلى الملوك والرؤساء يدعوهم فيها إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار . وقد كان منها – كما سبق أن أشرنا – ما أرسله – ﷺ – إلى هرقل ملك الروم ، وكان منها – أيضا – ما أرسله ﷺ إلى النجاشى ملك الحبشة ، وقد كان رد النجاشى على النبى – ﷺ – ردا حكيما يدل على طاعته للنبى – ﷺ – وتصديقه لرسالته وجاء فى رسالته ﷺ مايأتى :

«بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ﷺ إلى النجاشى ملك الحبشة – : سِلْم أنت – أى : أنت ذو سلم – وإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، حملت بعيسى ، حملته من روحه ونفخه ، كما خلق – سبحانه – آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى فإنى رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفر بن أبى طالب ونفرا معه من المسلمين ، فإذا جاءوك فاقْرِهم – أى : فأكرمهم – ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله – تعالى – وقد بلغتُ ونصحتُ فاقبلوا نصحى ، والسلام على من اتبع الهدى»[1] .

(١) هذا الكتاب وغيره راجعه فى كتاب «جمهرة رسائل العرب» جـ١ ص٣٦ للأستاذ أحمد زكى صفوت وهذه الموسوعة تقع فى أربعة مجلدات جمع المؤلف معظم رسائل العرب فى العصر الجاهلى وعصر صدر الإسلام ، وعصر الخلفاء الراشدين ، وعصر الدولة الأموية ثم العباسية . وهى موسوعة بذل فيها صاحبها رحمه الله مابذل من جهد وتحقيق ، نسأل الله – تعالى – أن يجعلها فى ميزان حسناته .

وقد رد النجاشى على النبى ﷺ بقوله : «بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله ﷺ من النجاشى ملك الحبشة . سلام عليك يانبى الله ورحمة الله وبركاته من الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام .

أما بعد : فقد بلغنى كتابك يارسول الله ، وما ذكرت من أمر عيسى - عليه الصلاة والسلام - فورب السماء والأرض إن عيسى مايزيد على ماذكرتَ تُفروقًا - أى : شيئا ولو صغيرا - إنه لكما قلت ، وقد عرفتُ ما بعثتَ به إلينا ، وقد قَرَيْنَا - أى : أكرمنا - ابنَ عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدّقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين . . وإنى أشهد أن ما تقوله حق ، والسلام عليك يا رسول الله »

***

(ح) وقد كانت المحاورات التى دارت بين جعفر بن أبى طالب - رضي الله عنه - وبين النجاشى تمثل المنطق السليم ، والرأى الرشيد ، والعقل السليم ، والإخلاص فى طلب الحق . .

وملخص ذلك أنه بعد أن اشتد الأذى بالمسلمين وهم بمكة ، أذن لهم النبي ﷺ فى الهجرة إلى الحبشة وقال لهم : «لوخرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لايُظلَم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » فخرج عدد كبير منهم ومن بينهم جعفر بن أبى طالب . وكرهت قريش ذلك فأرسلت بعض رجالها ومعهم الهدايا إلى النجاشى وحاشيته لكى يطردوا المسلمين من بلادهم ، وقالوا للنجاشى وحاشيته : لقد ضَوى - أى : لجأ - إليكم منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع ولا نعرفه نحن ولا أنتم . . فنريد أن تطردهم من بلادك . . .

ولكن النجاشى أبى ذلك حتى يسمع من المسلمين ، وأرسل فى طلبهم ، فلما حضروا بين يديه تولى جعفر بن أبى طالب الرد على أسئلة النجاشى ، وكان مما قاله للنجاشى :

«أيها الملك ، كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف حسبه ونسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فأمرنا بعبادة الله - تعالى - وحده ، ونهانا عن عبادة الأصنام ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، فصدقناه واتبعناه . . . فعدا علينا قومنا فعذبونا وظلمونا ، فخرجنا إلى بلادك ، ورغبنا فى جوارك . . .

فقال له النجاشى : هل معك يا جعفر شىء مما جاء به عن الله هذا النبى ؟ فقال له جعفر : نعم . فقال له النجاشى : فاقرأ علىّ . فقرأ عليه جعفر آيات من سورة «مريم» . فبكى النجاشى حتى ابتلت لحيته . . . ثم قال : إن هذا الذى أسمعه من جعفر والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . .

ثم قال لرسل قريش : انطلقوا فو الله لا أسلم المسلمين إليكم ، ورد على رسل قريش هداياهم ، وعاش المسلمون بعد ذلك فى الحبشة معززين مكرمين»[1] .

وهكذا نرى أن المحاورة التى يكون دافعها البحث عن الحقيقة ، والنطق بكلمة الصدق ، والاستجابة لما يقتضيه العقل السليم ، تكون نتائجها الهداية إلى الصراط المستقيم ، وإلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

* * *

(ط) كذلك من صور الحوار الحكيم ما جرى بين بعض المهاجرين والأنصار بعد أن لحق النبى ﷺ بربه فقد حدث حوار بين الفريقين حول من يتولى خلافة المسلمين بعد وفاة النبى ﷺ قال صاحب «جمهرة خطب العرب»[2] ماملخصه : «لما قبض النبى ﷺ اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، فقالوا نولى هذا الأمر بعد الرسول ﷺ

---

(١) راجع سيرة ابن هشام جـ١ ص٣٤٣ ومابعدها . تحقيق المرحوم محى الدين عبد الحميد .
(٢) جمهرة خطب العرب كتاب فى ثلاثة مجلدات ، جمع فيه مؤلفه المرحوم أحمد زكى صفوت المئات من عيون خطب العرب فى الجاهلية والإسلام . وهذه الخطبة وما بعدها توجد بالمجلد الأول جـ ١ ص٦١ .

سعد بن عبادة ، وأخرجوه إليهم وكان مريضا ، فخطب فيهم خطبة قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه : «يامعشر الأنصار ، لكم سابقة فى الدين ، وفضيلة فى الإسلام ، ليست لقبيلة من العرب . إن محمدا ﷺ لبث بضع عشرة سنة فى قومه - بمكة - يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ﷺ ولا أن يُعِزُّوا دينه . . . حتى إذا أراد الله- تعالى - بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ، وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ﷺ المنع له ولأصحابه والإعزَازَ لهُ ولدينهِ ، والجِهادَ لأعدائه ، فكنتم أشَدَّ الناس على عدوِّه من غيركم ، حتى استقامت العرب لأمر الله طَوْعًا وَكَرهًا ، وأعطى البَعِيدُ المقَادَةَ صَاغِرًا دَاخِرًا[١] ، حتى أثخن[٢] الله عزَّ وجلَّ لرسولهِ بكم الأرضَ ، ودانت بأسيافكم لهُ العَرَبُ ، وتوفاه الله وهو عنكم رَاضٍ ، وبكم قَرِيرُ عَينٍ ، استَبِدُّوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم دونَ النَّاسِ» .

فأجابوه بأجمعهم أن قد وُفِّقتَ فى الرَّأيِ ، وَأصبْتَ فى القول ، ولن نَعدُوَ ما رَأيتَ ، نُولِّيكَ هذا الأمر .

وأتى عمرَ الخبرُ ، فأقبل إلى أبى بكر فقال : «أما علمت أن الأنصار قد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ، يريدون أن يولوا هذا الأمر سَعدَ بنَ عُبَادةَ ؟ وَأحسَنُهم مقالةً من يقول : مِنَّا أَمِيرٌ وَمِن قُرِيش أَمِيرٌ» فمضيا مسرعين نحوهم ، فلقيا أَبا عبيدَةَ بن الجَرَّاح فتماشَوا إليهم ثلاثتهُم ، فَجاءُوا وهم مجتمعون . فقال عمر : أتيناهم وقد كنتُ زَوَيت[٣] كلامًا أردت أن أقوم به فيهم ، فلما أن دفعت إليهم ذهبت لأَبتدئَ المنطق . فقال لى أبو بكر : رُوَيدًا حتى أتكلم ، ثمّ انطق بَعدُ بما أَحببتَ ، فنطق . فقال عمر : فما شىء كنت أردت أن أقوله إلاّ وقد أتى به أو زاد عليه .

(١) صاغرا ذليلا : من دخر كمنع وفرح دخورا ودخرا بالتحريك .
(٢) أثخن فلانا : أوهنه ، والمراد أخضع .
(٣) زواه يزويه جمعه ، والمراد أعددت . ورواية العقد الفريد (٢ :٢٠٤) زوّرت كلاما فى نفسى . وزوّر الشىء حسنه وقوّمه . والمراد أيضا هيأت وأعددت .

خطبة أبى بكر رضى الله عنه

حمد الله وأثنى عليهِ ثمَّ قال :

«إن الله بعث محمدًا رسولاً إلى خلقهِ ، وشهيدًا على أُمتهِ ، ليعبدوا الله وَيُوَحِّدُوه ، وهم يعبدون من دونه آلهةً شتَّى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعةً ، ولهم نافعة ، وإنما هى من حَجَر منحوت ، وَخَشَب منجور[1] ، ثمَّ قرأَ : «وَيعَبُدُونَ من دُونِ الله ما لاَ يَضُرُّهُم وَلاَ يَنفَعهُم ، وَيَقُولُونَ هؤلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عندَ الله» وَقالُوا «مَا نَعبُدُهُم إلاَّ لِيقَرِّبُونا إِلَى الله زُلفَى » فَعَظُمَ على العرب أَن يتركوا دينَ آبائهم ، فَخَصَّ الله المهاجرين الأَوَّلين من قومه بتصديقه ، والإيمَان به ، والمؤاساة لهُ ، والصبر معهُ ، على شدَّة أذى قومهم لهم ، وتكذيبهم إِياهم ، وكلُّ الناس لهم مخالفٌ زَارٍ[2] عليهم ، فلم يَستوحشوا لقلة عددهم ، وَشَنَفَ[3] الناس لهم ، وَإجماع قومهم عليهم ، فهم أَوَّلُ مَن عَبَدَ الله فى الأَرض ، وآمَنَ بالله وَبِالرَّسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأَمر مِنْ بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلاَّ ظالمٌ ، وأنتم يا معشر الأنصار مَنْ لاَيُنكَرُ فَضلُهُم فى الدِّين ، ولاَ سابقَتُهُمُ العَظيمَةُ فى الإِسلام ، رَضيكم الله أنصارًا لدينهِ ورسولهِ ، وَجعل إليكم هِجرَتَهُ وفيكم جِلَّةُ أزوَاجِهِ وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأَوَّلين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأُمراء ، وَأنتم الوزراء ، لاَ تُفتَاتونَ بِمَشُورَةٍ وَلاَ تُقضَى دونكم الأمُورُ» .

«هذه رواية الطبرى لتلك الخطبة ، وَأوردها غيره بنص آخر ، وَهاكه »

نص آخر لخطبة أبى بكر يوم السقيفة

حمد الله وَأثنى عليهِ ، ثمَّ قال :

«أيها الناس : نحن المهاجرين ، أَوَّل الناس إسلامًا ، وَأكرمهم أحسابًا ، وَأَوسطُهُم دارًا ، وَأَحسَنُهُم وجوهًا ، وَأكثرُ الناس وَلادةً فى العرب ، وَأَمَسُّهمُ رَحِمًا برسول الله ﷺ ، أَسلَمنَا قبلكم ، وَقُدِّمنا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى :

(١) النجر : نحت الخشب . (٢) زرى عليه زراية عابه .

(٣) شنف له كفرح أبغضه وتنكره فهو شنف .

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ فنحن المهاجرون وَأنتم الأنصار ، إخوانَنا فى الدين ، وَشركَاؤنا فى الفىء[1] وَأنصارنا على العدو ، آوَيتم وَوَاسيتم ، فجزاكم الله خيرًا ، فنحن الأُمراء وَأنتم الوزراء ، لاَتدين العَرَبُ إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تَنفَسُوا[2] على إخوانكم مامنحهم الله من فضله» .

خطبة بشير بن سعد

فقام بشير بن سعد - أبو النعمان بن بشير - فقال :

«يامعشر الأنصار ، إنا والله لَئن كُنَّا أُولِي فضيلة فى جهاد المشركين ، وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا به إلاَّ رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكدحَ لأنفسنا ، فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى به من الدنيا عَرَضًا ، فإنَّ الله وَلِىُّ المِنَّةِ علينا بذلك ، ألا إن محمدًا ﷺ من قريش ، وقومُهُ أَحَقُّ به وأولى ، وايم الله لا يرانى الله أُنازعهم هذا الأَمرَ أبدًا ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم»

فقال أبو بكر : هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيّهما شئتم فبايعوا ، فقالا لا والله لا نتولى هذا الأَمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذا هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدّمك ، أو يتولى هذا الأَمر عليك ، ابسط يدك نبايعك ، وقام الناس إليه فبايعوه .

وانتهى هذا الحوار بين المهاجرين والأنصار بمبايعة أبى بكر بالخلافة بعد وفاة النبى ﷺ دون أن نرى فى هذا الحوار كلمة نابية أو عبارة جارحة ؛ لأنه حوار صادر عن أخيار عقلاء ، لا عن جهلاء سفهاء .

والمتأمل فى هذه الخطب التى قالها هؤلاء الأخيار العقلاء يوم السقيفة بعد وفاة الرسول ﷺ يرى أصحابها كل واحد منهم يطلب شيئا يعتقد أنه من حقه ، ولكن بأسلوب مهذب كريم ليس فيه سعة تطاول أو تحاسد أو سوء ظن . . .

---

(١) الغنيمة والخراج .

(٢) نفس عليه بخير (كفرح) حسده ، ونفس عليه الشىء نفاسة لم يره أهلاً له .

وقد انتهى هذا الحوار الحكيم بأن بايع المهاجرون والأنصار أبا بكر رضي الله عنه بالخلافة بعد أن لحق الرسول ﷺ بخالقه -عز وجل- .

* * *

(ى) ومن المكاتبات التى فيها طابع الحوار القديم ، والرد الحكيم ، تلك الرسالة التى كتبها أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب ، وقد رد عليهما عمر- رضي الله عنه - ردا يدل على نقاء فطرته ، وعظيم تواضعه ، وتقبله للنصيحة بقلب سليم ، وكان نص رسالتهما كالآتى[1] :

«من عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل . أما بعد : فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهم ، وأنك ياعمر أصبحت وقد وليت أمر أمة محمد ﷺ أحمرها وأسودها ، يقعد بين يديك الصديق والعدو ، والشريف والوضيع ، والقوى والضعيف ، ولكلٍّ عليك حق وحصة من العدل - أى : ونصيب من العدل - ، فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك ، وإنا نذكرك يوما تبلى فيه السرائر - أى : تختبر وتظهر فيه السرائر - ، وتكشف فيه العورات ، وتذل فيه الوجوه لملك قاهر . . .

وإنا نعوذ بالله أن تُنزِل كتابنا من قلبك سوى المنزل الذى نزل من قلوبنا ، فإنا إنما كتبنا إليك نصيحة لك . . والسلام .

فرد عليهما عمر - رضى الله عنه - بقوله «من عبد الله عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل سلام عليكما . وإنى أحمد إليكما الله الذى لا إله إلا هو . وأوصيكما بتقوى الله . . . وقد بلغنى كتابكما تذكران فيه أنكما عهدتمانى وأمر نفسى لى مهم فما يدريكما ؟ وهذه تزكية منكما لى .

وتذكران أنى وليت أمر هذه الأمة ، يقعد بين يدى الصديق والعدو . . ولكل حصته من العدل . وكتبتما أن أنظر كيف أنت ياعمر عند ذلك ؟ وأنه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك إلا بالله . وكتبتما تخوفانى يوما هو آت ، وذلك باختلاف الليل والنهار ، فإنهما يُبليان كل جديد ، ويقربان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود حتى يأتيا

(١) راجع كتاب : «جمهرة رسائل العرب» جـ١ ص١٥٩ للأستاذ أحمد زكى صفوت - رحمه الله .

بيوم القيامة الذى تكشف فيه العورات ، وتعنو فيه الوجوه لعزة مَلِك قهرهم بجبروته ، فالناس له صاغرون يخافون عقابه . . وذكرتما أنه بلغكما أنه يكون فى هذه الأمة رجال يكونون إخوان العلانية أعداء السريرة ، فليس هذا بزمان ذلك ، وإنما ذلك فى آخر الزمان إذا كانت الرغبة والرهبة ، رغبة الناس بعضهم إلى بعض وكتبتما تعوذاننى بالله أن أنزل كتابكما منى سوى الذى نزل من قلوبكما ، وإنما كتبتما نصيحة لى ، وقد صدقتما ، فتعهدانى منكما بكتاب آخر ، ولا غنى بى عنكما ، والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته » .

* * *

(ك) كذلك من صور المحاورات النافعة والحكيمة ، ما جرى بين سعد بن أبى وقاص - رضي الله عنه - وبين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فقد كان سعد - رضي الله عنه - قائدًا لجيوش المسلمين فى الحروب التى دارت بينهم وبين الفرس فى كثير من المعارك ، وأخذ سعد - رضي الله عنه - كلما انتقل من معركة إلى أخرى يستشير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ويصف له ساحة المعركة ، كما يصف له عدد الأعداء ، ومبلغ مقاومتهم . . .

فلما حانت معركة «القادسية» أرسل إلى عمر - رضي الله عنه - كتابا يصف له فيها مكانها وتضاريسها وما يحيط بها من أنهار وجبال ومن سكان منهم من يحب الفرس ومنهم من يكرههم . . .

وقد ختم سعد رضي الله عنه بعض كتبه إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بقوله : «فهم- أى : الفرس - يحاولون إنفاضنا - أى : تحريكنا من أماكننا - وإقحامنا ، ونحن نحاول إنفاضهم وإبرازهم - من أماكنهم - ، وأمرُ الله بعدُ ماض ، وقضاؤه مُسَلِّم إلى ما قُدِّر لنا وعلينا ، فنسأل الله خير القضاء ، وخير القدر فى عافية»[1] .

وقد رد عمر رضي الله عنه على سعد بن أبى وقاص ، بعدة رسائل ، كان من بينها هذه الرسالة الجامعة لأنواع من الإرشادات السامية ، والتوجيهات الحكيمة ، والنصائح الغالبة التى لاتصدر إلا عمن رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وقد جاء فى هذه الرسالة قوله : « أما

(١) راجع كتاب «جمهرة رسائل العرب» جـ١ ص٢٣٣ للأستاذ أحمد زكى صفوت - رحمه الله - .

بعدُ : فإني آمُرُك ، ومَن معك من الأجناد بتقْوَى الله على كل حال ، فإنَّ تَقْوَى الله أفضلُ العُدّة على العدو ، وأقوى المَكِيدة في الحرب ، وآمُرُك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوبَ الجيش أخوفُ عليهم من عدوهم ، وإنما يُنْصَر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عَدَدنا ليس كعَدَدهم ، ولا عُدّتنا كعدّتهم ، فإن استَوَينا في المعصية ، كان لهم الفضلُ علينا في القوّة ، وإلاّ نُنْصَر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوّتنا ، فاعلموا أن عليكم في سَيركم حَفَظَةً من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيُوا منهم ، ولا تَعمَلوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا : إن عدونا شرٌّ منا ، فلن يُسَلَّط علينا ، فرُبَّ قوم سُلِّط عليهم شرٌّ منهم ، كما سُلِّط على بني إسرائيل - لَما عَملوا بمَساخط الله - كُفَّارُ المَجُوس ، فَجاسُوا خلال الدِّيَار ، وكانَ وَعداً مَفعُولاً ، واسألُوا الله العَونَ على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم .

وتَرَفَّق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تُجَشِّمهم مَسِيرًا يتْعِبهمْ ، ولا تُقصّر بهم عن مَنزل يرفُق بهم ، يبلغوا عدوّهم (والسَّفَرُ لم يَنقُص قوّتَهم) فإنهم سائرون إلى عدو مُقيم ، حَامِي الأنفُس والكُراع[1] ، وأقم بمن معك في كل جمعة يومًا وليلة ، حتى تكون لهم راحَةً يُحيُون فيها أنفسَهم ، ويَرُمُّونَ[2] أسلحتهم وأمتعتهم ، ونَحِّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذِّمّة فلا يدخُلها من أصحابك إلا من تَثِقُ بدينه ، ولا يَرزأ[3] أحدًا من أهلها شيئًا ، فإن لهم حُرمةً وذِمّةً أبتليتم بالوفاء بها ، كما ابتُلُوا بالصبر عليها ، فما صَبَرُوا لكم فَتولّوهم خيرًا ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وَطِئتَ أَرضَ العدوّ فأَذكِ[4] ، العُيُونَ بينك وبينهم ، ولا يَخفَ عليك أمرهم ، وليكن عندك العَرب أو من أهل الأرض مَن تطمئنّ إلى نُصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خبَرُهُ ، وإن صَدَقَك في بعضه ، والغاشّ عَين عليك ، وليس عينا

(١) الكراع من كل شيء طرفه ، واسم يجمع الخيل .
(٢) رمه كضرب ونصر : أصلحه .
(٣) رزاه ماله : أصاب منه شيئًا .
(٤) أذكى عليه العيون : أرسل عليه الطلائع .

لك ، وليكن منك عن دُنُوّك من أرض العدو أَنْ تكْثِر الطلائع ، وتَبُثّ السَّرايا[1] بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومَرَافِقَهم وتَتَّبع الطلائعُ عَورَاتِهم ، وتَنَقّ[2] للطلائع أهلَ الرأى والبأس من أصحابك ، وتَخَيَّر لهم سوابِقَ الخيل ، فإن لَقُوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمرَ السرايا إلى أهل الجِهاد ، والصَّبرِ على الجلاد ، ولا تَخُصَّ بها أحدًا بَهوًى فتضيّعَ من رأيك وأمرك أكثرَ مما حَابَيتَ به أهل خاصّتك ، ولا تبعَثَنَّ طَلِيعةً ، ولا سَرِيّةً فى وجه تتخوّف فيه غَلَبَة أو ضَيعةً أو نكاية ، فإذا عاينتَ العدو ، فاضمُم إليك أقاصِيَك وطلائِعَك وسَرَاياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوَّتك ، ثم لا تعاجِلهم المناجَزَةَ ، ما لم يستكرِهك قتال ، حتى تُبصِرَ عَورة عدوك ومَقَاتِلَه ، وتَعرِفَ الأرضَ كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصُنعه بك ، ثم أَذكِ أحراسَك على عسكرك ، وتيقَّظ من البَيات جُهدَك ، ولا تُؤْتَى بأسير ليس له عَقد[3] إلا ضربتَ عُنُقه ، لِتُرهِبَ به عدوَّ الله وعدوك ، والله ولىُّ أمرك ومن معك ، وولىُّ النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان » .

* * *

(ل) ومن أجمل المكاتبات وأفضلها وأنفعها تلك التى كتبها عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبى موسى الأشعرى ﷺ بعد أن ولاه إمارة البصرة وقضاءها .

ويبدو أن أبا موسى كان يكتب إلى عمر – رضى الله عنهما – فى أمور تتعلق بعمله ليأخذ رأيه فيها ، فكان عمر يرد عليه ردودا تارة مختصرة وتارة مطولة . . . كما أنه ﷺ بعد أن تخلى عتبة بن غزوان والمغيرة بن شعبة عن ولاية البصرة ، كتب إلى أهلها كتابا يبلغهم فيه بأنه قد عين أبا موسى الأشعرى ليكون أميرا عليهم وقد جاء فى الكتاب الذى أرسله إليهم :

«أما بعد : فإنى قد بعثت أبا موسى أميرا عليكم ليأخذ لضعيفكم من قويكم ، وليقاتل بكم عدوكم ، وليدفع عن ذمتكم ، ليحصى لكم فيئكم ثم ليقسمه بينكم ، ولينقى لكم طرقكم»

---

(1) سرية كغنية : وهى القطعة من الجيش .
(2) تنقاه وانتقاه : اختاره . (3) عهد .

ومن الكتب التى أرسلها إلى أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه ذلك الكتاب الذى جاء فيه[1] :

«أما بعد : فإن للناس نفرة عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركنى وإياك عمياء مجهولة - أى : ضلالة مجهولة - ، وضغائن محمولة ، وأهواء متبعة ، ودنيا مُؤثَرة ، وإذا عرض لك أمران : أحدهما لله والآخر للدنيا ، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى ، وأخف الفساق واجعلهم يدًا يدا ، ورِجلاً رجلا - أى : قيد أيديهم وأرجلهم بالقيود - .

وعُد مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح بابك لهم ، وباشر أمرهم بنفسك ، فإنما أنت امرؤ منهم ، غير أن الله جعلك أثقلهم حملا .

وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشت لك ولأهل بيتك فاشية ، وهيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلُها ، فإياك ياعبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التى مرت بوادٍ خصب ، فلم يكن لها هِمةٌ إلا السِّمن ، وإنما حتفها فى السِّمَن .

واعلم أن للعامل مردا إلى الله ، فإذا زاغ العامل زاغت رعيته ، وأن أشقى الناس من شقيت به رعيته ، والسلام»

ويبدو أن أهل البصرة كثرت شكاواهم من أمرائهم ، وأن أبا موسى الأشعرى - رضي الله عنه - كان يبعث إلى عمر رسائل يلتمس فيها رأيه ، ويبين له وجهة نظره فى الأحداث التى كانت تجرى فى البصرة فى ذلك الوقت .

ومن أحكم الكتب والرسائل التى أرسلها عمر رضي الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى ، تلك الرسالة التى كتبها إليه فى أمور تتعلق بالقضاء بين الناس ، وقد جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن قيس : سلام عليك ، أما بعدُ : فإن القضاء فريضة مُحكَمة ، وسُنَّة مُتَّبَعة ،

---

(١) راجع هذا الكتاب ومابعده فى «جمهرة رسائل العرب» جـ١ ص٢٤٨ ومابعدها .

فافهَم إذا أُدلِيَ[1] إليك ، وانفُذ إذا تبيَّن لك ، فإنه لا ينفع تكلُّم بحَق لانفاذَ له ، آس[2] بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمَعَ شريف فى حَيفك[3] ، ولا ييأسَ ضَعيف من عدلك[4] ، البيِّنَةُ على من ادَّعَى واليمينُ على من أنكر ، والصلحُ جائز بين المسلمين ، إلا صلحًا أحَلَّ حرامًا ، أو حَرَّم حلالا ، ولا يمنعَنَّك قضاءٌ قضيتَه اليومَ[5] فراجَعتَ فيه عقلَك ، وهُديت فيه لِرُشدك ، أن ترجعَ إلى الحق[6] ، فإن الحق قديم ، ومُراجعَة الحق خير من التمادى فى الباطل .

الفهمَ الفهمَ فيما تَلَجلَج[7] فى صدرك مما ليس فى كتاب الله ولا سنة النبى ﷺ ، ثم اعرفِ الأشباهَ والأمثالَ ، فَقِسِ الأمورَ عند ذلك بنظائرها ، واعمِد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادَّعى . حقًا غائبًا أو بيِّنةً أمَدًا يَنتهى إليه ، فإن ذلك أَنفى للشك ، وأجلَى للعَمَى ، وأبلغُ فى العُذر .

المسلمون عُدُولٌ بعضُهم على بعض إلا مجلودًا فى حَدّ ، أو مجرَّبا عليه شَهادَةُ زور ، أو ظَنِينا[8] فى ولاء أو نَسَب ، فإن الله قد تولَّى منكم السرائر ، ودَرَأ[9] بالبينات والأيمان ، وإياك والغَلَق[10] ، والضَّجرَ ، والتأذِّىَ بالخصوم ، والتنكُّر عند الخصومات ،

---

(١) أدلى بحجته : احتج بها . (٢) آس : سوِّ بينهم ، وتقديره : اجعل بعضهم أسوة بعض .

(٣) أى فى ميلك معه لشرفه .

(٤) وفى البيان والتبيين والعقد الفريد : «ولا يخاف ضعيف من جورك» وفى صبح الأعشى : «ولا ييأس ضعيف من عونك» .

(٥) فى البيان والتبيين ، والعقد الفريد وصبح الأعشى وإعجاز القرآن : «بالأمس» .

(٦) فى البيان والتبيين والعقد الفريد «أن ترجع عنه» . (٧) تلجلج : تردد ، وأصل ذلك المضغة والأكلة يرددها الرجل فى فمه ، فلا تزال تتردد إلى أن يسيغها أو يقذفها ، والكلمة يرددها الرجل إلى أن يصلها بأخرى ، ويقال للعيى لجلاج ، ومن أمثال العرب : «الحق أبلج والباطل لجلج» أى يتردد فيه صاحبه فلا يصيب مخرجا .

(٨) ظنينًا : متهمًا ، وهو فعيل بمعنى مفعول من ظن المتعدية إلى واحد ، تقول ظننت زيدا وظننت بزيد أى اتهمته ، وفى قراءة «وَمَا هُوَ عَلَى الغَيبِ بِظَنِينٍ» وإنما قال عمر رضى الله عنه ذلك لما جاء عن النبى ﷺ : «ملعون ملعون من انتمى إلى غير أبيه ، أو ادعى إلى غير مواليه »

(٩) درأ : دفع . قال ﷺ : «ادرءوا الحدود بالشبهات» وفى البيان والتبيين : «ودرأ عنكم بالشبهات» وفى العقد الفريد : «ودرأ عنكم الهنات» .

(١٠) الغلق : ضيق الصدر وقلة الصبر ، وأصله من أغلق عليه أمره إذا لم يتضح ولم ينفتح ، ومن ذلك قولهم «غلق الرهن» كفرح : أى استحقه المرتهن ، وذلك إذا لم يفتكك فى الوقت المشروط ، وفى البيان والتبيين : «ثم إياك القلق والضجر ، والتأذى بالناس ، والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ، ويحسن بها الذخر ، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه ، يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه ، هتك الله ستره ، وأبدى فعله ، والسلام عليك » وكذا فى العقد الفريد .

فإن الحقَّ فى مواطِن الحق يُعظِم الله به الأجرَ ، ويُحسِن به الذُّخرَ ، فمن صحَّت نيتُه ، وأقبل على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومَن تخلق[1] للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه ، شانَه الله ، فما ظنُّك بثوابٍ عند الله[2] عزّ وجل فى عاجل رزقه . وخزائن رحمته ! والسلام» .

* * *

(م) ومن أبلغ المحاورات النافعة والحكيمة ، تلك التى حدثت بين عمر بن عبد العزيز ﷺ وبين بعض ولاته ، وقد جمعها المرحوم أحمد زكى صفوت فى كتابه القيم «جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهرة» المجلد الثانى من ص٣١٠ إلى ص٣٩٣ .

والمتأمل فى هذه المحاورات التى معظمها عن طريق المكاتبات ، يرى فيها كيف أن العقلاء عندما يتناقشون أو يتحاورون لا يقصدون إلا خدمة دين الله - تعالى - ، وخدمة ما ينفعهم وينفع أمتهم بالطرق التى أحلها الله - تعالى - .

ومن هذه الرسائل التى اشتملت على محاورات حكيمة ، تلك الرسالة التى كتبها عَدَى بن أرطأة والى البصرة إلى عمر بن عبد العزيز - أمير الدولة الأموية - فى ذلك الوقت ، فقد كتب إليه يقول : «أما بعد : أصلح الله أمير المؤمنين ، فإن قبلى أناسا من العمال قد اقتطعوا من مال الله - عز وجل - مالاً عظيما ، لست أرجو استخراجه من أيديهم ، إلا أن أَمسَّهم بشىء من العذاب ، فإن رأى أمير المؤمنين - أصلحه الله - أن يأذن لى فى ذلك أَفعَل »

وقد رد عليه عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - بقوله : «أما بعد : فالعجب كل العجب من استئذانك إياى فى عذاب بشر ، كأنى لك جُنَّةٌ - أى وقاية - من عذاب الله ، وكأن رضاى عنك ينجيك من سخط الله - تعالى - ، فانظر من قامت عليه بينةُ عُدول فخذه بما قامت عليه به البينة ، ومن أقر لك بشىء فخذه بما أقر به . ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخل سبيله . وايم الله لأن تلقوا الله - عز وجل - بخياناتهم ، أحبُّ إلىّ من أن ألقى الله بدمائهم ، والسلام » .

وكتب إليه عَدى بن أرطأة - أيضا - كتابا آخر قال فيه : «يا أمير المومنين : إنى بأرض قد كثرت فيها النِّعم حتى لقد أشفقتُ على مَن قِبَلى من المسلمين قلةَ الشكر

---

(١) أى تكلف وتصنع .

(٢) فى الكامل للمبرد «بثواب غير الله» وهو تحريف .

والضعف عنه» . فكتب إليه عمر ﷺ يقول : «إنى قد كنت أراك أعلمَ بالله . إن الله لم يُنعِم على عبد نعمةً فحمد الله عليها إلا كان حمدُه أفضلَ من نعمه . لو كنتَ لا تعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل . قال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

وقال - تعالى - : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) ﴾[2] .

وأى نعمة أفضل من دخول الجنة» .

وكتب إليه عدى بن أرطأة كتابا ثالثا يقول فيه : «أما بعد : فإن الناس قد كثروا فى الإسلام ، وخِفتُ أن يقل الخراج»

فكتب إليه عمر يقول : «فهمتُ كتابك ، والله لوددتُ أن الناس كلُّهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حَرَّاثَين نأكل من كسب أيدينا» .

وكتبت إليه كتابا آخر يقول فيه : «أما بعد : فيا عدى ، إذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم فاذكر قدرة الله عليك فى نفاد ما تأتى إليهم ، وبقاء مايُؤتَى إليك»[3] .

وكتب إليه عبد الحميد بن عبد الرحمن - أحد ولاته - كتابا يستأذنه فيه فى أشياء تتعلق بما يجرى بين الناس من أحداث ومشكلات . . .

فرد عليه عمر - ﷺ - بقوله : «إنه يُخَيَّل لى أنى لو كتبتُ لك أن تعطى رجلا شاة . لكتبتَ إلىّ تقول : أأعطيه إياها ذكرًا أم أنثى ؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما : لكتبتَ إلىّ : أأعطيه إياها صغيرة أم كبيرة ؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما لكتبتَ إلىّ : أضائنةً أم معزَى ؟ فإذا كتبتُ إليك فنفِّذ ولا ترد على . والسلام» .

---

(١) النمل : ١٥ . (٢) الزمر : آية ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) راجع هذه الكتب بالتفصيل فى كتاب : «جمهرة رسائل العرب» جـ٢ من ص٣١٣ إلى ص٣١٨

وكتب إليه عبد الحميد بن عبد الرحمن كتابا آخر يقول له فيه : «إن رجلا شتمك فأردت أن أقتله» فرد عليه عمر ﷺ بقوله : «لو قتلته لأقدتك به - أى : لقتلتك به - ، فإنه لايُقتلُ أحد بشتم أحد إلا رجل شتم نبيا» .

وكتب إليه عامله بالجزيرة «ميمون بن مهران» كتابا يلتمس منه إعفاءه من وظيفته قال فيه : «كلفتنى يا أمير المؤمنين ما لا أطيق ، كلفتنى أن أقضى بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف » فرد عليه عمر ﷺ : بقوله : «اجب الخراج الطيب ، واقصد بين الناس بما استبان لك من الحق ، فإذا التبس عليك أمر فارفعه إلىّ ، فإن الناس لو كانوا إذا ثقل عليهم أمر تركوه ، ما قام لهم دين ولا دنيا » .

وكتب إليه عامله بالمدينة المنوره «أبو بكر بن حزم» كتابًا يقول له فيه : «سلام عليك أما بعد : فإن أشياخًا من الأنصار قد بلغوا أسنانا ، ولم يبلغوا الشرف من العطاء ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يبلغ بهم الشرف من العطاء فليفعل » .

فرد عليه عمر بن عبد العزيز ﷺ بقوله : «سلام عليك . أما بعد : فقد جاءنى كتابك تذكر أن أشياخا من الأنصار قد بلغوا أسنانا ولم يبلغوا الشرف من العطاء ، وإنما الشرف شرف الآخرة ، فلا أَعرِفَنَّ ماكتبتَ به إلىّ فى نحو هذا »

وكتب إليه ابن حزم كتابا آخر يقول له فيه : «سلام عليك : أما بعد ، فإن بنى عدى بن النجار أخوال رسول الله ﷺ انهدم مسجدهم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لهم ببنائه فليفعل »

فرد عليه عمر بقوله :«جاءنى كتابك تذكر فيه أن بنى عدى بن النجار أخوال رسول الله ﷺ انهدم مسجدهم ، وقد كنت أحب أن أخرج من الدنيا لم أضع حجرا على حجر ولا لبنة على لبنة ، فإذا أتاك كتابى هذا فابنه لهم بلَبِن بناءً قصدا - أى : بناء لا إسراف فيه ولا تبذير - »

وكتب إليه عامله على خراسان «الجراح بن عبد الله» كتابا يقول له فيه : «يا أمير المؤمنين إنى قدمت خراسان فوجدت قوما قد أبطرتهم الفتنة ، فهم ينزون فيها نزوا-أى : فهم يثبون فيها وثبا - ليمنعوا حق الله ، وليس يكفهم إلا السيف والسوط ، وكرهت الإقدام على ذلك إلا بإذنك»

فرد عليه عمر ﷺ بقوله : «يا ابن أم الجراح : أنت أحرص على الفتنة منهم ، لا تضربن مؤمنا ولا معاهَدا سوطا إلا فى حق ، واحذر القصاص ، فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وتقرأ كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها» .

وكتب إليه بعض ولاته يقول : «إن الناس حين سمعوا بولايتك ، تسارعوا إلى أداء الزكاة ، فقد اجتمع من ذلك شىء كثير ، ولم أحب أن أحدث فيها شيئا حتى تكتب إلىّ برأيك »

فرد عليه عمر بقوله : «لعمرى ما وجدونى وإياك على ماظنوا ، ولماذا حبستها إلى اليوم ؟ أخرجها حين تنظر فى كتابى هذا» .

وكتب إليه بعض حجَبة البيت الحرام كتابا يطلبون منه أن يأمر للبيت الحرام - أى : الكعبة - بكسوة كما كان يفعل الذين من قبله . .

فكتب إليهم يقول : «إنى رأيت أن أجعل ذلك فى أكبادٍ جائعة ، فإنه أولى بذلك من البيت الحرام » .

هذه نماذج من المكاتبات والمحاورات التى دارت بين عمر بن عبد العزيز ﷺ وبين بعض ولاته . .

والمتأمل فيها يراها حافلة بالعظات الرقيقة ، وبالتوجيهات الحكيمة ، وبالمناقشات النافعة الحكيمة ، وهذا شأن العقلاء الراشدين فى محاوراتهم ومناقشاتهم ومكاتباتهم . ولقد كتب ﷺ بعد أن تولى الخلافة إلى الحسن البصرى ، يطلب منه فيه أن يصف له الحاكم العادل ، فكتب إليه الحسن - رحمه الله - عدة كتب فى ذلك ، كان من بينها هذا الكتاب :

«اعلم يا أمير المؤمنين أن الله - تعالى - قد جعل الإمام العادل قِوام كل مائل ، وقَصد[1] كلِّ جائر ، وصَلاحَ كل فاسد ، وقوّة كل ضعيف ، ونَصَفةَ[2] كل مظلوم ، ومَفزَعَ كل ملهوف والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتادُ لها أطيب المَرعَى ، ويَذُودها عن مراتع الهَلَكَة ، ويَحميها من السباع ، ويَكنُفها من أذى الحرّ والقَرّ[3] ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على

(١) هداية ورشاد . (٢) اسم من الإنصاف (٣) مثلث القاف : البرد .

ولده ، يسعى لهم صغارًا ، ويعلمهم كبارًا ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدَّخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البَرَّة الرَّفيقة بولدها ، حَمَلَته كُرها ، ووضعته كُرها ، وربَّته طفلاً ، تسهرَ بسهره ، وتسكُن بسكونه ، تُرضِعُه تارة ، وتَفطمه أخرى ، وتفرحُ بعافيته ، وتغتمُّ بشكايته . والإمام العدل ياأمير المؤمنين وَصِىُّ اليتامى ، وخازن المساكين ، يُرَبِّى صغيرهم ، ويَمُون كبيرهم . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تَصلُح الجوانحُ بصلاحه ، وتَفسُد بفساده . والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يَسمَع كلام الله ويُسمِعهم ، وينظر إلى الله ويُريهم ، وينقادُ إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفَظه ماله وعيالَه ، فبَدَّد المال ، وشَرَّد العيال ، فأفقرَ أهله ، وفرَّقَ ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدودَ ليَزجُر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها مَن يَليها ؟ وأن الله أنزل القصاصَ حَياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم مَن يقتصُّ لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلَّةَ أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزوَّد له ، ولَما بعدَه من الفَزَع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، يَطُول فيه ثَواؤك ، ويفارقك أحبَّاؤك ، ويُسلمونك فى قَعره فَريدًا وحيدًا ، فتزوَّد له ما يصحَبُك يَومَ يَفِرُّ المَرءُ مِن أَخِيه ، وَأُمِّه وَأَبِيه ، وَصَاحبَتِه وَبَنِيه . واذكر يا أمير المؤمنين إذَا بُعثر ما فى القبور ، وحُصِّلَ ما فى الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتابُ لايُغَادِرُ صَغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ، فالآنَ ياأمير المؤمنين وأنت فى مَهَل ، قبلَ حُلولِ الأجل ، وانقطاع الأمل ، لاتَحكم يا أَمِيرَ الْمُؤمنِينَ فى عِبَادِ الله بحُكم الجاهلين ، ولا تسلُك بهم سبيلَ الظالمين ، ولا تسلِّط المستكبرين على المستضعَفين ، فإنهم لايَرقُبون فى مُؤمِن إلاًّ[1] ولا ذمةً ، فتبوءَ بأوزارك ، وأوزار مع أوزارك ، وتحملَ أثقالَك ، وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرَّنك الذين يتنعمون بما فيه بُؤسُك ، ويأكلون الطيباتِ فى دنياهم بإذهاب طيِّبَاتكَ فى آخرتك ، لاتنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غدا ، وأنت مأسورٌ فى حَبائل الموت ، وموقوفٌ بين يدى الله فى مَجمَع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عَنَت[2] الوجوهُ للحى القيوم . إنى يا أمير المؤمنين ، إن لم أبلغ بعِظَتى ما بَلَغَهُ أُولو النُّهَى من قبلى فلَم آلُكَ[3] شفقةً

---

(١) عهدا . (٢) خضعت وذلت (٣) لم أقصر .

ونصحا ، فأنزل كتابى إليك كمُداوى حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة ، لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

ولقد توالت الكتب بين أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وبين الحسن البصرى ، حتى أنه لما قرأ بعض كتبه ، بكى وانتحب حتى رق له من كان عنده ، وقال : «يرحم الله الحسن فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة ، وينبهنا من الغفلة ، ولله هو من مشفق ، ما أنصحه ، ومن واعظ ما أصدقه وأفصحه» .

وكتب إليه يقول : «وصلت مواعظك النافعة فاشفيتُ بها ، ولقد وصفتَ الدنيا بصفتها ، والعاقل من كان فيها على وجل ، فكان كل من كُتِب عليه الموتُ من أهلها قد مات . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

فلما وصل كتابه إلى الحسن قال : «لله أمير المؤمنين من قائل حقا ، وقابل وعظا ، لقد أعظم الله - جل ثناؤه - بولايته المنة ، ورحم بسلطانه الأمة ، وجعله بركة ورحمة» .

* * *

(م) ومن محاورات العقلاء فيما بينهم : تلك التى كانت تدور بين العلماء الأخيار على اختلاف تخصصاتهم وثقافاتهم . .

ولقد تحدث فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله - فى كتابه : «تاريخ الجدل» ص٢٢١ عن بعض المحاولات التى كانت تدور بين أهل الرأى وأهل الحديث فقال :

اشتدت المجادلة بين أهل الرأى وأهل الحديث ، ولكنها مجادلة منشؤها طريقة الدراسة لا الهوى ، كلهم يطلب الحق ، وكلهم يسعى إليه . ولكن اختلاف الطرق شعب الأنظار ، وأوجد ذلك الاختلاف فى الفروع ، انظر إلى تلك المناقشة بين أبى حنيفة وهو من أهل الرأى ، والأوزاعى وهو من أئمة الحديث كما روى سفيان بن عيينة إذ قال :

اجتمع أبو حنيفة والأوزاعى فى دار الخياطين بمكة المكرمة . فقال الأوزاعى لأبى حنيفة : مالكم لا ترفعون أيديكم عند الركوع ، وعند الرفع منه ، فقال أبو حنيفة لأجل أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة ، وعند الركوع ، وعند الرفع . قال : كيف ؟ وقد حدثنى الزهرى عن سالم عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة وعند الركوع وعند الرفع ، فقال أبو حنيفة : حدثنا

حماد عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ، ولايعود إلى شيء من ذلك . فقال الأوزاعى : أحدثك عن الزهرى عن سالم عن أبيه ، وتقول حدثنى حماد عن إبراهيم . فقال أبو حنيفة : كان حماد أفقه من الزهرى ، وكان إبراهيم أفقه من سالم . وعلقمة ليس بدون ابن عمر ، وإن كان لابن عمر صحبة أو له فضل صحبة فالأسود له فضل كثير .

تعطيك هذه المناقشة أن الاثنين اتفقا فى العمل بالحديث ، ولكن أبا حنيفة لاحظ أولا فقه الرواة .

وكانت المناظرة بريئة لا يقصد بها إلا إحقاق الحق ، وكلهم من نور الشريعة مقتبس . واقرأ الرسائل التى كانت بين الإمام مالك والليث تجد الخلاف في وجهة النظر مع أدب المناقشة وحسن المودة وسعة الصدر التى امتاز بها العلماء المحققون ، بيد أنا نقول إن كراهة رجال الحديث للرأى وتخوفهم منه جعل لسان كثير منهم ينزلق إلى مذمته ، وينال رشاش منه القائلين به ، وانظر إلى قول الشعبى لداود : احفظ عنى ثلاث : إذا سئلت عن مسألة ، فأجبت فيها ، فلا تتبع مسألتك أرأيت ، فإن الله قال فى كتابه : «أرأيت من اتخذ إلهه هواه» حتى فرغ من الآية . والثانية إذا سئلت عن مسألة فلاتقس شيئا بشيء ، فربما حرمت حلالا أو حللت حراما ، والثالثة إذا سئلت عما لا تعلم فقل لا أعلم[1] . وقال أيضا : والله لقد بغض هؤلاء القوم إلى المسجد ، قيل ومن هم يا أبا عمر قال الأرأتيون[2] .

* * *

(ع) ونختتم حديثنا عن حوار العقلاء الأخيار فيما بينهم ، بتلك المحاورة التى دارت بين الليث بن سعد - فقيه مصر فى زمانه - وبين إمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس ، وكان قد حدث بينهما خلاف فى بعض المسائل الفقهية . فكتب الليث بن سعد هذه الرسالة إلى الإمام مالك - رحمهما الله ، وسنثبتها كاملة مع طولها ، لما فيها من الأدب الرفيع ، والنقاش السديد ، وإنزال الناس منازلهم من الاحترام لآرائهم وأفكارهم . قال الليث فى رسالته للإمام مالك - رحمهما الله - :

(١) الموافقات للشاطبى

(٢) يقصد بذلك أهل الرأى لكثرة تفريعهم المسائل وكانوا يقولون أرأيت لو حصل كذا ، أرأيت لو كان كذا .

سلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد ، عافانا الله وإياك ، وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا والآخرة ، قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى ، فأدام الله ذلك لكم ، وأتمه بالعون على شكره ، والزيادة من إحسانه . وذكرت نظرك فى الكتب التى بعثت بها إليك ، وإقامتك إياها ، وختمك عليها بخاتمك ، وقد أتتنا ، فجزاك الله عما قدمت منها خيرًا ، فإنها كتب انتهت إلينا عنك ، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها ، وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتانى عنك إلى ابتدائى بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندى موضع ، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلا ، إلا أنى لم أذاكرك مثل هذا . وأنه بلغك أنى أفتى الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وإنى يحق على الخوف على نفسى لاعتماد من قبلى على ما أفتيتهم به ، وإن الناس تبع لأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن الكريم ، وقد أصبت بالذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحدًا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولاأشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى . والحمد لله رب العالمين الذى لا شريك له . وأما ما ذكرت من مقام رسول الله ﷺ بالمدينة ، ونزول القرآن الكريم بها عليه بين ظهرانى أصحابه ، وما علمهم الله منه ، وأن الناس صاروا تبعا لهم فيه فكما ذكرت ، وأما ماذكرت من قول الله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾ .

فإن كثيرًا من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، فجندوا الأجناد ، واجتمع إليهم الناس ، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ، ولم يكتموهم شيئا علموه ، وكان فى كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة ، وأقرهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ، ولا غافلين عنهم ، بل كانوا فى الأمر اليسير ، ولإقامة الدين ، والحذر

من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمرًا فسره القرآن ، أو عمل به النبي ﷺ أو ائتمروا فيه بعده إلا علموهموه ، فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله ﷺ بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه ، حتى قبضوا لم يأمروهم بغيره ، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرًا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم ، مع أن أصحاب رسول الله ﷺ قد اختلفوا بعده في الفتيا في أشياء كثيرة ، ولولا أني قد عرفت أن قد علمتها كتبت بها إليك ، ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم- ، سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف ، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم فحضرتهم بالمدينة وغيرها ورأسهم يومئذ ابن شهاب ، وربيعة بن أبي عبد الرحمن ، وكان من خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى ماقد عرفت وحضرت وسمعت قولك فيه وقول ذي الرأي من أهل المدينة يحيى بن سعيد . وعبيد الله بن عمر وكثير بن فرقد وغيرهم كثير ممن هو أسن منه ، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه ، وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيت به على ربيعة من ذلك فكنتما الموافقين فيما أنكرت ، تكرهان منه ما أكرهه ، ومع ذلك أحمد الله عند ربيعة خير كثير ، وعقل أصيل ، ولسان بليغ ، وفضل مستبين ، وطريقة حسنة في الإسلام ، ومودة صادقة لإخوانه عامة ولنا خاصة ، رحمه الله وغفر له ، وجزاه أحسن من عمله ، وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه ، وإذا كاتبه بعضنا ، فربما كتب إليه في الشيء الواحد على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضا ، ولا يشعر بالذي مضى من رأيه في ذلك . فهذا الذي يدعوني إلى ترك ما أنكرت تركي إياه ، وقد عرفت أيضا عيب إنكاري إياه أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر ، ومطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله ، لم يجمع منهم إمام قط في ليلة مطر ، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل . وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم – قال أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل . ويأتي معاذ يوم القيامة بين يدي العلماء برتوة (خطوة) وشرحبيل بن حسنة ، وأبو الدرداء ، وبلال بن رباح ، وكان أبو ذر بمصر ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وبحمص سبعون من أهل بدر ، وبأجناد المسلمين كلها . وبالعراق ابن مسعود

وحذيفة بن اليمان ، وعمران بن حصين . ونزلها أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه سنين ، وكان معه من أصحاب رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم- ، فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قط . ومن ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق ، وقد عرفت أنه لم يزل يقضى بالمدينة به ، ولم يقض أصحاب رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم- بالشام وبحمص ولا بمصر ولا بالعراق ، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ثم ولى عمر بن عبد العزيز ، وكان كما قد علمت فى إحياء السنن والجد فى إقامة الدين ، والإصابة فى الرأى ، والعلم بما قد مضى من أمر الناس ، فكتب إليه رزيق بن الحكم إنك كنت تقضى بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق ، فكتب إليه إنا كنا نقضى بذاك بالمدينة ، فوجدنا أهل الشام على غير ذلك ، فلا تقض إلا بشهادة رجلين عدلين ، أو رجل وامرأتين ، ولم يجمع بين المغرب والعشاء قط ليلة المطر ، والمطر يسكب عليه فى منزله الذى كان فيه بخناصرة ساكنا . ومن ذلك أن أهل المدينة يقضون فى صدقات النساء أنها متى شاءت أن تتكلم فى مؤخر صداقها تكلمت ، فدفع إليها ، وقد وافق أهل العراق أهل المدينة على ذلك ، وأهل الشام ، وأهل مصر ، ولم يقضِ أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولا من بعدهم لامرأة بصداقها المؤخر ، إلا أن يفرق بينهما موت أو طلاق ، فتقوم على حقها . ومن ذلك قولهم فى الإيلاء أنه لا يكون عليه طلاق ، حتى يوقف وإن مرت الأربعة الأشهر .

وقد حدثنى نافع عن عبد الله بن عمر وهو الذى كان يروى ذلك التوقيف بعد الأشهر أن الإيلاء الذى ذكر الله فى كتابه لا يحل للمولى إذا بلغ الأجل إلا أن يفىء كما أمر الله أو يعزم الطلاق ، وأنتم تقولون إن لبث بعد الأربعة الأشهر التى سن الله فى كتابه ولم يوقف لم يكن عليه طلاق ، وقد بلغنا أن عثمان بن عفان ، وزيد بن ثابت ، وقبيصة بن ذؤيب ، وأبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف . قالوا فى الإيلاء إذا مضت الأربعة الأشهر فهى تطليقة بائنة ، وقال سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام وابن شهاب إذا مضت الأربعة الأشهر فهى تطليقة ، له الرجعة فى العدة ، ومن ذلك أن زيد بن ثابت كان يقول إذا ملك الرجل امرأته فاختارت زوجها فهى تطليقة ، وإن طلقت نفسها ثلاثا فهى تطليقة ، وقضى بذلك عبد الملك بن مروان ، وكان ربيعة

ابن عبد الرحمن يقوله وقد كان الناس يجتمعون على أنها إن اختارت زوجها لم يكن فيه طلاق ، وإن اختارت نفسها واحدة أو اثنتين كانت له عليها الرجعة ، وإن طلقت نفسها ثلاثا بانت منه ، ولم تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، فيدخل بها ، ثم يموت أو يطلقها إلا أن يرد عليها فى مجلسه فيقول إنما ملكتك واحدة ، فيستحلف ويخلى بينه وبين امرأته . ومن ذلك أن عبد الله بن مسعود كان يقول ، أيما رجل تزوج أمة ثم اشتراها زوجها فاشتراؤه إياها ثلاث تطليقات . وكان ربيعة يقول ذلك . وإن تزوجت المرأة الحرة عبداً ، فاشترته فمثل ذلك . وقد بلغنا عنكم شىء من الفتيا مستكرها ، وقد كتبت إليك فى بعضها فلم تجبنى فى كتاب ، فتخوفت أن تكون استثقلت ذلك ، فتركت الكتاب إليك فى شىء مما أنكره ، وفيما أوردت فيه على رأيك ، وذلك أنه بلغنى أنك أمرت زفر بن عاصم الهلالى حين أراد أن يستسقى أن يقدم الصلاة قبل الخطبة ، فأعظمت ذلك ، لأن الخطبة فى الاستسقاء كهيئة يوم الجمعة إلا أن الإمام إذا دنا من فراغه من الخطبة ، فدعا ، حول رداءه ثم نزل فصلى ، وقد استسقى عمر بن عبد العزيز وأبو بكر محمد بن عمرو بن حزم ، وغيرهما ، فكلهم يقدم الخطبة والدعاء قبل الصلاة ، فاستهتر الناس كلهم فعل زفر بن عاصم من ذلك واستنكروه . ومن ذلك أنه بلغنى أنك تقول فى الخليطين فى المال أنه لاتجب عليهما الصدقة ، حتى يكون لكل واحد منهما ما تجب فيه الصدقة ، وفى كتاب عمر بن الخطاب أن يجب عليهما الصدقة ، ويترادان بالسوية . وقد كان ذلك يعمل به فى ولاية عمر بن عبد العزيز قبلكم ، وغيره ، والذى حدثنا به يحيى ابن سعيد ولم يكن بدون أفاضل العلماء فى زمانه ، فرحمه الله ، وغفر له ، وجعل الجنة مصيره . ومن ذلك أنه بلغنى أنك تقول إذا أفلس الرجل ، وقد باعه رجل سلعة ، فتقاضى من ثمنها ، أو أنفق المشترى طائفة منها أنه يأخذ ماوجد من متاعه ، وكان الناس على أن البائع إذا تقاضى من ثمنها شيئا ، أو أنفق المشتري منها شيئا ، فليست بعينها ، ومن ذلك أنك تذكر أن النبى ﷺ وعلى آله وسلم- لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد ، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ومنعه الفرس الثالث ، والأمة كلهم على هذا الحديث ، أهل الشام ، وأهل مصر ، وأهل العراق ، وأهل أفريقية لا يختلف فيه اثنان ، فلم يكن ينبغى لك وإن كنت سمعته من رجل مرضى أن تخالف الأمة أجمعين . وقد تركت أشياء كثيرة من أشباه هذا ، وأنا أحب توفيق الله إياك ، وطول

بقائك لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك مع استئناسى بمكانك ، وإن نأت الدار ، فهذه منزلتك عندى ، ورأيى فيك فاستيقنه ، ولا تترك الكتاب إلىّ بخبرك وحالك ، وحال ولدك وأهلك ، وحاجة ، وإن كانت لك ، أو لأحد يوصل لك ، فإنى أسر بذلك ، كتبت إليك ونحن صالحون معافون ، والحمد لله ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا ، وتمام ما أنعم به علينا ، والسلام عليك ورحمة الله(١) .

* * *

(١) راجع كتاب «إعلام الموقعين» جـ٣ ص ٧٢ للإمام ابن القيم . و«تاريخ الجدل» ص٢٢٣ للمرحوم الشيخ محمد أبى زهرة .

وبعد : فهذه بحوث عن «أدب الحوار فى الإسلام» استقيناها من القرآن الكريم ، ومن السنة النبوية المطهرة ، ومن أقوال العلماء الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه وكان مقصدنا الأساسى من كتابتها : بيان أن شريعة الإسلام تفتح أبوابها للحوار الحكيم الذى يقوم على المنطق الصحيح وعلى الأدب الرفيع ، وعلى الحرية فى إبداء الرأى ولكن بعلم نافع ، وبفهم ثاقب ، وبكلام طيب ، وبقلب سليم من الغرور والتباهى والحسد والأنانية والانقياد للهوى وللمنافع الشخصية ولسوء الظن دون سبب معقول ، أو دليل مقبول . . .

وقد رأينا فى هذه المباحث أن الحوار بين الناس أمر محتم ، لأن الناس لا يستغنى بعضهم عن بعض فى معاملاتهم اليومية ، وفى شئونهم العامة التى تتعلق بمأكلهم ومشربهم وملبسهم ودوائهم وحقوقهم وواجباتهم . . .

كما رأينا أن الخلاف بين الناس فى مقاصدهم وغاياتهم وأفكارهم أمر محتم - أيضا - ومادام هذا الخلاف من أجل الوصول إلى الحق والعدل ، فمرحبا به ومرحى له .

كما رأينا أن للخلاف أسبابًا منها الواضح الجلى ، ومنها الباطن الخفى ، وأن شريعة الإسلام قد وضعت للحوار والجدال والنقاش أصولا وأسسا متى قام عليها كانت ثماره طيبة ، وكانت نتائجه حسنة .

وقد سقنا خلال هذه المباحث ألوانا ونماذج من المحاورات التى درات بين الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وبين أقوامهم ، والتى دارت حول وحدانية الله - عز وجل - ، وحول اليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب ، وحول القرآن الكريم وما قاله السفهاء بشأنه ، ومارد الخالق - عز وجل - به عليهم . .

كما ذكرنا أنواعا من المحاورات التى حدثت مع أهل الكتاب بصفة عامة ، ومع بنى إسرائيل بصفة خاصة ، ومع المنافقين الذين يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم .

كما تحدثنا عن تلك المحاورات التى أتت عن طريق السؤال والجواب ، وعن المحاورات التى حدثت بين الأخيار والأشرار ، وبين الأشرار فيما بينهم ، وبين الأخيار فيما بينهم وبين أهل الجنة وأهل النار .

ونسأل الله - تعالى - أن يجعل هذا العمل فى ميزان حسناتنا يوم نلقاه ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم

شيخ الأزهر

محمد سيد طنطاوى

القاهرة - صباح الأحد
٢٤ من ربيع الثانى سنة ١٤١٧ هـ
٨ من سبتمبر سنة ١٩٩٦م.

الفهرس